

المنافذ الثقافية

مجلة ثقافية فصلية مُحَكَّمة / العدد الواحد والخمسون / صيف / ٢٠٢٥

الأوديسة

عمر شبلي

الإسلام، عصية جديدة أم تيار في مواجهة العصبية القبلية؟

د. جهينا المصري

دلالات الأمثال الشعبية عند سلام الزاوي (شبح بريم نموذجاً)

د. زينب الحسيني

التفاعل بين المتغيرات الاجتماعية في اندماج اللاجئين السوريين

د. ميساء سليمان

"ناظم حكمت" الشاعر الإنسان!

د. سامي تراس

التأثير المتبادل بين اقتصاد قضاء بعلبك وهويته المكانية

د. راندة شمس

دور الشركات العائلية في التنمية الاجتماعية والاقتصادية

د. لانا موسى

المحاور الزمانية في الشعر العالمي

علي جعفر

التشكيلات السردية في الدراسة التاريخية

شادي القهوجي

الجريمة المعلوماتية بين الفعل والوسيلة

عبد الحفيظ سعد

ندوة "بين الورق والرقم حُلِّقت شهرزاد" للفايزة درّية فرحات

طباب الجامعة اللبنانية

Joelle Roumani Political Tension and Existential Angst in Pinter's & Mahfouz's drama

مجلة فصلية ثقافية محكمة

المنافذ الثقافية

العدد الواحد والخمسون / صيف / ٢٠٢٥

- موقف "المنافذ الثقافية"

من قضايا الانتماء الفكري
والأدبي والروحي

للأمة العربية والاستجابة
الإيجابية للتحدي



ISSN 2708-4302



9 772708 430007

المنافذ الثقافية
مجلة ثقافية فصلية محكمة تُعنى بأحوال الثقافة والفكر والأدب

العدد الواحد والخمسون - صيف 2025

رئيس التحرير
عمر محمد شبلي

نائب رئيس التحرير
أ. د. درية كمال فرحات

المدير المسؤول: علي حمود

الهيئة الثقافية والإدارية

د. هالة أبو حمدان	أ.د. عماد هاشم	د. علي أيوب
أ.د. عيدا زين الدين	أ.د. زهور شتوح (الجزائر)	أ.د. منى دسوقي
د. دلال مهنا الحلبي	د. رضا العليبي (تونس)	أ.د. جمانة أبو علي
د. منال شرف الدين	د. ندى الرمح	د. سميرة طليس
د. ربي شوكت محسن	د. أناند فرح	د. رولا الحاج حسن
د. زينب راضي	أ. سمر بجمد	أ. حكمت حسن
أ. سوزان زعيتر	أ.رانية مرعي	أ. مروان درويش
تدقيق لغوي: د. فاطمة البزال. د. سامي التراس / د. رثيفة الرزوق		
مسؤولة القسم الانكليزي: د. إيمان صالح		

اللجنة المحكّمة

أ.د. ديزيره سقال	أ.د. حمدة فرحات	أ.د. محمد فرحات
أ.د. فؤاد خليل	أ.د. لارا خالد مخول	أ.د. علي حجازي
أ.د. جمال زعيتر	أ.د. مها خير بك ناصر	أ.د. محمد عواد
أ.د. عائشة شكر	أ.د. أحمد رباح	أ.د. يوسف كيال
أ.د. ماغي عبيد	أ.د. سعيد عبد الرحمن	أ.د. درية فرحات

تصميم المجلة وإخراجها: دار النهضة العربية

ISSN 2708-4302



موقع المجلة الإلكتروني – www.al-manafeth.com

تطلب المجلة من دار النهضة العربية – بيروت – شارع جامعة بيروت العربية

للمراسلات: 00961 1 833 270

darnahdainfo@gmail.com

الاشتراكات السنوية:

لبنان للأفراد 20 دولار – للمؤسسات 40 دولار

باقي الدول العربية:

للأفراد 100 دولار – للمؤسسات 200 دولار

للمراسلات: chebli_omar@hotmail.com

almanafeth.2025@gmail.com

- 5.....عمر شبلي
- الإسلام عصبية جديدة أم تيار في مواجهة العصبية القبلية؟
- 11.....د. جهينا محمود المصري
- دلالات الأمثال الشعبية عند سلام الراسي (شيخ بريح أنموذجاً)
- 33.....د. زينب حبيب الحسيني
- التفاعل بين المتغيرات الاجتماعية في اندماج اللاجئين السوريين في لبنان وقدرتهم على الصمود
- 56.....د. ميساء عباس الحاج سليمان
- «ناظم حكمت» الشاعر الإنسان!
- 84.....د. سامي ترأس
- التأثير المتبادل بين اقتصاد قضاء بعلبك وهويته المكانية
- 99.....د. راغدة شمس
- دور الشركات العائلية في التنمية الاجتماعية والاقتصادية في محافظة لبنان الجنوبية خلال الأزمة الاقتصادية 2019-2024
- 127.....د. لانا جرجي موسى
- المحاور الرومانسية في الشعر العالمي
- 152.....علي خليل جعفر
- التشكيلات السردية في الدراسة التاريخية قراءة في مازقات الهوية كتاب «مسيحيو الشرق الأدنى في زمن الإصلاح الكاثوليكي» لبرنار هيرجيه نموذجاً
- 168.....شادي القهوجي
- تطور التأليف في الدرس الصرفي
- 189.....ريان حمادي
- أدب الجدران، اللوحات الجدارية
- 208.....غيد توفيق الذهبي

- «رجال في الشمس» و«أم سعد» لغسان كنفاني بين التأثير الآني والتشكيل الثقافي
- 228 هبة العوطة
- الأسرار البلاغية في التركيب اللغوي للآيات المتشابهة في القرآن الكريم
- 250..... نغم سلهب
- الجريمة المعلوماتية بين الفعل والوسيلة
- 271..... عبد الحفيظ حلمي سعد
- الأوضاع السياسية وأثرها في الأوضاع الاقتصادية في سوريا بين عامي 1963 و1970
- طارق سليمان دعبول
- 293..... أ.د. إبراهيم الحوت مشرفاً رئيساً أ.د. محمد علي القوزي مشرفاً مشاركاً
- مظاهر النهضة العلمية في مصر في العصر الفاطمي بين عامي 969 – 1172م
- فرج صالح الحمود الهلال
- 309..... أ.د. داوود قندولي مشرفاً رئيساً أ.د. محمد علي القوزي مشرفاً مشاركاً
- المؤثرات الاجتماعية بين المسلمين والصليبيين في العصور الوسطى
- ياسمين وحيد هلال
- 330..... أ.د. علي حلاق مشرفاً رئيساً أ.د. محمد علي القوزي مشرفاً مشاركاً
- نشاط ثقافي: ندوة الجامعة اللبنانية بعنوان «بين الورق والرقم خلقت شهرزاد» للقاصة الدكتورة
- درية فرحات
- 345..... مجموعة من طلاب الجامعة
- Political Tension and Existentialist Angst in the Drama of Harold Pinter and Isām Mahfūz
- 1..... Joelle Roumani
- The Impact of Synchronous Online Flipped Learning Approach on Improving Learners' Performance in Persuasive Essays
- 36..... Amina Mohammad Ali Kawtharani

الأوديسة

هي أقصر من الإلياذة، لا يزيد عدد أبياتها على اثني عشر بيتاً (24 أنشودة) إلا قليلاً. وهي تروي عودة أوليس (أو أوديسوس) بعد حرب طروادة، إلى بلاده إيتاكا، واستغرقت هذه العودة، نظراً لما اعترضها من أهوال وعقبات. زهاء عشرة أعوام. يفتتح المؤلف ملحمة باستلهم ربّات الشعر كما فعل في الإلياذة. ثم يحدثنا أنّ أبطال حرب طروادة من اليونان قد تفرّقوا فمات منهم من مات. وعاد إلى وطنه من بقي حيّاً. وبعدئذ يصوّر لنا أوليس وهو يرجع إلى بلاده، وقد سعد برؤية مدينة الأعداء تهوي تحت ضربات مواطنيه، لكنّه لا يكاد يستمتع بهذا الفوز حتى يصل بسفينته فوق صفحة البحر وتقفز به الأمواج في جزيرة «كاليسو» إحدى آلهات البحر فتعتقله عندها زمناً طويلاً ولا تلين لتوسّله حتى يأتيها أحد الآلهة فيأمرها بفكّ عقاب أوليس. بعد ذلك يتغيّر المنظر فينتقل بنا المؤلف إلى جزيرة إيتاكا حيث ترى جماعة من الشّباب الوقحاء قد احتلوا قصر أوليس طمعاً في الزّواج من امرأته وهي بنيلوبا الوفيّة الحكيمة ويسرفون في الاستمتاع بثروة زوجها الغائب وابنها الصّغير تنتيك من دون أن تملك الدّفاع عن نفسها أو الاحتفاظ بمالها.

وتتدخّل اثينة في الأمر وتنصح الشّاب تليماك أن يعدّ سفينته ويبحر للبحث عن والده، فيصل مدينة «بلوس» حيث يعلم أنّ أغامنون قد عاد فرأى زوجة كليمستراتد تزوّجت. فتغتاله مع زوجها الجديد. وينتقم ابنه أورست فيقتل والدته، وينتقل بعد إذن تليماك إلى مدينة إسبارطة، حيث يخبره مانيلاس أنّ أوليس قد حُجز في جزيرة كاليسو، ولا يجد تليماك بداً من العودة إلى قصر والده.

ثم يعود بنا المؤلف إلى أوليس، ويصف لنا جمال كاليسو ورشاقتها. ويصور لنا أوليس جالسا على الشاطئ في عزلة، لا يبالي بما يحوطه من فتنة، يرسل العبرات مدراراً.

«لا يرقأ له دمع» وحياته الحلوة يضنيها التأوه والأنين على العودة، إلى بلاده، ويرسم لنا المؤلف ألم كالبسو ولوعتها. وهي تدنو منه وتتنبئه بأنه حرّ، وأنه يستطيع إعداد العدة للرحيل. ولما كان أوليس بفطرتة حذرًا فانه يرتاب في كلامها فتقسم له بانها صادقة. ويجيبها أوليس بهدوء «انا أعلم أنّ العودة شاقّة وخطرة، وأعلم أنّ بنيولبا ليست إلّا امرأة، لا يمكن أن توازن بالهة، ولكنّ سروري الأوحد، رغم كلّ هذا، هو أنّ أعود إلى مسقط رأسي وتدرّك كالبسو أنّه مصرٌّ على فراقها وما إن يبحر أوليس حتى يغطّي البحر نقاب سميّك من الأبخرة وتحّدق بأوليس الأخطار، ويمسي مركبه وكأنّه ريشة في مهبّ الأعاصير، ولكنّه يلمح عن بُعد جزيرة توسية فيهرع إليها، ولا يكاد يصلها حتى يستولي عليه النّوم، فينام في غابتها.

كانت نوسيكّا تغسل الملابس مع رفيقاتها على الشّاطيء، وبعد أن ينتهي عملهنّ يأخذنّ في اللّعب والصّياح فيوقظ ذلك أوليس، فتراه نوسيكّا وتقرّ صاحباتها منذعرات، أما هي فتتحدّث إليه ويبدو لها وديعًا، فصيحًا في حديثه. قال لها: أتوسل إليك أيتها الأميرة سواء أكنت إلهة أم فانية، فإن كنت من قاطنات السّماء الواسعة فإنّك تشبهين ابنة زوس العظيم في الجمال والرّشاقة، وإن كنت إحدى الشّابات على الأرض فقد سعد بك والدك ووالدتك وإخوتك ثلاث مرات. ولكن أسعد الجميع قلبًا من سوف يغمرك بهدايا الزّواج وتدخلين إلى داره، وإنّي لأتشبّه بقدميك متضرّعًا، لأنّي فريسة لألم عظيم. وأمس فقط نجوت من البحر المظلم وقد قذف بي أحد الالهة إلى هذه الجزيرة لكي أقاسي آلامًا أخرى، وأنا لا أعتقد أنّي جرعت الكأس حتى الثّمالة، ولا شكّ في أنّ الالهة سيستأنفون إرهاقِي، لذلك أطلب إليك أن ترشدني إلى المدينة وأن تأتيني ببضع أطمار استقوي بها.

فتقدّم نوسيكّا طعام إلى هذا الرّجل الغريب، وتدّله على الطّريق المؤدّية إلى قصر والدها، فيقصده ويجلس في مكان متواضع لكنّه، إذا تحدّث بهر الجميع بأدبه وبلاغته فيجلسه الملك في المكان المعدّ لابنه على المائدة، ولا يشير أوليس إلى اسمه، ولا إلى وطنه ولا إلى الحرب التي كان قد أبلى بها بلاء حسنا، ولكنه يبكي ويخفي رأسه في معطفه عندما يسمع أحد الشّعراء ينشد في نهاية المأدبة، حوادث حرب طروادة، وقصة الجواد الضّخم الذي أدخل حيلة في المدينة. وهو مملوء بجنود اليونان وكانت خدعة

من أوليس، ما أدى إلى سقوط طروادة، ولا يكاد الشاعر يمعن في الترتّم بتلك الأنشودة حتى يجهش أوليس بالبكاء فيطلب إليه الملك أن يفصح عن شخصه، ويسرد أوليس قصته، يقول إنّ الرّياح قد قذفت إلى أرض تنبت فيها زهرة اللّوتس، التي تتضوع منها رائحة العسل، إذا تذوقها انسان، فقد ذاكرته، ويأكل منها بعض أصحاب أوليس على غير علم فينسون ماضيهم ولا يذكرون بلادهم وأصدقاءهم ويرفضون أن يبحروا معه، فيضطر الآخرون إلى نقلهم عنوة وربطهم في مقاعد السفن، ثم تقذف الأمواج بأوليس إلى جزيرة السيكلوب وهم من العمالقة الذين لا يملكون إلا عيناً واحدة في جبهتهم فيتجه أوليس في وفد من رفاقه إلى زعيم السيكلوب في كهفه، ويقدم له الهدايا ولكنّه لا يكاد يصل إليه حتى يمدّ العملاق يده فيتناول اثنين من أصحاب أوليس ويسحق رأسيهما ثم يلتهم جسمها، ولا يفقد بطلنا عقله بل يلجأ إلى حكمته ويتخلّص من السيكلوب ويضع في عينه الوحيدة مدية محمرة بالنّار فيقتلعها وينجو ببقية أصحابه.

بعدئذ ينتقل أوليس إلى جزيرة إله الرّياح الذي يعطف على أوليس فيجمع له العواصف الرّديئة ويسجنها في قرية ويقدمها إلى أوليس وينبئه إلى تجنّب قرية سيمر فلن يصدّم بأية عاصفة. وتسير سفن أوليس على بحر هادئ كالزّيت، حتى يغلب أوليس النّوم فيظنّ جماعة من رفاقه أنّ هذه القرية تحتوى شيئاً نفيساً يستأثر به أوليس فينتهزون فرصة نومه ويفتحونها فتتطلق منها العواصف السيئة فتقذف بسفنهم إلى جزيرة (الستويجون) أكلة اللّحوم البشريّة الذين يداهمونهم ويمزّقون أجسامهم ويلتهمونها حتى لا يبقى لهم إلا نفر قليل يستطيعون النّجاة فيبحرون على عجل. وتلقي بهم الأمواج على جزيرة (سيرسه) السّاحرة التي لا توشك عينها أن تقع على وفد أوليس الذي أتى ليقدم لها الهدايا حتى تحوّلهم إلى خنازير، وهنا يتدخّل أحد الالهة (عرميس) فيحصن أوليس ورفاقه بما يحول بين السّحر وبين التّأثير فيهم، ولكن السّاحرة تؤثر في قلب أوليس وتسلبه التّفكير في العودة إلى بلاده وتشعره بالسّعادة إذا بقي في هذه الجزيرة، فيظلّ على هذه الحال لا يفيق إلى نفسه ولا يحسّ بشوق إلى وطنه سنة كاملة، ولكنّ رفاقه اذ يطول عليهم الرّمن ينبهونه إلى واجبه فيفطن إلى ما حدث ويستأذن مضيفته بالرحيل، واذ ترى سيرسه هذا الحنين إلى الوطن الذي لم تستطع مقاومته، تأذن لأوليس وتتصحّه أن

يتوجّه إلى مملكة الموتى ليسأل فيها العرافين عما يقع له من الحوادث، ويرى صاحبنا شبح والدته التي تركها حية عند ما توجه إلى طروادة، قال: «تكلّمت إلى والدتي فردت، وقد تملّكني اضطراب شديد، لكي أعانق روحها فألقيت بنفسي عليها ثلاث مرات. وفي هذه المرات الثلاث كانت تختفي وكأنّها ظلّ شبيه بالحلم واخترق قلبي ألم حاد فقلت لها: «أماه أتهزئين بي» فأجابتنني: أسفاً يا بني إنّ أمك لا تهزأ بك. ولكنّه قدر للموتى ألاّ تسند أعصابهم اللحم ولا العظم، وقد طارت الروح وكأنّها حلم، عد إلى عالم الأحياء واذكر ما قلت لك»

ويتعاقب على أوليس في مملكة الموتى شهيرات اليونان، من سيّدات وفتيات شم أبطال طروادة، ويعرض علينا المؤلّف شخصيّات أسطوريّة مثل هذا الملك «تانتال» الذي ذبح ابنه وقدّم لحمه لوفد من الآلهة ليعرف ما إذا كانوا حقّاً يعلمون الأسرار وخفايا الأمور، فقصي عليه إلى الأبد بعذاب الجوع والظمأ، رغم وجود ألدّ الأطعمة وأشهى المشروبات إلى جانبه.

ينفر الماء من شفّتيه، وتبتعد الأغصان المثمرة إذا لامستها أصابعه، و«سيزيف»: الرّنديق القاسي الذي قضى عليه بإصعاد صخرة كبيرة من أسفل جبل إلى قمّته، حتى إذا وصل إليها انحدرت الصّخرة من مكانها، وهكذا إلى الأبد. ويعود أوليس إلى جزيرة السّاحرة سيرسه. ويطلب إليها النّصح فيما يجب أن يفعل، لكي يتجنّب العقبات التي ستصادفه في طريقه فتنبئه بأنّه سيمرّ على جزيرة غانيات البحر جسم كل واحدة منهنّ نصفه من السمك والنّصف الآخر إنسانيّ، يجذبن بغنائهنّ كل مسافر يمرّ بجزيرتهنّ، ولا يقوى أيّ شخص من البشر على مقاومة هذا الغناء، ولكنّ الذين يصغون إلى أصواتهنّ هالكون لا محالة، ويرى أوليس أن الوسيلة الوحيدة هي أن يأمر بحارته بإغلاق آذانهم بالشّمع حتى لا يسمعوا شيئاً وأن يظلّ أوليس وحده قادراً على السّماع حتى ينبي رفاقه بأنّ موضع الخطر قد زال فينزعون الشّمع، شريطة أن يشده أصحابه إلى سارية السّفينة شدّاً محكماً كي يستطيع مطاوعة الغناء السّاحر، وهكذا يسلم أوليس وصحبه من فتنة فتيات البحر.

وبصل أوليس، بعد سلسلة أخرى من الأخطار، إلى جزيرته إيتاكا، ويطلب إلى أثينه «ذات العينين الزرقاوين» أن تقف إلى جانبه حتى يستعيد ملكه فتحوله إلى شيخ فان يرتدي إطارًا، وتأمره أن يذهب إلى أحد رعاته الأوفياء، فيلقاه الراعي لقاءً حسنًا من دون أن يعرفه، ويقدم إليه الطعام، ويحدثه عن أولئك الشبان الذين لم يزلوا يتلقون ثروة سيده الغائب وسيدته العفيفة ويأتي أيضا تلماك - بإيعاز من أثينه إلى مقر الراعي فيستقبله هذا مسرورًا بمجيئه، ويقدم إليه ضيفه المتسول، ولا يكاد الراعي ينصرف حتى تأتي أثينه. وتعيد إلى أوليس صورته وملابسه وتأمره أن يعرف ابنه بشخصه «وبيكيان بكاءً مرًا» ثم يتشاوران في الوسيلة التي يعدان بها الانتقام من الأعداء، يتجه تلماك منفردًا إلى القصر ويعود أوليس إلى تنكره ويرافق الراعي ويذهبان معا إلى القصر، وفي الطريق يلمح أوليس كلبًا عجوزًا مهجورًا برح به الإعياء والمرض، ويعرف الكلب سيده فيحرك ذنبه وأذنيه من دون أن يستطيع النهوض، ويحاول جاهدًا أن يقفز إلى سيده، في هذا الجهد اليائس يلفظ الحيوان نفسه الأخير، وتترقق دمة في عين أوليس يخفيها على الراعي. حتى إذا دخل القصر جلس على عتبة القاعة، ثم أخذ يطوف بجميع الأعداء ويسألهم الإحسان فيعطونه إلا واحدًا منهم ضربه بمقعده، فلم يستطع أوليس إلا أن يتحاشاه على نحو ما يفعل الضعفاء أمام طغيان الأقوياء وتتألم بنيلوبا إذ تعلم أن أجنبيًا قد أهان فقيرًا في قصرها وتطلب إلى الراعي أن يحضر إليها هذا الفقير لتسري عنه، ولا تكاد بنيلوبا تخلو بهذا المتسول حتى تتسم منه ما عسى أن يكون قد وصل إلى علمه من أخبار أوليس، ويبدو من الحديث تعلق هذه الملكة بزوجها الغائب، ووفائها له وتقول إنها قد ضاقت ذرعًا بهؤلاء الشبان وأنها لكي تماطلهم ابتكرت حيلة مجملها أن الواجب يقضي عليها بأن تنسج كفنًا لوالد زوجها، الشيخ الفاني، الذي لا عون له في الحياة، وأنها مستعدة لقبول الزواج متى انتهت من نسج هذا الكفن، فإذا أجنّها الليل نقضت ما نسجته نهارًا، وظلّت على ذلك ثلاثة أعوام حتى وشت بها إحدى خادمتها، فكشف سرّها ولم يعد لها الآن عذر في المماطلة، ويقول لها المتسول إنه شقيق ملك كويت، وأنه رأى أوليس منذ عشرين عامًا حين كان ذاهبًا إلى طروادة، فأضافه وأكرم مثواه ولكي تؤمن بنيلوبا بهذه القصة يصف لها المتسول الملابس التي كان يرتديها أوليس، ويتنبأ لها بعودة زوجها، لكن استحكام اليأس من نفسها يحول بينها وبين الأمل في عودة زوجها، وتطلب إلى الشيخ أن يبقى في القصر يأكل ويشرب ما طاب له، ثم تأمر مرضع زوجها

أن تغسل له رجليه، لأنّه قد رأى أوليس، وأكل معه، ولا تكاد الموضع العجوز تنتحّي به ناحية وتكشف عن ساقيه حتى ترى في إحدى ركبتيه أثر جرح كان خنزير بري قد أحدثه فيها منذ زمن بعيد، فيبلغ بها الانفعال حدًّا يفقدها وعيها، وتقلب الإناء الذي أعدّته لغسل قدميه وبأمرها أوليس بالصمت والكتمان.

واذ تأوي بنيلوبا إلى مضجعها، تجهش في البكاء، وتحاول النوم فلا تسطيعه وفي اليوم التالي تبدو لها اثنين وتوصي إليها أن تتقّب عن قوس أوليس الكبرى، وأن تحضرها وتقدّمها إلى الأعداء وأن تقول لهم: إنّ من يرمي بها سهمًا تخترق حديد اثنتي عشر فأسًا هو الذي سيتزوج مني، فتفعل ما تؤمر به، ويحاول جميع الشبان شدّه واحدًا بعد واحد ولكنّ محاولتهم تضيع عبثًا، في هذه اللحظة يطلب الشيخ المتسول أن يسمح له بشدّ الوتر فيثور الأعداء وتطلب بنيلوبا أن يجاب إلى طلبه، ويسرّ أوليس إلى الموضع العجوز أن تغلق أبواب القصر، ويطلب تلماك إلى والدته أن تتسحب، ويقبض أوليس على القوس ويشدّها ويضع فيها سهمًا ثم يرميها، فتخترق جميع صفائح الحديد ويضع أوليس عند قدميه كومة من السهام، ويقف ابنه إلى جانبه ثم ينزع الملابس البالية ويصيح «الآن وقد انتهى الاختبار، فسوف أسدّد إلى هدف لم يمسه إنسان قبلي «ويصوّب السهام إلى الأعداء واحدًا بعد واحد، كانت بنيلوبا آنذ في نوم عميق، واذ توقظها الموضع وتقص عليها ما حدث، تأبى أن تصدق ما يقال لها، وعندما تقع عينها على أوليس تنكره فيؤنّبها تلماك ابنها، ويأخذ عليها قسوتها ويصف قلبها بالتحجر، وهنا تجيبه في هدوء وتبصر إنّها تعرف زوجها بواسطة علائم، فتأمر الموضع بنقل سرير زوجها، وغايتها من ذلك أن تتبين ما إذا كان هذا الرجل يعرف سرّ السرير لأنّ أوليس هو الذي صنعه وسمّره بالأرض، ويصيح أوليس بالمرضع كيف تستطيعين نقل سريرى، وقد سمرّته بيدي، حينئذ تقتنع بنيلوبا، وتعتذر عن إبطائها في معرفة أوليس ويصوّر لنا المؤلف لذة اللقاء، ويتحدّث الزوجان عن محنتهما الماضية وما لقي كل منهما بعيدًا من صاحبه من كوارث ونكبات، ويرسمان مرارة الفراق وما يحدثه في القلب من لوعة وألم.

في اليوم التالي يفد أقارب الأعداء للانتقام، فتحتدم المعركة، ويتدخل زوس فيأمر بإجراء الصلح بين الفريقين، فيسود السلام، وبهذا تنتهي الأوديسة.

الإسلام عصبية جديدة أم تيار في مواجهة العصبية القبلية؟!

»Islam: A New Tribalism or a Movement Against Tribal Loyalties?!

د. جهينا محمود المصري¹

Dr.Jouhayna Mahmoud Al Masri

تاريخ القبول 2025 /2/28

تاريخ الاستلام 2025 /2/7

الملخص

لا يزال الإسلام يطرح عدّة تساؤلات حول مفاهيمه وغاياته واتّجاهاته... وإلى أي مدى استطاع أن يجمع القبائل العربيّة المتناحرة تحت مظلّته كأمة إسلاميّة واحدة، لا تفرّق بينها عصبية جاهليّة مقيّنة؟

وباعتماد المنهج الوصفي التحليلي، في هذا البحث؛ تبين أنّ الإسلام قد غير من المفاهيم السائدة في الحياة الجاهليّة، وشكّل بتعاليمه الروحانيّة والعقلانيّة أسساً قويّة لبناء دولته القائمة على العدالة والمساواة، والتّعايش بين الأديان، وحسن الجوار، بعيداً عن أحقاد العصبية وضعائنها الفتّاكة...

ومع اتّساع رقعة نفوذه وسلطانه؛ دبّت فيه آفة الوفرة الماديّة، وتيقّظت حميّة العصبية من جديد، وتعرّضت الأمة لمخاطر القوميّة الفارسيّة، وشتى ألوان الغدر الصّهيونيّ؛ فأصيب كيانه بالوهن والخور؛ ولا يزال هذا الصّراع مشتعلًا حتّى يومنا هذا.

الكلمات المفتاحيّة: الإسلام، دين العدالة والسّماحة، العصبية القبلية، المرتدون، المنافقون، عبادة الأصنام، الثّار والافتتال، اليهود أهل الغدر والفساد، أمة إسلاميّة واحدة، عبادة الله وحده.

1- جامعة الجنان/ مكتب تدقيق اللّغة Email :jouhayna.masri1234@gmail.co

Abstract

Islam is still true, with many questions, its concepts, its purpose, and its trends... To what extent can the warring Arab tribes be united under its umbrella as a single Islamic nation, not divided by hateful ignorant fanaticism?

By adopting descriptive analytical rules, in this research; It came to light that Islam may not be one of the principles of pre-Islamic life, but its spiritual teachings and religious powers constitute strong foundations for building its state on justice and equality. And coexistence between religions, and good neighborliness, to the hatreds of fanaticism and its deadly grudges...

While following his influence and authority; The scourge of material abundance crept in, the fever of nervousness awoke again, and the people were exposed to the dangers of Persian nationalism and all kinds of Zionist treachery. Her being became weak and weak. This conflict continues to rage to this day.

Key words : Islam, the religion of justice and tolerance, tribal fanaticism, apostates, hypocrites, idolatry, revenge and fighting, the Jews are people of treachery and corruption. One Islamic nation, worshipping God alone.

المقدمة

يعدّ الإسلام أحد الأطر الثقافيّة والاجتماعيّة الأساسيّة في حياة ملايين الأفراد حول العالم. هذا البحث يهدف إلى دراسة الدور الذي يؤدّيه الإسلام في تشكيل الهويّة الاجتماعيّة للأفراد والمجتمعات، مع التركيز على الفروقات بين المفهوم العنصريّ في السياقات القبليّة والتطبيقات الحديثة للإسلام. سيتم مناقشة كيفية تأثير المبادئ الإسلاميّة في القيم الاجتماعيّة وتقديم بدائل للعنصريّات التقليديّة.

أولاً: الإسلام وتأسيس الدولة في المجتمع العربيّ

ظهر الإسلام في أوائل القرن السّابع الميلاديّ في بيئة مكة الحصريّة غرب شبه الجزيرة العربيّة، وكان من أهمّ توجّهاته وأهدافه تحقيق العدالة، وترسيخ حقوق المواطنة

والتعايش بين الأديان، ونبذ التعصب القبلي، وبعض أعراف البداءة الجائرة.

حاول الإسلام أن يكافح الاتجاهات القبلية الخاطئة، ويظهر ذلك بقوة في مكافحة العصبية القبلية، وإحلال رابطة جديدة بين الأفراد تحل محل رابطة الدم، تلك هي رابطة العقيدة والإيمان، وأبدل بفكرة الغزو في سبيل الثأر، أو المرعى والماء، فكرة الجهاد في سبيل الدين والمبدأ، والحرب المنظمة في سبيل حماية الأمة والدفاع عنها، وتجاوز الحدود القبلية بتكوين الأمة التي هي فوق القبائل التي وضعت مصلحتها فوق كل مصلحة أخرى، ومع أن القبيلة بقيت وحدة اجتماعية، فإن الرسول (ﷺ) حاول أن يذيبها في الأمة.

وأدخل الرسول (ﷺ) عن طريق الدين، فكرة الدولة والقانون إلى العرب؛ ليقابل فكرة القبيلة والعرف، ففكرة السلطة الخارجة عن القبيلة غريبة على البدو، وهم لا يعترفون بأي قانون خارج تقاليد القبيلة، وقد بين الإسلام أن السلطة لله وحده، وأساس الحكم الشورى التي ترك سبيل تطبيقها للأمة، وهكذا أدخل الرسول فكرة الدولة باسم الله، وجعل الشريعة القانون العام؛ فهي فوق كل شيء؛ لأنها القانون الإلهي، وحين يتبع الناس رسالة دينية، وترتبطهم العقيدة يصبحون أمة؛ فالأمة هي الكيان السياسي الاجتماعي، حيث تتوسع بامتداد دارها، وقد جمع الرسول (ﷺ) في شخصية الكريم بين السلطة الدنيوية والهداية الدينية، ولم يفرق بين الناحية الدينية والناحية السياسية، بل جعلهما متلازمتين، إذ إن الدين هو الذي يحفظ الوحدة في الأمة.

واتجه في الناحية الاقتصادية إلى تخفيف الشقاء المادي والتباين الاجتماعي، والحد من الاستغلال؛ فحرم الربا، وهو الفائدة من دون مقابل -كان آفة المجتمع المكّي- وفرض الزكاة لمصلحة الفقراء، وأكد أهمية الإنفاق والصدقة، وأنكر اكتناز الذهب والفضة، إلا أن تتفقا في سبيل الله؛ وكل هذه التشريعات تشير إلى محاولته تخفيف التفاوت المادي والاجتماعي، وإلى ضرورة تأكيد التعاون في شتى مناحي الحياة المادية.

ثانياً: صراع الدعوة الإسلامية مع التقاليد القبلية

جاء الإسلام دعوة جديدة وحركة شاملة، لم تعم الجزيرة العربية في مدة وجيزة، ولم يمض عليها زمن كاف لكي تعمها؛ ومع أنه انتشر في معظم أراضيها فيما بعد، فإن

دوافع من دخلوا فيه كانت مختلفة: فبعضهم دخل لهداه وإيمانه، ومنهم من دخل طمعاً في الامتيازات، وبعضهم دخله خوفاً من سلطانه.

هذا، والدّعوات الجديدة تحتاج إلى زمن لتفهم، كما أنّ القديم لا بدّ من أن يصارع الجديد صراعاً مُحْتَدِمًا من أجل البقاء والاستمرار، وذلك يحتاج إلى وقت قبل أن يضعف ويتلاشى، ولا بدّ من أن تظهر آثار ذلك الصّراع في الحياة العامّة، فمثل هذا الصّراع كان من أهمّ العوامل في تطوّر التّاريخ الإسلاميّ في فترة صدر الإسلام¹.

وقد فشل القديم في التّقاليد القبليّة، وتمثّل الجديد في الدّعوة الإسلاميّة، فحدث صدام وصراع في زمن الرّسول، واستمرّ هذا الصّدام والصّراع بعد وفاته بين هذين التّيّارين الرئيسين: التّيّار القبليّ والتّيّار الإسلاميّ. وكانت وجهة التّيّار الإسلاميّ نحو توحيد الجزيرة العربيّة سياسياً ودينياً، وإبادة عوامل الانقسام، وتوسّع رقعة الإسلام، وسيادة الأسس الإسلاميّة في الحياة العامّة.

أمّا اتّجاه التّيّار القبليّ فكان مقاومة الاتّجاه المركزي، نحو استقرار التّقاليد العربيّة القبليّة على الرّغم من اصطدامها أحياناً بالمبادئ والاتّجاهات الإسلاميّة.

ثالثاً: التّنازع على القيادة بعد وفاة الرّسول

لقد كانت قوّة الرّسول (ﷺ) وعظمة تعاليمه التي تتمثّل جليّاً في شخصه، وتعاضم نفوذ المسلمين عوامل فعّالة في إضعاف قوّة الاتّجاهات القبليّة في حياته.

ولمّا ارتفعت روح الرّسول الأعظم (ﷺ) انفتح الباب لتظهر النزعات المكبوتة حدّتها، ولتتوكّد عناصر الانقسام قوّتها، فكانت أوّل ظاهرة للاصطدام بين التّيّار الإسلاميّ والقبليّ بشكل عنيف وجارف، يُطلق عليه اسم حروب الرّدة التي خاضها الخليفة الرّاشديّ أبو بكر الصّديق لإرجاع المرتدّين إلى الإيمان؛ ولكنّ النّقد يدلّ على عدم دقّة ذلك، وأنّ القبائل خرجت على المدينة لأسباب مختلفة، فقد نشأت الرّدة عن خوف القبائل الوثنيّة من توسّع سلطان المدينة، وعن معارضة قبائل مسلمة لفكرة الخضوع للمدينة، وعن رغبة بعضهم الآخر في إنهاء هيمنة المدينة المتمثّلة في معاهدات عقدها مع الرّسول (ﷺ)، وعن العصبيّة القبليّة بصورة عامّة، وعن المحافظة الدّينيّة.

1- راجع: عبد العزيز الدوري، مقدّمة في تاريخ الإسلام، الأعمال الكاملة، ص 45 - 47.

لما ارتفعت روح الرّسول (ﷺ) إلى جوار ربّه؛ فتح الباب على مصراعيه أمام رؤوس الجماعة الإسلاميّة؛ ليعلنوا ما كانوا قد أسروه في حياته، وأصبحت مشكلة القيادة: لمن الأمر بعد رسول الله (ﷺ) الشّغل الشّاغل لهذه الفئة أو لهذه الجماعات منذ أن سجي الرّسول على فراش الموت؟ وكانت ردود الفعل التي تعبّر عن مصالح وعادات كلّ جماعة أو فئة من الفئات التي كانت تتمثّل في مجتمع المدينة مستقرّ السّلطة، وفي بقيّة أرجاء الجزيرة العربيّة التي جاءت مبايعة في عام الوفود¹.

قال ابن إسحاق، أوّل من دوّن السيرة النّبويّة: لما افتتح الرّسول (ﷺ) مكّة، وفرغ من تبوك²، وأسلمت ثقيف وبايعت، وضربت إليه وفود العرب من كلّ وجه، ولذلك سُمّي العامّ النّاسع للهجرة عام الوفود.

رابعاً: الإسلام دولة، وبداية الخلافة

إذا نظرنا إلى الإسلام كونه ديناً، نجده في الأصل أنزل، ليُخرج النّاس من الظّلمات إلى النّور، ولتخليصهم من الشّرك، وهدايتهم لعبادة الإله الواحد.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى حقيقة يتناساها بعضهم، وهي: أنّ الإسلام كدولة تمارس سيادتها، وتقرض قوانينها في شتّى المجالات: الإداريّة والسّياسيّة والاقتصاديّة والقضائيّة، وسواها، كانت بدايتها من صنع الصّحابة الأوائل الذين آل إليهم الأمر، وغدوا قادة دولة فحسب، بعد أن توقّف الوحي بوفاة الرّسول (ﷺ).

وانّ مبدأ قرشيّة الخلافة الذي أسفرت عنه اجتماعات سقيفة بني ساعدة، أظهر كثيراً من التّيّارات التي لم تكن وليدة ساعتها، بل كانت تعبيراً عمّا يعتل في النّفس ومنتقّساً لشكاوى لم يتح لها أن تعبّر عن نفسها خلال حياة الرّسول (ﷺ)؛ وإذا أضفنا إلى ذلك ما علق في النّفوس من آثار بعض الأحداث التي جرت بعد الهجرة النّبويّة إلى هذه المدينة،

1 - بن هشام، السيرة النّبوية، ج2، ص 333. وانظر: العقد الفريد، 2/ 31 وما بعدها. وانظر: أحمد شلبي، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلاميّة، 1/ 227.

2 - اشتهرت هذه الغزوة باسم غزوة تبوك، نسبة إلى عين تبوك، التي انتهى إليها الجيش الإسلامي، وأصل هذه التسمية جاء في صحيح مسلم، وهي الغزوة التي خرج الرّسول محمّد (ﷺ) لها في رجب من عام 9هـ بعد العودة من حصار الطائف بنحو ستة أشهر، وتعدّ غزوة تبوك هي آخر الغزوات التي خاضها الرّسول (ﷺ). بدأت تداعيات تلك الغزوة عندما قرّر الرومان إنهاء القوّة الإسلاميّة التي أخذت تهدّد الكيان الرومانيّ المسيطر على المنطقة؛ فخرجت جيوش الرّوم العنرمومية بقوي رومانيّة وعربيّة تقدّر بأربعين ألف مقاتل قابلها ثلاثون ألفاً من الجيش الإسلامي. انتهت المعركة بلا صدام أو قتال؛ لأنّ الجيش الروماني تشنّت وتبدّد في البلاد خوفاً من المواجهة؛ فرسم تغيّرات عسكريّة في المنطقة، جعلت حلفاء الرّوم يتخلّون عنها ويحالفون العرب كقوّة أولى في المنطقة؛ لذلك حققت هذه الغزوة الغرض المرجوّ منها على الرّغم من عدم الاشتباك الحربيّ مع الرّوم الذين أثروا الفرار شمالاً.

وجدنا في كل ذلك خلفيّة تفسّر مسار الأحداث التي بدأت قبل أن يوارى الرسول التراب. وكان القسم الأكبر من سكّان المدينة تجمّعاً قبلياً كبيراً يضمّ قبيلتين هما: الأوس والخزرج؛ ومع مرور الزمن وبسبب كثرتهم وقوّتهما، استطاعتا أن يغتصبا السيادة وأن يصبحا سادتها الجدد، على رأي أغلب الباحثين المحدثين، في منتصف القرن السادس الميلاديّ.

وكان من بين القبائل التي سبقت الأوس والخزرج في سكن يثرب قبيلتان تدينان باليهوديّة هما: قبيلة بني قريظة وقبيلة بني النضير، وقد أقامت هاتان القبيلتان في الجزء الخصيب من أرض يثرب، وعاشت حياة مستقلة عن القبيلتين العربيتين الوافدتين. وضمت يثرب زمن الرسول (ﷺ) قبيلة يهوديّة ثالثة هي قبيلة بني قينقاع، وكانت أقلّ نفوذاً من زميلتيها، كما ضمت فئات عربيّة غير الأوس والخزرج، ربّما كانت بقايا السكّان العرب الذين كانوا يقطنونها قبل وصول اليهود إليها.

وكان بين الأوس والخزرج نزاعات كثيرة، أدّت إلى حروب طوال كان آخرها يوم بعث الذي وقع قبل هجرة الرسول (ﷺ) بأعوام قليلة الذي أقام نوعاً من توازن القلق بين القبيلتين؛ لأنّ الحرب كانت قد أجهدت كلّاً من الفريقين، فرغبا في الصلح والخلاص منها.

حرب بُعث، أو يوم بُعث، فُبُعِثَ إحدى المناطق الواقعة في مدينة يثرب، أو مدينة المصطفى (ﷺ) وقد وقعت بُعث قبل إسلام يثرب، وقبل هجرة النبيّ (ﷺ) إليها وهذه المعركة، بشكل أساس بين قبيلتي الأوس والخزرج، وهما أكبر قبيلتين في يثرب¹.

والسبب الرئيس لهذه الحرب أنّ هناك تحالف بين يهود بني قريظة، ويهود بني النضير، جدّدوا العهد مع الأوس على المؤازرة والتناصر، واستحكم أمرهم، وجدّوا في حربهم، ودخل معهم قبائل من اليهود غيرهم؛ ولما سمعت بذلك الخزرج جمعت وحشدت وراسلت حلفاءها من «أشجع» و«جهينة»، وأرسلت الأوس حلفاءها من «مزينة»، ومكثوا أربعين يوماً يتجهّزون للحرب، والتقوا ببُعْث وهي من أعمال قريظة.

1 - انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 1/ 680 681 - 681. وانظر: ابن هشام السيرة النبويّة، 2/ 204.

وكان يوم بُعث آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج؛ ثم جاء الإسلام وانفقت الكلمة واجتمعوا على نصرته الإسلام، وكفى الله المؤمنين شر القتال.

خامساً: تحديات الدعوة في المدينة

وجه آخر للأزمة التي كانت في المدينة، قبل هجرة الرسول (ﷺ) إليها، وجه اقتصادي سببه ازدياد مستمر في عدد السكّان، لا يجاريه ازدياد مماثل في مخزون الطعام، وقد ترتّب على المنازعات المسلّحة التي كانت تجري بين سكّان يثرب، حيث غدت الأرض المنتجة عرضة لشريعة الغزو التي هي في الأساس مظهر من مظاهر عدم الكفاية الغذائية في الصّحراء، هذه الشريعة التي ظلّت سائدة في يثرب أدّت إلى خطر السلب ومحاولة الاستيلاء القسريّة؛ وبالتالي إلى حال من المنازعات الدائمة.

وكانت النّظم الاجتماعيّة في يثرب مشابهة للنّظم السّائدة في المجتمعات الصّحراوية، وكانت العصبية القبليّة أساساً أوليّاً من أسس العلاقات بين أفراد المجتمع، وكان الثّار، والدّية، شريعتين مهمّتين من شرائع العمران البشري عندهم؛ وقد أدّى هذا النّضامن القبليّ إلى صيرورة مهمّة الدّفاع عن الممتلكات الشّخصيّة مسؤوليّة الجماعة القبليّة بكاملها، لا مسؤوليّة الفرد وحده؛ ومعروف أنّ المجتمعات المستقرّة لا تحتاج إلى عصبية قبليّة لضبط شؤونها، بل جلّ ما تحتاجه هو رأس مدبّر واحد يتولّى مقاليد الحكم، ويتصرّف فيما يعرض بين النّاس من مشاكل وأزمات.

فالتناقضات بين الجماعات المكوّنة للمجتمع اليثربيّ، وعدم وجود عامل موحد يجمع شتات النّاس، كالتجارة في مكّة مثلاً، أدّت إلى قيام صراعات واصطدامات دائمة بين سكّان هذه المدينة، يضاف إلى ذلك أنّ الأسرة في المجتمع الزراعيّ هي الخليّة الضّروريّة للإنتاج، في حين أنّ مجتمعاً، كمجتمع مكّة، يعمل أفرادها بالتجارة يحتاج بالضرورة إلى النّضامن القبليّ؛ ولهذا كلّه، كان النّضامن القبليّ في مكّة أوضح منه في المدينة، وأيّاً كانت الأسباب فإنّ المجتمع اليثربيّ، قبل قدوم الرّسالة إليه كان مجتمعاً منقسماً على نفسه، وتنقسمه الحزازات، وتنخره أمراض كثيرة، أهمّها فقدان الوحدة بين عناصره المختلفة؛ وكانت هذه الأسباب من العوامل التي مهّدت الأرض لحسن استقبال الرّسول (ﷺ). أمّا في مكّة، فإنّ الخوف من تصدّع الصّفّ المكيّ، وانقسام النّاس إلى شيعتين، أو فريقين دينيين كان من أبرز العوامل التي

دعت المكّيين إلى حربه وإعلان العداء له، وفي هذه الفرقة في الصّف التي كانت تعاني منها يثرب قبل الإسلام ووحدة القرشيّ المبنيّة على المصلحة المشتركة التي كانت سمة مجتمع مكّة قبل الإسلام، نجد الخلفيّة التّاريخيّة لفرقة الصّف بين جماعة الأنصار في اجتماع السّقيفة بعد وفاة الرسول (ﷺ) وحين كان أمر خلافته يقرر أو يحسم إلى الأبد، ووحدة الصّف القرشيّ في هذا الاجتماع / التي انتهت بإقرار مبدأ قرشية الخلافة¹.

سادسًا: التمرد القبليّ ورفض الزّكاة

كان على الرّسول (ﷺ) أن يهاجر إلى المدينة لعدم نجاح دعوته في مدينة مكّة الأمّ، ومواجهته ظروفًا صعبة في دار هجرته؛ لقد كان المكّيون أعداءه الظاهريين وكان عليه أن يواجه ألعيب سياسيّة، ومؤامرات كثيرة تدبّر في الخفاء من قبل الفئات المختلفة التي تسكن المدينة، ولم يكن الرّجل المطاع الأوحد في المدينة، المطاع الذي لا ينازع سلطته منازع. لقد كان أوّل الأمر لا يملك السيّادة إلّا على الجماعة التي آمنت به من مهاجرين وأنصار، وكان عليه أن يبذل جهدًا كبيرًا في ميدان الدّعوة الدّينيّة بين أولئك المدنيّين الذين لم يقبلوا الإسلام دينًا، وقد أثمرت جهوده في هذا الميدان بسرعة، إذ انضمت أغلب الفئات التي لم تعتنق الإسلام إلى هذا الدّين في أقل من عام من الهجرة؛ ومن الطّبيعيّ أن تبقى بعض الفئات خارج هذا الإجماع مثل المنافقين الذين اعتنقوا الإسلام ظاهريًا وحاربه حربيًا مقتّعة تبعًا لمصالحهم، وكذلك الأشخاص الذين تشبّثوا بكفرهم المعادي، واستمروا يعارضون الرّسول (ﷺ) ويرفضون الإسلام كأفراد من فئة عبد الله بن أبي، زعيم المنافقين كان لم يجرؤ على معاداة الإسلام جهارًا بل تسترّ بإسلام ظاهريّ، وكاد للإسلام تحت ستار من إيمان زائف.

وقد يجد المرء عذرًا في ذلك؛ لأنّ الإسلام، وقدم محمد (ﷺ) إلى المدينة، حرّمه من ملك كان يُعدّ نفسه له، فلما رأى قومه وقد أبوا إلّا الإسلام، دخل فيه كارهاً، مصرّاً على نفاق وضغن²؛ أمّا أبو عامر عبد عمرو بن صيفي بن النّعمان، فقد اندفع في عداء عمّه للإسلام من موقف عقائديّ على حدّ زعمه، ودخل مع الرّسول (ﷺ) في نقاش طويل

1 راجع مجلة دراسات تاريخية، العدد الثاني عشر، شعبان - أيّار 1404هـ = 1982م، ص 10 - 12.

2- ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 232 - 235.

حول الإسلام الذي يبشّر به الرّسول وصلته بالحنفيّة دين إبراهيم الذي يزعم أنّه يدين به، وأنّ الرّسول أبعدّه عن (نقائه الأوّل)؛ وقد وصل عداؤه للدين (الجديد) حدّ القيام بهجرة معاكسة من المدينة إلى مكّة، حيث لا سلطان هناك لمحمّد (ﷺ)، وحين فتح الله مكّة على يد الرّسول (ﷺ) تركها إلى الطّائف، فلمّا أسلم أهلها لحق بالشّام حيث مات طريداً غريباً وحيداً¹؛ ولم يكن أبو عامر وحده في هذا الموقف، فقد هاجر معه من المدينة إلى مكّة بضعة عشر رجلاً مفارقين للإسلام ورسوله، كما هاجر معه إلى الشّام عدد منهم بعد نصر الإسلام الكامل على الجزيرة العربيّة.

قال ابن إسحاق: ولمّا قدّم رسول الله (ﷺ) المدينة، وسيّد أهلها عبد الله بن أبيّ ثمّ أحد بني الحُبلى، لا يختلف عليه في شرفه (من قومه) اثنان، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من الفريقين حتّى جاء الإسلام غيره، ومعه في الأوس رجل هو في قومه من الأوس شريف مطاع، هو: أبو عامر عبد عمرو بن صيفي بن النعمان وكان قد ترهّب في الجاهليّة ولبس المُسوح وكان يُقال له: الرّاهب فشقيا بشرفهما وضرهما².

فأمّا عبد الله بن أبيّ فكان قومه قد نظموا له الخرز؛ ليتوجّه ثمّ ليملّكوه عليهم، فلمّا انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن، ورأى أنّ رسول الله (ﷺ) قد سلبه ملّكاً، فلمّا رأى قومه أبوا إلّا الإسلام دخل فيه كارهاً مُصرّاً على نفاق وضغن.

وأما أبو عامر فأبى إلّا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام، فخرج منهم إلى مكّة ببضعة عشر رجلاً مفارقاً للإسلام ولرسول الله (ﷺ)، فقال رسول الله (ﷺ): لا تقولوا الرّاهب ولكن قولوا: الفاسق.

وفي رواية أخرى أنّ أبا عامر أتى رسول الله (ﷺ) حين قدّم المدينة قبل أن يخرج إلى مكّة فقال: ما هذا الدين الذي جئت به؟ فقال: جئت بالحنفيّة دين إبراهيم، قال: فأنا عليها، قال له رسول الله (ﷺ): إنّك لست عليها، قال: بلى، قال: إنّك أدخلت يا محمّد في الحنفيّة ما ليس منها، قال: ما فعلت، ولكّني جئت بها ببيضاء نقيّة.

قال: الكاذب أمّاته الله طريداً، غريباً، وحيداً - يعرض برسول الله (ﷺ) - أي أنّك جئت بها كذلك، قال رسول الله (ﷺ): أجل، فمن كذب ففعل الله تعالى به. فكان هو

1- انظر تفاصيل هذه القضية في: ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 234 - 235.

2- ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 585.

ذلك عدوّ الله، فخرج إلى مكّة، فلمّا افتتح رسول الله (ﷺ) مكّة خرج إلى الطّائف، فلمّا أسلم أهل الطّائف لحق الشّام، فمات طريداً، غريباً، وحيداً¹.

فهناك قبائل قدّمت ولاءها للرّسول وعدّت هذا الولاء شخصياً - بحسب النّقليد - ينتهي بوفاة الرّسول، وبعضها مثل قسم من القبائل في شمالي الحجاز، كانت لها معاهدات تنتهي بوفاة الرّسول، وهذه القبائل لم ترّ موجّباً للخضوع لأبي بكر؛ وتوجد قبائل مسلمة، ترى في دفع الزّكاة خضوعاً مهيناً لها، مثل بعض بني تميم، وكانت مستعدّة للتّمسك بالإسلام من دون أن تدفع الزّكاة.

مرّ عمر بن الخطاب ببقرّة بن هبيّرة، وحوله عسكر من بني عامر، فقال بقرّة: (يا هذا: إنّ العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة فإن أنتم أعفيتها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع، وإن أبىتم فلا أرى إلّا أن تجتمع عليكم)².

وهناك العصبية القبليّة التي تتمثّل في رغبة القبيلة بعدم الخضوع لسلطة خارجيّة، وهذه تتمثّل في الرّغبة عن دفع الزّكاة، وفي تحرّب الكثير من القبائل ضد سلطة المدينة، ومن أمثلة ذلك ما فعله عبيّنة بن حصن زعيم غطفان فقد قام في قومه وقال: (ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين أسد، وإني المجدّد للحلف الذي كان بيننا في القديم ومتابع طليحة، والله لأن نتبّع نبياً من الحليفين أحبّ إلينا أن نتبّع نبياً من قريش، وقد مات محمّد وبقي طليحة فطابقوه على رأيه)³.

وهناك قبائل لم تخضع سياسياً، ولا دينياً للرّسول، مثل بعض القبائل في اليمامة، فمسيّلة الكذاب طلب من الرّسول (ﷺ) في حياته أن يشاركه في النّبوة، وأن يقتسم السّلطة معه، فكتب إلى الرّسول: (من مسيّلة، رسول الله إلى محمّد رسول الله: أمّا بعد فإنّي قد أشركت في الأمر معك، وإنّ لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكنّ قريشاً قوم يعتدون)؛ فأجابه الرّسول (ﷺ): (بسم الله الرّحمن الرّحيم، من محمّد رسول الله إلى مسيّلة الكذاب، السّلام على من اتّبّع الهدى، أمّا بعد، فإنّ الأرض لله يورثها

1- ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 234 - 235.

2- الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الملوك و الرسل، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ذخائر العرب، القاهرة، دار المعارف، 1962، 2/ 246.

3- المصدر السابق 3/ 257.

مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ¹.

وأيضاً، عيينة بن حصن زعيم غطفان الذي أُسر وجيء به إلى المدينة، تذكر عنه الرواية: (أخبرني مَنْ نظر إلى عيينة بن حصن مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، ينخسه غلمان المدينة بالجريد ويقول: أي عدو الله! كفرت بعد إيمانك؟ فيقول: والله ما كنت آمنتم بالله قط)².

إنَّ الدَّعوة الإسلاميَّة تهدف إلى القضاء على الجاهليَّة الجاهلاء والضَّلالة العمياء، وأنَّ من أهدافها الأساسيَّة بسط النَّفوذ على الأرض والسيطرة على الموقف السِّياسي في العالم؛ لتقود الأمة الإسلاميَّة الإنسانيَّة إلى مرضاة الله تعالى، وتخرج البشريَّة من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى وحده.

سابعاً: نفاق اليهود وإشغالهم الفتن

وكان في المدينة ثلاثة أصناف:

1. أصحاب النَّبيِّ، وهم الصِّفوة المختارة (رضي الله عنهم) الذين كانت تربيتهم على الكتاب والسنة، ولكن رسول الله (ﷺ) هو معلمهم، قال الله تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)³.

كان العرب قبل بعثة الرِّسول يعبدون الأصنام، ويشربون الخمر، ويتعاملون بالرِّبا، ويتقاتلون لأنفهم الأسباب.

2. المنافقون حيث ظهر النِّفاق على أشده في المدينة؛ لأنَّ الإسلام أضحى قوَّة مرهوبة الجانب، فكان على رأسهم عبد الله بن أبيّ بن سلول الذي كان ينتظر القيادة، ويطمع في الملك والسيادة قبل مجيء الرِّسول (ﷺ) ووصوله إلى المدينة.

3. اليهود الذين انحازوا إلى بلاد الحجاز زمن الاضطهاد الأشوري والروماني

1- انظر: محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، العهد النبوي و الخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، الطبعة الخامسة، 1985م، ص 305.

2- الطبري، المصدر نفسه 3/ 260.

3- الجمعة: 3

وكانوا عبرانيين ولم يندمجوا في العرب، بل كانوا يفتخرون بجنسيّتهم اليهوديّة ويحتقرون العرب ويسمّونهم أميين، أي أنّهم وحوش سذج وأراذل متأخرون، وكانوا يرون أنّ أموال العرب مباحة لهم⁽¹⁾. قال تعالى: ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتِينَ سَبِيلٌ﴾⁽²⁾.

- ولم يكن لليهود بخس في نشر دينهم، وإنما جَلَّ بضاعتهم الدّينيّة الفأل والسّحر والنّفث والرّقية.
- كانوا يرون أنفسهم أصحاب علم وفضل وقيادة روحانيّة.
- كانوا مهرة في فنون الكسب والمعيشة، وكانوا أصحاب دسائس ومؤامرات وعتو، وفساد يلقون العداوة والبغضاء بين القبائل العربيّة المجاورة التي كانت في حروب دامية، متواصلة؛ قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾⁽³⁾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ، وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ⁽⁴⁾ والخطاب هنا للأوس والخزرج إذ كان اليهود يريدون فتنّتهم، واللّفظ في الآية عام.

وكان في المدينة ثلاث قبائل من اليهود:

- بنو قينقاع، وكانوا حلفاء الخزرج، وكانت ديارهم داخل المدينة.
- بنو النّضير.
- بنو قريظة.

وهاتان القبيلتان: بنو قريظة وبنو النضير كانتا حلفاء الأوس، وكانت ديارهما بضواحي المدينة؛ وهذه القبائل كانت تثير الحروب بين الأوس والخزرج منذ أمد بعيد، وقد أسهمت في حرب بُعاث، كلّ مع حلفائها، وقد دامت تلك الحرب سنين طويلة⁽⁵⁾.

إنّهم اليهود قاتلو الأنبياء، وسفّكو الدّماء، أهل الغدر والخيانة وأهل الفساد والجريمة، قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا

1- محمد بكار زكريا، السيرة النبوية، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان 1417هـ / 1997م، ص 94-95.

2- آل عمران: 75

3- آل عمران: 100 و 101

4- ابن بكار، السيرة النبوية، ص 95 - 96

يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ١.

إنّ لهذا العنوان حقاً لن يفِي به إلّا تدنيس أضخم البلدان بعبارات يخطّها الدّم القاني الذي أهرقه اليهود في مجازر حقدهم، وغدرهم بالشّعوب؛ لأنّ جرائمهم الشنيعة لا تحصى، ولا تقع تحت حصر كتاب تاريخ، ولا هي انحسرت عبر إقليم في الأرض، أشرقت عليه أشعة شمس؛ لذلك خاطبهم السيّد المسيح قائلاً لهم: (إنكم مطالبون بدماء جميع الأديان، من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا ابن بركيا الذي قتلتموه بين المذبح والهيكل، بل وهم مطالبون بدم السيّد المسيح الذي سفكوه على جبل الجلجلة ومطالبون بدماء جميع شعوب الأرض التي هم افتعلوا لها الحروب والثورات والمجازر من أيام السيّد المسيح إلى الدماء التي تهرق اليوم في العالم، وعلى أرض فلسطين وعلى أرض القدس المقدّسة وفي بيوت الله الطاهرة؛ أما أهوال جرائمهم المروعة، ومشاهدها التي تدمي البصر والقلب والإحساس وطرائقها وأساليبها فلا يستوعبها عقل بشر، ولا تحتملها أعصاب أعتى المجرمين، وأشرسهم. تذكّروا كيف كسّر مجموعة من الجنود الإسرائيليين بكلّ وحشية، وحقد عظام الفلسطينيّ الأعزل أمام نظر العالم بأسره، وهو يستغيث ويتوسّل منظر يشلّ الفكر، ويشطّ عزائم العتاة، وتذكّروا أيضاً أشلاء مذابح صبرا وشاتيلا ولا أحد في العالم يعتبر وينتذكر).

ولكن إذا ألقينا نظرة على ما فعلوه بالشّعوب لم ييخلو به على العرب، مسيحيين كانوا أم مسلمين، فقد نكّلوا بالمسيحيّة تنكيلاً اهتزّت لهوله الجزيرة العربيّة. لقد أحرقوا الكنائس في اليمن، ونجران وحضر موت وغيرها من المناطق والمصلّون في داخلها، فمنهم من مات حرّاً ومنهم من مات اختناقاً، وحتى أتوا على أكبر عدد ممكن جمعوهم في أخدود، وصبّوا عليهم النفط وأحرقوهم بأمر الملك أبو نؤاس بعد أن عمدوا إلى تهويدهم، وما فعلوه بالمسلمين وقبلة بالإسلام لم يقلّ فظاعة عمّا ارتكبهه بحقّ غيرهم من الأمم⁽²⁾.

فقد عمد اليهوديّ عبد الله بن سبأ إلى اعتناق الإسلام، وأظهر غيرة منه عليه ما أخفي على المسلمين مرامه الحقيقي، إذ صاغ لنفسه أفكاراً فقهية أبدى من خلالها حرصاً شديداً على تعاليم الإسلام وتطبيقه حتّى جمع حوله أنصاراً في مختلف الأقاليم والأمصّار؛ وعندما تمكّن من وضع نفسه في موقع المرجعية، أخذ يبعث الفرقة والتفرقة

١- البقرة: 61

٢- انظر: جان صليبة توكمه جي، جريدة الديار اللبنانية، 24 كانون الثاني 1999م، ص 1/ 2

بين رجالات الحكم والحكام فيما بينهم من جهة وبين المسلمين من جهة أخرى، حتى استطاع شطر المسلمين إلى معسكرين، والإيقاع بينهما، فاقتتل الإخوة والأشقاء، ولا يزال الإسلام إلى اليوم يعاني من التفرقة والافتتال، وهم - أي اليهود - بكلّ حقد ولؤم يتفرون¹.

وإذا نظرنا إلى فرقة السبئية الذين يسبون أصحاب رسول الله (ﷺ) إلا قليلاً، وينسبونهم إلى الكفر والنفاق، ويتبرأون منهم؛ لذا سُموا أيضاً بـ «التبرئية»، وقد تبرأ منهم الإمام عليّ (عليه السلام)؛ وكان يتزعم هؤلاء عبد الله بن سبأ اليهودي الذي أظهر إسلامه خداعاً للمسلمين، ودعا إلى الغلو في عليّ (عليه السلام) لأجل تفريق هذه الأمة، كما فعل أمثاله من النصرانية قديماً وحديثاً بسبب ما كان من العداوة والقتال بين قومه وبين النبيّ (ﷺ) وإجلاء عمر (رضي الله عنه) من بقي منهم في أرض الحجاز. وأعان ابن سبأ على دعوته آخرون من أهل ملته، ومن زعماء النصارى والوثنيين والصابئة، وظهر من هؤلاء جماعة قالوا بألوهية سيدنا عليّ (عليه السلام) وعلم بهم وقاتلهم².

ويبدو أن هذا الشعب هو من نسل (سلالة) قابيل قاتل أخيه هابيل الذي لعنه وحكم عليه أن يعيش تائهاً مشرداً؛ لذلك فهو شعب ينتقم؛ ونطالع في تاريخهم السحيق عن واحدة من جرائمهم القديمة التي ارتكبوها في فلسطين على يد أبناء يعقوب الذين لجأوا إلى الكيد والمكر والغدر في تنفيذها على الرغم من أن «حمور» الذي استضافهم في أرضه ووطنه عرض عليهم المصاهرة والتعايش ووضع أملاكه وأمواله في تصرفهم؛ ليتكّنوا ويتجرأوا؛ لأن ابنه «حكم» أحب «دينة» ابنة «يعقوب» وعاشرها خلصة، فقبلوا بمكره، شرط أن يختار جميع أهل البلد، وفي ثالث يوم الاختتان، وهم يعانون من جروح أبدانهم كمنوا لهم وغدروا بهم، وأعملوا السيف فيهم وسبوا النساء والأطفال بعد أن غدروا بـ «حمور» و «شكيم»، ولا يزالون يمارسون طقوسهم التي اعتادوا عليها حتى يومنا هذا، فقد استطاعوا أن يقسموا المسلمين إلى فئتين متناحرتين، وأن لا تزال النار راكدة تحت المسيحيين بعد أن ظهرت تباشيرها في العراق وسوريا ولبنان واليمن.

ويختتم كاتب المقال بالقول: فإن حروف العربية الثمانية والعشرين لن تفي بغرض وصف الأحداث ولو تضاعفت عشرات المرات؛ لأنه لا يمكن وصفها بلغة البشر، حيث

1- انظر: جان صليبة توكمه جي، جريدة الديار اللبنانية، 24 كانون الثاني 1999م، ص 1 / 2
2- ابن حجر الهيتمي، الصواعق المحرقة، شركة الطباعة الفنية المتحدة، القاهرة، 1385هـ / 1965 م.

يبدو أنني أحتاج إلى أبجدية، وتعاليم أبالسة الجحيم وشياطين ما تحت الأرض.

لقد انتظر اليهود بعد الهزيمة أمام الكنيسة الظروف المناسبة بصبر الجلود للانتفاض على فريستهم الحمل الوديع المتواضع، وما أكثر الظروف والمناسبات التي كانوا يتهينون لها لخدمة أهدافهم¹! وها نحن فيها ونراقبها، ونتحسّر على ما يدور حولنا من وهن وظلم وجهالة تلتف جميع زعماء هذه الأمة الإسلامية والعربية بعباءة هذه الفتنة الظالمة التي لا تراعي فيها الإنسان والحيوان و الجماد، وتحاول أن تقلب الموازين الإنسانية على أعقابها، وكيف لا وهي من صناعة ربّ غير موجود على هذه الأرض التي تحرق بأيدي العرب المسلمين أنفسهم.

ومن هنا، نرى أنّ تاريخ هؤلاء القوم، تاريخهم القديم الذي يعود إلى آلاف السنين نراه يتجدّد بالأساليب التي أتقنوها، والأساليب التي ابتدعوها وهم على مرأى من هذا الصراع القائم على الأرض العربية والإسلامية وزعماء الأمة في فترة تنويم أو نوم عميق وطويل، وكأنّ الأمر لا يعينهم ما داموا يقبضون الثمن حتّى تصلهم الأسلحة الفتاكة التي يستعملونها أسيادهم اليهود بأموال إخوانهم العرب المسلمين.

وإذا عرجنا على يهودنا الذين يلتقون حول تاريخنا القديم والحديث نجدهم متأهبين للعمل الذي يوصلهم إلى مصالحهم الخاصة، ويجعل منهم مستشارين لأبناء العرب والإسلام ضعفاء العقيدة والدين.

إنّ اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله (ﷺ) قبل مبعثه، فلمّا بعثه الله من العرب وليس منهم، كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه².

فهؤلاء أحبار اليهود وأهل الشرور والعداوة لرسول الله (ﷺ) وأصحابه، وأصحاب المسألة، والنّصب لأمر الإسلام الشرور ليطفئوه، إلّا ما كان من عبدالله بن سلام³ ومخيريق؛ قال ابن إسحاق: كان عبدالله بن سلام حبراً عالماً قال: (لمّا سمعت برسول الله (ﷺ) عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنّا نتوكّف (نرتقب ونتوقع) له، فكنتُ مُسرّاً لذلك صامتاً عليه حتّى قَدِم رسول الله (ﷺ) المدينة، فلمّا نزل بقاء في بني عمرو بن عوف أقبل رجل حتّى أخبر بقدمه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها وعمتي خالدة بنت

1- جان صليبيا توكمه جي، جريدة الديار اللبنانية، مرجع سابق، ص 1 / 2.

2- ابن هشام، السيرة النبوية، 2 / 196.

3- المصدر نفسه 163 - 164.

الحارث تحتي جالسة، فلما سمعتُ الخبر بقُدوم رسول الله (ﷺ) كَبُرْتُ، فقالت لي عمتي حين سمعتُ تكبيرِي: خَيْبِكَ الله! والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادمًا ما زِدْتُ، فقلت لها: أي عمة هو والله، أخو موسى بن عمران وعلى دينه بُعث بما بُعث به: فقالت: أي ابن أخي، أهو النَّبِيُّ الذي كُنَّا نخبِرُ أنَّه يبعث نفس السَّاعة؟¹، فقلت لها: نعم، فقالت: فذلك إذا فقال: ثم خرجت إلى الرَّسول (ﷺ) فأسلمت، ثم رجعت إلى أهل بيتي، فأمرتهم فأسلموا، ثم قال: وكتمت إسلامي من يهود، ثم جئت رسول الله (ﷺ) فقلت له: يا رسول الله، إنَّ يهود قومٌ بُهت - البهت: الباطل - وإنِّي أحبُّ أن تدخلني في بعض بيوتك وتغيِّبني عنهم، ثم تسألهم عَنِّي حتَّى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي؛ فإنَّهم إن علموا به بهتوني وعابوني، فأدخلني رسول الله (ﷺ) في بعض بيوته ودخلوا عليه وكَلَموه وسألوه، ثم قال لهم: أي رجل الحصين بن سلام فيكم؟ قالوا: سيِّدنا وابن سيِّدنا وحَبْرنا وعالمنا، فلما فرغوا في قولهم خرجتُ عليهم فقلتُ لهم: يا معشر يهود، اتَّقُوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنَّكم لتعلمون أنَّه لرسول الله، تجدونه مكتوبًا عندكم في التَّوراة باسمه وصفته، فإنِّي أشهد أنَّه رسول الله (ﷺ) وأؤمن به وأصدِّقه وأعرِّفه، فقالوا: كذبت، ثم وقعوا بي، فقلت لرسول الله (ﷺ): ألم أخبرك يا رسول الله أنَّهم قوم بُهت أهل غدر وكذب وفجور، فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث فحسُن إسلامها².

أما عن حديث مخبريق، كان حبرًا عالمًا، وكان رجلاً غنيًّا كثير الأموال من النَّخل، وكان يعرف رسول الله (ﷺ) بصفته، وما يجد في علمه، وغلب عليه إلفُ دينه، فلم يزل على ذلك حتَّى إذا كان يوم أحد، وكان يوم السَّبْت، قال: يا معشر يهود والله إنَّكم لتعلمون أنَّ نصر محمَّد عليكم لحقٌّ، قالوا: إنَّ اليوم يوم السَّبْت، قال: لا سبت لكم ثمَّ أخذ سلاحه، فخرج حتَّى أتى رسول الله (ﷺ) بأحد، وعَهْد إلى مَنْ وراءه من قوله: إن قتلت هذا اليوم فأموالي لمحمَّد (ﷺ) يصنع منها ما أَرادَه الله، فلما اقتتل النَّاس قاتل حتَّى قُتِل فكان رسول الله (ﷺ) - فيما بلغني - يقول: مخبريق خير يهود، وقبض رسول الله

1- قال السهيلي: هذا الكلام في معنى قوله عليه السَّلام إنِّي لأجد نفس السَّاعة بين كتفي وفي معنى قوله: نذير لكم بين يدي عذاب شديد، ومن كان بين يدي طالبه فنفس الطالب بين كتفيه وكأنَّ النَّفس في هذا الحديث عبارة عن الفتن المؤذنة بقيام السَّاعة، وكان بدوها حين ولي أمته ظهر خارجًا من بين ظهرانيهم إلى الله تعالى، ألا تراه يقول في حديث آخر: (أنا أمان لأمتي فإذا ذهبت أمتي ما يوعدون، لكانت الفتنة ثمَّ الهرج المتصل بيوم القيامة). ونحو من هذا قوله عليه السَّلام: (بعثت أنا والسَّاعة كهاتين: يعني السَّباية والوسطي). الحاشية رقم 3، ص 163 - 164.

2- ابن هشام، السيرة النبوية، ١٦٣ / ٢ - ١٦٤.

(ﷺ) أمواله، فعامة صدقات رسول الله بالمدينة منها¹.

ودعا رسول الله (ﷺ) اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام ورغبهم فيه، وحذّرهم من عذاب الله ونقمته، فقال له رافع بن خارجة ومالك بن عوف: بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلم، وخيرًا، فقال، فانزل الله عزّ وجلّ في ذلك، من قولهما: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٧٠) ². وجاء نفر من أحبار يهود إلى رسول الله (ﷺ) وقالوا: يا محمد، أخبرنا عن أربع نسائك عنهنّ، فإن فعلت ذلك اتّبعتناك، وصدّقناك، وآمنّا بك، قال رسول الله (ﷺ):

- عليكم بذلك عهدُ الله وميثاقه، لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدقوني؟ قالوا :
- نعم، قال رسول الله (ﷺ): فاسألوا عما بدا لكم، قالوا :
- فأخبرنا كيف يشبه الولد أمّه، وإنّما النّطفة من الرّجل؟ فقال لهم رسول الله (ﷺ):
- أنشدكم بالله، وبأيّامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أنّ نطفة الرجل بيضاء غليظة، ونطفة المرأة صفراء رقيقة، فأيتّهما علّت صاحبتهما كان لها الشّبه. قالوا: اللهم نعم... وقالوا: فأخبرنا كيف نومك؟ فقال:
- أنشدكم بالله، وبأيّامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أنّ نوم الذي ترعمون أنّي لستُ به تنام عينه وقلبه يقظان؟ فقالوا: اللهم نعم، قال: فكذلك نومي، تنام عيني وقلبي يقظان، قالوا: فأخبرنا عما حرّم إسرائيل على نفسه؟ قال رسول الله (ﷺ):
- أنشدكم بالله، وبأيّامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أنّه كان أحبّ الطّعام والشّراب إليه ألبان الإبل ولحومهما، وأنّه اشتكى شكوى، فعافاه الله منها، فحرّم على نفسه أحبّ الطّعام والشّراب إليه شكرًا لله، فحرّم على نفسه لحوم الإبل وألبانها؟ قالوا: اللهم نعم. قالوا: فأخبرنا عن الرّوح؟ قال:

١- قال السهيلي: هذا الكلام في معنى قوله عليه السّلام إنّني لأجد نفس السّاعة بين كتفي وفي معنى قوله: نذير لكم بين يدي عذاب شديد، ومن كان بين يدي طالبه نفس الطالب بين كتفيه وكأنّ النّفس في هذا الحديث عبارة عن الفتن المؤذنة بقيام السّاعة، وكان بدؤها حين ولي أمّته ظهر خارجًا من بين ظهرانيهم إلى الله تعالى، ألا تراه يقول في حديث آخر: (أنا أمان لأمتي فإذا ذهبت أمتي ما يوعدون، لكانت الفتنة ثمّ الهرج المتصل بيوم القيامة). ونحو من هذا قوله عليه السّلام: (بعثت أنا والسّاعة كهاتين: يعني السّباية والوسطي). الحاشية رقم 3، ص ١٦٤ / ٢ - ١٦٥.

2- سورة البقرة: 170. السيرة النبوية، 2/ 200 - 201.

- أنشدكم بالله، وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون جبريل، وهو الذي يأتي؟ قالوا: نعم، ولكنه يا محمد لنا عدو، وهو ملك، إنما يأتي بالشدة، ويسفك الدماء، ولولا ذلك لا تتبعناك؟ قال: فأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ: (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ وَرَيْقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وِرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَنَ (١٠٢) أَي السَّحَرِ (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ) (١). إنكار اليهود نبوة داود عليه السلام، ورد الله عليهم (٢).

ولا ينبغي أن ننسى أن نجاح الرسول، والوعي الذي كوّنته دعوته ووجود العصبية القبلية أمور مسؤولة كثيرًا عن ظهور الأنبياء الكذابين، مثل طليحة في بني أسد، والأسود العنسي - الذي خرج في حياة الرسول - في اليمن، وذي التاج لقيط بن مالك الأزدي في عمان، وربما كان للتأحية القبلية الأثر الأول في ظهورهم؛ فلم تكن حروب الردة إذاً لإرجاع أناس أسلموا، ثم تركوا الإسلام، بل كانت حروباً سياسية دينية لإخضاع من لم يخضع، وضمه إلى حظيرة الإسلام.

ولا ننسى امتزاج الدين بالسياسة في الدعوة الإسلامية منذ بدئها. إنها حركة توحيد العرب، وقد أتم أبو بكر توحيد الجزيرة، وعلى هذا يمكننا عدّ عمله متمماً لعمل الرسول (ﷺ) وقمة الوعي السياسي الداخلي، أو الميل نحو التكتل الذي ظهر بشكل ضعيف مرتجف قبيل الإسلام.

وكان أول أثر لحروب الردة، قبل توحيد الجزيرة، توحيد صفوف المدينة، بعد الخلافات والمنافسات التي خلفتها المعركة الانتخابية الأولى، وتلا ذلك توحيد الجزيرة.

ثامناً: أسباب صعود الإسلام والتوسع خارج الجزيرة

انتصر التيار الإسلامي بعد وفاة الرسول (ﷺ) وتدفق التيار المنتصر، وسار خطوة جديدة بالتوسع خارج الجزيرة؛ وهذا التوسع يعني نشر سيادة الإسلام، ونشر العقيدة. وقد

1- البقرة: 102.

2- ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 191 - 192.

حمل التّيار الإسلاميّ هذه المِرّة العرب تحت لوائه ودفع بهم إلى الخارج كقوّة موحّدة. وكان أهل المدن أبطال الإسلام في الرّدة وهم الآن منظمّو الفتوحات وقادتها. وعلينا أن نتذكّر الفرق بينهم وبين القبائل في الدّوافع، وفي درجة الوعي الإسلاميّ.

لقد تدفّق التّيار الإسلاميّ العربيّ، واتّجه إلى تكوين إمبراطورية عربيّة إسلاميّة، وكانت ظروف العرب واتّجاهات التّيار الإسلاميّ مسؤولّة عن ذلك لأسباب عدّة:

1. إنّ الإسلام فرض الجهاد على المسلمين.
2. أثارت حروب الرّدة الرّوح العسكريّة في الجزيرة، ولا ينتظر أعمالها، ومن الضّروريّ توجيه القوّات المقاتلة إلى مجال جديد، وأورثت حروب الرّدة وإخضاع الجزيرة بالقوّة بعض الأحقاد على المدينة، وبقي أثر العصبيّة القبليّة، وكان لا بدّ من معالجته.
3. إنّ الغزو جانب أساسيّ من الحياة البدويّة، وما دام الإسلام أوقفه في الجزيرة، فلا بدّ من توجيه جديد، وذلك بتحويل الإمكانات القبليّة، والرّغبات القبليّة وجهة التّوسّع في قضيّة مشتركة، وتبدو أهميّة هذا التّوجيه إذا تذكّرنا أنّ موارد الجزيرة تقلّ عن حاجة سكّانها، ويلزم إيجاد مورد عيش جديد، وتحويل الغزو إلى جهاد خارج الجزيرة.

كنا قومًا في شقاء وضلالة فبعث الله فينا نبيًّا فهدانا الله ورزقنا على يديه فكان فيما رزقنا حبّة زعموا أنّها تنبت في هذه الأرض، فلمّا أكلنا منها وأطعمنا أهلينا قالوا لا صبر لنا حتّى تنزلوا هذه البلاد، فنأكل هذه الحبّة⁽¹⁾.

إذاً، فالصّراع بين البادية والحضارة أو زحف البادية على الحضارة قديم، والموجة العربيّة بدأت قبل الفتح بما يزيد على قرنين، ولكنّها كانت ضعيفة محدودة ولا هدف لها. فالإسلام وحدّ العرب، وأعطاهم رسالة عالميّة، ورخّف بهم إلى البلاد المجاورة (الهلل الخصب وحده)، ولا يتمثّل التّيار الإسلاميّ في نشر الدّين الإسلاميّ بالسيف، بل يتمثّل في نشر سيادة الإسلام، وتخيير النّاس بين قبول الدّين ودفع الجزية والخضوع.

فالاتّجاه الإسلاميّ يعود إلى انتصار العرب بالدرّجة الأولى، فالقوّة الدّافعة في الدّين

1- أبي يوسف، يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج، المطبعة السلفية، القاهرة، 1936، ص 16 و 53. (اعتمد في هذه الطبعة على نسخة مخطوطة من الخزّانة التيمورية رقم (674) مع معارضتها بطبعة بولاق 1302هـ).

الجديد وفتوة الشعب العربي، وتحفزه، واجتماع كلمته كانت سر تفوقه أمام الضعف الداخلي في الدولتين البيزنطية والساسانية، مع انقسام ديني، وتباين اجتماعي، وإرهاق في الصرايب، وإنهاك نتيجة الحروب الطوال، فذلك عامل ساعد على سرعة تغلب العرب، ولكن تأثيره سلبي في حين إن الناحية الإيجابية تتعلق بالعرب أنفسهم الذين تسلّحوا بقوة الإيمان بالله.

وموجة التوسع العربي تمثل قوة التيار الإسلامي، وتحويله التيار القبلي إلى تيار عربي عام، واتحاد التيارين في وجهة إسلامية بالتوسع لصالح الإسلام، ومجد حملة لوائه العرب، وقد بقي الإسلام والعرب متلازمين كوجهي النقد مدة طويلة أمام الشعوب غير العربية.

وبتوسع العرب خارج الجزيرة تعرض الشعب العربي لأوضاع جديدة ولاتجاهات خطيرة على كيانه، أخطرها امتزج فيه رد فعل الديانات الفارسية التي غمرها الإسلام، ورد فعل القومية الفارسية التي محا دولتها، وكان هذا من أخطر التيارات في التاريخ الإسلامي، وأبعدها أثراً.

يضاف إلى ذلك تيار اقتصادي تدلّ عن تسرب الأموال إلى العرب وتأثير ذلك في وضعهم المعاشي، وفي علاقاتهم السياسية بعد ذلك¹.

والذي يبعث على الدهشة والاشمئزاز الممزوجين بالحق، أنّ الصّهاينة اليهود الذين كانوا ولا يزالون يرتكبون أبشع الجرائم في حقّ الشعوب التي استضافتهم وأكرمتهم ومنحتهم حقوقهم والامتيازات مثل المواطنين؛ وهنا، ينتصب سؤال ما بين الأرض والسماء: هل في جعبتك قول يناسب أفعالهم أكثر من قول: (انق شر من أحسنت إليه) وهم الذين قد صنعوا الإرهاب، والجرائم، والغدر اليهودي الذي جسّدوه في مجازر حقدهم وإلحاق الأذى بالشعوب، وذاك أنّ جرائمهم الشنيعة لا تحصى ولا تعدّ.

وبذلك كلّ، يتبين لنا أنّ الإسلام استطاع بتعاليمه السمحة، وقوته الروحانية أن يقلّم مخالب العصبية القبلية التي كانت مُستشرية في صحراء شبة الجزيرة ومجالها، وأن

1- ويذكر الطبري أن بعد معركة ذات السلاسل، قام خالد خطيباً في الناس، يرغبهم في بلاد العجم، ويژهدهم في بلاد العرب، وقال: «ألا ترون إلى الطهام كرفع التراب؟ وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله، والدعاء إلى الله عزوجل ولم يكن إلا المعاش لكان الرأي نقارع على هذا الرديف حتي نكون أولى به، وتولي الجوع والإقلاص من تولاه أثاقل عما أنتم عليه». (انظر: تاريخ الطبري، 3/ 355).

يجعلها تندحر، وينخفت فحيح أوأرها... وبالتالي استطاع أن يوظف طاقتها في الفتوحات والانتصارات المتتالية المذهلة، وأن يبنّي دولته التي أشرقت بأنوارها الساطعة على بلدان وأصقاع شاسعة من الكرة الأرضية... فهل سيعيد الزمان دورته الطبيعية، وتشرق شمس الإيمان والعدالة من جديد؟

الخاتمة

من خلال التحليل العميق، يظهر أنّ الإسلام يمكن أن يعمل كعامل توحيد يعزّز من الروابط الاجتماعية والثقافية، ويقدم بديلاً للعصبيات القبلية. ومع ذلك، يتطلب تحقيق هذا الهدف فهماً عميقاً للسياقات المتغيرة التي تؤثر في المجتمعات الإسلامية. إنّ التفاعل بين الدين والهوية الاجتماعية هو مجال غنيّ يتطلب المزيد من البحث والنقاش.

المصادر و المراجع

القرآن الكريم.

1. الأزرقى، أبو الوليد محمد بن عبد الله، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق : رشدي الصالح ملّحس، دار النفائس للنشر، بيروت، لا ط.
2. ابن الأثير، 1979م، الكامل في التاريخ، تحقيق : عمر عبدالسلام تدمري، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 1، ج 1.
3. ابن عبد ربه، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد، (1404هـ)، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1.
4. ابن هشام، عبدالملك، (1955م)، السيرة النبوية، تحقيق : مصطفى السقا، وإبراهيم الإبياري، وعبدالحفيظ الشلبي، شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط 2.
5. أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج ، طبعة بولاق 1302هـ القاهرة، المطبعة السلفية.
6. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى، (1405هـ)، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق: د. عبد المعطي قلّجعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1.
7. الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير (1387هـ)، تاريخ الطبري – تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ذخائر العرب، القاهرة، دار المعارف 1962، ج 3.
8. الهيثمي، ابن حجر، الصواعق المحرقة، شركة الطباعة الفنية المتحدة، القاهرة، 1385هـ / 1965 م.

9. حميد الله، محمد، مجموعة الوثائق السياسية، العهد النبوي و الخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، الطبعة الخامسة، 1985م.

01. زكريا، محمد بكار، السيرة النبوية، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان 1417هـ / 1997م.

11. شلبي، أحمد، التاريخ الإسلامي و الحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1959م، ج.1

12. علي، جواد، (2001م)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار السّاقى، بيروت، ط 4.

المراجع الأجنبية

1. Claude Cahen :histoire des arabes et des peuples musulmans. 1991.
2. La Beaume (Jules):Mahomet, R-F, N:13, 1869.
3. M Achena : Henri Massé(1886-1969)cahiers de civilization medievale.
4. Febvre Lucien: Henri Massé. l'islam.annales.15. 1932.
5. M.Rodinson. :R Blachère.le coran.Revue de l'histoire des religions.1959.1.

دلالات الأمثال الشعبية عند سلام الرّاسي (شيخ بريح أنموذجًا)

The Meanings of Popular Proverbs in Salam Al-Rassi's

«Sheeh B'reih» – Selected Models

د. زينب حبيب الحسيني

Zeinab habib housseini

تاريخ القبول 2025 / 2/3

تاريخ الاستلام 2025 / 1/20

المستخلص

تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على دلالات الأمثال الشعبية عند سلام الرّاسي «شيخ بريح» أنموذجًا، وهي تقوم على رصد السلوك الإنساني في حالات ومواقف متغيرة، وتحمل في طياتها دلالات غايتها الطابع التعليمي، والطابع الشعبي، والطابع الأخلاقي، وتنوّع التراكيب، والاستخدام الفني للألفاظ.

تهدف الدراسة إلى الكشف عن أهمية هذه الظاهرة وأثرها الدلالي، والإفادة من مخرجاتها كأساس ينطلق منه البحث من خلال مدونة «شيخ بريح»، كما تهدف إلى تقديم رؤية جديدة ومتكاملة في الأمثال الشعبية، ونظرة رؤيوية واعية للمستقبل والأدب المتكامل مع الحياة، يميّزها التفاؤل والنظرة الثاقبة للحياة وللوجود، وبرز ذلك من خلال الإشكالية المحورية: هل الأمثال الشعبية نتاج أدبي يستحق الدراسة وله دلالاته، أم أنّه كلام عامّة لا ينطوي على قيمة تداولية؟

قد اعتمدت في الدراسة على المنهج الاجتماعي والمنهج الاستقرائي التحليلي، وقد اتّبع هذين المنهجين لأهميتهما في تبيان مكامن البحث، واستعنت بالأدوات الإجرائية كالاستقراء، ونظرية الحقول الدلالية، والنظرية السياقية عند التعامل مع الأمثال بمراعاة السياقات المنتمية إليها، وقد قسّمت هذه الدراسة إلى ثلاثة حقول:

أولاً: الحقل الاجتماعي

ثانياً: الحقل الأخلاقي

ثالثاً: الحقل الديني

ومن أهم الاستنتاجات التي تم التوصل إليها

- المثل الشعبي هو جنس أدبي حيّ يعبر عن مختلف تجارب الشعوب ومرآة عاكسة لحياتهم.
- تتميز الأمثال الشعبية بسمات متنوعة أهمها الدقة في التعبير وإصابة المعنى وإيجاز اللفظ.
- عبرت الأمثال الشعبية عن مختلف العلاقات داخل المجتمع الواحد، وحاولت بيان العلاقة الصحيحة التي يجب اتباعها.
- الكلمات المفتاح: الأمثال الشعبية- الأخلاق- القيم- التعليم- الاجتماعي- تجارب- العلاقات- نظرة رؤيوية.

Abstract

This study aims to shed light on the meanings of popular proverbs in Salam Al-Rassi's work *Sheeh B'reih* as a model. These proverbs reflect human behavior in changing situations and carry connotations that serve educational, popular, and moral purposes. They also showcase diverse structures and artistic use of language.

The study seeks to reveal the significance of this phenomenon and its semantic impact, utilizing the findings as a foundation for research based on *Sheeh B'reih*. Additionally, it aims to present a new and comprehensive vision of popular proverbs, offering an insightful perspective on the future and a literary outlook integrated with life—characterized by optimism and a deep understanding of existence. This emerges through the central research question: *Are popular proverbs a literary product worthy of study with meaningful implications, or are they merely common speech with no

real pragmatic value?*

The study adopts the social and inductive–analytical approaches, given their importance in exploring the research dimensions. It also employs procedural tools such as induction, the theory of semantic fields, and contextual theory to analyze proverbs within their relevant contexts. The study is divided into three main fields:

1. The Social Field.
2. The Moral Field.
3. The Religious Field.

Key Findings:

- Popular proverbs represent a dynamic literary genre that reflects the diverse experiences of societies and serves as a mirror of their lives.
- These proverbs are characterized by precision in expression, accuracy in meaning, and brevity in wording.
- They articulate various social relationships within a community and attempt to define the correct patterns of interaction.

Keywords : Popular Proverbs – Ethics – Values – Education – Social – Experiences Relationships – Visionary Perspective.

المقدمة

تعدّ الأمثال الشعبيّة الأكثر انتشاراً وشيوعاً بين الأنواع الأدبيّة، كونها مرآة لمشاعر الشعوب وتجاربها على اختلاف سبلها وطبقاتها وانتماءاتها، وهي تجسيد لمختلف تصوّراتها وعاداتها وتقاليدها ومعتقداتها في صور حيّة ودلالات إنسانية شاملة؛ فهي بذلك تعدّ الذاكرة الحيّة للشعوب؛ لأنّها سريعة التوسّع، وتحفظ من جيل إلى آخر وتتقل بالتواتر من لغة إلى أخرى عبر مختلف الأزمنة والأمكنة، وتتسم بالإيجاز وجمال اللفظ وكثافة المعاني، وهي وسيلة من وسائل حفظ التجارب والحكم.

«والمثل لا يعبر عن الوقائع بشكل مباشر، وإنما يمثل لها تمثيلاً عبر صورة أو قصة ما، ولذلك كان المثل في جملته إشارة تحيل إلى معنى أبعد»⁽¹⁾. «فالأمثال الشعبية تتماشى ومنطلقات الأمثال في التعبير ذلك أن المثل رصد للسلوك الإنساني في حالات ومواقف متغيرة، وليس رصدًا لقضية ذات موضوع ووضع اجتماعي محدد»⁽²⁾، ومن سمات المثل، كما لخصها بعض الدارسين: الطابع التعليمي، والطابع الشعبي، تنوع التراكيب، والاستخدام الفني للألفاظ.

كما أن الأمثال الشعبية تتميز بسمات الإيقاع والتناغم الموسيقي في ألفاظها، مما جعلها سهلة التداول والانتشار وحقق لها الاستمرارية: «والحقيقة أن السبب في بقاء الأمثال متداولة إلى يومنا هذا، هو إيقاعها الناتج عن قصرها وإيجازها، فسهل الحفظ وبقيت الأفواه تناقل الأمثال»⁽³⁾، «مش رمانة قلوب مليانة»⁽⁴⁾

انطلاقاً من هذه الأرضية، أردت من هذه الدراسة التي تتناول الأمثال الشعبية عند سلام الراسي كشكل من أشكال التعبير الشعبي الأكثر تداولاً في الأوساط الشعبية، وأن تكون في شكل الموضوعات التي تنتظم في صورة مجالات مختلفة بحسب المعنى أو المضمون الظاهر للمثل.

لذا يحاول هذا البحث تصنيف الأمثال في شكل حقول دلالية، حيث ستعالج الحقل الاجتماعي، والحقل الديني، والحقل الأخلاقي.

وبما أن الأمثال الشعبية جاءت لتعبر عن مختلف العلاقات والفئات داخل المجتمع وداخل الأسرة، وانطلاقاً من أن التمسك بالتراث ظاهرة اجتماعية ولها دلالاتها المعنوية؛ جاء هذا البحث لي طرح سؤالاً محورياً هو:

هل الأمثال الشعبية نتاج أدبي يستحق الدراسة وله دلالاته، أم أنه كلام عامة لا ينطوي على قيمة تداولية؟

1- عدلاوي، علي بن عبد العزيز، الأمثال الشعبية ضوابط وأصول منطقة الجلفة نموذجاً، دار الأوراسية، ط 1، 2010، ص 45.

2- م.س. التلي بن الشيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، ص 157 - 158.

3- فالح، سميرة، البنية والإيقاع في الأمثال الشعبية، المعنى بحلة أدبية محكمة، المركز الجامعي خنشلة، العدد الأول، جوان، 2008، ص 130.

4- م. س. الراسي، سلام، حكي قرايا وحكي سرايا، ص 113.

ومن هذه الإشكالية تتولّد عدّة تساؤلات:

- كيف عبّر المثل الشعبي عن مختلف العلاقات الاجتماعية القائمة بين الفرد ومجتمعه؟
- هل استطاع المثل الشعبي أن يضع قوانين للفرد يسير عليها وتوجّهه نحو الأفضل؟
- ما الدلالات التي تقف خلف الأمثال الشعبيّة التي طرحها سلام الراسي كثقافة شعبية قروية؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية اخترت موضوع البحث وعنوانته بـ: **دلالات الأمثال الشعبيّة عند سلام الراسي¹ «شيخ بريح» نماذج مختارة.**

واستندت في دراسة الأمثال الشعبيّة عند «سلام الراسي» إلى **المنهج الاجتماعي والمنهج الاستقرائي التحليلي**، وقد اتّبعْتُ هذين المنهجين لأهميّتهما في تبيان مكان البحث، واستعنت بالأدوات الإجرائية كالاستقراء، ونظرية الحقول الدلاليّة، والنظريّة السياقيّة عند التّعامل مع الأمثال بمراعاة السياقات المنتمية إليها، إلى جانب الوصف والتحليل في مراحل البحث المختلفة.

فالمنهج الاجتماعي يُعنى بكشف الخصائص الفنّية الاجتماعية دلالاتها، وتبيان المقوّمات الجماليّة التحليليّة التي تتّسم بها الظواهر الأدبيّة، ومن أسسه ربط الأدب بالمجتمع والنظر إليه على أنّه لسان المجتمع، فالأدب صورة العصر والمجتمع والأعمال الأدبية وثائق تاريخية واجتماعية، والأديب يؤثر في مجتمعه ويتأثر به، ورؤيته تتبلور بتأثير المجتمع والمحيط والتربية.

أمّا المنهج الاستقرائي التحليلي فهو عبارة عن عملية دقيقة تهدف إلى تحليل البيانات، وملاحظة الظواهر المرتبطة بها من أجل الربط بينها بمجموعة من العلاقات الكلية العامّة، كما يُعرفُ المنهج الاستقرائي التحليلي بأنّه الأسلوب البحثي الذي يستخدمه الباحث في تعميم دراسته الخاصّة على الدراسة العامّة المرتبطة بالموضوع الذي يبحث

1 - **سلام الراسي**، شيخ الأدب الشعبيّ، ولد عام 1911 في بلدة إبل السقي، جنوب لبنان. تنقّل بين وظائف عامّة متنوّعة، وبقي على هذا المنوال حوالي عشرين عاماً لحين تقاعده. نشر أوّل كتبه سنة 1971 عن عمر يناهز السّتين. كتب الراسي الشعر والزجل شابّاً، ثمّ تحوّل إلى جمع المأثور الشعبيّ ومجمل أصناف الأدب القرويّ. نال عن مؤلّفاته عدداً من الأوسمة والتكريمات، كما حصّد برنامج «الأدب الشعبيّ في لبنان» شهرة واسعة. توفي عام 2003 عن 92 عاماً.

فيه، أي يربط بين الدراسة التي عمل على تنفيذها بصفته جزءاً من كل، فيعتمد هذا المنهج على استخدام مجموعة من الاستنتاجات القائمة على الملاحظات، والتقديرات، والتجارب.

نقد المدونة: كتاب شيخ بريح

هذا الكتاب صادر عن نوفل، هاشيت أنطوان، مع «شيخ الأدب الشعبي» سلام الراسي على مدى عقود من الزمن، عيون التراث الشعبي اللبناني من أمثال وحكم، فوثق التجربة الشعبية اللبنانية، والرفيعة الجنوبية منها بشكل خاص، بأسلوبه الفذ الذي امتاز بالسلاسة وبمزاجية بارعة بين اللهجتين الفصحى والمحكية.

مفهوم المثل الشعبي

اهتم العديد من الباحثين بدراسة المثل الشعبي وإعطاء تعاريف مختلفة له، ومنها: «المثل عبارة عن جملة أو أكثر تعتمد السجع وتستهدف الحكمة والموعظة... المثل الشعبي تقطير لقصة أو حكاية، ولا يمكن معرفته إلا بعد معرفة القصة أو الحكاية التي يعبر المثل عن مضمونها»⁽¹⁾، ويمكن القول إن الأمثال الشعبية جزء من الأدب وضرب من ضروب الإبداعية، وهو قول وجيز يعبر عن خلاصة تجربة، مصدره كامل الطبقات الشعبية، يتميز بحسن الكتابة وجودة التشبيه، له دلالات متنوعة ووظائف مختلفة»⁽²⁾.

وهناك العديد من الباحثين من اتفق على أن الحكمة والمثل الشعبي يحملان المعنى نفسه، وهناك من أكد على استقلالية كل منها عن الآخر، فالدارسون اتفقوا على أن المثل يقوم على أساس التشبيه: «المثل أساسه التشبيه وما يقع في حكمه من وجوه بلاغية، أما الحكمة فهدفها إصابة المعنى وترمي إلى التعليم، ويكون إنتاجها وشيوعها بين الخاصة، تقوم على التجريد، وتستدعي التأمل، وهي أكثر قابلية للتعميم»⁽³⁾.

أولاً: الحقل الاجتماعي

الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، إذ لا يمكنه العيش إلا ضمن الجماعة التي تحكمها

1- التلي بن الشيخ: منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د. ط، 1990، ص 155.

2- زغي، أحمد، الأدب الشعبي بين الدرس والتطبيق، مطبعة مزاور، الوادي، ط 1، 2008، ص 88.

3- بورايو، عبد الحميد، الأدب الشعبي الجزائري، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007، د. ط، ص 67 - 68.

مجموعة من الضوابط، مثل الدين، والأعراف، والتقاليد، والتي بدورها توجه العلاقات داخل الجماعة البشرية، كالزواج والجوار والصدقات والتعاون والتبادل التجاري، والمعاملات المالية كالأسواق والحرف، وغير المالية القائمة على الإكراميات كالأعراس والمآدب ونحوها.

1 - العلاقة بين الأقارب (صلة القرابة)

تبرز علاقة وطيدة بين الأقارب فيما بينهم سواء أكانت من جهة الأب (أعمام وعمات)، أم من جهة الأم (أخوال وخالات)؛ فالقرابة هي: «ذات جانبيين يستخدم هذا المصطلح بطرق متعدّدة، فكلّ أنساق القرابة توحى بأنّها ذات جانبيين إذ ما تحقّقت للفرد روابط قرابة بأهل الأب والأمّ معاً، ومعنى ذلك أنّ صلات القرابة ليست أحادية، ولكنّها تنطوي على قيمة اجتماعية بالنسبة إلى أكثر من اتجاه واحد لخط القرابة»⁽¹⁾.

ولعظم هذه العلاقة تناولتها الأمثال الشعبيّة بكلّ جوانبها؛ لأنّ من اهتماماتها الإحاطة بكلّ ما يتعلّق بحياة الفرد، وتناولتها بالتفصيل سواء بالنقد أو المدح، ومن الأمثال التي تدعو إلى ذلك المثل الشعبي القائل: «ما يحك جلدك غير ظفرك»⁽²⁾؛ فهذه حكمة فصيحة يتداولها العامّة والخاصّة، وهذا ما يدلّ على عمق هذا الموروث، ومعناه: لا تنتظر العون من غير الأهل والأقارب.

فالمثل تشبيه بليغ يصوّر حالة اجتماعيّة وهي لؤم القريب ويحذر منه؛ لأنّه قد يلسعك بشره وتكون ضربته القاضية، ففي المثل دلالة كبيرة ودعوة غير مباشرة إلى الابتعاد عن الأقارب وعدم مخالطتهم، وفي نوع آخر من الأمثال التي تدلّ على أهميّة الانجاب، وتبيان صفات الأولاد الحسنة «اللي خلف ما مات»⁽³⁾. فالمثل يدعو بطريقة مباشرة إلى الإنجاب؛ لأنّ الإنسان الذي ينجب الأولاد، ويعمل على تربيتهم أحسن التربية سيكونون له عوناً عندما يكبرون، ويكونون سبباً في تخليد اسمه في الحياة، إذا الأولاد هم مصدر السعادة للوالدين في الصغر، وعونٌ لهم في الكبر، لذلك لا بدّ من علاقة تربط بعضهم مع البعض الآخر. هذه العلاقة تتحكّم فيها جملة من العادات والتقاليد التي توجّه مسارها، فتقوم على إحسان النّاس إليهم والبحث عن الحنان، وبفقدان الأم

1- محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، ص 36.

2- م. س. الراسي، سلام، شيخ بريج، ص 56.

3- م. ن. الراسي، سلام، شيخ بريج، ص 86.

يفقد الولد والبنت على حدّ سواء مصدر الحنان والعطف والحبّ، فلا يجدان من يدافع عنهما ويحضنهما، وهذا ما يبين لنا عمق العلاقة بين الأم وأبنائها.

2 - الأسرة (المرأة - الحب - الزواج)

الأسرة نتاج الزواج الذي يعدّ رابطة مقدّسة، وهو السبيل الأول لتأسيس أسرة هي النواة الأولى لتكوين المجتمع الذي تتجم عنه العلاقات الاجتماعية المختلفة، وتسري بين أفرادها، وتظهر الأمثال الشعبية أهميّة الرابطة الزوجية، بل تجعل منها شيئاً يستدعي التفكير والانتباه من الزواج فقيل: «**المرأ خزانة والزلم بلا أمانة**»¹، والزواج الحقيقي هو العقد الذي يقع بين الزوجين، ولا يكون مقروناً بمدة معينة، ففي المثل دعوة للتدبر والتعمق قبل الإقبال على الأمور المصيرية في حياة الإنسان؛ ولأنّ الفرد الشعبي يرى أنّ استمرارية الرابطة الزوجية أهمّ حتّى من الزواج ذاته، وهذا دليل على عمق الفكر الجمعي الشعبي؛ لأنّ مسألة التوافق بين الزوجين أمر لا يستطيع أن يضمّنه أحد مهما كانت قرابته بهما، وكذلك مهما كان الشخص متخصصاً في الشأن الأسري والاجتماعي عموماً، لأنّ الإنسان ليس كآلة التي يعرف المتخصص فيها طريقة عملها، والزواج يظهر بعد المعاشرة نحو المثل القائل: «**ما بتنقفر البضاعة إلا بعد الحيل والرضاعة**»².

كما يشكّل هاجس الخوف من عدم استمرار العلاقة الزوجية شيئاً من التردّد قبل إتمام الزواج خوفاً من الندم بعد فوات الأوان. فقالوا: «**قعاد السلامة، ولا زواج الندامة**»³، حيث يفضلون العنوسة على الزواج الذي يجرّ الندامة، إمّا لكثرة المشاكل الزوجية، أو خوفاً من حدوث الطلاق خصوصاً بعد إنجاب الأولاد، كما تظهر الأمثال مدى الاهتمام الشعبي باختيار الزوجة؛ لأنّه بداية الطريق للزواج فقالوا: «**اللي يتزوجها على مالها يموت فقير، واللي يتزوجها على رجالها يموت ذليل، واللي يتزوجها على زينها يحبّو ربي والنبي البشير**»⁴، فهم في هذا المثل يرون بأنّ الجمال من المقاييس الأساس، كما نجدهم يؤخّرون مقياس الجمال عندما يتعلّق الأمر بطيب الخصال، ويجعلون منه أمراً ثانوياً، خوفاً من أن يخفي جمال المرأة قبيح أفعالها، أو شيئاً ممّا يذمّ في النساء.

1 - م.س. الراسي، سلام، **حكي قرايا وحكي سرايا**، ص 63.

2 - م.ن. الراسي، سلام، **حكي قرايا وحكي سرايا**، ص 65.

3 - الراسي، سلام، **شيخ بريح**، ص 128.

4 - م.س. الراسي، سلام، **شيخ بريح**، ص 27.

1 - المرأة:

تتردد كثيراً عبارة «المرأة نصف المجتمع، ومربية النصف الثاني منه»، وهي فعلاً كذلك، وهذا كلام لا يحتاج إلى دليل، هذا من حيث التشكيل العددي والكمي في المجتمع، وكذلك الشأن بالنسبة إلى فاعليه النساء ودورهن في المجتمع، وحتى في تحريك عجلة التاريخ التي لا تتوقف، ومهما يكن فإن حضور المرأة في الحياة الاجتماعية شيء حتمي، بل محوري، وهذا ما جعل الأمثال الشعبية تتناولها بمساحة شاسعة، فمرة تصفها بالذكاء، وأخرى بالمكر، وثالثة بالكيد، ورابعة بالحنان، ويصعب العد والحصر. وعن أهمية المرأة في الأسرة والمجتمع، وعند الرجل في المجتمع الشعبي الذكوري قالوا: «النِّسَاءُ إِذَا حَبُّوْا يَدْبَرُوْا، إِذَا كَرِهُوْا يَخْبَرُوْا»¹، أي أن النساء هنّ محور الحياة في المجتمع، فإذا أحببن شخصاً كنّ له عوناً في تدبير أموره وسيرها سيراً حسناً، وإذا حدث العكس فلا تجد منهنّ إلّا نقل الأخبار وتداولها، وإفساد الأمور بطرقهنّ وكيدهنّ.

لعلّ النظرة السلبية تطارد المرأة في كثير من الأمثال الشعبية التي ترد على سبيل التحذير منها، والخوف من مكرها وكيدها، فقد قيل: «إِذَا دَخَلْتَ لِلْبَيْرِ طَوْلَ حَبَالِكَ، وَإِذَا دَخَلْتَ لِلتَّجَارَةِ طَوْلَ بَالِكَ»²، وكلمة سوق في هذا المثل لا تعني البيع والشراء، وإنما تعني عموم أمور النساء، فنصّ المثل بحذر من كيد النساء من أجل أخذ الحيطة والحذر؛ لأنّ جانبهنّ لا يؤتمن. وموضوع المرأة هو موضوع واسع المجال لكونها محور الحياة الاجتماعية، وما زالت الأمثال ترسم صورة المرأة من خلال التركيز على ما تتميز به من خصال خُلقية وخُلقية، ومن خلال ما تتميز به على مستوى وضعيتها الاجتماعية والثقافية وغيرها، وعلى مستوى أدوارها وأنشطتها داخل البيت وخارجه»⁽³⁾.

كما تُعدّ البنت أكثر التصاقاً بوالديها منذ ولادتها حتى تصبح شابةً، فنجدها أحنّ من الابن على والديه، ترعاهم وتلبّي طلباتهم وتتولّى شؤون البيت مع أمّها، على عكس الابن الذي نجده دائماً معتمداً على نفسه من دون الرجوع إلى والديه وإشراكهما في حياته، ومن الأمثال التي قيلت حول البنت ودعت إلى إدراك أهميتها والدعوة إلى محبتها

1- م.ن. الراسي، سلام، شيخ بريج، ص 77.

2 - م.ن. الراسي، سلام، شيخ بريج، ص 163.

3- حليّتم، لخضر، صورة المرأة في الأمثال الشعبية الجزائرية، ص 121.

المثل الشعبي القائل: «المرأ بالبيت رحمة ولو كانت فحمة»¹

2 - الحب:

الحبّ هو ذلك الشعور الرائع الذي يكتّنه الإنسان لأخيه، سواء أكان هذا الحبّ متعلّقاً بمحبّة الأبناء أم الوالدين أم محبّة الأقارب أم الجيران أم محبّة الزوج لزوجته، فإنّه يبقى ذلك الشعور الصادق المنبعث من القلب بكلّ صدق ومودّة وعطف وحنان، فهو عكس الكره، لما تحمله هذه الكلمة من دلالات وصفات منبوذة من حقد وبغض وحسد؛ فالمحبة الصادقة تحقّق أشياء كثيرة، ويصل المجتمع إلى مراتب كبيرة من التماسك والانسجام، والأمثال الشعبية تطرّقت بدورها إلى هذه العاطفة بكثرة، وخاصة فيما يتعلّق بحبّ رجل لامرأة، أو العكس، يجعل الطرفين لا يريان أمامهما سوى صورة المحبوب، فهو عبارة عن مشاعر تحقّق التقارب والتجاذب والارتياح⁽²⁾.

وهذه العاطفة، عاطفة الحبّ، نجدها عند جميع الثقافات؛ فهي سمة من السمات البشرية، وتاريخنا العربيّ مليء بالقصص الخالدة عن الحبّ الحقيقي، وعن وفاء الشخص المحبّ لمحبيه، فالحبّ يجعل صاحبه لا يرى أمامه سوى محاسن محبيه ولا يرى عيوبه، ومن الأمثال الشعبية التي عبرت عن ذلك المثل الشعبي القائل:

«الحبّ أعمى»⁽³⁾؛ فبالرغم من أنّ المثل يتكوّن من لفظتين فقط، إلّا أنّه أدّى المعنى كاملاً، وحاول نقل كلّ مشاعر المحبّ في سبيل محبيه، وهذه الجمالية في المثل، الإيجاز في اللفظ وقوة التعبير، والمثل يضرب في الشخص الذي لا يرى شيئاً من المخاطر التي تحيط به، لذلك شبه الحكيم الشعبيّ المحبّ بالأعمى، فعندما يُحبّ شخصٌ لا يعبأ بالمخاطر، ولا يبالي بسلوكياته وتصرفاته، ولا يرى عيوب محبيه، بل يرى كلّ شيء فيه جميلاً.

والأمثال الشعبية تطرّقت بدورها إلى هذه العاطفة؛ عاطفة الحبّ التي تنشأ بين الناس، وبين الرجل والمرأة خاصّة، وذكرت لنا ما يتعرّض إليه المحبّ من أشياء جرّاء وفائه

1- م. س. الراسي، سلام، شيخ بريج، ص 193.

2- كهينة، قاسمي، الأماثر الشعبية في منطقة لمهير - دراسة تاريخية وصفية، بحث مقدم لنيل لهادة الماجستير، جامعة المسيلة 2008/2009، ص 103.

3- م. س. الراسي، سلام، شيخ بريج، ص 43..

لمحبوبه. «لبنات عمارة الدار»⁽¹⁾. فمن طبع الفتاة الاحتكاك بوالديها والاهتمام بهما، ولأنّهما مصدرا الحبّ والحنان فهي تحدث صدى في المنزل. وثمة أمثال شعبية أخرى تقتخر برأي الفتاة الصائب في الغالب، وفي رأي آخر عدّ المرأة مرارة في الحياة، وهذا نقيض الرّاحة والسّعادة التي يدّعون وجود المرأة فيها وبسببها، ويعتقدون براحة المرأة وقداستها، فنجد المثل الشعبيّ القائل: «المرارة: يا غشيمة يا قهارة»⁽²⁾.

وعليه فمن واجب الوالدين أن يهتمّا باختيار الزوج لابنتهما طلبا لراحتها لأنّها مغلوقة على أمرها، ومن خلال هذا المثل يتّضح لنا حرص الوالدين على مصلحة ابنتهما وعلى مكانتها، كما يتّضح لنا جانب مهمّ، وهو الاهتمام بمصلحة البنت والدعوة إلى اختيار الزوج المناسب لها، إضافة إلى أنّه دعوة لتزويج البنت وحفظ عرضها وكرامتها وحمايتها من ألسنة الناس.

ولو أخذنا الأمثال الشعبية التي قيلت في المرأة سواء بالمدح أو الذم لتبيّن التناقض الواضح بين دلالة بعض الأمثال، وهذا التناقض لم يأت هكذا من فراغ، وإنّما جاء من رجم المجتمع: «كما أنّ بروز التناقض في دلالة بعض الأمثال، إذا ما تمّت الموازنة فيما بينها، يكشف عن التناقضات الاجتماعيّة التي يمكن أن توجد في نطاق مجتمع ما، إذ يصبح من غير المعقول اتفاق جميع الأمثال في دلالتها في مجتمع يعرف صراعا حول القيم والتوجّهات المستقبلية للجماعة، واختلافا في المواقف وفي المصالح وفي القضايا المطروحة»⁽³⁾.

وهذه الصفات التي تقلّل من قيمة المرأة وتحقّرها، هي ظلم وتعسف واضطهاد للمرأة؛ لأنّ المرأة لها مكانة كبيرة في المجتمع، كما أنّ الإسلام وتعاليمه منحها مكانة مشرّفة ولم يفرّق بينها وبين الرجل؛ لأنّها هي كل شيء في هذه الحياة، وفيها قال المثل: «المرأة ريحانة وليست قهرمانة»⁽⁴⁾، والأمثال تبقى تجارب شخصية المرأة التي عاشت هذه التجارب، فلا يمكن أن نعمّمها على جميع النساء، وهذه الأمثال هي مرآة عاكسة للمجتمع بما فيه من خير وشر، وطريقة تفكير المجتمع، ورصد سلوكيات الأفراد، وفهم

1- م. س. الراسي، سلام، شيخ بريح، ص 123.

2- م. س. الراسي، سلام، حكى قرايا وحكى سرايا، ص 51.

3- عبد الحميد بورايو: البعد النفسي والاجتماعي في الأدب الشعبي الجزائري، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، ط 1، ذي الحجة 1429 - ديسمبر 2008، ص 120.

4- م. ن. الراسي، سلام، حكى قرايا وحكى سرايا، ص 179.

طبيعة العلاقة بينهم ونظرتهم للحياة؛ لأنّ الأمثال الشعبيّة لو اقتصرّت على جانب الخير فقط لما عكست الصورة الحقيقية التي نريد كشفها، بل هي صورة عامّة للحياة الاجتماعيّة المختلفة بكل تنوّعاتها واختلافاتها لمجتمع ما.

3 - الزواج:

الزواج «هو نصف الدين» كما يقال دائماً في هذا المثل الشعبي المتداول بكثرة، فالزواج أو العلاقة الزوجية، وإنّما هي العلاقة الدائمة والمتواصلة بين الزوجين، وهي أساس تكوين أسرة وإنجاب الأولاد وتحقيق السعادة في المجتمع، فالزواج هو: «تلك الرغبة النفسية المشتركة بين الرجل والمرأة في هذا الموضوع»⁽¹⁾، والأمثال الشعبية بدورها لم تغفل عن هذا الموضوع المهم، بل تطرّقت إليه، وتتبعّت مختلف مراحلها انطلاقاً من الخطبة واختيار الزوجة، وصولاً إلى الزفاف وإلى تكاليفه وما ينتج عنه، مروراً بعلاقة المرأة بمحيطها الجديد، وتناولت كلّ ذلك سواء بالنصح والإرشاد والتوجيه أو بالنقد والسخرية.

فالعلاقة التي تنشأ بين المرأة والرجل، وإنّما هي علاقة دائمة وثابتة تعود بالفائدة على المجتمع، وهو رباط مقدس به يجتمع الذكر والأنثى، ويكونان أسرة ينبجان فيها الأولاد. ولأهمية هذا الموضوع تناولته الأمثال بكلّ مراحلها وتفصيله، ومن الأمثال التي تدعو إلى ذلك المثل القائل: «الزواج سترة»². فهذا المثل رغم أنّه يتكوّن من لفظتين فقط فإنّه يؤدّي المعنى كاملاً في بيان أهميّة الزواج في حياة الفرد، وهي ميزة في المثل الشعبيّ الذي يميّز بإيجاز اللفظ وقوّة المعنى، ممّا يعطي المثل جمالية في الأداء وروعة في التأثير على المتلقي. فكلّمة سترة تعني الطهارة والابتعاد عن الفاحشة، وإنشاء أسرة مثالية قائمة على المودة والرحمة، والأمثال تتبّعّت جميع مراحل الزواج من البداية، في وجوب مراعاة عنصر الاختيار لكلا الطرفين حتى تكون أسرة سعيدة ومستقرة، وبالتالي يتحقّق الاستقرار للمجتمع، وأول خطوة في الزواج هي اختيار الزوجة، وهو ما يطلق عليه اسم «الخطبة» وهي تعني أن يبادر رجل أو أهله لخطبة امرأة وطلب الزواج منها، فنجد من يختار زوجة الابن بنت الأصل، أو على أساس والديها وخاصة الأم، وهناك من يختارها على أساس الجمال، وهناك من يختارها لمالها. ومن الأمثال التي تدعو إلى الزواج من

1- التلي بن الشيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، ص 161.

2- م.س. الراسي، سلام، حكى قرايا وحكى سرايا، ص 96.

بنات الأصول المثل الشعبي القائل: «طب الجرّة على تمها بتطلع البنت لأُمّها»⁽¹⁾. بعدما تنتهي تحضيرات الزواج، وتنتقل الفتاة من بيت أبيها إلى بيت زوجها، وتعيش مع عائلة الزوج، فهي بذلك تنتقل من وسط عائلة وعادات إلى وسط آخر وعادات أخرى، فهي تنتقل إلى مجتمع الرجل، فهذا المجتمع هو الذي يقرّر مصيرها وفق مزاجه وعاداته وتقاليده، لذلك لا بدّ عليها أن تحاول التأقلم مع الحياة الجديدة وتقبلها بما فيها، وأوّل ما تواجهه هو «أم الزوج (حماتها)»؛ لأنّ أم الزوج دائماً تراقب تصرفاتها وسلوكياتها، وتنتقدها تارة وتمدحها طوراً، وتحاول إرشادها وتوجيهها إلى ما يجب فعله، من ذلك نجد المثل الشعبي القائل: «إذا تفاهمت العجوز والكثة يدخل إبليس الجنة»⁽²⁾.

فالعلاقة هنا تبدو سيئة بين الزوجة وأم زوجها: «وربما يكون سبب ذلك الأنانية، وحبّ التملك الذي تمتاز بهما المرأة، فالأم تعدّ نفسها أولى بحبّ ابنها من كلّ إنسان، لأنّها هي التي حملته وولדתه وأرضعته وربّته حتّى صار رجلاً، وسوف تبقى تحبّه حتّى آخر يوم في حياتها»⁽³⁾، وأمّ الزوج عندما تأتي زوجة ابنها تنتابها الغيرة منها بحكم العلاقة بين الزوجين، أمّا الزوجة فتري من حقّها الطبيعي اهتمام زوجها بها، وأن يقتصر هذا الاهتمام عليها وحدها، من دون غيرها حتّى وإن كانت أمّه، كما لا تسمح لها بالتدخل في شؤونها وفي حياتها، وهذا ربما سبب النزاع.

وعليه فالأمثال الشعبية حبّبت لنا خلق الصبر وحنّت عليه، كما أنّها وقفت مع الإنسان الذي يصبر، لأنّ بهذا الخلق وبأخلاق أخرى يستقيم سلوكه، ويكون عنصراً صالحاً، وبصلاحه يكون مجتمعاً متفهماً، كما وضعته أمام حالات سلوكية يجب أن يستفيد منها ويتعظ بها.

ثانياً: الحقل الدينيّ

إنّ تمسك المجتمع اللبنانيّ بالقيم الروحيّة أمر ظاهر في ارتباطه بالشعائر الدينية، ويعدّ اللبناني أنّ المحافظة على لغته امتداد للمحافظة على دينه، ومن هنا استطاع أن يحافظ على شخصيته، وقوميته، وثقافته، لذا نجد أنّ الأمثال الشعبية تتبع تمظهرات هذه المسحة الدينية في الأمثال الشعبية اللبنانيّة في محاور عدّة ومنها:

1- م.س. الراسي، سلام، حكي قرايا وحكي سرايا، ص 26.

2 - م.س. الراسي، سلام، شبح بريج، ص 139.

3- حليّتم، لخضر، صورة المرأة في الأمثال الشعبية، ص 142.

1 - العقيدة

للقيدة حضور في تعاملات الفرد، وهي التي تطلق على التصريف الناشئ عن إدراك شعوري أو لا شعوري يجبر صاحبه على الإذعان إلى قضية ما من غير برهان»⁽¹⁾. فمظاهر العقيدة الإيمانية بادية من خلال الأمثال الشعبية التي يتداولها أفراد المجتمع الشعبي من دون تفكير أو تصنع؛ ومن ذلك قولهم: «الضعيف فاق واللقمة معاه من ربي»، إيماناً وتسليماً بأن الله لا يترك عبده، ولا يتخلى عنه خصوصاً إذا كان ضعيفاً.

وفي تعبيرهم عن عاقبة المتجبر، قالوا: «كلّ فرعون يجيبلو ربي موسى»، اعتقاداً لا ريب فيه بأن الله هو المدبر لشؤون الكون، وتصديقاً لما جاء في القرآن الكريم حول قصة سيدنا موسى^(ع)، ولأنّهم يدركون أنّ الذي لا يخاف الله قد يصدر منه المكروه في أي لحظة. قالوا: «خاف من ربي، ومن اللي ما يخافش ربي»؛ ولأنّ الطبقة الشعبية تؤمن إيماناً راسخاً بأنّ مسألة الرزق بيد الله تعالى، فقد قيل: «يموت القاق، ويبقى الرزاق»⁽²⁾، يقولون هذا في حال وفاة عائل الأسرة، لأنّهم على يقين بأنّ الرزاق هو الله عزّ وجلّ.

2 - ثنائية الخير والشر

تقوم الحياة في عمومها على مبدأ الثنائية، ولعلّ ثنائية الخير والشر تبرز مظاهرها في حياة المجتمع الشعبي بشكل واضح؛ ولأنّ عالم البشر غير عالم الملائكة الخير، ولا هو عالم الشياطين الشرير، وإنّما هو عالم يتجاذبه الطرفان، مع انتصار العالم الشعبي للخير دائماً، رغم وجود مظاهر الشرّ في كلّ طبقات المجتمع، ومن الأمثال الشعبية التي ينفرون بها بعضهم من

الشرّ قولهم: «كف شرك عني، وما عليك منّي»⁽³⁾، دلالة على البعد عن الشرّ وكفّ الأذى، ويبقى عندئذ الإنسان سليماً، ومثاله «بَعْدَ عَنِ الشَّرِّ وَغَنِيْلُهُ»⁽⁴⁾.

كما تبدو ثنائية الخير والشر في قولهم: «الشرّ يديروه النفاص، ويتحملوه العواقلة (العقلاء)»⁽⁵⁾، ففي المثل إشارة إلى الخصومات والمشاكل التي يثيرها خفاف العقول،

1- عبد الحميد، علي عبد المنعم، المجتمع والحياة (دراسة على ضوء الكلم الطيب)، ج 2، دار القلم، الكويت، ط1، 1981 م، ص 107.

2- الراسي، سلام، شيخ بريج، ص 181.

3- م.ن. الراسي، سلام، شيخ بريج، ص 181.

4- م.ن. الراسي، سلام، حكي قرايا وحكي سرايا، ص 51.

5- م.س. الراسي، سلام، حكي قرايا وحكي سرايا، ص 148.

ويتحمّل حلولها أو أعباءها العقلاء.

ج- القضاء والقدر

الإيمان بقضاء الله خيرهُ وشرُّهُ من عقيدة المسلم، والفرد اللبناني عجنت معه مسألة الإيمان بالقضاء والقدر كما يعجن الماء والدقيق، فصارت على لسانه في كلّ أحواله، وكان أحسن مظهر تتمظهر فيه هو الأمثال الشعبية، فقالوا: **اللي ما إلو نصيب بتوقع اللقمة من تمّو**»، أي أنّ اللقمة التي لم تكتب للإنسان تسقط ولو وصلت إلى فمه، لأنّ الكتاب قد سبق عليها، وهذا من قَمّة الإيمان والتسليم بقضاء الله وقدره.

وفي السياق ذاته قولهم: **«المكتوب ما منّو مهروب»⁽¹⁾**، أي لا داعي للتسرّع في الكسب ونحوه، لأنّ الإنسان لن يأخذ من الدنيا إلا ما كتبه الله له، كما يسعى الناس ويخططون لأُمور حياتهم، لكنّ أمر الله هو الذي يكون في النهاية، ومن الأمثال الشعبيّة التي يبدو فيها الإذعان المطلق لمسألة القضاء والقدر في المجتمع الشعبيّ اللبناني قولهم: **«المكتوب على الجبين ما بتمحوه يدين»**، ففي ضرب هذا المثل استسلام لمشئّة الله، وهذا من سمات الفرد المسلم، كما يصلح المثل للسّلوان عمّن حلّت به حادثة غير مرغوبة في أهله أو ماله.

8 - الدنيا والآخرة

يشغل موضوع الدنيا والآخرة الفرد الشعبيّ كثيرًا، لذا أعطاه الحكماء مساحة غير يسيرة في أمثالهم وأقوالهم واهتمامهم، وقالوا فيه أمثالًا تتوافق في مجملها مع ما جاء به هدي الإسلام، وقد قال ابن قيم الجوزيّة عن الدنيا: **«السير في طلبها سير في أرض مسبعة، والسباحة فيها سباحة في غدير التماسح، المفروح به منها عين المحزون عليه، آلامها متولّدة من لذاتها، وأحزانها من أفراحها...»⁽²⁾**.

فالدّنيا في نظر الحكيم الشعبيّ قصيرة زائلة، أمّا الآخرة فهي المستقرّ. فقالوا: **«الدنيا سقيفة والآخرة دار»³**، بمعنى أنّ البناء الحقيقي يكون في الآخرة، أمّا الدنيا فهي كالبنيان المؤقت الذي لا داعٍ لإتقانه. وصدق قول المعري:

1- م.ن. الراسي، سلام، **شيخ بريج**، ص 159.

2- الجوزيّة، ابن قيم، **الفرائد**، تح: محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط2، 1999، ص58.

3- م. س. الراسي، سلام، **حكي قرايا وحكي سرايا**، ص 76.

تعبُ كُلُّها الحياةُ فما أعْجَبُ إلا من راعِبٍ في اَزْدِيادٍ¹

ومن الصور الإيمانية التي تحملها الأمثال الشعبية قولهم: «الدنيا بالوجوه والآخرة بالفعائل»²، أي يمكن للإنسان أن ينتفع بالوساطات في الحياة الدنيا، أمّا في الآخرة فلا ينفعه إلا عمله الصالح. ومن الأمثال التي تَدَمُّ الدنيا قولهم: «الدنيا جيفة وطلابها كلاب»، ولمّا كانت الأمثال الشعبية ليست كُلُّها حكمًا، فإنها تصدر في كثير من الأحيان عن عامّة الناس، فتحمل مضامين قد تكون إلى السلبية أقرب، ومن ذلك قولهم: «الدنيا يعيشو فيها أهل الصنائع ولا أهل البدايع»³، وقد يحمل معنى هذا المثل من جهة الإيجابية إذا كانت البدعة حسنة من أجل العيش، أي بإنشاء طرق للعيش والكسب لكنها تراعي المشروعية والحلال، وقد تعتري الفرد الشعبي لحظات يركن فيها إلى الدنيا ويأنس بها فتأتي الأمثال بما يخدم تلك اللحظات. فقالوا: «لا تُبدِّل الدنيا بالشِّقا»⁴.

ثالثًا: الحقل الأخلاقي

يعدّ مجال الأمثال الشعبية من المجالات التي تبدو أخلاق الشعوب من خلالها بوضوح؛ لأنّ الأمثال تنتج في لحظات من الصفاء الروحي، فتكون تلخيصًا لقصة، أو تبريرًا لموقف، أو حثًا على فضيلة من الفضائل، أو نهيًا أو أمرًا. وقول المثل: «اللي ما عندو كبير ما إلو تدبير»⁵

وغالبًا ما يطلق هذا المثل على الأب، فالأب يمثل الدعامة والركيزة التي تبنى عليها الأسرة، وله أهمية كبيرة بالنسبة إلى الأولاد، والإنسان الذي يفقد والديه لا يجد من يعينه أو يرشده في حياته، وهذا ما يبين لنا قيمة الوالدين وأهميتهما بالنسبة إلى الإنسان، فبفقدانهما يفقد الإنسان أهم شيء في الحياة، والمثل يحثّ على طاعة الوالدين والإحسان إليهما؛ لأنّه مَنْ يبرِّ والديه يَنَلِ الأجر العظيم.

1 - الوفاء والخيانة: وهما صفتان متعاكستان، وخُلُفان متعاكسان، وقد جاء في الأمثال الشعبية ما يرعّب في الأول، وينقّر من الثاني، فقد قيل: «خير الناس ردو، لا

1 - المعري، أبو العلاء، قصيدة غير مجد، الديوان، ص 138.

2 - م. س. الراسي، سلام، شيخ بريح، ص 123.

3 - م. ن. الراسي، سلام، شيخ بريح، ص 80.

4 - م. س. الراسي، سلام، شيخ بريح، ص 111.

5 - م. س. الراسي، سلام، شيخ بريح، ص 122.

عدو»، وهذه قمة الوفاء والاعتراف بالجميل، فعلى الإنسان أن يكافئ الخير بالخير، فإن لم يستطع، فعليه أن يعترف بالجميل. ومن صور الوفاء بالوعد قولهم: **اللي عطى كلمتو، عطى رقبته**¹، بمعنى أن الذي أعطى عهداً لغيره فلا بدّ من الوفاء به، وإن أدّى ذلك إلى قطع العنق، وهذا أقصى ما يمكن أن يقع للإنسان من مكروه.

على نحو هذا المعنى قال المثل الشعبي: **«الولد العاقل بيحجب المسبّه لأهله»**²، فالأولاد العاقلون الذين لا عهد لهم ولا وفاء فهم منبذون في مجتمعهم، ويلحقون الشتائم بأهلهم بسبب سوء خلقهم.

ومن الأخلاق الذميمة في المجتمع صاحب الوجهين الذي عنوه بقولهم: **«يقول للكلب هش، ويقول للخائن خش»**³، فمن الأخلاق الذميمة أن يتّصف الإنسان بعدم ائتمان الجانب، فلا يكاد القوم يعرفون موقعه، أعدو هو أم صديق؟! ومن الأشياء التي يجب على الإنسان أن يحافظ عليها الكلمة الصادقة والالتزام بها والوفاء بالعهود؛ فالإنسان مسؤول عن كلامه؛ لذلك يجب عليه أن يتجنّب الكلام السيء، والوفاء بالكلمة والالتزام بها يكون أمراً ضرورياً، لذلك تناولتها الأمثال الشعبية بكثرة، ودعت إليها ونوّهت بها، والوفاء كلمة مقترنة بالرجولة، وتعدّ ديناً يجب قضاؤه؛ يقال في ذلك: **«كلمتو عند قطع رقبته»**⁴.

وهذا ما يبيّن لنا أهمية الأمانة عندنا وقيمتها، وعليه فالأمانات عند الإنسان عديدة ومتعدّدة، سواء ما تعلقت بجوارحه أو بأمانات الناس عنده أو بأولاده، فكلهم أمانات عنده يجب الحفاظ عليها، لأنّ الالتزام بأداء الأمانات والوفاء بالعهود تحقّق للإنسان السعادة والخير، وتنتشر المحبة والاستقرار والثقة بين الناس، وهذا ما سعت إلى تحقيقه الأمثال الشعبية من خلال عباراتها الموجزة، وألفاظها المعبرة والمشخّصة للمعاني والدلالات.

2 - التعاون والتكافل: من محامد الجماعة الشعبية، التعاون والتكافل، وتقاسم الأعمال لا سيّما في مواسم الحرث، والبذر، وجزّ صوف الأغنام، وحفر الآبار، ونحوها من الأعمال الفلاحية، والرعيّة، وغيرها من النشاطات، وهذا ما يعزّز أواصر التقارب

1- م.س. الراسي، سلام، شيخ بريج، ص 111.

2- م. ن. الراسي، سلام، شيخ بريج، ص 29.

3- م. ن. الراسي، سلام، الناس بالناس، ص 164.

4- م. س. الراسي، سلام، شيخ بريج، ص 111.

بين أفراد المجتمع.

قد حملت الأمثال الشعبية كثيرًا من صور الحثّ والترغيب في هذه الأخلاق الحميدة، كما حملت نقيضها للتحذير منه، وتفسير الناس من الإقبال عليه. ومن صور الحثّ على التكافل والتعاون قولهم: «النمل إذا اجتمع انتصر على السبع»¹، وفي هذا دعوة إلى العمل الجماعي، فمهما كان العمل شاقًا، فعندما يوزع يصبح سهلًا، وكذلك قولهم: «الحمية تلهب السبع»²، في إشارة إلى أنّ الخصم مهما كان قويًا فإنّ الجماعة تتغلب عليه، وقد أشاروا إلى القوة بالسبع، وهو في عرف العامة الأسد؛ دلالة على أهميّة التعاون فيما بين الناس لتحقيق مبتغاهم في هذا الدنيا، وإذا تجنّد القوم إلى أيّ عمل، حتّى وإن كان صعبًا، فإنّ النتيجة مضمونة بأدائه على أتمّ وجه.

والتعاون هو صفة فطر الله عليها جميع مخلوقاته، وبها يمكننا إنجاز الأشياء في وقت قصير وتحدي كلّ الصعاب، والمثل الشعبي تطرق إلى هذا وبإسهاب كبير نظرًا إلى أهميته في حياتنا، فبفضله يستطيع أفراد المجتمع أن يصلوا إلى أعلى المراتب والرقى والازدهار، ويحافظ على العلاقات بينهم. ومن الأمثال التي تدعو إلى التعاون المثل الشعبي القائل: «نحلة واحدة لا تجني العسل»⁽³⁾، هذا يدلّ على أهميّة التعاون، وهو ضروري في جميع مناحي الحياة، كما أنّ النحلة لا يمكن وحدها أن تجني العسل، فكذا الإنسان فهو دائماً بحاجة إلى الآخرين لمساعدته والوقوف معه في السراء والضراء، «فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً، فبالتعاون تتحقّق الأهداف الكبرى للأفراد والجماعات وتقوى العلاقات، كما يقال: «باتحاده يشتعل الفحم وبتفريقه ينطفئ»⁴، دلالة على أهميّة الاتحاد ومساوئ التفريق بين الشعوب.

ومن الأمانات التي يمتلكها الإنسان «السِر» الذي يحفظه ولا يستودعه أحد، لأنّ الإنسان الذي يستودعه أخوه سرّه يعدّ أمانة أودعها إياه، فيجب المحافظة عليه وصونه. من ذلك نجد المثل الشعبي القائل: «سرك في بير».

فكلمة «بير» تدلّ على المكان العميق الذي تسقط فيه الأشياء ولا يمكننا إخراجها

1- م . س. الراسي، سلام، حكي قرايا وحكي سرايا، ص 114.

2- م . س. الراسي، سلام، شيخ بريج، ص 87.

3 - م.س. الراسي، سلام، شيخ بريج، ص 139..

4- م.س. الراسي، شيخ بريج، ص 69.

منه، فالسرّ هنا بمثابة أمانة يحملها الإنسان، فيجب الحفاظ عليها وألا يخبر بها أحدًا من الناس؛ والراوي الشعبي عبّر لنا بكلمة «بير» لخطورة هذا الشيء وهو السرّ، ورمز به للتسترّ على أخبار الناس وحفظها ورميها في البئر، والمثل فيه تشخيص الخفيّ من المواقف والمعاني والسلوكات، والتسترّ على عيوب الناس ورميها في بئر، والحكيم الشعبيّ مزج بين العالمين الطبيعيّ والإنسانيّ بهدف تشكيل الجانب الدلالي للنصّ ولبلوغ الهدف منه: «التداخل بين عالمي الإنسان والطبيعة؛ الأمر الذي كان له أثره الفاعل في التشكّل الدلالي للنص»⁽¹⁾. والمثل يضرب في وجوب حفظ السرّ جيدا وعدم إفشائه للناس، كما يقال أيضًا: «السرّ بين زوج»⁽²⁾. ففي المثل دعوة لعدم تداول السرّ بين أكثر من اثنين، فيؤدّي إلى تناقل الخبر ويصبح منتشرًا بين الناس، كما أنّ المثل يعبّر بصدق عن الواقع المعاش لأنّ السرّ إذا عرفه أكثر من شخصين أصبح متداولًا عند كلّ الناس.

3 - الصداقة (حسن الصحبة): الإنسان بطبعه كائن اجتماعيّ يحبّ التلاحم والتلاؤم مع الآخرين، فيشكل علاقات وروابط معهم خارج نطاق العائلة. وهذه الروابط والعلاقات إمّا أن تكون مبنية على مصالحه وخدماته، أو علاقات خارجة عن هذا المجال؛ أي المصالح، وهي ما يمكن تسميتها باسم «الصداقة»؛ والصداقة «هي العلاقة التي تربط بين شخصين أو أكثر وتتسم بالجابدية المصحوبة بمشاعر وجدانية، فهي علاقة اجتماعيّة وثيقة ودائمة تقوم على تماثل الاتجاهات بصفة خاصّة، وتحمل دلالات بالغة الأهميّة، تمسّ توافق الفرد واستقرار الجماعة»⁽³⁾، ومن تلك المحبّة تكون الصداقة القوية الأخويّة، والأمثال الشعبيّة بدورها تناولت هذا الموضوع بكثرة، ووقفت جنبًا إلى جنب في انتقاء الصديق سواء بالنصح والإرشاد والنهي والابتعاد عن الصداقات القائمة على المصالح، ومن الأمثال التي تحدّثت عن هذه العلاقة الأخوية التي تربط بين صديقين فيصبحان أكثر من إخوة المثل الشعبي القائل: «الصديق عند الضيق»⁽⁴⁾. فالمثل يتحدّث عن الأصدقاء والصداقة والإنسان لا يدرك صديقه الحقيقيّ إلا إذا حلّت به مشكلة، فيجد صديقه الحقيقيّ في وقت الحاجة إليه للمساندة ومدّ يد العون سواء ماديًا أو

1- عشتار داود محمد: الإشارة الجمالية في المثل القرآني - دراسة -، منشورات اتحاد الكتاب، دمشق، 2005، ص 76.

2- م.س. الراسي، سلام، شبح بريج، ص 268.

3- كهينة، قاسمي، الأمثال الشعبية في منطقة المهير، دراسة وصفية تحليلية -، ص 123.

4- م.س. الراسي، سلام، شبح بريج، ص 129.

معنويًا، فهو يسعد لسعادته ويحزن لحزنه، والمثل كناية عن صفة الإخلاص التي يجب أن يتّصف بها الصديق الحقيقي في جميع الحالات، والأمثال الشعبية شجّعت الصداقة النقيّة المبنية على المحبة والتعاون والأخلاق الرفيعة؛ لذلك يجب على الإنسان اختيار الأصدقاء بحسب ما يراه مناسبًا له من جانب الأخلاق والتوافق في السنّ والسّمات العقلية والقدرات الذاتية.

5 - حسن الجوار «الجار»: علاقة الجيران من أهمّ العلاقات في حياة الفرد لأنّ الجار يعرف الكثير من الأشياء والأسرار والسلوكيات عن جيرانه، والأمثال الشعبية المتداولة تطرّقت إلى هذا الموضوع وأولته عناية كبيرة، وتناولته بكلّ جهاته، ودعت إلى الحفاظ على هذه العلاقة، وعلى ضرورة الإحسان إلى الجار، وتجنّب كلّ ما يؤدّي إلى زعزعة هذه العلاقة تارة، وتارة أخرى إلى الابتعاد عن الجيران وعدم التقرب منهم، ومن الأمثال التي تدعو إلى حسن الجيرة المثل الشعبي القائل: «الجار وصّى عليه النبي»⁽¹⁾. المثل كناية عن أهمية الجار كما أنّه يحمل دلالة عميقة، وهي الجانب الديني، فالمجتمع له وازع ديني يسترشد به، ومن خلال هذا نفهم بأنّ الجار في مجتمعنا له مكانة مهمة فهم يعملون بوصية الرسول (ص)، ويجعلون أمر الجار ليس بالأمر السهل، فهو من الأمور العظيمة والخطيرة التي يجب أن لا يغفل عنها المؤمن الحقيقي، لأنّ الإحسان إلى الجار من الأخلاق الرفيعة التي يجب أن يتحلّى بها المسلم، والمؤمن الحقيقي هو من يعتني بجاره لا من يعتدي عليه ويؤذيه ويسلب منه حقوقه وأشياءه، ومن الضروريات التي يحتاجها الإنسان وتحفظه من الضياع والتشرد البيت؛ فالبيت هو الذي يستقرّ فيه الفرد ويحميه من كلّ الظروف والمشاكل الخارجية، كما يحمي ويحافظ به على أسرته. يقال في ذلك: «اشري الجار قبل الدار»⁽²⁾.

فاختيار الجار يضمن الراحة والاستقرار، ولأنّ الجار السيئ يؤدّي بالضرورة إلى تحوّل إلى مصدر إزعاج وعدم الاستقرار، لأنّ علاقة الجوار هي علاقة مهمّة تدعو إلى التكافل الاجتماعيّ بين أفراد المجتمع، وهذا التكافل يكون بحسب قدرة واستطاعة كلّ شخص، فهذه العلاقة تحقق الراحة والهدوء. فالجار الذي لا يتعاون مع جاره ويتضامن معه لا فائدة من جواره، لكن في وقتنا الحالي أصبح الواقع الذي نعيشه واقعاً مليئاً بالبغض

1- م.س. الراسي، سلام، شيخ بريج، ص 83.

2- م.ن. الراسي، شيخ بريج، ص 29..

والحقد والكراهية، وتحول الجار إلى عدو ولم يعد الإنسان يأمن على نفسه، وعلى سمعته ولا على ماله وعلى حقوقه؛ لأنّ الناس أصبحت مادية أكثر ممّا هي قضايا إيمانية.

خاتمة واستنتاجات

إنّ المثل الشعبيّ من خلال انتشاره الواسع الكبير بين أوساط النّاس أصبحت له أهمّية فاعلة، ودور كبير في حياتنا لما يحتويه من دلالات اجتماعيّة وسياسيّة وتربويّة وعقائديّة، فهو بذلك يعدّ وسيلة يعبر بها الإنسان عن مختلف تجاربه، ويمثّل عراقة الشعوب وجذورها، وأصولها تحمل الإرث الحضاري الذي جاء لنا بمجموعة من القيم والقواعد والأخلاق والمبادئ التي يجب أن يسير عليها الفرد.

وهو عند سلام الراسي مزيج ما بين الشعور والتفكير الذهني، ما بين الأدب الاجتماعي والواقعية، وإن رجحت كفة أحدهما على الآخر، إلّا أنّه أبدع في تصويرهما للواقع، ولا تخفى التجربة الفكرية التي مرّ بها، وخصوصاً التعمّق بالقراءات الاجتماعية والتاريخيّة والأدبيّة والسياسيّة والرمزيّة، وقد انعكس ذلك عبر سبكه لنتاجه الأدبي، فخرج بوحدة الرؤية الأدبيّة ووضوح الفكرة وتماسك الأسلوب؛ كلّ هذا لا يغيب الحضور الذاتي في نصّه، ما يسهم في صبغه بلون جنوبيّ متميّز يعود إلى جذوره.

وقد استطاع سلام الرّاسي أن يقدّم رؤية جديدة ومتكاملة في الأمثال الشعبيّة، ونظرة رؤيويّة واعية للمستقبل والأدب المتكامل مع الحياة، يميّزها التّقاؤل والنظرة الثاقبة للحياة وللوجود، فانطلق من تجربة شخصيّة عُجنت بالمعاناة الفرديّة من مأساة شخصيّة لتصبح مأساة شعب وأمة وقضيّة كليّة، وقد تجسّد ذلك من خلال القضايا والموضوعات الاجتماعيّة والصور الفنيّة والرموز.

ومن أبرز النتائج التي توصل إليها البحث:

- التوافق بين مختلف الشعوب لأنّ المثل الشعبيّ جنس أدبيّ حيّ متداول عند سكان العالم أجمع، وبالتالي يعبر عن مختلف تجاربهم ومرآة عاكسة لحياتهم.
- تميّز الأمثال الشعبيّة كغيرها من الأشكال الأدبية التعبيريّة الأخرى بخصائص متنوّعة أهمّها: الدقة في التعبير، وإصابة المعنى، وإيجاز اللفظ، وتميّزها بأدائها وظائف في حياة الإنسان بحسب الموقف الذي يتعرّض له، وهذا ما جعل العديد من

- الأدباء والكتاب يوظفونها في أعمالهم الأدبية، ويولونها عناية خاصة.
- الأمثال الشعبية استطاعت من خلال عباراتها الموجزة أن تعبّر عن مختلف العلاقات داخل المجتمع الواحد، و عن العلاقات داخل الأسرة الواحدة، وحاولت بيان العلاقة الصحيحة التي يجب اتباعها.
 - الأمثال الشعبية كلّها علاقات قائمة على مواضيع منها: المحبة والمودة والنزاع والشقاق والتلاحم والتماسك داخل الأسرة الواحدة وداخل المجتمع.
 - نشوء العديد من الأمثال الشعبية التي تهدف إلى تقويم سلوك الفرد داخل الوسط الذي يعيش فيه، وتدعوه إلى الاتصاف بالسلوكيات الحسنة.

فهرست المصادر والمراجع

أولاً: المدونة

- 1- الزاسي، سلام: شيخ بريح، الأدب الشعبي، مؤسسة نوفل، لبنان، 2014م.

ثانياً: المصادر والمراجع

1. ابن منظور، لسان العرب، ج 11، دار صادر، لبنان، بيروت، د.ط، 1968.
2. أمين، احمد: فجر الإسلام، يبحث عن الحياة العقلية في صدر الإسلام إلى آخر الدولة الأموية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط 10، 1969
3. بورايو، عبد الحميد، الأدب الشعبي الجزائري، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007.
4. التلي بن الشيخ: منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990
5. الجوزية، ابن قيم، الفرائد، تح: محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط2، 1999
6. الجوهري، اسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد العطار، مجلد2، ط4، دار العلم للملايين، 1990
7. حسام الدين، كريم زكي، أصول تراثية في علم اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، 1985.
8. حليّتم، لخضر، صورة المرأة في الأمثال الشعبية الجزائرية.
9. زغبي، أحمد، الأدب الشعبي بين الدرس والتطبيق، مطبعة مزاور، الوادي، ط 1، 2008
10. عبد الحميد بورايو: البعد النفسي والاجتماعي في الأدب الشعبي الجزائري، منشورات بونة للبحوث والدراسات، غنابة، الجزائر، ط 1، ديسمبر 2008.
11. عبد الحميد، علي عبد المنعم، المجتمع والحياة (دراسة على ضوء الكلم الطيب)، ج2، دار القلم،

الكويت، ط1، 1981 م.

12. عدلاوي، علي بن عبد العزيز، الأمثال الشعبية ضوابط وأصول منطقة الجلفة نموذجاً، دار الأوراسية، ط 1
13. عشتار داود محمد: الإشارة الجمالية في المثل القرآني - دراسة -، منشورات اتحاد الكتاب، دمشق، 2005.
14. فالق، سمية، البنية والإيقاع في الأمثال الشعبية، المعنى أدبية محكمة، المركز الجامعي خنشلة، العدد الأول، جوان، 2008،
15. فندريس، جوزف، اللغة، تر. عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، 1950.
16. كهينة، قاسمي، الأمثال الشعبية في منطقة لمهير - دراسة تاريخية وصفية، بحث مقدم لنيل لهادة الماجستير، جامعة المسيلة 2008/2009.
17. كهينة، قاسمي، الأمثال الشعبية في منطقة المهير، دراسة وصفية تحليلية .
18. المبارك، محمد، فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط7، 1981
19. محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، 1998م.

التفاعل بين المتغيرات الاجتماعية في اندماج اللاجئين السوريين في لبنان وقدرتهم
على الصمود

intégration 'I dans sociales variables les entre interaction 'L
résilience leur et Liban au syriens réfugiés des

د. ميساء عباس الحاج سليمان

Dr .Mayssa Abbas Hajj Sleiman

تاريخ القبول 2025 /3/15

تاريخ الاستلام 2025 /2 /24

الملخص

في سياق عالمي يتسم بحركات الهجرة الجماعية، أصبحت السياسات المجتمعية والحلول المستدامة ضرورية لإدارة الهجرة واللجوء؛ وفي لبنان، سلط تدفق اللاجئين السوريين الضوء على أهمية المتغيرات الاجتماعية، مثل الوضع الاجتماعي والاقتصادي والتعليم والجنس والثقافة في إدماج اللاجئين وقدرتهم على الصمود؛ فهذه المتغيرات لا تؤثر على تكيف اللاجئين فحسب، بل تؤثر أيضاً على تصورات وردود أفعال المجتمعات المحلية تجاه سياسات الهجرة.

تهدف هذه الدراسة إلى استكشاف أثر المتغيرات الاجتماعية على اندماج اللاجئين السوريين في لبنان، ومدى تأثيرها في تشكيل تصورات المجتمعات المضيفة واستجابتها للسياسات المطبقة؛ كما نسعى إلى فهم الديناميكيات بين هذه المتغيرات والتحديات التي تفرضها سياسات الهجرة في السياق اللبناني.

تعتمد الدراسة على نهج مختلط يجمع بين التحليلات الكمية والنوعية، وأجرينا استطلاعات بين اللاجئين السوريين في مناطق عدة في لبنان، لجمع بيانات حول وضعهم الاجتماعي والاقتصادي ومستوى التعليم والجنس والثقافة، وقارنا هذه البيانات مع تصورات المجتمعات المحلية التي حصلنا عليها من خلال مقابلات شبه منظمة مع أفراد المجتمعات المضيفة، وكذلك مع ممثلي السلطات المحلية.

تشير النتائج الأولية إلى أنّ الوضع الاجتماعي والاقتصادي والتعليم من العوامل الحاسمة في دمج اللاجئين، فتؤثر بشكل مباشر على وصولهم إلى الموارد والخدمات، ويؤدّي النوع الاجتماعي دورًا حاسمًا، لا سيّما فيما يتعلّق بالأمن والحصول على العمل. علاوة على ذلك، فإنّ ثقافة اللاجئين وتقاليدهم، عندما تختلف بشكل حادّ عن ثقافة وتقاليد المجتمعات المحلية، يُمكن أن تُسهّل الاندماج أو تُعيقه. وأخيرًا، غالبًا ما تتشكّل تصوّرات المجتمعات المحليّة للاجئين من خلال سياسات الهجرة، مع اختلاف الاستجابات تبعًا للتجارب المباشرة مع اللاجئين والاستقرار الاجتماعي والاقتصادي في المناطق المعنية.

تُظهر هذه الدّراسة أنّ للمتغيّرات الاجتماعيّة تأثيرًا كبيرًا على اندماج اللاجئين السوريين في لبنان، وأنّ فهم هذه الديناميكيات أمر بالغ الأهميّة لتطوير سياسات هجرة أكثر فعاليّة وتعزيز النّعايش الأفضل بين اللاجئين والمجتمعات المضيفة. وتقدّم هذه النّتائج وجهات نظر لتحسين سياسات المجتمع في إدارة الهجرة واللّجوء.

الكلمات الرّئيسية:

الهجرة، اللاجئين السوريّون، الاندماج، المرونة، المتغيّرات الاجتماعيّة، لبنان، السّياسات المجتمعيّة.

Abstract

Dans un contexte mondial marqué par des mouvements migratoires massifs, les politiques communautaires et les solutions durables sont devenues essentielles pour la gestion des migrations et de l'asile. Au Liban, l'afflux de réfugiés syriens a mis en évidence l'importance des variables sociales telles que le statut socio-économique, l'éducation, le genre et la culture dans leur intégration et leur résilience. Ces variables influencent non seulement l'adaptation des réfugiés, mais aussi les perceptions et les réactions des communautés locales face aux politiques migratoires.

Cette étude vise à explorer comment ces variables sociales affectent l'intégration des réfugiés syriens au Liban et dans quelle mesure elles façonnent les perceptions et les réponses des communautés hôtes aux

politiques mises en place. Nous cherchons à comprendre les dynamiques entre ces variables et les défis imposés par les politiques migratoires dans le contexte libanais.

L'étude adopte une approche mixte combinant analyses quantitatives et qualitatives. Des enquêtes seront menées auprès des réfugiés syriens dans plusieurs régions du Liban afin de collecter des données sur leur statut socio-économique, leur niveau d'éducation, leur genre et leur culture. Ces données seront comparées aux perceptions des communautés locales, recueillies à travers des entretiens semi-structurés avec des membres des communautés hôtes ainsi qu'avec des représentants des autorités locales.

Les résultats préliminaires indiquent que le statut socio-économique et le niveau d'éducation sont des facteurs déterminants de l'intégration des réfugiés, influençant directement leur accès aux ressources et aux services. Le genre joue également un rôle crucial, notamment en ce qui concerne la sécurité et l'accès à l'emploi. De plus, la culture et les traditions des réfugiés, lorsqu'elles diffèrent fortement de celles des communautés locales, peuvent soit faciliter, soit entraver l'intégration. Enfin, les perceptions des communautés locales sont souvent façonnées par les politiques migratoires, avec des réactions variables selon les expériences directes avec les réfugiés et la stabilité socio-économique des régions concernées.

Cette étude démontre que les variables sociales ont un impact significatif sur l'intégration des réfugiés syriens au Liban. Comprendre ces dynamiques est crucial pour développer des politiques migratoires plus efficaces et favoriser une meilleure coexistence entre réfugiés et communautés hôtes. Ces résultats offrent des perspectives pour améliorer les politiques communautaires de gestion des migrations et de l'asile.

Mots-clés

Migration, réfugiés syriens, intégration, résilience, variables sociales, Liban, politiques communautaires.

المقدمة

منذ اندلاع الأزمة السوريّة في عام 2011، واجه لبنان تحديات غير مسبقة نتيجة تدفق أعداد كبيرة من اللاجئين السوريين، فقد استقبل لبنان، الذي يبلغ عدد سكانه حوالي 6.8 مليون نسمة، أكثر من 1.5 مليون لاجئ سوري، فجعله ذلك البلد الذي يستضيف أعلى نسبة من اللاجئين مقارنة بعدد السكّان عالمياً، وتسبب هذا التدفق في ضغوط هائلة على البنية التحتيّة المحليّة والخدمات العامّة، وأدى إلى زيادة التوتّرات الاجتماعيّة والاقتصاديّة، في ظلّ غياب سياسات هجرة وطنيّة واضحة (Amnesty International, 2019).

يتميّز هذا السياق بترابط عميق بين الجوانب الإنسانيّة والاجتماعيّة والسياسيّة، ممّا يجعل قضية اللاجئين السوريين في لبنان نموذجاً عالمياً يعكس التحديات المترتبة على النزوح القسري؛ لذا، فإنّ هذا البحث يسعى إلى تحليل شامل للعوامل الاجتماعيّة والاقتصاديّة التي تؤثر على اندماج اللاجئين، مع التركيز على تجربة لبنان بوصفها دراسة حالة مهمّة.

السياق العامّ

يعتمد لبنان على مبادرات محلية ومنظمات غير حكومية لإدارة تدفقات اللاجئين، مما أسفر عن نهج إداري غير متجانس (Janmyr, 2016). يواجه اللاجئون تحديات كبيرة تشمل محدودية الوصول إلى الخدمات الأساسية، والظروف المعيشية غير المستقرة، وتراجع الفرص الاقتصاديّة. تفاقمت هذه التحديات بسبب تصورات المجتمع المضيف الذي يعتبر وجود اللاجئين تهديداً لاستقراره الاقتصادي والاجتماعي. في هذا السياق، تُعدّ المتغيرات الاجتماعيّة مثل الوضع الاجتماعي والاقتصادي، والتعليم، والجنس، والثقافة عوامل حاسمة تؤثر على قدرة اللاجئين على الاندماج والصمود (World Bank, 2019).

أهميّة البحث

تكتسب هذه الدراسة أهميّة كبيرة، إذ تتناول واحدة من أكثر القضايا الملحة في العصر الحديث، وهي إدارة تدفّقات اللاجئين. يهدف البحث إلى تقديم رؤى جديدة حول كيفية تأثير المتغيرات الاجتماعية في تجربة اللاجئين السوريين في لبنان، مع التركيز على الجوانب التي يمكن تحسينها لتعزيز التعايش والتكامل. ويهدف هذا البحث إلى تحليل تأثير هذه المتغيرات على اندماج اللاجئين السوريين، ودورها في صياغة وتنفيذ سياسات الهجرة المحليّة، مما يساعد في تطوير حلول أكثر استدامة لإدارة الهجرة في لبنان.

إشكاليّة البحث

في سياق يشهد سياسات هجرة مجزأة في لبنان، تؤدّي المتغيرات الاجتماعية دوراً محورياً في اندماج اللاجئين السوريين وقدرتهم على الصمود. ويعكس الوضع الاجتماعي والاقتصادي، ومستوى التعليم، والجنس، والثقافة ديناميكيات معقّدة تؤثر على اندماج اللاجئين وتفاعلهم مع المجتمعات المضيفة. كما تسهم هذه المتغيرات في تشكيل تصوّرات الأفراد والسلطات تجاه اللاجئين، فتؤثّر على سياسات الهجرة المحليّة.

أسئلة البحث

1. كيف يؤثّر الوضع الاجتماعي والاقتصادي للاجئين السوريين على اندماجهم في المجتمع اللبناني؟
2. إلى أيّ مدى يعزّز مستوى تعليم اللاجئين أو يُحدّ من قدرتهم على الاندماج والصمود؟
3. ما تأثيرات الجنس على تجارب اللاجئين في الاندماج والقدرة على الصمود في لبنان؟
4. كيف تتفاعل ثقافة اللاجئين الأصليّة مع الثقافة المحليّة لتشكيل عملية اندماجهم داخل المجتمع المضيف؟

فرضية البحث

تفترض هذه الدراسة أنّ اندماج اللاجئين السوريين في لبنان يتأثر بعدة متغيرات اجتماعية رئيسة تشمل الوضع الاجتماعي والاقتصادي، ومستوى التعليم، والجنس، والثقافة (Mastorocco & Schöps, 2018).

- **الوضع الاجتماعي والاقتصادي:** اللاجئين ذوو الوضع الأفضل يندمجون بسهولة أكبر بفضل توفر الموارد وفرص العمل، بينما يواجه الفقراء عقبات تحدّ من اندماجهم.
 - **مستوى التعليم:** التعليم العالي يُسهّل الاندماج عبر تعزيز فرص العمل والقدرة على التعامل مع سياسات الهجرة.
 - **الجنس:** تواجه النساء تحديات بسبب الأعراف الثقافية، ولكن يُتوقع من الرجال دعم الأسرة، فيؤثر على صمودهم.
 - **الثقافة:** قد تساعد الثقافة الأصلية في تعزيز الهوية، لكنها قد تعيق الاندماج إذا تعارضت مع ثقافة المجتمع المضيف.
- تؤكد الفرضيات أنّ هذه المتغيرات تتفاعل بشكل معقد، مما يستدعي وضع سياسات هجرة تراعيها لضمان اندماج أكثر فاعلية واستدامة.

أهداف البحث

1. تحليل تأثير الوضع الاجتماعي والاقتصادي

- تقييم كيف يؤثر الوضع الاقتصادي على فرص اللاجئين في العمل والتعليم وتحسين نوعية حياتهم.

2. دراسة دور التعليم

- فهم العلاقة بين مستوى التعليم والقدرة على التكيف والاندماج الاجتماعي.

3. تحليل تأثير الجنس

- دراسة الفروق بين تجارب الرجال والنساء اللاجئين.

4. تأثير الثقافة

- استكشاف دور الثقافة الأصلية في تعزيز أو عرقلة الاندماج.

5. تصوّرات المجتمع المضيف

- تحليل مواقف المجتمع المضيف تجاه اللاجئين وكيفية تأثيرها على ديناميكيات الاندماج.

6. تقديم توصيات

- صياغة سياسات مستدامة لتحسين إدارة اللاجئين واندماجهم.

المنهجية

1. العينة

اعتمدنا في هذا البحث منهجاً مختلطاً يجمع بين الأساليب الكمية والنوعية لتقديم رؤية شاملة، وستتكوّن العينة من 150 لاجئاً سورياً، واخترناهم عشوائياً من المخيمات والمناطق الحضرية وفقاً لمعايير تشمل الدّخل، ومستوى التّعليم، والجنس. كما اخترنا 100 فرد من المجتمعات المضيفة بطريقة عشوائية طبقية، لضمان تمثيل الفئات العمرية والمهنية المختلفة؛ أمّا السّلطات المحليّة، فاخترنا منها 20 ممثلاً من البلديات والجهات المعنية باستخدام تقنية كرة الثلج والاتّصالات المباشرة مع المؤسسات ذات الصّلة.

طُرق جمع البيانات

- استبيانات مغلقة ومقابلات شبه منظّمة.
- التحليل الإحصائيّ للبيانات باستخدام برامج مثل SPSS .

2. تحليل البيانات النوعية

- استخدام الترميز المواضيعي لتحليل المقابلات وتحديد الأنماط المتكرّرة.

مراجعة الأدبيات

تلخيص الدراسات السابقة

تشير الدراسات إلى أن اندماج اللاجئين يتأثر بعوامل مثل الوضع الاجتماعي والاقتصادي، والتعليم، والجنس، والثقافة (Lee & al., 2020)؛ فاللاجئون ذوو الدخل المرتفع والتعليم العالي يواجهون صعوبات أقل في الاندماج (Smith, 2019)، ويمكن أن تؤثر العادات الثقافية سلباً أو إيجاباً على هذه العملية (Kunz, 2021). كما تواجه النساء اللاجئين تحديات إضافية، مثل التمييز وضعف فرص العمل (Hassan & Thomas, 2022)، وتؤدي سياسات الهجرة دوراً رئيساً في توفير الموارد التي تسهل الاندماج (Miller, 2018).

الفجوات البحثية

تعاني الأدبيات الحالية من نقص في الدراسات التي تدمج جميع هذه العوامل في تحليل شامل. كما تقتصر الأبحاث إلى المقارنات مع سياقات دولية مشابهة، فيجعل من الصعب تعميم النتائج على مناطق أخرى؛ إضافة إلى ذلك، هناك نقص في الدراسات التي تستكشف كيف تؤثر تصورات المجتمعات المضيفة والسلطات المحلية على سياسات الهجرة.

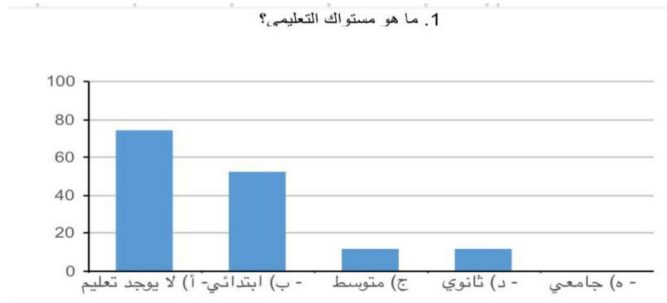
التحليل النقدي

تُبرز مراجعة الأدبيات الحاجة إلى دراسات أوسع تشمل مقارنة بين تجارب اللاجئين في لبنان وسياقات دولية مماثلة. ويهدف هذا البحث إلى سدّ هذه الفجوات من خلال تحليل شامل للعوامل الاجتماعية المؤثرة على الاندماج، فيساعد في تطوير سياسات أكثر فاعلية لدعم اللاجئين.

النتائج الرئيسية

اللاجئون السوريون

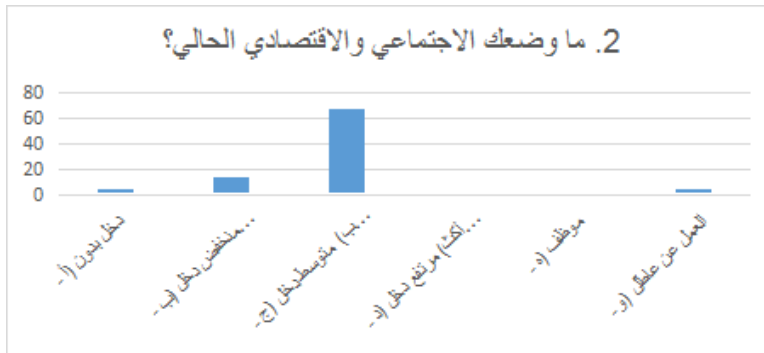
1. التعليم



رسم بياني: مستوى التعليم بين اللاجئين

- 74 % من اللاجئين لم يحصلوا على تعليم رسمي.
- التعليم يعدّ عاملاً رئيساً في تسهيل التكيف الاجتماعي والاقتصادي.

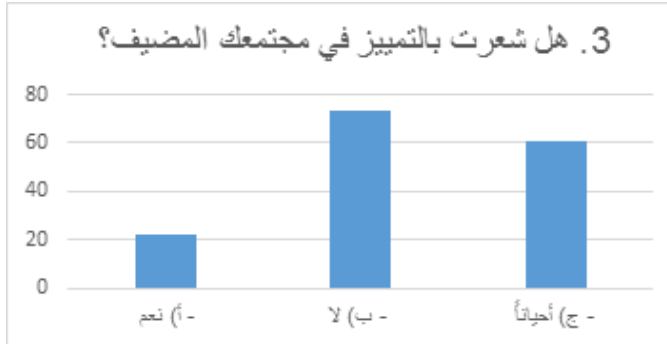
2. الوضع الاجتماعي والاقتصادي



رسم بياني: توزيع اللاجئين حسب مستوى الدخل

- يتراوح دخل 67% من اللاجئين بين 200 و 500 دولار شهريًا.
- يعاني معظم اللاجئين من ظروف معيشية غير مستقرة، وصعوبات في تأمين الاحتياجات الأساسية.

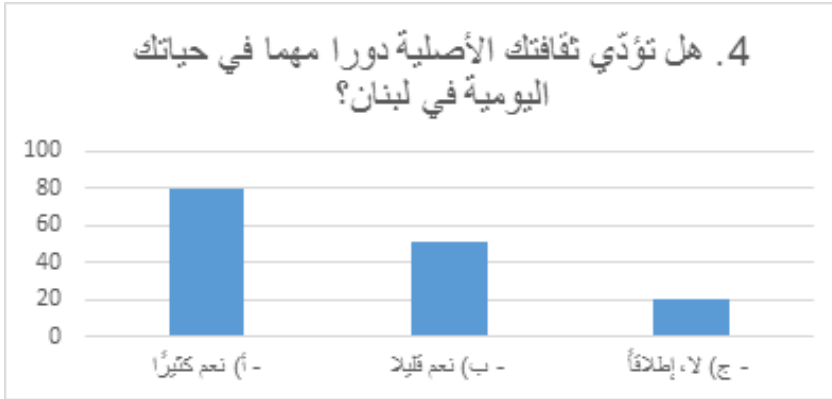
3. تجربة التمييز



رسم بياني: تصوّر التمييز من قبل اللاجئين

- **73 لاجئاً:** لم يشعروا بالتمييز.
 - **61 لاجئاً:** أفادوا بأنهم تعرّضوا للتمييز في بعض الأحيان.
 - **22 لاجئاً:** قالوا إنهم عانوا من التمييز بشكل متكرّر.
- على الرغم من أنّ الأغلبية لا ترى أيّ تمييز، إلّا أنّ نسبة كبيرة من اللاجئين (حوالي 41%) أفادوا بأنهم تعرّضوا له، مما:
- قد يعيق اندماجهم الاجتماعيّ.
 - يزيد من التوترات مع المجتمعات المحليّة.

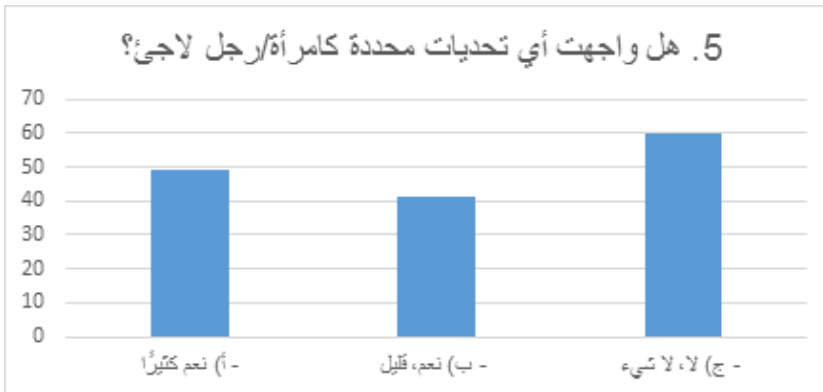
4. الثقافة



رسم بياني: أهميّة ثقافة المنشأ بالنسبة إلى اللاجئين

- تؤدّي الثقافة الأصلية دوراً مزدوجاً؛ فهي مصدر للصمود؛ ولكنها قد تعزل اللاجئين إذا لم تفهم من قبل المجتمع المضيف.

5. التّحديات الجنسانية



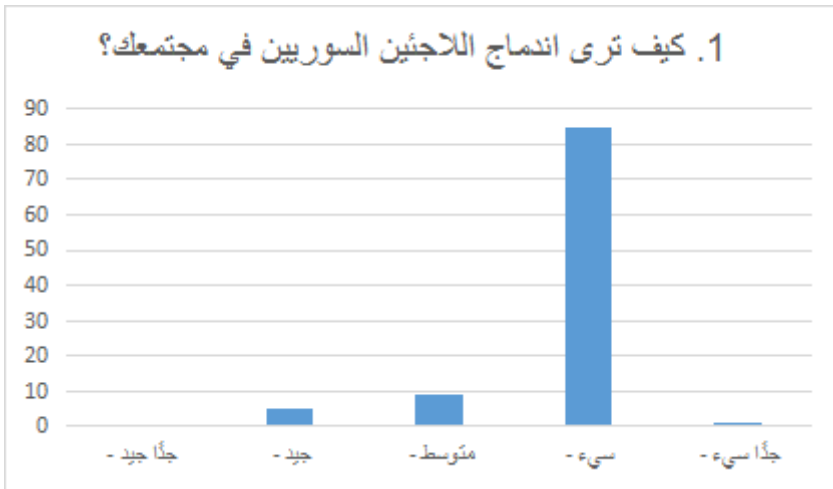
رسم بياني: تجارب التّحديات الجنسانية بين اللاجئين

- النساء يواجهن استغلالاً وعنفًا إضافيًا في المخيمات.
- الرجال يتحمّلون ضغوطاً اجتماعيّة كبيرة لتوفير الدّعم الماليّ للأسر.

تكشف البيانات عن حالة من الضعف الاجتماعي والاقتصادي الكبير بين اللاجئين التي تفاقمت بسبب المستوى التعليمي المنخفض للغاية. ولم تتلق أغلبية كبيرة من المجيبين أيّ تعليم رسمي، فيحدّ ذلك بشدّة من فرصهم في الاندماج الاقتصادي والاجتماعي؛ وفي الوقت نفسه، يُظهر اللاجئون اعتماداً قوياً على ثقافتهم الأصلية كآلية للصمود، لكنهم يواجهون أيضاً تجارب كبيرة من التمييز وتحديات محدّدة تتعلّق بالجنس، وتعدّ هذه العوامل مجتمعة ضرورية لفهم ديناميكيات التكامل والاحتياجات المحدّدة لهذه الفئة الضعيفة من السكّان.

المجتمعات المضيفة

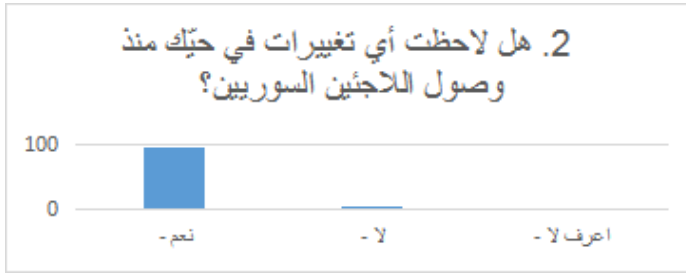
1. تصوّرات الاندماج



رسم بياني: تقييم إدماج اللاجئين من قبل المجتمعات المحلية

- تُعد 85% من المجتمعات المضيفة أنّ اندماج اللاجئين ضعيف.
- التوتّرات الاجتماعية والاقتصادية تؤثر على تصوّرات المجتمع تجاه اللاجئين.

2. تصوّر التّغييرات في الحيّ



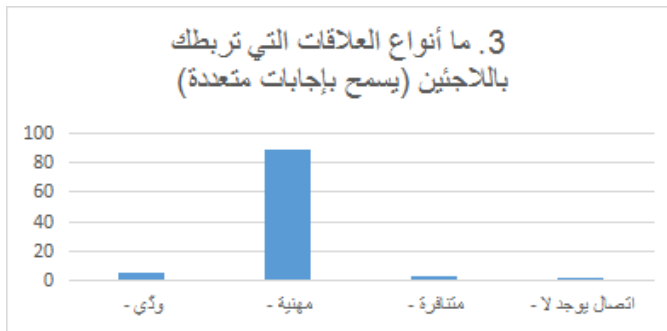
رسم بياني: التّغييرات الملحوظة في الحيّ منذ وصول اللاجئين

- 94 % من المشاركين: لاحظوا تغييرات في الحيّ منذ وصول اللاجئين السوريين.
- 6 % فقط: لم يلاحظوا أيّ تغييرات.
- 0 %: كانوا متردّدين أو غير متأكّدين.

يشير شبه الإجماع في الردود الإيجابية إلى أنّ وصول اللاجئين السوريين كان له تأثير ملحوظ على الأحياء:

- يمكن أن تشمل هذه التّغييرات جوانب اقتصادية، واجتماعية، أو في البنية التّحتيّة.
- تؤثر هذه التّغييرات على تصوّرات ومواقف المجتمعات المضيفة.

3. العلاقات



رسم بياني: طبيعة العلاقات بين المجتمعات المحلية واللاجئين

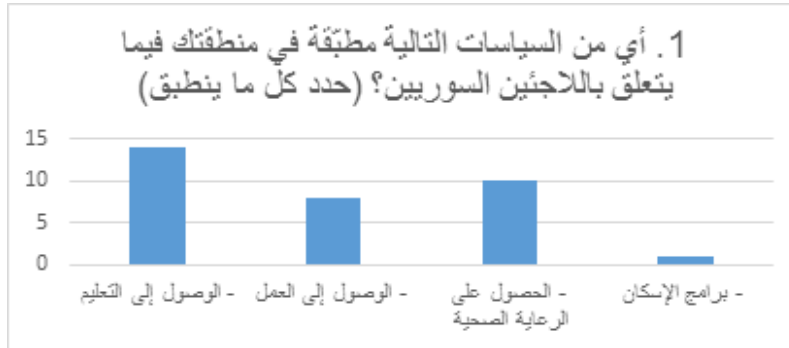
○ معظم العلاقات بين المجتمعات المضيفة واللاجئين مهنية.

○ العلاقات الودية نادرة، مما يزيد من حدة الفجوة الاجتماعية.

تُظهر البيانات تصوّرًا سلبيًا في الغالب لدمج اللاجئين السوريين في المجتمعات المضيفة، وترى أغلبية كبيرة من المشاركين أنّ اندماج اللاجئين أمر سيء أو سيء للغاية، ممّا يعكس توترات اجتماعية كبيرة. بالإضافة إلى ذلك، لاحظ 94% من المشاركين تغيرات في أحيائهم منذ وصول اللاجئين، مما يشير إلى تأثير كبير على الحياة اليومية للمجتمعات المحلية. العلاقات بين أفراد المجتمعات المضيفة واللاجئين هي في الأساس ذات طبيعة مهنية، في حين أن العلاقات الودية نادرة. وهذا النقص في الاتصال الشخصي يمكن أن يساهم في استمرار التصورات السلبية والتوترات الاجتماعية. يسلط هذا الملخص الضوء على تصورات المجتمعات المحلية فيما يتعلق بإدماج اللاجئين، فضلًا عن أنواع العلاقات القائمة بين المجموعتين.

السلطات المحلية

1. السياسات المعمول بها

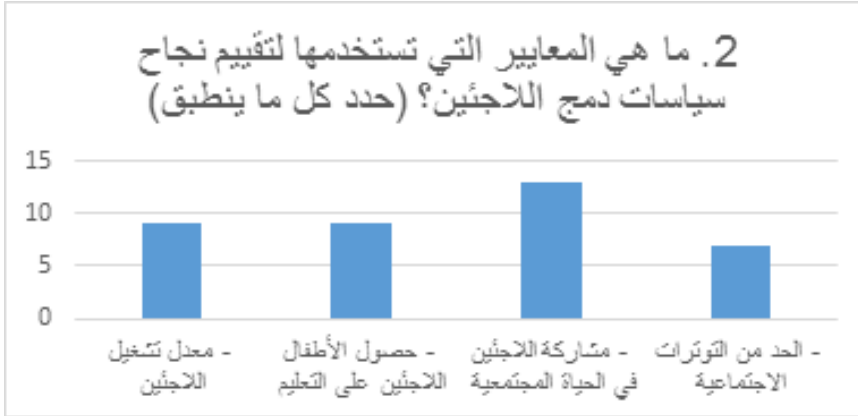


رسم بياني: تنفيذ سياسات اللاجئين السوريين

○ تُركّز السياسات على التعليم والرعاية الصحية، مع إهمال الإسكان.

○ تفتقر السلطات إلى الموارد المالية والدعم المؤسسي اللازم لتحسين إدارة اللاجئين.

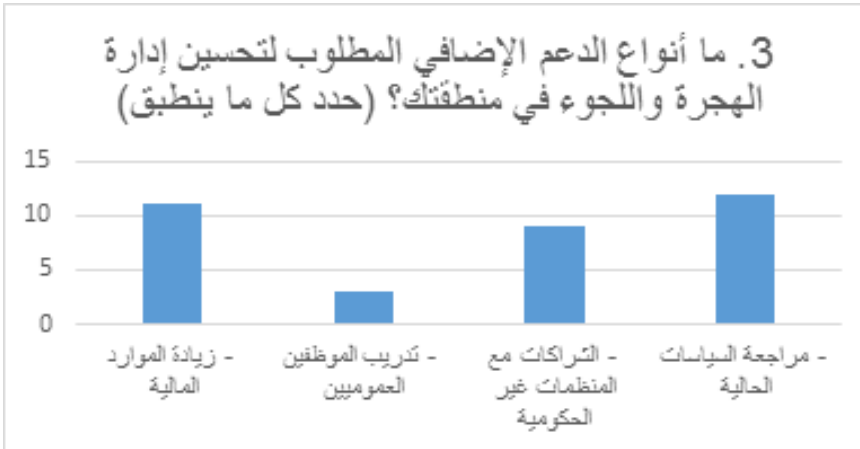
2. التقييم



رسم بياني: المعايير المستخدمة من قبل السلطات لتقييم سياسات التكامل

- تُستخدم معايير مثل مشاركة اللاجئين في الحياة المجتمعية كإشارة إلى نجاح السياسات.

3. أنواع الدعم الإضافي المطلوب



رسم بياني: الدعم الإضافي اللازم لتحسين إدارة الهجرة

- زيادة الموارد الماليّة: الأكثر طلبًا. (11)
- مراجعة السياسات الحاليّة: الثانية في الأهميّة. (12)
- الشراكات مع المنظمات غير الحكوميّة: تحتل المرتبة الثالثة. (9)
- تدريب موظفي الخدمة المدنيّة: تمّ ذكرها من قبل 3 مشاركين فقط.

تشير زيادة الموارد الماليّة ومراجعة السياسات إلى شعور السّلطات المحليّة بالضغط على قدراتها الحاليّة. كما تُعدّ الشراكات مع المنظمات غير الحكوميّة ضروريّة لسدّ الثّغرات الموجودة في إدارة اللاّجئين. أمّا الحاجة المنخفضة لتدريب الموظفين تشير إلى أنّ السّلطات المحليّة تعتقد أنّ لديها قاعدة مهارات كافية، لكنّهم يحتاجون إلى دعم هيكليّ وماليّ لتحسين الفعاليّة.

تُظهر البيانات التي تمّ جمعها من السّلطات المحليّة نهجًا متنوعًا في تنفيذ السياسات الخاصّة باللاّجئين السّوريين، وتركّز غالبيّة الجهود على الوصول إلى التّعليم والعمل والرّعاية الصحيّة، على الرّغم من توفّر عدد قليل من برامج الإسكان. وفيما يتعلّق بتقييم نجاح سياسات الإدماج، توكّد السّلطات المحليّة على مشاركة اللاّجئين في الحياة المجتمعيّة وحصول الأطفال اللاّجئين على التّعليم؛ أمّا فيما يتعلّق بالاحتياجات الإضافيّة، فتحدّد السّلطات المحليّة الحاجة إلى زيادة الموارد الماليّة، ومراجعة السياسات الحاليّة، وتعزيز الشراكات مع المنظمات غير الحكوميّة لتحسين إدارة الهجرة واللّجوء.

ويجمع هذا الملخص الأولويّات والتّحدّيات التي تواجهها السّلطات المحليّة في إدارة اللاّجئين، إضافة إلى الاستراتيجيّات الحاليّة والاحتياجات المتصوّرة لتحسين إدماج اللاّجئين في المجتمعات المحليّة.

عرض البيانات النوعيّة

1 - المواضيع المتكرّرة

يتناول هذا البحث التّحليل النوعيّ للتّجارب والنّصوّرات المتعلّقة باللاّجئين السّوريين في لبنان، إضافة إلى ردود فعل المجتمع المضيف والسّلطات المحليّة، وجمع البيانات

من خلال مقابلات مفتوحة مع كلّ من اللاّجئين والمجتمعات المضيفة والسّلطات المحليّة لتحديد التّحدّيات والفرص المرتبطة بالاندماج والوجود السّوريّ في لبنان.

1. تجارب اللاّجئين السّوريّين

- التّحدّيات الاجتماعيّة والثقافيّة: يواجه اللاّجئون صعوبة في الاندماج بسبب اختلافات ثقافيّة ولغويّة، فضلاً عن مشاعر التّهميش والإقصاء؛ إذ يعبرُ بعضهم عن إحساس بالعزلة والرّفص من المجتمع المضيف.
- الاندماج والتّكيف: على الرّغم من الصّعوبات، يبدي بعضهم مرونة في التّكيف مع الظّروف الجديدة، في حين يشعر آخرون أنّ مستقبلهم في لبنان غامض.
- تأثير الثقافة الأصليّة: يجد بعض اللاّجئين أنّ ثقافتهم الأصليّة توقّر لهم مصدر أمان، في حين إنّ بعضاً آخر يعاني من الصّراع الثقافيّ والتأثيرات السّلبية على عمليّة الاندماج.
- التّمييز على أساس الجنس: تواجه النّساء تحديّات إضافيّة، حيث يعبرن عن مشاعر القلق والإحباط بسبب عدم المساواة الاجتماعيّة والاقتصاديّة.

2. مواقف المجتمعات المضيفة

- المساهمات الإيجابيّة: بعض المجتمعات المضيفة ترى أنّ اللاّجئين يساهمون في دعم القطاعات الاقتصاديّة مثل الزراعة والبناء، في حين يرى آخرون أنّ وجودهم يضغط على سوق العمل.
- المساهمات السّلبية: يتمثّل القلق في تأثير اللاّجئين على توفير الخدمات العامّة وموارد البنية النّحتيّة، إضافة إلى تغييرات في الديناميكيات الاجتماعيّة والثقافيّة.
- التّعايش الاجتماعيّ: بينما يتعاون بعض المواطنين مع اللاّجئين، يعبر آخرون عن مخاوفهم من التّوترات الاجتماعيّة والمشاكل النّاجمة عن الاختلافات الثقافيّة والديموغرافيّة.

3. ردود فعل السلطات المحليّة

- التّحدّيات الاقتصاديّة والماليّة: تواجه السلطات المحليّة صعوبة في التّعامل مع العبء الاقتصاديّ الذي يسبّبه وجود اللاجئين، من خلال الضغط على الخدمات العامّة والبنية التّحتيّة.
- التّعاون مع المنظّمات الدّوليّة: تشير بعض السلطات إلى أهميّة التّعاون مع المنظّمات الإنسانيّة؛ لتوفير الدّعم الماليّ والخدمات الأساسيّة، خاصّة في المناطق المتأثّرة.
- التّحدّيات الأمنيّة: تثير السلطات المحليّة مخاوف أمنيّة تتعلّق بالضغط السّكانيّ والازدحام، فتزيد من التّوتّرات في بعض المناطق.
- التّأثير على التّوازن الاجتماعيّ: السلطات المحليّة تلاحظ التّأثيرات السّلبيّة على النّسيج الاجتماعيّ، حيث يسهم تزايد أعداد اللاجئين في تغييرات ديموغرافيّة وثقافيّة.

2. الاقتباسات البارزة

تستعرض الاقتباسات البارزة التي تمّ جمعها خلال البحث التّحدّيات والتّصورات المختلفة من جانب اللاجئين السّوريين والمجتمعات المضيفة والسلطات المحليّة، فيتعرّز فهمنا لواقع المعيشة والتّفاعلات في سياق الهجرة في لبنان.

اللاجئون السوريون

1. تجربة الهشاشة الاقتصاديّة

- تعكس بعض الاقتباسات معاناة اللاجئين من الوضع الاقتصاديّ الصّعب، حيث تعبّر إحدى اللاجئين عن الخوف المستمرّ بسبب الطّروف الماليّة، قائلة: «نعيش في خوف دائم ولا نعلم متى سنجد الوجبة التّالية».
- كما يشير آخر إلى تأثير الوضع الماليّ على تعليم الأطفال: «لا أستطيع تسجيل أطفالي في المدرسة بسبب نقص الإمكانات الماليّة».

2. المشاكل الصحيّة والحصول على الرّعاية

- يُعبّر لاجئ عن تأثير حالته الصحيّة السيئة على حياته اليوميّة: «حالتي الصحيّة السيئة تمنعني من التّقلّ والبحث عن عمل».

○ العنف والاستغلال

- بعض اللاجئات يُجبرن على العمل في ظروف قاسية: «أُجبرتُ على العمل كامرأة، رغماً عنّي، تحت التّهديد».
- أخرى تشير إلى استغلال النّساء من قبل مسؤولي العمل: «الشّاويش السّوري يطالبنا نحن النّساء اللاجئات بالعمل بالقوّة».

○ المجتمعات المضيفة

1. تصوّر مساهمات اللاجئين

- على الرّغم من بعض المساهمات الإيجابيّة التي يراها بعض أفراد المجتمع المحليّ، مثل: «يوفّر اللاجئون السوريون عمالة ماهرة في مهن مهمّة مثل الزّراعة والبناء وأعمال التّنظيف»، إلّا أنّ هناك من يرى أنّ وجودهم يهدّد فرص العمل: «يقبلون رواتب أقلّ، مما يضرّ بفرص العمل للمواطنين اللّبنانيين».

2. التّأثير الاجتماعيّ والثّقافيّ

- تبدو تأثيرات ثقافيّة واجتماعيّة في المجتمع المحليّ، مثل: «ارتفاع معدّل المواليد والضغط على الخدمات العامّة كالّتعليم والصّحة».
- تظهر التّحدّيات المرتبطة بالاختلافات الثّقافية: «اختلاف ثقافتهم يؤدّي إلى سوء الفهم والمشاكل مع المجتمع المضيف».

السلطات المحليّة

1. تحدّيات تنفيذ سياسات الهجرة

- يعكس بعض المسؤولين المحليين الشّعور بالإرهاق بسبب العبء الذي تسبّبه الهجرة: «نشعر بالإرهاق؛ لأنّ لبنان منهك بالفعل اقتصاديّاً واجتماعيّاً».

- يُشير بعض المسؤولين إلى أنّ وجود اللاجئين في المخيمات المعزولة يُعقّد عمليّة الاندماج الاجتماعي: «وجودهم في مخيمات معزولة يُعقّد الاندماج الاجتماعي».

2. تصوّر سياسات الحلول المستدامة

- تعكس بعض التّصوّرات السّلبية تجاه اللاجئين، حيث يرى بعض المواطنين والمسؤولين أنّهم «سبب جميع المشاكل الاقتصادية والاجتماعيّة».
- يرفض المجتمع المضيف بعض الحلول الدائمة التي قد تسهم في استمرار اللّجوء: «المجتمع المضيف يرفض الحلول الدائمة؛ لأنها من الممكن أن تديم فكرة اللّجوء».
- تقدّم هذه الاقتباسات فهماً أعمق للأوضاع المعقّدة التي يعيشها اللاجئون السوريّون والمجتمعات المضيفة والسلطات المحليّة في لبنان. كلّ مجموعة تُعبّر عن تحدّيات وأصوات متفاوتة تؤثر على ديناميكيات الاندماج الاجتماعي والاقتصاديّ، فنُعزّز أهميّة التّحليل النوعي لفهم الواقع المعيش بشكل شامل ودقيق.

3. مقارنة وجهات النّظر

يُظهر التّحليل المقارن بين وجهات النّظر المتباينة للاجئين السوريّين، المجتمعات المضيفة، والسلطات المحليّة جوانب عدّة تبرز التّحدّيات المشتركة والمختلفة بين هذه المجموعات، ممّا يساعد في فهم الديناميكيات الاجتماعية والثقافية المرتبطة بالتّعايش المشترك.

1. التّحدّيات الاقتصادية والاجتماعيّة

- **اللاجئون:** يركّز اللاجئون على صعوبات تأمين احتياجاتهم الأساسيّة، مثل العمل والتّعليم والرّعاية الصحيّة؛ إذ تشير العديد من الاقتباسات إلى شعورهم بالقلق المستمرّ حول الاستقرار الاقتصاديّ، مثل قول أحدهم: «نعيش في خوف دائم ولا نعرف متى سنحصل على الوجبة التّالية».

- **المجتمعات المضيفة:** يُظهر أفراد المجتمع المضيف قلقهم من تأثير وجود اللاجئين على رفاههم الاجتماعيّ والاقتصاديّ، لا سيّما من خلال زيادة المنافسة على

الوظائف وضغط الخدمات العامة. كما عبّر أحدهم عن هذا بقوله: «إنّهم يقبلون رواتب أقلّ، فيؤثّر ذلك على فرص العمل للمواطنين اللبنانيين».

- **السلطات المحليّة:** تتقاسم السلطات المحليّة القلق من العبء الاقتصاديّ، وتسلّط الضوّء على تحدّيات إدارة هذا الوضع بموارد محدودة، إضافة إلى صعوبة تنفيذ سياسات فعّالة بسبب نقص الدّعم المركزيّ. قال أحد المسؤولين المحليّين: «نشعر بالإرهاق؛ لأنّ لبنان منهك اقتصادياً واجتماعياً بالفعل».

2. الأسئلة الأمنيّة

- **اللاجئون:** بينما لا يُولي اللاجئون الأولويّة للقضايا الأمنيّة بقدر ما تفعل المجتمعات المضيفة أو السلطات، فإنّ بعضهم يعبّرون عن قلق بشأن الظروف المعيشيّة في المخيمات وتهديدات العنف أو الاستغلال.
- **المجتمعات المضيفة:** يزداد القلق الأمنيّ في صفوف المجتمعات المضيفة، حيث يعبّرون عن مخاوف من زيادة الجريمة أو دخول عناصر تخريبية؛ وقد عبّر أحد أفراد المجتمع عن هذه المخاوف بقوله: «زيادة الجريمة بسبب وجودهم».
- **السلطات المحليّة:** تُدرك السلطات المحليّة هذه المخاوف، وتواجه صعوبة في الحفاظ على النّظام والأمن مع مراعاة حقوق اللاجئين؛ ويشير أحد المسؤولين المحليّين إلى تحدّيات إضافيّة في تأمين تكامل اجتماعيّ فعّال: «وجودهم في مخيمات معزولة يعقّد الاندماج الاجتماعي».

3. التّكامل الثقافيّ

- **اللاجئون:** يُظهر اللاجئون قلقاً واضحاً حول التّكيّف مع ثقافة قد تكون غريبة عليهم؛ فهم لا يشعرون دائماً بالترحيب، ممّا يعيق اندماجهم. كما عبّر أحدهم عن هذا الشّعور بقوله: «نحن هنا فقط للبحث عن الأمان والعمل».
- **المجتمعات المضيفة:** يشعر أفراد المجتمعات المضيفة بالقلق من الاختلافات الثقافيّة، إذ قد تؤدّي إلى صراعات أو تهدّد هويّتهم الثقافيّة. وأشار أحدهم إلى ذلك،

فقال: «اختلاف ثقافتهم يؤدّي إلى سوء الفهم والمشاكل مع المجتمع المضيف».

- **السّلاط المحليّة:** تشارك السّلاط المحليّة المواطنين هذه المخاوف، وتواجه تحدّيًا في إدارة التّعايش بين ثقافات مختلفة وتجنّب الصّراعات. كما وصف أحد المسؤولين المحليّين هذه الصّعوبة بقوله: «وجود اللاجئين ضمن المجتمع المضيف يخلق مشكلة التّكامل بينهم».

يُظهر التّحليل أنّ اللاجئين والمجتمعات المضيفة والسّلاط المحليّة يشتركون في قلقهم من التّحدّيات الاقتصاديّة؛ لكنّ وجهات نظرهم تختلف بشكل كبير بشأن قضايا الأمن والتّكامل النّقافي؛ فبينما يركّز اللاجئون على قضايا البقاء اليوميّ، فإنّ المجتمعات المضيفة والسّلاط المحليّة أكثر اهتمامًا بالتّأثيرات الطّويلة المدى على الأمن والتّماسك الاجتماعيّ، وتسلّط هذه المقارنات الضّوء على ضرورة تطوير حلول متوازنة تلبي احتياجات جميع الأطراف وتعزّز التّعايش السّلميّ والمستدام بين هذه المجموعات.

مناقشة النّتائج

1. ملخّص النّتائج

- **تأثير الوضع الاجتماعيّ والاقتصاديّ على اندماج اللاجئين السّوريّين**
تشير البيانات إلى أنّ الوضع الاجتماعيّ والاقتصاديّ يشكّل عاملاً رئيساً في تحديد فرص اندماج اللاجئين السّوريّين (Harb & Saab, 2014)؛ فاللاجئون ذوو الوضع المادّي الضّعيف يواجهون تحدّيات كبيرة في الوصول إلى الخدمات الأساسيّة والفرص الاقتصاديّة، فيعيق اندماجهم في المجتمع المضيف.

• دور التّعليم في المرونة والتّكامل

التّعليم يُعدّ أداة حاسمة في تعزيز مرونة اللاّجئين واندماجهم (UNHCR, 2016)، فاللاجئون، خصوصاً الشّباب الذين يحصلون على تعليم، يُظهرون تطوّرًا في قدراتهم على الاندماج اقتصاديًّا واجتماعيًّا، على الرّغم من التّحدّيات المتعلّقة بالوصول المحدود إلى التّعليم.

• تأثير النوع الاجتماعي على تجربة الاندماج:

تُظهر النتائج أنّ النساء اللاجئات يواجهن تحديات فريدة مرتبطة بالأدوار الاجتماعية التقليدية وزيادة المسؤوليات الأسرية، فيؤدّي إلى صعوبة في الاندماج، ويواجه الرجال أيضًا تحديات اجتماعية ولكن بشكل مختلف (UN Women, 2017).

• تأثير ثقافة المنشأ على ديناميكيات الاندماج:

تتداخل ثقافة اللاجئين مع الثقافة المحلية، حيث يمكن أن تساهم بعض الممارسات الثقافية في التوترات مع المجتمعات المضيفة، ولكن يمكن للبعض الآخر أن يساهم في تسهيل الاندماج (Hynie, 2018).

• تأثير تصورات المجتمعات المضيفة على الاندماج:

تختلف تصورات المجتمعات المضيفة حول اللاجئين؛ فبينما قد تعيق النظرة السلبية اندماجهم، تساهم النظرة الإيجابية في تسهيل عملية التكامل.

• توصيات لتحسين سياسات الهجرة والاندماج:

توصي الدراسة بتعزيز برامج التعليم والتدريب المهني، والتوعية المجتمعية لتحسين ظروف الاندماج، واتباع نهج متكامل يشمل التعامل مع الفوارق بين الجنسين (Scholten, 2013).

2. تفسير النتائج:

• الوضع الاجتماعي والاقتصادي:

تؤكد النتائج أنّ الوضع الاجتماعي والاقتصادي للاجئين يحدّد قدرتهم على الاندماج؛ فاللاجئون الذين يتمتعون بوضع اقتصادي جيّد يكونون أكثر قدرة على الاندماج، بفضل توفّر فرص العمل وسهولة الوصول إلى الخدمات المتاحة لهم.

• المستوى التعليمي:

أظهرت الدراسة أنّ التعليم يعزّز من فرص اندماج اللاجئين، حيث يوفّر لهم

المهارات اللازمة للاندماج في سوق العمل والمشاركة في الحياة الاجتماعية.

• الجنس:

تُظهر الدراسة أنّ هناك تباين بين الجنسين في تجربة الاندماج؛ فالنساء يواجهن صعوبات أكبر في الوصول إلى سوق العمل بسبب الأعراف الثقافية التقييدية، في حين يواجه الرجال ضغوطاً اجتماعية لدعم أسرهم.

• الثقافة:

تظهر النتائج أنّ الثقافة الأصلية لللاجئين يمكن أن تكون مصدراً لصمودهم، ولكنها قد تخلق أيضاً توترات مع المجتمعات المضيفة إذا كانت تتناقض مع المعايير المحلية.

3. المقارنة مع الأدبيات

تتسجم نتائج هذه الدراسة مع الأدبيات السابقة التي تؤكد دور الوضع الاجتماعي والاقتصادي في اندماج اللاجئين، حيث أبرزت الأبحاث أنّ اللاجئين ذوي الدخل المرتفع ومستويات التعليم العالية يندمجون بسهولة أكبر؛ ومع ذلك، تُبرز دراستنا أنّ نقص الموارد في لبنان يجعل الاندماج أكثر تعقيداً مقارنة بالدول ذات أنظمة الدعم الاجتماعي القوية.

فيما يخص التعليم، تدعم نتائجنا ما أكدته الدراسات السابقة حول أهميته في تعزيز الاندماج، لكننا نضيف أنّ محدودية الموارد في لبنان تعيق وصول اللاجئين إليه، ممّا يحدّ من تأثيره كعامل اندماج فعال.

أمّا على مستوى النوع الاجتماعي، فتؤكد الأدبيات أنّ النساء اللاجئات يواجهن تحديات مضاعفة بسبب التمييز الاجتماعي والاقتصادي، وتتوافق دراستنا مع هذه النتائج، لكنها توضح أيضاً أنّ هذه العوائق تعمّق عدم المساواة بين الجنسين داخل المجتمعات اللاجئة.

من الناحية الثقافية، أشارت الأدبيات إلى أنّ الفوارق الثقافية قد تعيق الاندماج وتسبب توترات بين اللاجئين والمجتمعات المضيفة، وتتماشى نتائجنا مع هذه الفكرة؛ لكنها تبرز

أيضاً كيف يمكن للثقافة أن تكون في بعض الحالات عاملاً لتعزيز المرونة الاجتماعية، وليس مجرد عائق أمام الاندماج.

بذلك، تؤكد هذه الدراسة على أهمية التفاعل بين العوامل الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والثقافية والجنسوية في تشكيل ديناميكيات اندماج اللاجئين السوريين في لبنان، كما تُبرز الحاجة إلى سياسات تكامل أكثر مرونة تستجيب لهذه العوامل المعقدة، وهي فجوة لم تعالجها الدراسات السابقة بشكل شامل، خاصة في المقارنات مع سياقات دولية مماثلة.

خاتمة الدراسة

تمثل هذه الدراسة خطوة مهمة في فهم ديناميكيات اندماج اللاجئين السوريين في لبنان وتأثير مجموعة من المتغيرات الاجتماعية على تجربتهم. خلصت النتائج الرئيسية إلى أنّ اندماج اللاجئين يتأثر بعوامل مثل الوضع الاجتماعي والاقتصادي والتعليم والنوع الاجتماعي والثقافة، وتصورات المجتمعات المضيفة.

النتائج الرئيسية

1. تأثير الوضع الاجتماعي والاقتصادي: تبين أنّ اللاجئين ذوي الوضع الاجتماعي والاقتصادي الأعلى يندمجون بشكل أفضل في المجتمعات المضيفة، حيث يتمتعون بإمكانية وصول أكبر إلى الفرص الاقتصادية والخدمات، في حين يواجه اللاجئون الفقراء عقبات كبيرة تؤثر سلباً على قدرتهم على الاندماج.
2. دور التعليم: أظهرت الدراسة أنّ التعليم يعدّ عاملاً حاسماً في اندماج اللاجئين، إذ يوفر لهم فرصاً أفضل للمشاركة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية.
3. تأثير النوع الاجتماعي: يعاني النساء من تحديات إضافية تتعلق بالأعراف الثقافية المقيدة، ويواجه الرجال ضغطاً اجتماعياً لدعم أسرهم، فيؤثر على قدرتهم على التكيف.
4. تأثير الثقافة: للثقافة الأصلية للاجئين تأثير مزدوج؛ حيث تساعد على الحفاظ

على هويّتهم لكنّها قد تعرّقل تكاملهم إذا تعارضت مع ثقافة المجتمع المضيف.

5. تصوّرات المجتمعات المضيّفة: تؤدّي تصوّرات المجتمعات المحليّة دورًا كبيرًا في اندماج اللاجئين، حيث تؤثر هذه التّصوّرات في قبول اللاّجئين بناءً على المساهمات الاقتصاديّة والموارد المتاحة.

6. توصيات لسياسات الهجرة: تحتاج سياسات الهجرة إلى تعديل يراعي المتغيّرات الاجتماعيّة مثل الوضع الاجتماعي والتعليم والنّوع الاجتماعي والثقافة لضمان تكامل أفضل للاّجئين.

المساهمات المعرفيّة

تُسهم هذه الدّراسة في إثراء الأدبيّات المتعلّقة بتكامل اللاجئين من خلال دراسة تأثير المتغيّرات الاجتماعيّة على عملية الاندماج، كما تقدّم فهمًا معمّقًا للسياق اللّبنانيّ وتسلّط الضّوء على دور التّعليم والثقافة في دعم قدرة اللاجئين على الصّمود، وتكشف الدّراسة أيضًا كيف يمكن أن تكون النّقاافة عقبة أو مصدرًا للمرونة، ممّا يستدعي مزيدًا من البحث حول كينيّة إدارة الاختلافات النّقاافيّة في سياسات الهجرة.

الآفاق المستقبلية

تفتح هذه الدّراسة المجال لاستكشاف تفاعلات المتغيّرات الاجتماعيّة المختلفة مع فعالية سياسات الهجرة في سياقات إقليمية أخرى. وتؤكد على أهميّة تكييف سياسات الهجرة لتلبية احتياجات اللاجئين والمجتمعات المضيّفة، خاصّة في ظلّ الظروف المعقّدة التي تواجهها هذه الفئات.

التوصيات

تشمل التّوصيات الملموسة التي تهدف إلى تحسين تكامل اللاجئين في لبنان:

1. تعزيز السّياسات الاقتصاديّة والاجتماعيّة لدعم فرص العمل لريادة الأعمال بين اللاّجئين.

2. تحسين الوصول إلى التّعليم، مع التّركيز على تقليل العقبات البيروقراطيّة.

3. إطلاق حملات توعية لتغيير تصوّرات المجتمعات المضيفة وتعزيز التّعايش السّلمي.
4. تشجيع المساواة بين الجنسين في سياسات الهجرة.
5. تعزيز الحوار بين الثقافات لتقليل العوائق الثقافيّة.

تكشف هذه الدّراسة عن تعقيدات عمليّة إدماج اللاجئين السّوريّين في لبنان، وتوكّد أهميّة اتّباع نهج شامل في تصميم سياسات الهجرة، كما تبرز الحاجة إلى دعم من يستهدف الفئات الضّعيفة، وخاصّة النّساء وأصحاب التّعليم المنخفض؛ إضافة إلى ذلك، تفتح هذه الدّراسة أفقاً جديداً للبحث المستقبليّ، مثل دراسة تأثير مدّة إقامة اللاجئين على تكاملهم، فتسهم في بناء سياسات أكثر شمولاً واستدامة، كما يُسلّط هذا البحث الضّوء على التّحدّيات الرّئيسة التي تواجه اللاجئين السّوريّين في لبنان والمجتمعات المضيفة لهم، إذ يعكس أهميّة النّظر إلى القضايا الاجتماعيّة والاقتصاديّة من منظور شامل يراعي جميع الأطراف المعنيّة، لتحقيق تكامل مستدام، يتطلّب الأمر سياسات مُحكّمة ودعماً دولياً ومحلياً مشتركاً. ومن خلال هذا التّهج، يمكن أن يصبح لبنان نموذجاً يحتذى به في إدارة قضايا اللاجئين على الصّعيدين الإقليميّ والدّوليّ.

References:

- 1- Amnesty International. (2019). « Le Liban et les réfugiés syriens : une crise prolongée. Rapport annuel sur la situation des réfugiés au Liban ». Londres : Amnesty International. p. 23.
- 2- Harb, C. & Saab, R. (2014). «Social Cohesion and Intergroup Relations: Syrian Refugees and Lebanese Nationals in the Bekaa and Akkar», Lebanon Support, p. 45.
- 3- Hassan, R., & Thomas, L. (2022). «Gender Dynamics and Refugee Integration: Challenges and Opportunities.» International Journal of Migration and Gender Studies, 19(2), 45-58.
- 4- Hynie, M. (2018). «The Social Determinants of Refugee Mental Health in the Post-Migration Context: A Critical Review». Canadian Journal of

- Psychiatry, 63(5), p. 303.
- 5– Janmyr, M. (2016). Precarity in Exile: The Legal Status of Syrian Refugees in Lebanon. *Refugee Survey Quarterly*, 35(4), 58–78.
 - 6– Kunz, R. (2021). «The Role of Socioeconomic Status in Refugee Integration: A Comparative Analysis.» *Journal of Migration and Development*, 10(2), 45–60.
 - 7– Lee, M. H., Park, J., & Kim, S. (2020). «Education and Income: Key Factors in Refugee Integration Outcomes.» *International Journal of Refugee Law*, 32(1), 23–38
 - 8– Mastroiocco, D., & Schöps, S. (2018). «The impact of social variables on refugee integration: A comprehensive review.» *International Migration Review*, 52(4), 1150–1177, p. 165.
 - 9– Miller, C. (2018). «Impact of Migration Policies on Refugee Integration: A Review of Asylum and Support Programs.» *Journal of Migration and Policy Studies*, 22(3), p.115.
 - 10– Scholten, P. (2013). «Agenda Dynamics and the Multi-Level Governance of Intractable Policy Controversies: The Case of Migrant Integration Policies in The Netherlands». *Policy Sciences*, 46(3), p. 217.
 - 11– Smith, J. T. (2019). «Cultural Practices and Refugee Integration: Navigating Between Tradition and Adaptation.» *Journal of Cultural and Migration Studies*, 15(4), 120–135.
 - 12– UNHCR. (2016). «Global Trends: Forced Displacement in 2015». United Nations High Commissioner for Refugees. p. 28–29.
 - 13– UN Women. (2017). «Gender and the Syrian Refugee Crisis». UN Women Discussion Paper, p. 12.
 - 14– World Bank. (2019). *The Welfare of Syrian Refugees: Evidence from Lebanon*. Washington, DC: World Bank. Page 32.

«ناظم حكمت» الشاعر الإنسان

Nazim Hekmet the Human Poet

د. سامي التّراس¹

Dr. Sami El Tarras

تاريخ القبول 2025 /5/10

تاريخ الاستلام 2025 /4/28

المستخلص

نلقي الضّوء في هذا البحث معرّفين بالشّاعر التّركيّ ناظم حكمت، وبظروف حياته التي تكبّدها في السّجون، وحصاده الشعريّ وراء القضبان، ثمّ نعرّج على تجربته السّجنيّة، فنقدّم قراءة لعيّنات مختارة من أشعاره المترجمة إلى العربيّة، وتحليلاً لقصيدة «سيرة ذاتيّة» التي كتبها بقلمه، ونرصد هذه التّجربة بقراءة لقصيدة «الزّاهب الأحمر» للشّاعر عمر شبلي ذي الخبرة العريقة في الأسر والاعتقال والزّنازين وأشعارها، وهو يُهديها إلى زميله الشّاعر السّجين ناظم حكمت، لنخلص إلى النّزعة الإنسانيّة في شعره. الكلمات المفاتيح: السّجن، شاعر، إنسانيّة، شعر، تجربة، ناظم حكمت، عمر شبلي...

Abstract :

This study explores the life and the poetic legacy of the Turkish poet Nazim Hekmet, focusing on the hardships he endured during his imprisonment and the significant poetry he produced behind bars. It offers an analytical reading of selected poems translated into Arabic and an analysis of his poem «Autobiography». The research also examines the poem «The Red Monk» by the poet Omar Shibli, who has a long experience with imprisonment and who dedicates this piece to his fellow the poet Nazim Hekmet. The study results in highlighting the deeply humanistic dimension in his poetry.

Keywords: prison, poet, humanity, poetry, experience, Nazim Hekmet, Omar Shibli...

1- دكتوراه في اللغة العربيّة وآدابها ، جامعة الجنان، طرابلس، 2024م.

مقدمة البحث

يعدُّ شعر السجون من ألوان الشعر الغنائيِّ الوجدانيِّ، من صنو المديح والثناء والغزل... لما يتَّسم به من الدفق العاطفيِّ الناجم عن صدق التجربة، والمعاناة الكبيرة التي يكابدها الشاعر في الزنازين الانفرادية، والأسوار الشائكة المانعة، والسجون الموحشة المظلمة، والمنافي التي تجبر المنفيَّ على العيش بعيداً عن وطنه وأرضه وبيئته، وما يتميز به أيضاً من القيم الإنسانية، والدعوة إلى العدل والمحبة والمساواة والسلام.

ويدخل شعر الأسر والسجون في الأدب العالمي لاشتراك الشعراء المساجين عبر أصقاع المعمورة في هذه التجربة الشعرية؛ أمثال بابلو نيرودا، وناظم حكمت، وعمر شبلي، وغيرهم...

وسيتطرق هذا البحث إلى تجربة الشاعر التركيِّ ناظم حكمت السجنية، وما يتميز به شعره السجنيِّ من غنى إنسانيِّ شامل، وإلى ما قاله فيه شعراً رفيقاً في هذه التجربة الشاعر اللبنانيِّ عمر شبلي وهو أسير في السجون الإيرانية.

أ- ناظم حكمت: سيرة حياته وشعره

ولد في مدينة «سالونيك» التركية الواقعة إلى شمال اليونان في 7/2/1902م، لعائلة تركية محبة للأدب والنضال، هو حفيد ناظم باشا الذي كان يشغل منصب عمدة مدينة حلب، وكان ينتمي إلى الطريقة المولوية، وأمّه جليلة هانم كانت امرأة مثقفة تجيد الفرنسية، وتكتب قصائد رافضة، وترسم لوحاتٍ فنية.

عمل في بداية حياته بالبحرية التركية، ودخل المدرسة الحربية حيث تخرّج ضابطاً، غير أنّ الانضباط العسكريّ لم يكن يناسب طبعه الثائر على بلادة الأنظمة، فلم يستطع الاستمرار في البحرية.

شهد انهيار الأمبراطورية العثمانية في مراهقته، وعاش ثورة الأناضول التي أدّت إلى نشوء الجمهورية التركية، وقرّر سنة 1919م الفرار من مدينة اسطنبول، خصوصاً بعد أن احتلّتها جيوش الحلفاء، إلى بلاد الأناضول ليلتحق بصفوف المقاومة هناك بقيادة مصطفى كمال أتاتورك، والتي رآها انتفاضة راقية ومناضلة ضدّ الإمبريالية؛ وكان له الدور البارز في جبهة الحرب ضدّ الحلفاء، والحركة التجديدية الإصلاحية التي رافقتها.

بعد العودة من الحرب أرسله أتاتورك في بعثة للدراسة في موسكو، فدرس علم الاجتماع بجامعة «كوتيف»، واستمر في الدراسة حتى العام 1924، إلى أن عاد إلى اسطنبول حين إعلان الجمهورية في تركيا.

وخلال دراسته في موسكو تأثر بالشعر الروسي، وخاصة بشعر «مايكوفسكي» و«يسنين»، واهتم بالفكر الثوري والماركسية، وتشرب العقيدة الشيوعية، وحارب الإقطاعية فنار على البرجوازية، وكان منحازاً باستمرار للفقراء والفلاحين الكادحين؛ عارض النظام القائم، ودخل في الحزب الشيوعي التركي، وقام بنشر ديوان ثوري كان سبباً في دخوله السجن، فحكم عليه خمسة عشر عاماً، لم يستكملها بسبب فراره من السجن بمساعدة زملائه، ليعيش بعدها حياة غير مستقرة ما بين السجن والمنفى.

في العام 1938 اعتقل بسبب نشاطه السياسي، وسجن حتى العام 1950، حيث قضى أقصى مرحلة من حياته، لكنه ظل يكتب الشعر، وقد عكست قصائده مأساة السجن التي فرضت عليه، والأزمات التي كان يمر بها العالم آنذاك، ووصف مشاهد من زيارات الأهل للسجناء المقربين. وكان رفاقه السجناء يسمونه «المعلم»، فيما يسميهم هو «أخوتي»!

في العام 1950 قرر ناظم الإضراب عن الطعام، وبفعل التظاهرات المطالبة بإطلاق سراحه، والضغوط الداخلية والخارجية، خرج من السجن؛ غير أن السلطات التركية ضيّقت عليه ومنعت أشعاره من النشر، ففر إلى موسكو ثانية، وراح يتجول في بلدان أوروبا الشرقية مردداً قصائده الممنوعة في منتدياتها الثقافية.

بقي في حل وترحال حتى 1952، حيث أصيب بنوبة قلبية مفاجئة، فذهب إلى العلاج في موسكو وما لبث أن استعاد عافيته، وعاد إلى ممارسة نشاطه الأدبي عبر أسفاره إلى مصر وسوريا ولبنان وكوبا وفرنسا، واهباً كل إبداعه لمن أحبه، مقاوماً مرضه المتفاقم، إلى أن تمكن منه في النهاية، ليسلم الروح في 3 حزيران 1963م، عن عمر ناهز الواحد والسنتين عاماً، قضى نصفه إما في السجن وإما في المنفى، وبرغم هذا ظل ممثلاً بالمرأة والنضال والعمق الفني، والحياة الزاخرة بالثورة.

تشرّب ناظم حكمت العقيدة الشيوعية، وكان منحازاً إلى الكادحين البائسين، ومعادياً شرساً للبرجوازية، كما كان ضدّ التقليدية في المجتمع التركي والتراث الديني.

وصفه أصدقاؤه بالعملاق ذي العينين الزرقاوين، شعره يميل إلى الاحمرار، وطوله بلغ 190سم، كان لوسامته زير نساء، أقام علاقات مع فنّانات ونساء مرموقات، أحبّ المرأة كثيراً، وتزوَّج أكثر من ستّ مرّات، غير أنّه لم ينجب إلّا ولداً وحيداً من زوجته الأولى «منور».

ترك ناظم حكمت زاداً وفيراً من الإبداع وهو في السجن، وضمت كتاباته :

1- الدفتر الأول: 1937م وكان بعنوان: «رحلة سفينة يوسف الحزينة إلى برشلونة».

2- الدفتر الثاني: وتناول فيه أحداث حرب 1938م وعنوانه «رسائل رجل في الحبس الانفرادي».

3- الدفتر الثالث: مسودات لقصائد كتبها في هذه المرحلة من سجنه في سجن سلطان أحمد، وسجن شنكاري.

4- الدفتر الرابع: أشعار في سجن شنكاري أيضاً، وقد صمّنها كتاباً بعنوان «أراني في الأربعة من سجوني».

5- الدفتر الخامس: رسائل لزوجته بعنوان «رسائل إلى بيرايا من شنكاري».

6- الدفتر السادس: يشغل العام 1941م، عبارة عن مسودات ديوان سيصدر بعنوان «مناظر بشرية في بلدي». ترجمه فاضل لقمان إلى العربية في أربعة أجزاء، ووضعه تحت عنوان «مشاهد إنسانية».

7- الدفتر السابع: وبلغ قرابة ثلاثماية صفحة، وهو شبه فهرس يتضمّن معلومات وتوضيحات عن الدفاتر الستّة، ومزوّد بملحق غنيّ بالمعلومات والصور عن ناظم حكمت.

لم تترجم أعمال شاعر تركي إلى لغات أخرى أكثر ممّا ترجمت أعمال ناظم حكمت، ولم يحظَ أحدٌ أيضاً بمكانةٍ عالميّةٍ كمكانته.

يقول الشاعر الفرنسي تريستان تزارا (1896-1963) في ترجمته لبعض قصائد ناظم حكمت إلى الفرنسية: « تجسّد حياة ناظم تجارب قسم كبير من البشرية، تطرح قصائده طموح الشعب التركي والمثل المشتركة لجميع الشعوب في شروط إنسانية»¹

وحظي بثناء كبير من الشعراء الأمريكيين والإنكليز. يقول دينيز ليفيرتوف: « شعر ناظم حكمت وما سمعته وقرأته عن حياته، لطالما ملأني بالمتعة والأمل والإصرار الجديد على الشعر والنضال».²

ويقول ديفيد إيغنتاوا في حديثه عن ناظم: « إنه يكتب أكثر أفكارنا خصوصية بمتعة وحبّ تجعلنا نكتنز تلك الأفكار بداخلنا».³

ويقول بول زويغ: «حكمت هو أحد شعراء هذا القرن السياسيين المهمين».⁴

ويقول ويليام ستانلي ميروين: «حكمت شخصية ذات طاقة وموهبة عظيمة».⁵

والمطّاع على شعر ناظم حكمت يجد أنّ «القضية الشعرية عنده هي التعبير عن التوق للمستقبل، بقوة الكشف والصمود في الحاضر. وغايته هي الدعوة لعالم جديد، مؤسّس على نظرية جديدة، وصياغة ذلك من السنة الحرائق الشعرية في النفس».⁶

ب- قراءة في تجربة ناظم حكمت السجنية

عاش ناظم حكمت الحياة بكلّ وجوها، بحسناتها وسيئاتها، بلوها ومرّها، ولم يطمع بمنصب أو جاهٍ أو يرغب فيهما، بل رأى أنّ أعلى ما وصل إليه هو إنسانيته التي رافقته من تبرعم وعيه إلى نهاية حياته. ولقد كانت هذه النزعة الإنسانية أوسع من انتمائه الحزبي، ما جعله يسير في نفق له جدران لا يستطيع الخروج منها، فهو تحمّل لأجلها الكثير من السجن والنفي والملاحقة، ومنع نشر نتاجه في بلاده.

1 - تريستان تزارا في دراسته عن ناظم حكمت، نقلاً عن مقدمة د. علي سعد.

2 - ألفية في الأدب التركي، طلعت سعيد هالمان، تر. محمد حقي صوتشين، أنقرة- وزارة السياحة والثقافة التركية، 2014، ص 116.

3 - م. ن. ص، ن.

4 - م. ن. ص 117.

5 - م. ن. ص، ن.

6 - حنا مينه، قضايا أدبية وفكرية، ص 13.

رتّب حكمت أرشيف حياته زمانياً ومكانياً مع ما صاحبهما من تغيّرات، وكان يعتبر أنّ السعادة تتعدّى الزمكانية لكونها مرتبطة بالفعل الداخليّ للنفس الإنسانية، وهذا بارز في إشاراته إلى الكثير من الأُنس الذي عايشه في السجن وهو في وطنه، بينما نجده ممثلاً بالحنين وهو حرّ في ألمانيا، مع الفارق بين المكانين وتأثيرهما في وجدانه ونتاجه الشعريّ.

لقد صنع منه السجن إنساناً، فطبيعة السجن إمّا أن تخلق من السجين قديساً أو تجعله شيطاناً. وكان يردّد على مسامع أصدقائه: «لا شيء يعدل نسيم اسطنبول وتبغ بلاده!» وهو استطاع بفرداته أن يجعل من السجن «عالمًا جديداً ملاءه بالحركة والنشاط والإبداع والعمل، حوّل السجناء والسجّانين إلى أصدقاء له، وأخذ يعلمهم الغناء الجماعي، ويعطيهم دروساً في الرسم والنحت، وشيئاً فشيئاً استطاع أن يعلمهم أروع شيءٍ، وهو التفكير!«¹

إنّ تجربة الأُسى والحنين التي يحياها السجين لسنوات إمّا أن تهدم النفس وإمّا أن تبنيها، لذا نبرّر لناظم خروجه عن الأطر الماركسيّة الماديّة، لتناوله الإنسان من داخله، مع إصراره على كونه شيوعياً في معظم شعره، فشيوعيّته مقتصرّة على نُصرة الفقراء والمعدّبين والمحرومين، ومحاربة الإقطاع والجور.

لم يفهم من لينين ماركسيّته التي تغلق أبوابها على الإنسان، بل إنسانيّته المتجلّية في نتاجه الذي اطلّع عليه، لذلك ندرك سرّ إعجابه بـلينين ونتاجه الفكري، ورفضه للماركسيّة الستالينيّة الدّموية.

في هذه الحياة المتناقضة التي عاشها الشاعر رؤى ومدارك أبعد من أن تُحدّد؛ من هنا يبدو جلياً لجوؤه إلى علم البديع، وبالأخصّ إلى الطباق والمقابلة لتبيان هذا التناقض وإيضاح لظاهرة حياتية واقعية عنده.

كان يهتمّ بالأشياء البسيطة المعبرة عن قضايا كبيرة وهو في السجن، كأنّ يصف نساء حافيات القدمين واقفات أمام باب السجن ليزرّن أزواجهنّ؛ وفي هذا دعوة إلى محاربة الظلم، وإطلاق حريّة الإنسان التي كفلتها له الحياة في حدودها الصحيحة.

1 - ناظم حكمت، أغنيات المنفى، تر. محمد البخاري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط2، 2002م، ص 33

لقد كان ناظم حكمت شاعراً ثورياً ينتصر لقضايا الإنسان الأساسية: الخبز - الحرية - العدالة؛ كيف لا وتجربة السجن هي ما أكسبته معرفة عميقة بدواخل النفس الإنسانية، ففي الظروف القاسية يظهر الإنسان على حقيقته فعلاً.

ولما كانت المرأة بالنسبة إلى السجين أهم ما يحضر في وجدانه بسبب حرمانه، رأينا ناظماً يلجّ في استحضارها ولو واهماً، كيف لا وهي العنصر الأهم من عناصر الحياة، ففي استحضارها عودة النفس السجينة إلى بشريتها وطبيعتها الآدمية. لذا لجأ إلى الواقعية في تجربته مع المرأة، فتعرّف إليها جسداً وروحاً، وكان صدقه في صداقاته وارتباطه أعلى من خداعه معشوقات أخريات.

يقول في قصيدة سيرة ذاتية: «كنت غيوراً على النساء اللاتي أحببتهنّ.. لم أحسد تشارلي شابلن أبداً.. خدعتُ نسائي»¹

كان شاعرنا يتمنى أن يكون شعره أكثر حضوراً في وطنه وبين أهله وأجيال تركيا، وهذا ما لم يتحقق له في حياته، وهو ما كان يحزّ في نفسه؛ وقد بلغ شعره شهرة عالمية، «كتاباتي منشورة في ثلاثين أو أربعين لغة.. وهي ممنوعة في بلدي تركيا في لغتي التركية»²، وذلك بسبب انتمائيه السياسي غير المرغوب فيه في تركيا آنذاك.

لقد ظلّ السلام يمثل لناظم أهم أركان وجوده، فهو المؤمن بالسلام والحبّ، حتّى مع المرحلة التي يشيخ فيها الحبّ، لكنه وقع في الحبّ في السنين تقريباً... وانتصار الحب والسلام فيه بقي من طفولته إلى كهولته، فكان الشاعر الإنساني المناضل المنحاز إلى وطنه وأهله وشعبه بالرغم ممّا مرّ به من تجارب وخيبات وغربة ومنع وسجن وحسرات... هو أحد شعراء تركيا الرواد المجدّدين في الشعر، ومن مظاهر التجديد التي قام بها حكمت:

- نشر قصائد إيقاعية طنانة عن الحبّ والعدالة، وكان الصوت الصارخ للنقد الاجتماعي في عصر الجمهورية الجديدة، حيث لم يجرؤ كثيرون على قول أيّ شيء غير مناسب.

- دمج العديد من المفاهيم والتقنيات الجديدة التي كان لها الأثر البالغ في الشعر

1 - من قصيدة بعنوان «سيرة ذاتية/ ناظم حكمت بقلمه» كان قد كتبها في برلين الشرقية 11 سبتمبر 1961م.

2 - من القصيدة نفسها.

التركي الحديث، فكان من إبداعاته الشعر الحرّ، والتركيز الأيديولوجي، والأشطر «المكسورة»، والبنية الحيّة، والاستعارات والصور الوظيفية...

- خلق شعره مزيجاً من العناصر الغنائية والدراماتيكية والبلاغية، فكان فنّه شعراً نفعياً وتحريضياً في الوقت عينه. وكان في أفضل قصائده يدمج روح لوركا مع براعة مايكوفسكي.

- عرض ناظم حكمت عهداً شعرياً للإيمان والتأكيد والثقة، بسبب يأسه وغضبه من الظلم والاستغلال.

فنسمعه يقول: «سنرى أياماً جميلة/ سنرى/ أياماً/ مشرقة».¹

وتعتبر قصائده التي كتبت في السجن أو خارجه ممثلة لشاعر مثالي روحه لا تتكسر، وغالباً ما كانت صيحات معركة، ولكنها أحياناً تخون الشفقة على النفس والتهويل الذاتي.

بحلول عام 1941م كان ناظم حكمت في سجنه غاضباً وحاقدًا: «قضيتنا/ سيوفنا لها/ منقوعة بالدم/ وسيفتلع نصرنا/ كالظفر/ بلا رحمة».²

يرى ناظم حكمت «أنّ الفنّ الحقيقيّ هو الذي يعكس الحياة بكلّ تناقضاتها وصراعاتها وانتصاراتها وانكساراتها وحبّها وبغضها وكلّ مظاهر إبداع إنسانها. الفنّ الحقيقي هو الذي يرفض الزيف حول الحياة».³

قال عنه سعيد عقل: «ناظم حكمت ثالث اثنين: دانتي وشكسبير»⁴

لقد كان ناظم حكمت «إنساناً وشاعراً معاً، في العيش والمعاملة والكفاح والحبّ والحديث والحوار، كان ممتلئاً بالحياة، فائضاً بالشعر بفعل الامتلاء».⁵

إنّ جوهر القضية الشعرية عند «حكمت» هو التعبير عن آفاق المستقبل، حيث انطلق تيار الإبداع الشعري عنده من تجارب إنسانية نضالية جعلته يقف بثبات إلى جانب أكبر شعراء ذلك العصر من أمثال «مايكوفسكي» و«نيرودا» و«لوركا» و«أراغون»...

1 - م، ن. ص، 112.

2 - م. ن.، ص 113.

3 - مقتطفات من أقوال ناظم حكمت، تر. ثابت العزاوي من كراس يالشين قيا - على شكل مخطوط.

4 - حنا مينة، قضايا أدبية وفكرية، ص 27

5 - م. ن.، ص 47.

أوجد ناظم حكمت الشكل الشعري الذي يتفق مع المضمون الثوري الدافق الذي عبر عنه في أشعاره. فقد هجر العروض والوزن المعروف باسم «هجا»، والذي يعتمد على تكرار معين لعدد من المقاطع الصوتية، واصطنع فيه وزناً متحرراً من القيود والتعقيدات العروضية، وأدخل نمطاً جديداً من الإيقاعات ومن المقاطع المتدرجة التي تتدفق من أول القصيدة، وتظل تتغير وتتزايد إلى نهايتها.

كذلك حفلت معظم قصائده بنبض درامي حي، وتقنيات فنية رائعة، سواء أكانت تشكيلية أو موسيقية أو سيمائية.

يقول الشاعر التشيلي «بابلو نيرودا» عن ناظم حكمت الذي زاره في موسكو: « هو كاتب خرافي أسطوري، كانت حكومة بلاده الغربية عن شعبه قد سجنته طويلاً، كان يحكي لي دائماً عن آلام شعبه، عن الفلاحين والعمال الذين يضطهدهم بقسوة سادة تركيا الإقطاعيون، كان يقرأ لي شعراً يقول فيه:

« ضمّد جراحك بيدك الرهيبتين

وعضّ على شفّتيك

مقاوماً الأوجاع.

أيها الفقراء في بلادي:

إنني معكم

لم تُحوّلني الرّيح إلى ورقة في مهبّها

لقد سُقّت الرّيح أمامي...! »¹

ونجد تأثير المكان وجغرافية السجن والوطن في شعره، فهو يصف زنزانته قائلاً:

«هذه النافذة ذات القضبان

وهذه الجدران الأربعة

التي لم تردّد على مسمعي

1 - منتديات ستار تايمز، أرشيف أدباء وشعراء ومطبوعات.

سوى صوتي أنا.¹

لقد غدا المكان الانفرادي المسجون فيه جزءاً من تركيبته، فانبرى مراقصاً هذا المكان رغم وجوده فيه.

«جلستُ على التراب باحترام وتؤدّه

وأسندت ظهري إلى الجدار

وحدنا: الأرض والشمس وأنا

ما أسعدني!..²

وفي قصيدة بعنوان «من معتقل اسطنبول» يستذكر ناظم أماكن عزيزة من وطنه قائلاً:

«وطني قطعان الماعز في وهاد أنقرة

البندق الممتلئ، والمفعم بالزيت في غيرسون

تفاح أماسيا بخذه المورّد وبرائحته العطرة..³

إنها جغرافية الوطن وذكرياته الجميلة فيه، يستحضرها حكمت في سجنه حيث كان يعشق تلك الأمكنة وما فيها.

ولكي نسير على منهجية قديمة، نفرد جزءاً من هذا البحث للشاعر الذي خاض التجربة السجنية عينها، واستحضر طيف ناظم حكمت في زنزانه «شماره جهاردا» في السجون الإيرانية، لأخذ وجهة نظر أخرى في شعر ناظم وشخصيته ورسالته الإنسانية التجديدية الإصلاحية، فنمضي مع عمر شبلي في قصيدته الموسومة بعنوان «الراهب الأحمر» وتحليلها.

ج- قراءة في قصيدة «الراهب الأحمر» لعمر شبلي

تحتلّ القصيدة المرتبة الرابعة في ديوانه الأسريّ الأول «العناد في زمن مكسور»، وتشغل سبع صفحات منه، ختمها بمكان وزمان نظمها، أراك مخصوص - 1986. وقد

1 - ناظم حكمت، الأعمال الشعرية الكاملة، تر. لقمان فاضل، ج2، ص 294.

2 - م. ن.، ص 299.

3 - م. ن.، ص 317.

أهداها إلى الشاعر التركيّ الأسير مثله ناظم حكمت، الذي كَتَبَ عنه بالراهب الأحمر لميله إلى الاشتراكية والشيوعية ورايتها الحمراء!...

فهو من مطلع القصيدة يشبّهه بـ «القمر الذي يرفّ على اليسار»¹ ليعبّر عن انتمائه إلى الحركات اليسارية التي نادت بها الشيوعية، والتي كانت دعوته إليها السبب المباشر في سجنه ومحاكمته ونفيه.

يستذكر الشاعر أحزان ناظم وعناده، ويتساءل عن أيامه السوداء في زنزانة انفرادية شبيهة بالقبر، وكيف مرّت عليه، وهو الخبير بآلام الزنازين وهمومها وعذاباتها...

ويقارن بين حال ناظم وحال الآخرين من أقرانه في تركيا، ويسأله ألم يهفُ إلى الأنثى؟ أو إلى نزهة فوق نهر الدردنيل؟ ألم يهفُ لوجه ابنه؟

إنّه بهذا التراسل الحسيّ الوجدانيّ الشفيف يعبّر عن خواجه هو بسؤاله لناظم، ويعلم ذلك في تأكيده القول: « لا شكّ أنّك كنت مثل الناس تحلم بالحياة.. وتودّ مثل الآخرين...»²

إنّ قدر الشعراء الكبار ألاّ يستسلموا للسلطة الجائرة، وأنّ ينوّروا عقول الأجيال الناشئة، ويدربوها على الجرأة والتضحية والثورة على الظلم والاستبداد، وأنّ يكونوا أنصار ركب الفقراء المعذّبين المحرومين الذين «يدفنون همومهم تحت الرماد».³

من هنا، كان ناظم حكمت نصير الجوعى والمساكين واليتامى وأبناء السبيل، زرع قلبه محبة في دروب أولئك، وتشبّه بالراهب يتلو إنجيله ليلاً، ويطبّق تعاليمه نهاراً. لقد صرخ رافضاً مؤامرة «فرعون المدينة»⁴ على أتباعه وأهل مدينته، وأدرك أنّه «ارتحل الظلام، وأنه ابتدأ النهار!»⁵

ها هم أطفال تركيا الجياع ينشرون قصيدة ناظم الأخيرة المتسرّبة من سجنه، المتسلّلة إلى العيون الحاملة بالخلاص والحرّية «عبر الملايين الفقيرة، وهي تهتف للرجيف وللرصاص».⁶

1- عمر شيلي، العناد في زمن مكسور، ص 46.

2- م، ن. ص نفسها.

3- م، ن. ص 47.

4- م، ن. ص، ن.

5- م، ن. ص نفسها.

6- م، ن. ص 48.

وبتعبّ عمر -ويحقّ له العجب- من فائدة سجن ناظم جسداً في زنزانة، ما دام شعره في كلّ مكان، وفي عطفة كلّ حيّ، وهذا هو الأخطر على الطواغيت في أيّ زمان.

يوازي عمر بين حاله وحال «حكمت» في غاية السجّان منهما، وهي انهزام النفس الجموح وجنونها، كيما يصبح «جسمك كالصليب محايداً»¹. وحين «يسأل السجّان عن عينيك ماذا فيهما، فنقول: أهلي»²، ويكويك السؤال والجواب، فلا تشعر إلا بالقهر والانكسار والضعف والقيّد، «وتعود عصفوراً سجيناً»³، وتنسى أطفال بلادك، لينام الوطن على صدرك كأنّه سلاسل ثقيلة.

إنّها تهمة الشاعر الثائر في كلّ قطر وعصر، وصول أفكاره إلى الآخرين، وبثّ الوعي فيهم، وإيقاظ روح الثورة في نفوسهم، وهذا ما يُقلق الحاكم الأريب ويهدّد بقاء عرشه.

ثمّ ترفع التقارير عنه، ويبالغ السجّان في اتهامه بجموح السلوك وجنون الفكر والكلمة، فيقابلها باتساع حيّز التفاؤل في عينيه، غير أنّ الماء لا يروي ظمأناً، وأنّ الأحران متّصلة بعذاب نارٍ لا ينتهي. «هذا الماء لا يكفي، وهذا الدمع متّصل بنار لا تغيّب»⁴.

المشهد عينه في السجون والمعتقلات كلّها، السجين في واد، والسجّان في عالم آخر. تراه مهتماً ببطاقة التموين الغذائيّ، بينما يئنّ السجناء من البرد والجوع وعبء السلاسل، والظلام والعزلة والحرمان.

وينقل الشاعر حديث سجّانه، إذ يخبره بأنّ ابنه قد بلغ العشرين من عمره، وهو في مثل توجهه يكره دولته وحكّامها، ولا يشعر بحسّ الانتماء والوطنية، «يكره ظلّها العالي»⁵، لذا فهو يفضّل أن يكون سجّاناً ولو لعياله، على أن يكون سجيناً، فالحرية عنده أفضل ألف مرّة من السجن؛ وهو متيقّن من نهضة قادمة وصحوة طارئة تمكّن بلاده تركيا من التطوّر والازدهار، واحترام حقوق شعبها وخدمته. «وأضاف: تركيا ستصحو وحدها»⁶. وذلك دون حاجة إلى شعر ناظم، وصراخ الفقراء والعمّال الكادحين وثورتهم...

1- م، ن. ص، ن.

2- م، ن. ص، ن.

3- م، ن. ص، 49.

4- م، ن. ص، ن

5- م، ن. ص 50

6- م، ن. ص، ن.

وفي القسم الثالث من القصيدة يطلق عمر موقفه من السّاسة والشعراء مصرّحاً: «لا تسجنوا الشعراء»¹ فلماذا يا ترى؟!...

لأنّ دموعهم مقدّسة، وتضحياتهم قناديل تضئ دياجير الشعوب المغلوبة المقهورة.. لأنّهم يكابرون، ويجمعون ما تبقى منهم بعد معاناة طويلة. «لتجيء عنقاء القصيدة»²، تتصارع فيها الأفكار والرؤى، وتتلاعب بها رياح الأيام، ويبرز من أجنحتها ضوء الأمل، والمحبة والخصب والعطاء، ودمّ قانٍ مجبولٍ بالعنفوان والشموخ...

ثم يأتي الشاعر وحيداً فريداً، فقد بثّ بريق الرجاء وانطفأ، لأنّه عاد إلى واقعه/ سجنه؛ أو قلّ أعاده سجنه إليه بعدما أطفأ «كلّ ملامح الفوضى وأسئلة النهار»³.

في وحدته وعزلته لم يبق له إلّا صحبة القصيدة التي تشرئب إلى «وطن يجيء ولا يجيء»⁴، مع أنّ قلبه كصحراء جليد، وهو بحاجة إلى الدخول في نهارها ليرتاح من غلوائه.

وفي القسم الرابع يتوجّه عمر شبلي إلى ناظم حكمت يخاطبه ويشدّ على يديه، ويحفّزه لمواصلة مسيرته النضالية لبلوغ الهدف، مؤكّداً استمرار الثورة ما دام الفقراء لا يملكون شراء رغيف الخبز، والتجار منشغلون بالسؤال عن سعر الذهب لزيادة ثرواتهم وأطماعهم. ويختتم عمر قصيدته في ناظم حكمت بما بدأها، معترفاً لهذا الشاعر اليساريّ بأنّه من سجنه في «آراك مخصوص» بدأ يفهم شعره، كيف لا، وهو دخل في التجربة عينها وفي المعاناة ذاتها، فنراه يعلن:

«الآن أشرب نخب حزنك أيّها التركي»⁵.

إنّ الشاعرين يتشاركان الحزن نفسه، وشعر الثورة نفسه، وإن كان ناظم حكمت القمر الذي «يرفّ على اليسار»⁶؛ المهمّ أن يهتف للانتفاضة على المتسلّطين الجائرين على شعوبهم التائقة إلى العدل والحقّ والسلام!...

1- م، ن.ص، ن.

2- م، ن.ص، ن.

3- م، ن.ص، 51.

4- م، ن. ص، ن.

5- المصدر السابق. ص 52.

6- م، ن. ص، ن.

لقد خسر العالم بغياب ناظم حكمت شاعراً عالمياً وإنساناً ملهماً، ورجلاً فذاً، كان حبه لبني البشر، وقناعاته بالأخوة بينهم، يغطيان العالم كله.

يقول صديقه في سجنه علي فائق البرجاوي: «سوف يذكر التاريخ والناس ما كان يتميز به ناظم من عطف على الأصدقاء، وعلى الناس، وما كان يحمل في قلبه من رفق بهم، وإحسان إليهم، ولو تعذر الإحسان، كما يذكر ما بذله في سبيل التقارب والتعاضد بين الناس، وفي سبيل ما يوفر لهم السعادة والأمن والحرية والانعقاد. ولن يغفر التاريخ لهؤلاء الذين حرموه من الحرية، وحدّوا من نشاطه الخلاق طول خمسة عشر عاماً، قضاها منتقلاً من سجن إلى سجن، في ملابس أكثر ما تكون هولاً وشقاءً ومعاناة...»¹

«إنّ في شعر ناظم عرضاً مخلصاً لجميع القضايا الإنسانية، وتعرضاً لمشكلات عدم المساواة، والاستغلال، والأنانية، والبربرية الرأسمالية، قديمها وحديثها، وفيه إشادة بالمحبة الخالصة، وبالأخوة الصافية، بالطهر والبراءة، وبما إلى ذلك من القيم الإنسانية والحضارية المثلى.

ولم يتبن أحدٌ كما تبني آلام الإنسان ومآسيه، ولم يشعر أحد شعوره بشقاء المحرومين، وبمعاناة المعذبين في الأرض، وكان شعره نداءً هادراً كالسيل في وجه الظلم، وكان النغم الحاني يحمل العزاء إلى النفوس، والسلى إلى الأرواح والقلوب.»²

خاتمة البحث

لقد كان ناظم حكمت شاعراً ممثلًا بالحياة والرغبة في الإصلاح والانحياز إلى الإنسان المقهور الذي سحقته أطماع السلطة، وجشع كبار الممولين والتجار وأرباب الصفقات والمتحكمين بأتعاب وأرزاق الكادحين الضعفاء. وفضّل المنفى على الخضوع للسلطة الحاكمة الجائرة، لذا كان بحقّ الشاعر الإنسان، وهذا سرُّ أثر شعره وعالميته وخلوده...

فهل ستتحقق رغبة الشعراء السجناء في بلوغ الشعوب المقهورة حياة كريمة، لطالما نشدوها وجهدوا في سبيل تحقيقها ليستعيدوا إنسانيتهم المسلوقة، وينشروا العدل والحق والسلام على مساحة هذا الكوكب!؟

1 - علي فائق البرجاوي، مع ناظم حكمت في سجنه، دار ابن خلدون - بيروت، ط1، 1980، ص 61.

2 - م. ن.، ص 87.

قائمة المصادر والمراجع

- البرجاوي، علي فائق، مع ناظم حكمت في سجنه، دار ابن خلدون - بيروت، ط1، 1980م
- تازارا، تريستان، في دراسته عن ناظم حكمت، نقلاً عن مقدمة د.علي سعد بعنوان «نحو أدب واقعي، 1952م.
- حكمت، ناظم، الأعمال الشعرية الكاملة، تر. لقمان فاضل، ج2، دار الفارابي، بيروت، 1987م.
- حكمت، ناظم، أغنيات المنفى، تر. محمد البخاري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط2، 2002م.
- شبلي، عمر، العناد في زمن مكسور، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ط1، 2001م.
- مقتطفات من أقوال ناظم حكمت، تر. ثابت العزاوي من كراس يالشين قيا - على شكل مخطوط.
- منتديات ستار تايمز، أرشيف أدباء وشعراء ومطبوعات. وهي منصّة على الإنترنت.
- مينة، حنا، قضايا أدبية وفكرية، وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1971م.
- هالمان، طلعت سيد، ألفية لفّي الأدب التركي، تر. محمد حقي سوتشين، مراجعة عبد القادر عبداللي، أنقرة، وزارة الثقافة والسياحة التركية، 2014م.

التأثير المتبادل بين اقتصاد قضاء بعلبك وهويته المكانية

The mutual influence between the economy of Baalbek District and its spatial identity

د. راغدة شممص

Dr. Raghida shamas

تاريخ القبول 2025 /4/25

تاريخ الاستلام 2025 /4/4

ملخص

يتناول المقال التأثير المتبادل بين اقتصاد قضاء بعلبك وهويته المكانية، مع التركيز على أهمية العلامات التجارية في ترسيخ هذه الهوية، وقد أبرز دور العلامات التجارية في تنمية القطاعات الإنتاجية، ومنح المستثمرين تفوقاً تنافسياً، فضلاً عن كونها وسيلة فعالة لترويج المنطقة ومنحها ميزة نسبية.

وفي هذا السياق، وضعت خطط استراتيجية للقطاعات الاقتصادية الثلاثة في الزراعة والصناعة والسياحة، تمّ خلالها استخدام خطة الضغوط - القوة الدافعة - الأثر - الاستجابة في كلّ قطاع؛ وخلصت النتائج الى أنّه على الرغم من الضغوط الكبيرة يمكن تطوير اقتصاد المنطقة من خلال الرموز التي تدخل في تطوّر الصناعات الغذائية وجعلها مرجعاً جغرافياً على مستوى لبنان، علماً أنّها على علاقة مترابطة ومتكاملة مع الرموز السياحية التي تعدّ من أهمّ الرموز القائمة، وركيزة الاقتصاد في المنطقة، ممّا يمكن من تطوير هوية المنطقة وتحسين سمعتها، وجذب الاستثمارات فيها.

résumé

Cet article examine l'interaction entre l'économie du district de Baalbek et son identité régionale. Il souligne l'importance des marques pour renforcer l'identité, développer les secteurs productifs et fournir un avantage concurrentiel et commercial aux investisseurs.

Dans ce contexte, des plans stratégiques ont été élaborés pour les trois secteurs économiques de l'agriculture, de l'industrie et du tourisme, au cours desquels le plan pression-force motrice-impact-réponse a été utilisé dans chaque secteur.

Les résultats ont conclu que malgré les fortes pressions, L'économie de la région peut être développée à travers les symboles qui entrent dans le développement des industries alimentaires et les rendent Point de référence géographique à l'échelle du Liban, il entretient une relation interconnectée et intégrée avec les symboles touristiques qui sont considérés parmi les symboles existants les plus importants et un pilier de l'économie de la région, ce qui permet le développement de l'identité de la région, l'amélioration de sa réputation et l'attraction des investissements.

مقدمة

تتميز المنطقة بمساحتها وموقعها الجغرافي وتعدّ مقوماتها الطبيعيّة والبشريّة للسياحة والزراعة والصناعة، ممّا يسمح بتنوّع المنتجات في ظلّ وجود قطاع خاصّ يسهم في الاستثمار.

إنّ تحديد المنتجات يشكّل الخطوط العريضة للهويّة الاقتصادية لوضع استراتيجية تخطّط لتنمية مستدامة، وتتكامل هذه الهويّة مع عناصر ثقافيّة وتاريخيّة ودينيّة ومجتمعيّة وسياسيّة وحضاريّة راسخة؛ فهي بنية تواصلية تتفاعل مع محيطها، وتستند إلى عمق الانتماء الذي يكتّنه السكّان لمناطقهم، كما يسهم الانفتاح في إثراء استهلاك المنتجات ذات الهويّة التي يعتمد عليها بدرجة كبيرة، علماً أنّ تلك المنتجات يمكن إنتاجها في المنطقة والتوسّع في تطوير ما هو قائم منها؛ ومن هنا، تبرز المنتجات المحليّة بوصفها وعداً تنموياً ملحاً وقيمة تستحقّ الاستثمار.

الإشكالية

ومن هذا المنطلق، تتبلور أسئلة البحث الرئيسة:

- كيف يسهم ضعف هوية المنتجات في سياق بناء استراتيجية اقتصادية في ضعف التنمية المستدامة، ماهو تأثير هوية المنطقة في الاستثمار وكيف يؤثر تطوير هوية المنتجات في تنمية المنطقة؟

- ماهي التّحدّيات التي تمنع تكوين هوية اقتصادية إن كان في الحدّ من المشاكل أو الاستفادة من الفرص؟

- كيف يمكن التّخطيط لهويّة اقتصادية ضمن سياق حلّ المشاكل التّنمويّة القائمة؟

الفرضيات

- تسهم ميزات تفاضليّة للمنتجات في استقطاب لمختلف النّشاطات الاقتصادية وتزيد أهميّتها في استقطاب الاستثمارات الاقتصادية والنّشاطات والخدمات واستقرار السّكان.

- تسهم الخصوصيّات التي يتميّز بها اقتصاد المنطقة في تحديد هويّة المنطقة التي تفرض توجّهاً اقتصادياً زراعياً، وزراعياً صناعياً فيها، فيسمح ببناء قطب تنمويّ يحقق التّنمية المستدامة.

- بناء اقتصاد قادر على إنجاز تنمية مستدامة، يكون قوامه هويّة محدّدة وقدرات ذاتيّة ترتبط بإرادة النّاس في تحقيق الأهداف المشتركة وترفع من نشاطهم ومشاركتهم.

- يوضّح تحديد الهويّة توجّه سكّان المنطقة نحو منحى وطبيعة الاستهلاك والإنتاج، ويعزّز تأهيل التّراث اقتصاد المنطقة.

الأهمية

- تحديد خيارات المنطقة للمناحي السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، ووضع خططها الاستراتيجية يؤدّي إلى تحقيق التّنمية المستدامة والاستقرار الاقتصاديّ.

- أيديولوجيا¹ الخصوصيّات الهويّاتيّة الجديدة تتمثّل في التّنمية الاقتصادية، وهذا يدلّ على أهميّة اقتران الهويّة المحليّة للمنطقة بالتّنمية.

- تحدّد الهويّة الاقتصادية من خلال العلامات المحليّة المميّزة التي تعبّر عن

1- الإيديولوجيا: مجموعة من القيم الأساسيّة تترايط فيما بينها، وتبرّر مصالح الجماعة، وإضفاء المشروعيّة على تباين القوة، تتغير بحسب الواقع الجديد، ولديها القدرة على الإصلاح.

خصوصية المنطقة، وتمنح منتجاتها وخدماتها طابعاً متفرداً يميزها عن غيرها، بشكل يتناسب مع انطباع السّكان في شتّى القطاعات، مع ضرورة عدم تغيير تلك العلامة التي تتعرّض إلى منافسة شديدة مع ظهور العلامات الاقتصادية نتيجة الانفتاح والعولمة، فهي تشكّل المفتاح الأساس للتنمية.

- تخضع الهوية لمقاربة تطورية مستمرة، وتعزّز الاستفادة من الانفتاح، والشّعور بالانتماء، وتزيد الرغبة في الاستثمار ويتمّ تطوير منتجاتها وأماكنها كرموز تُلصق بهوية المنطقة، وتعدّ هذه المعايير من المؤشّرات الرّمزية المحلية التي تكوّن شبكة من الانتماءات المناطقية المتداخلة التي تشكّل الأساس لهويّتها الخاصة.

الأهداف

- تحديد الإمكانات الطبيعية والبشرية التي تجعل من المنطقة صناعية أو زراعية أو سياحية.

- تحديد العلامات التجارية في القطاع السياحي والعلامات التجارية في القطاع الزراعي والقطاع الصناعي ذات الصلة بالسياحة، فجرى التركيز على الصناعات الغذائية والزراعات التي تدخل فيها، علماً أنّها المهمة حالياً في هذين القطاعين؛ لتشكّل هذه الخطة دماغاً أساسياً ترتكز عليه عملية التنمية، وتستكمل لاحقاً في جميع المجالات، مستفيدة من ارتباط المقيمين بالمنطقة، ومن دعم المهاجرين والنازحين سواء عبر الانتماء أو تحويل الأموال والاستثمار في الجذور.

أولاً. الإطار النظري للدراسة

1.1. تقديم المنطقة

تبلغ مساحة قضاء بعلبك 2278 كلم² أي ما يقارب ربع المساحة الإجمالية للبنان، يضمّ 102 قرية و58 بلدية، ومدينة بعلبك تمثّل مركز محافظة بعلبك الهرمل؛ وتبعد عن بيروت 86 كلم، يقع قضاء بعلبك ما بين القمم الشمالية السفوح الشرقية لسلسلة جبال لبنان الغربية والسفوح الغربية لسلسلة جبال لبنان الشرقية، تتنوّع فيه المناخات ما بين مناخ الرطب البارد في السفوح الشرقية للسلسلة الغربية والمناخ الجافّ المعتدل في سهل المنطقة والمناخ شبه الصحراويّ....

تحدّه من الشّمال والشرّق الحدود مع سوريا، ومن الغرب قضاء الهرمل، وقضاء الضنيّة وقضاء بشرّي وقضاء البترون وقضاء جبيل وقضاء كسروان، ومن الجنوب الحدود مع سوريا وقضاء زحلة.

يبنى سكان المنطقة معرفة جماعيّة حول القطاعات الإنتاجية على مرّ السّنوات، متجذّرة في تراثهم الطّبيعيّ والبشريّ، ومرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأراضيهم الزراعيّة وحرفهم التّقليديّة المتوارثة عن الأجداد؛ فيترسّخون بأرضهم، وتتعرّز روابط التّضامن العضويّ حول المصائر والهويّة والتّاريخ والتّنمية الجماعيّة.

2.1. الهويّة الاقتصاديّة

تشمل الهويّة الاقتصاديّة تفاعل الموارد الطّبيعيّة مع سكّان المنطقة، وتنوّع القطاعات الاقتصاديّة فيها، إلى جانب حجم الإنتاج وطبيعة هياكله، وتوجّهات المنتجين، ونقضيّات المستهلكين وغيرها؛ فوجود هذه العناصر تنمو الهويّة الاقتصاديّة وتتّضح وتتّجه نحو مزيد من التّكامل والتّماسك.

تمنح الهويّة السكّان شعوراً بالانتماء، وتحدّد أبعاد التّخطيط النّاجح للتّنمية المستدامة، (كيتنغ ، 1998). وكلّما كانت هوية المنطقة بالنّسبة إلى السكّان أقوى، زاد ميلهم إلى التّعبئة للقيام بأنشطة والمساهمة في تحسين نوعيّة الحياة فيها.

يبين المقال كيف تسهم الهويّة، عند دمجها في القطاعات الإنتاجيّة في تعزيز التّنافسيّة وجذب الاستثمارات، كما يستعرض الخطط الضّرويّة لإدارة التّنمية المستدامة في المنطقة، ويعدّ تطبيق الهويّة في خطط التّنمية حافزاً على إنجاح أهدافها، إضافة إلى بناء بنية تحتيّة وتعزيز التّصنيع وخلق فرص عمل أفضل للمستثمرين وكسب المنتجات سمعة جيدة يمكن التّرويج لها.

3.1. منهجيّة الدّراسة

1.3.1. أهميّة الجاذبيّة في تنمية المنطقة

نعدّ الجاذبيّة الهدف الرّئيس للهوية، وهي تتأثّر بجملة من العوامل، منها الموارد الطّبيعيّة والقرب منها، والموقع الجغرافيّ والمورفولوجيا والمناخ، كما تتأثّر بالعادات والتّقاليد والأعراف التي بدأت تتراجع نسبياً في ظلّ استراتيجيّات المنافسة والمشاريع

الاقتصادية وسياسات التعاون والتواصل التي تعد ركيزة أساسية لإنجاح أي سياسة تهدف إلى تعزيز الجاذبية، من خلال بلورة السمات المميزة للمنطقة؛ تتناول الهوية استراتيجيتين رئيسيتين لتطوير الهوية لأهداف الجاذبية هما:

1 - إعطاء العلامة التجارية

هي استراتيجية ترويجية تقوم على سمات الهوية، تخلق قيمة مضافة للمنتجات والخدمات فتزيد من جاذبية المنطقة كمكان للعمل والعيش وقضاء وقت الفراغ (فان هام، 2001)، وذلك بهدف خلق صورة أو سمعة أكثر تميزاً، مما يساعد على زيادة القدرة التنافسية الإقليمية، وإضفاء الطابع المحلي عليها من أجل تمييز تلك الأماكن، ويتفاعلون معها ويدركون هويتهم من خلال التواصل والتفاعل.

وقد ارتأيت أن يركز هذا المقال بصورة أساسية على الهوية التنافسية بسبب الدور الكبير التي أدته في اقتصاديات بعض المناطق في العالم التي ازدهرت بفعل العلامات التجارية المنافسة عالمياً في أحد منتجاتها.

2 - التعاون والهوية التنافسية

هي استراتيجية تقوم على إنجاز الأمور بشكل جماعي؛ وهي تتجسد في قدرة السكان والمعينين والبلديات وأصحاب المصلحة والجمعيات على التعاون وتوظيف واستخدام العلاقات الاجتماعية لتحقيق منفعة مشتركة وتأمين الأسواق الداخلية، فيظهر إحساس أقوى بالهوية المشتركة، فتتعزيز الثقة والتعاون.

1.2.3.1 الاستفادة من دراسات ذات صلة في إطار العلامة التنافسية، وتطبيق آليتها

في المنطقة

جرى الاستفادة من تجارب بعض أهم المشاريع الريفيّة في العالم التي حققت جاذبية كبيرة، من خلال اعتماد مؤشر جغرافي للمنتجات، يضمن ارتباط اسم المنتج بأصله الجغرافي؛ وقد مكّن هذا المؤشر المزارعين من إنشاء علامات تجارية خاصة بهم، وتصدير منتجاتهم عالمياً، مما شجّع على زيادة الإنتاج وخلق فرص عمل جديدة، كما أسهم في تحويل سمعة المنتج إلى فرصة تجارية في قطاع السياحة، مما عزز من هوية المنطقة بعد أن أصبحت هوية المنتجات لصيقة بها، وفتح آفاقاً استثمارية واعدة في

كافة المجالات. ومن أهمها:

- زراعة الفلفل في كمبوديا التي أصبحت مدينة عريقة تنتج مئات الأطنان سنوياً بعد أن كانت قرية صغيرة، وكذلك ديلماه الشاي التي حوّلت أربعة أكواخ تقدّم الشاي إلى أربعة فنادق فخمة.

- مشروع «غامبيا» ومشروع «الطريق المسرحي» في المكسيك الذي يجمع بين الفنّ المسرحي والسياسة الثقافيّة، ممزوجاً بالإطار التاريخي وباهتمامات الزوّار.

4.3.1. معالجة البيانات الكيفية في اطار (الضغط- الحالة- التأثير-الاستجابة)

من أجل دراسة اتّجاه الهوية وكيفية ترسيخها، لا بدّ من تحليل العلاقة المتبادلة بين العوامل المختلفة المؤثّرة على اقتصاد المنطقة؛ ويقتضي ذلك أن يستجيب سكّان المنطقة للقوى الدافعة والمتغيّرات أو الحالات أو التأثيرات الطّائرة، سواء عبر التّكيف مع المستجدّات أو من خلال تنفيذ التدابير اللاّزمة؛ وتتضمن:

- الضغوط وهي العوامل السّلبية، والقوة الدافعة وهي العوامل الإيجابية.

- الحالة: الوضع الّاهن للرّموز في كلّ قطاع.

- التأثير: التّغيّرات التي طرأت.

- الاستجابة: أهميّة الرّموز في القطاعات الاقتصادية ودورها في ترسيخ الهوية.

ثانياً- قطاع الزراعة العلامات التجاريّة لبعض المنتجات تحمل هوية المنطقة

1.2. الحالة

تأخذ المنطقة هويّة ريفيّة منفتحة ومرتبطة بالهويّة المحليّة، ترتبط بالزراعة، وتتولّد فيها ممارسات جماعيّة متجذّرة في الأرض، تشكّل المنتجات ذات الشّهرة أو العلامة التجاريّة أحد أبرز رموز هويّتها التي تسهم في تطوير الزراعة والقطاعات الحرفيّة والسياحيّة والخدماتيّة في علاقة تنمويّة متكاملة.

يرتبط أحد جوانب هويّة المنطقة بتلك المنتجات التي تشكّل جزءاً أساسياً من تراث المنطقة، ومع الانفتاح الكبير وتفاعلها مع العولمة استطاعت المنطقة أن تطوّر هذا

الجانب من خلال تنويع منتجاتها وزيادة إنتاجيتها، وتوسيع مساحاتها الزراعيّة؛ وأهمّ تلك المنتجات:

- النّقّاح الجردى: نقّاح اليمّونة، عنب عيناتا الذي يُستخرج منه العرق الشّهير؛ هذه المنتجات تعدّ مميّزة في المنطقة بفضل توفّر العوامل الأساسيّة لنموّها، من إمدادات المياه الوفيرة والظّروف المناخية والطّوبوغرافية التي تسمح للنّمار بالنّضوج؛ كما يمكن زراعتها في مساحات جبليّة صغيرة؛ لذلك تعدّ النّشاط الرّئيس للعديد من المنتجين، ويشهد هذا القطاع نموّاً متزايداً عامّاً بعد عام.

- مزارع العنب التي تمتد لمئات الهكتارات في المنطقة؛ تعدّ منطقة بعلبك - الهرمل أوّل محافظة في إنتاج العنب في لبنان، وتتمركز زراعته في إيعات ويونين وعيناتا. وتمتاز هذه الزّراعة بتنوّع أهدافها، من الاستهلاك المحليّ إلى الاستخدام الصّناعيّ، ولا سيّما في إنتاج الخمور التي تعدّ من أبرز الصّادرات الغذائيّة. وقد اعتاد المزارعون على زراعة العنب بفضل جودة ثماره ومذاقه المميز، وتنتج المنطقة أطناناً من العنب سنوياً. ونظراً لهذه الخصوصيّة، منحت منتجات العنب مؤشّراً جغرافياً خاصّاً، فجعل منها منتجاً ممتازاً يتمنّع بصادرات متزايدة، في ظلّ التّوسّع المستمرّ في زيادته.

- منتجات أخرى ذات علامة تجاريّة: كرّز الملوك، المعروف بقساوة قشرته ولونه الأحمر الباهر، إضافة إلى «تين يونين»، و«جوز نحلة» و«شمش بتدعي المتأخر»، وتدرّ أرباحاً عالية، ويمكن توسيع زراعته من خلال استصلاح الأراضي الجبليّة. كما تشتهر المنطقة بالنّمار البريّة، مثل السّمّاق في بوداي الذي يميّز بحموضته العالية واللّون الأحمر القاني؛ أمّا في ما يخصّ تربية النّحل، فينتج العسل السّنديانيّ والعسل الشوكي عالي الجودة في بلدات معربون وحام ودار الواسعة واليمونة.

وتتفرد بلدتا دار الواسعة واليمونة بتربية السّمكة الذهبية، وهي من الأنواع المتميّزة على مستوى لبنان، إضافة إلى ذلك، تزرع في بعض مناطق بعلبك «حشيشة الكيف» التي تعدّ من أجود الأنواع في العالم، ويمكن للدّولة أن تستثمرها قانونياً في مجال تصنيع الأدوية، فتدرّ أرباحاً لا تقلّ عن المليار دولار.

2.2. الضغوط والقوة الدافعة: تتأرجح هوية المنتجات ذات العلامة التجارية بين الإيجابي والسلبي بحسب الضغوط والقوى الدافعة.

1.2.2. الضغوط

تحديات إثبات هوية المنتجات الزراعية وربطها بالمنطقة بسبب:

الأراضي الزراعية

- تشهد المنطقة تراجعاً في مساحاتها، بسبب ترك العديد من الأراضي ذات الزراعات البعلية بوراً، في ظلّ التمدّد العمرانيّ على مئات الهكتارات الزراعيّة، وارتفاع نسبة الأراضي المصابة بالتصحّر وانخفاض ناتج العمل الزراعيّ، وانخفاض مساحة الزراعات العلفية إلى المساحة العامّة؛ لأنّها أكثر كلفة من المستوردة.

- تحديات مشكلات الضمّ والفرز التي أسهمت في تمتّع المصارف عن تسليف القروض الزراعيّة التي تُعطى للمزارعين الذين يمتلكون 2400 سهم وأكثر وغياب التسليف الزراعيّ الناتج من مشكلة فرز الأراضي مع تفتّت الملكيّات.

- يواجه المزارعون آثار سياسة الإهمال المتراكمة، سواء تجاه منطقتهم أم تجاه قطاع الزراعة عموماً في لبنان، في ظلّ غياب التخطيط السليم وغياب العمل التعاوني الفاعل، فأدّى إلى تعقيد تأمين معايير الجودة لضمان هوية المنتجات؛ وذلك بسبب:

- المنافسة الأجنبية ومشكلة تسويق المنتجات في ظلّ بُعد الأسواق عن الأماكن الزراعيّة نسبياً.

- التكاليف الصناعيّة المرتفعة وانخفاض إمكانيّة التوسّع، وعدم دعم أو ضبط أسعار الأسمدة والأدوية والبذار للمزارعين وارتفاع أجره اليد العاملة السوريّة وتدنيّ استخدام المكننة الزراعيّة المتطورة نسبياً.

- انخفاض إنتاجيّة المتر مكعب من المياه المستخدمة في الزراعة، وتراجع منسوب المياه الجوفيّة بسبب زيادة الضخّ مع تغير المناخ، وتزايد عدد الآبار وجفاف الينابيع الموسميّة مبكراً.

2.2.2. - القوة الدافعة

الأراضي

- تشكّل الأراضي الزراعيّة مساحة إنتاجية ذات بعد هويّاتي وأيديولوجي، ترتبط بجنور الانتماء المحلي، وتتداخل فيها هويّة المنتجات الزراعيّة مع خصوصيّة الأرض في ظلّ سياق العولمة الاقتصادية والتحضّر.

- إعادة استخدام بعض الأراضي المتروكة، وزيادة مساحات واسعة من الأراضي المروية المستصلحة في السّفوح الجردية لبلدات عيناتا ودير الأحمر وبرقا التي تشغلها حالياً زراعات ذات علامة تجارية مميّزة.

- يوجد عشرات الهكتارات من المراعي الجيدة أو التي تم استزراعها لآلاف رؤوس الأغنام والماعز التي تنتمي سنوياً فهي تتميّز بلبنها كونها ترعى الأعشاب البرية وشكّلت منتجاتها علامة تجارية في متاجر بيروت وبعلبك والفرزل.

- بالنسبة إلى المزارعين:

- لا تزال الزراعة مصدراً مهماً للدّخل في اقتصاد المنطقة، كما تشكّل الزراعة مهنة أساسية أو ثانوية ضرورية مع عملهم الأساسي لسدّ حاجاتهم من الإنفاق.

- أكثر من نصف سكّان المنطقة يملكون أراضي زراعية بمساحات مختلفة، حيث يأخذون لقب المزارعين، وهي صورة رمزية للارتباط بالأرض؛ وبالتالي تنتمي الزراعة إلى قسم كبير من المقيمين في المنطقة.

- تعلق المزارعين بالأرض، إضافة إلى التوسّع في اعتماد الرّي بالتنقيط أو الرّذاذ أو الرّش حسب نوع المحصول، ووجود بنك بذور في تلّ عمارة.

- اعتماد التّطعيم للأصناف البرية بعد زراعتها بسبب مقاومتها العالية للآفات والأمراض، مع التوسّع في زراعة الأصناف الجديدة ذات الجودة العالية، والزراعات الغذائية التي يمكن تصنيعها، إضافة إلى التوسّع في الزراعات الحافظة والزراعات العضوية التي تحظى باستهلاك جيد في متاجر بيروت، في ظلّ التوسّع في استخدام الأسمدة الطبيعيّة، وتشهد مزارع الدّواجن والمواشي نمواً مستمراً على الرّغم أنّها لا تزال

غير كافية لتلبية الطلب.

3.2. الأثر: أهميّة العلامة التجاريّة في هويّة المنطقة وفي التنمية

- استطاعت تلك المنتجات إبراز العلامة التجاريّة الخاصّة بها، فتروّج لها وتعزّز نطاق توزيعها على مستوى لبنان والمنطقة، وهي تمتلك القدرة على إضفاء طابع رسمي، يمكن من نشرها وتخصيصها من قبل مختلف أصحاب المصلحة؛ وقد أظهرت العلامة التجاريّة الإقليميّة خصوصيّة تعبّر عن قدرة المنطقة على الابتكار والتكيّف المتأصل في هويّتها.

- أمنت هذه المنتجات وظائف جديدة داخل المنطقة، لا سيّما في محيط المصانع الصّغيرة المتخصّصة في إنتاج النّبذ، وقد اكتسحت منتجات مزارع العنب متاجر الأسواق، من متاجر البيع بالتجزئة والمتاجر الكبيرة. وأضحت المنطقة وجهة سياحيّة رئيسة، تتيح للسياح فرصة التّعرف إلى المزارع النّقليديّة وطرق صناعة المنتجات المتوارثة عبر الأجيال؛ وهكذا برزت المنتجات الزراعيّة مثل العنب والتفاح بين أكثر الأنواع استهلاكاً، وأضحت العلامة التجاريّة دليلاً للمستهلكين على جودة المنتج وارتباطه بهويّة المكان.

- أسهمت هذه المنتجات في تنشيط الحركة التجاريّة عبر فتح المحلات التجاريّة الغذائيّة وغير الغذائيّة، خاصّة في البلدات التي تعتمد بدرجة كبيرة على الدّخل الزراعيّ، مثل بوداي والسّعيدة ودير الأحمر والكنيسة، كما أسهمت تحويلات المغتربين وخبراتهم في تطوير المنتجات الزراعيّة، وتوسيع نطاق الصناعات الغذائيّة، وفوّرت قنوات جديدة للتّعرف على أنماط الاستهلاك والسلوك في مجتمعات الاغتراب؛ وقد شكّلت هذه التحويلات، بما تحمله من دعم ماليّ ورؤى متجدّدة عاملاً رئيساً في تعزيز النّموّ، واستحداث فرص العمل، وتشجيع التنمية الرّيفيّة.

- تؤمّن هذه المنتجات حاجات الأسر الغذائيّة، إذ تشكّل حوالي 45% من إجمالي إنفاقها؛ ومن هنا، تبرز أهميّة تطوير هذا القطاع الحيوي. وتنتج معظم هذه الحاجات محلياً في المنطقة، وتشمل الخضار والفاكهة والحبوب والخبز، إلى جانب الألبان والأجبان والبيض واللّحوم من مزارع الأغنام والماعز والأبقار والدواجن المنتشرة

في البلدات. وتعدّ المنتجات المحليّة ذات العلامة التجاريّة مصدرًا للمونة ولا يمكن الاستغناء عنها للمقيمين والنازحين، علمًا أنّ معظم النازحين يتوجّهون خصيصًا أسبوعيًا أو شهريًا لأخذ حاجاتهم منها، وذلك لتقنهم الكبيرة بجودتها وثنمها المناسب.

4.2. الاستجابة

- إمكانية التوسّع في إنتاج المنتجات الزراعيّة الاستراتيجية، فتتعرّز الإنتاجيّة من دون المساس بجوهر الزراعة بوصفها تراثًا ملازمًا لهويّة المنطقة، لا سيّما في زراعة التفّاح والعنب. وتتميّز بعض البلدات بأنواع معيّنة تمنحها خصوصيّة ضمن النسيج الزراعيّ العام. ويأتي هذا في ظلّ توفر إمكانات مادّيّة داعمة من المهاجرين والنازحين، إلى جانب الثقة التي تحظى بها المنتجات المحليّة ذات العلامة التجاريّة من قبل السكّان داخل المنطقة وخارجها.

- إمكانية التوسع في الصناعات الغذائيّة وتطويرها مع ازدياد وتيرة الزراعات الأكثر أهميّة في المنطقة، ولا سيّما تلك التي تكتسب طابعًا صناعيًا مثل زراعة العنب. ويعدّ تفعيل العمل التعاوني بين البلديات والجهات المعنية والمزارعين ركيزة أساسيّة في هذا المسار، إذ يسمح بجذب استثمارات النازحين والمهاجرين، ويسهم في تنشيط السياحة الريفية، وتشغيل العشرات من اليد العاملة.

- تشجيع توجّه السكّان صوب المنتجات البلديّة والابتعاد عن المنتجات المصنّعة خطوة في تعزيز المنطقة، إذ تتجسّد هوية المنتجات في ارتباطها الوثيق بتراث الأرض وموروثها الزراعيّ؛ وبما أن المنطقة تشتهر ببعض المنتجات، فإنّ سكّانها يعيشون في حالة تفاعل دائم مع بيئتهم، حيث يتكامل التّوّع الحيويّ مع المناظر الطبيعيّة والنّظم المعرفيّة والثقافيّة، وتؤكد هذه الأنشطة الإنتاجية على أهميّة الحفاظ على التّقاليد الزراعيّة بوصفها عنصرًا أساسيًا في صون التماسك الثقافي والاجتماعي للمنطقة.

ب- توافق الاستراتيجيّات مع الأهداف

- تسهم هويّة المنتجات في جذب الاستثمارات والسّيّاح، من خلال الانطباعات الإيجابية التي يتركونها وراءهم، فيتعرّز تطابق الصورة المدركة للمنتج مع رغبات السكّان وتطلّعاتهم. كما تعدّ هذه المنتجات مصدرًا رئيسًا من مصادر النّقد الأجنبي،

ترفد به خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية لما تمثله من محاصيل استراتيجية تشكل إحدى الدعامات الأساسية للبنان الاقتصادي للمنطقة.

- تتميز بعض البلديات بمنتجات استراتيجية باتت تشكل جزءاً من هويتها، وتُعرف بها على صعيد محافظة البقاع بأكملها؛ وقد امتدت هذه الهوية إلى مناطق نزوح سكانها لا سيما في بيروت، حيث تتركز الأسواق الاستهلاكية التي تستقبل هذه المنتجات بكثافة، مما يستدعي ضرورة وضع مخطط توجيهي لتوزع الزراعات في منطقة بعلبك.

ثالثاً: الصناعة الحرفية

يُعدّ التراث الثقافي وتنوع التقاليد والمهارات المتعلقة بالحرف اليدوية، رافعة قوية لجذب السياح، ومحركاً أساسياً في مسار التنمية المستدامة. وغالباً ما تقام هذه الحرف ضمن إطار الأسرة والمجموعات المحلية، فتسهم في توفير بيئة عمل آمنة، وتعزيز الشعور بالانتماء والهوية.

وفي هذا القسم سنركز على المنتجات الغذائية لما تحمله من علامة تجارية مميزة، وما تمثله من ركيزة أساسية في تطوير السياحة وتعزيز الهوية المحلية؛ فإمكانية تطوير هذه المنتجات وتوسيع نطاقها أكبر وأشمل مقارنة بالمشروعات الحرفية الأخرى، فيجعلها مرشحة لأن تكون مفتاحاً حقيقياً لتحقيق التنمية الريفية الشاملة في المنطقة.

1.3. الحرف غير الغذائية

1.1.3. الحالة

عرفت المنطقة الكثير من الصناعات الحرفية التي اشتهرت بتنوعها وغناها وتفردها وأهمها صناعة السجاد، والخزف والعمارة والمنسوجات والأواني الفخارية وصناعات السلال الخشبية بأنواعها المختلفة والمشغولات الفضية والذهبية وصناعة الجلود والصناعات الخشبية والنطيريز وصناعة الزجاج.

2.1.3. الضغوط والقوة الدافعة

أ- الضغط:

- تشهد هذه المنتجات حالياً تراجعاً كبيراً بسبب تطور نمط الحياة اليومية، ومنافسة

الصناعات الحديثة التي تعتمد الآلة والتكنولوجيا المتطورة.

- هذه المنتجات موجهة بشكل رئيس نحو سوق محافظة بعلبك؛ ذلك لأن المنشآت الصناعية صغيرة في طاقاتها الإنتاجية لا تلبي طلب الأسواق الخارجية.

ب- القوة الدافعة

- يؤدي استثمار الموارد الطبيعية والبشرية إلى توطين الصناعات الحرفية وتوسيعها، في ظل عوامل خارجية وداخلية متعددة.

- يعدّ سنديان المنطقة من أجود أنواع السنديان في لبنان لا سيما في صناعة الموبيليا، ويتيح إمكانية جمع الورش الحرفية في مصانع كبيرة يعمل فيها أصحاب تلك الورش.

2.3. الحرف الغذائية

1.2.3. الحالة

تعد المنطقة موطنًا للعديد من العلامات التجارية المرتبطة بالمنتجات الغذائية، وتضم عشرات الورش التي شكّلت مع مرور الوقت هيكلًا زراعيًا غذائيًا، سمح بتوحيد الاستهلاك، وزيادة عدد الورش التي تؤثر على السوق المحلية؛ كما أنشئت مصانع غذائية تعتمد بمعظمها تتميز على المدخلات المحلية؛ لذلك، فهي من أنجح الصناعات القادرة على تنمية المنطقة وتعزيز الإحساس بهويتها.

- تضم المنطقة 160 ألف رأس من الأغنام والماعز، ترعى في المراعي الطبيعية التي تمتد على مئات الهكتارات، فتوفّر كلفة الأعلاف لمدة تصل إلى 6 أشهر، وتنتشر فيها عشرات مزارع الأبقار التي تنتج يوميًا عشرات الأطنان من الحليب الطازج. ويشكل البقاع 42% من إجمالي مساحة الأراضي الزراعية في لبنان، ويُعرف باسم «حوض الألبان»، ويغطي قضاء بعلبك نصف هذه المساحة، ممّا يعزّز قاعدة صناعية زراعية متنوعة ومتكاملة. وفي هذا السياق، نشأت مصانع للألبان والأجبان، بعضها يحمل علامات تجارية مهمة على مستوى المنطقة ولبنان، وقد طبعت بهوية المنطقة؛ وأهمها:

أ- صناعات غذائية تحمل هوية مناطقها على صعيد لبنان

- معمل طليا: يعدّ من أفضل المعامل في لبنان، حيث إنّ تقنيته العالية تضعه بين

أضخم 13 مزرعة في العالم، تخوّله طرح الإنتاج في السوق بأسعار متدنية قياساً إلى الأسعار المتداولة، ويشغل فقط 12% من طاقته الاستيعابية، وبإمكانه استيراد 90 مليون طنّ سنوياً إضافياً من المنطقة، أو زيادة عدد المزارع التابعة له.

- **معمل مزارع اللّقيس:** إنتاجه أقلّ بكثير، يتميز بهويّته السياحية على مستوى المنطقة والمحيط، ويقدم ما يصنعه من الألبان والأجبان إلى الزبائن مباشرة أو إلى المطاعم التابعة له، إضافة إلى عشرات الورش التي تصنع المونة من الألبان والأجبان والشنكليش والكشك التي تشتهر بها المنطقة على صعيد لبنان.

صناعة النبيذ: يعكس مشروب النبيذ في عيناها تاريخ المنطقة في زراعة العنب وإنتاج النبيذ، ويمكن تسجيل تسمية المؤشّرات الجغرافية الخاصة بأنواع النبيذ والمشروبات الروحية، ويمنح المؤشّر الجغرافي منتجي المنطقة أداة قيمة، كي يضمن الزبائن الذين يرغبون بشرائها أصليّة ومصنوعة على الطريقة التقليدية، كما يعزّز العلامة التجارية على الصعيد الوطني، ويعزّز التصدير.

صناعات أخرى تحمل هوية بلداتها على صعيد محافظة بعلبك

تتميز بلدات قصرنبا وبيت أبو صليبي وشمسطار بصناعة ماء الورد، في حين تشتهر اليمونة ودار الوسعة وعيناها ودير الأحمر بصناعة خلّ التفاح والعنب. وعلى الرّغم من الجودة العالية لهذه المنتجات وثقة السكّان الكبيرة بها، إلّا أنّها لا تلبي بالكامل الاحتياجات المحليّة، بسبب منافسة الخلّ الأجنبيّ ذي السّعر المنخفض؛ إضافة إلى عشرات الورش في بلدة يونين المتخصصة في صناعة الكبيس والمرّيات الخالية من السكّر، والمعروفة بجودتها العالية. وتضمّ حوش بردى وحوش الذهب ورشاً لتصنيع منتجات الطماطم، إلى جانب ورش مخصّصة لتجفيف الخضراوات والفواكه وتجميدها، وإن كانت بأعداد قليلة لا تفي الحاجات المحليّة المتزايدة، كما تعدّ دار الوسعة من البلدات المعروفة بالزعرور المقطّر.

2.2.3. الضغوط والقوة الدافعة

1.2.2.3. الضَّغَط

- قلة الورش: معظم محالّهم صغيرة وغير منظّمة، ويعاني بعضها من فائض في الإنتاج يفوق الحاجة المطلوبة؛ وقد تطوّرت ببطء بسبب نقص المهارات، وتأخّر المستوى التكنولوجي وارتفاع كلفة تصنيع المنتجات المطلوبة، بما يتوافق مع النمط الاستهلاكي والانفتاح على الأسواق؛ كلّ ذلك حال دون تمكّنها من التعبير عن هويّة المنطقة.

- منافسة العلامات التجاريّة الأجنبيّة: تواجه الهويّة الغذائيّة في المنطقة تحديات كبيرة تحول دون تطوّرها، نتيجة الغزو المتزايد للعلامات التجاريّة المنافسة ذات الأسعار المنخفضة، وضعف رأس المال المستثمر في هذا القطاع؛ وذلك على الرّغم ممّا يبديه سكّان المنطقة من فخر واعتزاز بمنتجاتهم الغذائيّة.

- نقص كميات الحليب اللازمة للمعامل القائمة ، ونقص الورش والمعامل لمنتجات زراعية

- تعاني المنطقة من ضعف كبير في كميّة إنتاج الحليب بسبب قلة تربية الماشية، وعدم مواءمتها لاحتياجات المنطقة أو لما يؤهّل المنطقة لأن تكون هويّة للألبان والأجبان في لبنان، على الرّغم من توفّر العديد من الإمكانيات. ويفاقم هذا الضّعف اعتماد مزارع الأبقار على الطّرق التقليديّة، وصعوبة الحصول على الموادّ الأوليّة المستوردة، واستنزاف الأراضي الزراعيّة، وصعوبة النّقل وتحكّم اليد العاملة بأجرة عملها.

- تسويق: هي موسميّة ومتأثّرة بالأوضاع الاقتصاديّة والأمنيّة الجاذبة للسّيّاح وتقلّباتها.

- استنادها على المعارض المحليّة والإقليميّة والدّوليّة؛ غير أنّ ارتفاع كلفة المشاركة في تلك المعارض سواء من حيث النّقل أو الشّحن أو الإقامة أو التّصدير يشكّل عائقاً أمام حضور فعّال ومستدام في المحافل.

- إنَّ أغلب المنتجات الصناعية تسوق داخل المنطقة، فنقل العملة الصعبة، وإنَّ نسبة كبيرة من الأرباح تستثمر خارج المنطقة على شكل شراء عقارات أو فتح محال في بيروت.

عدم ثبات التكاليف: عدم ثبات سعر المواد الأولية المستوردة، خاصّة الأغلاف، وعدم وجود سياسات مدعومة من الدولة، كذلك مشاكل إيصال الماء والكهرباء، والفساد الحكومي وارتفاع تكاليف الإنتاج الحالية، خاصّة الأيدي العاملة والوقود؛ كل ذلك يشجب الرغبة في الاستثمار.

ضعف مشاركة كافة الأطراف المعنية في صياغة وثيقة للسياسات الصناعية اليدوية والحرفية يشكّل عاملاً أساسياً في الحدّ من فاعليتها ومصداقيتها. كما يسهم تقصير الدولة في دعم جودة الإنتاج المحلي، سواء من خلال غياب الترويج له، أم عدم خفض الرسوم الجمركية على المستلزمات المستوردة للمعامل القائمة في إعاقه نموّ هذا القطاع وتطوره.

السمعة السيئة: أثر عدم استيفاء بعض المعامل المحيطة للشروط الصحية المطلوبة سلبيًا على سمعة المنطقة ومعاملها، وعزّز صورة غياب الدولة وتكلس آليات رقابتها، وإمكانية التلاعب بالسلامة العامة، على الرغم من سعي الدولة الدؤوب إلى إجراء الكشف الدوري على المعامل.

لم يكن للمنطقة وزنها الإنتاجي تزامناً مع الاستهلاك المتزايد: تشهد المنطقة نزوحاً كبيراً، وتختلف نسبته بين بلداتها لتصل إلى 30 %، فأدى إلى تنوّع في نمط وكمية الاستهلاك؛ وعلى الرغم من تأثير عوامل كالنقل والهوية والثقة والقرب في سلوك المستهلك تواجه المنطقة تحدياً في ارتفاع استهلاك المنتجات الغربية ذات العلامة التجارية .

2.2.2.3 - القوة الدافعة

- إنَّ حصيلّة مبيعات تلك الصناعات هي المصدر الرئيس لتمويل أنشطة السكّان اليومية والاسبوعية؛ وبالتالي، فإنّ المشاريع الصغيرة والمتوسطة الحجم تشكّل ركناً للاقتصاد، وتعدّ محرّكاً اقتصادياً رئيساً لتعزيز النّمّو وخلق فرص العمل.

- يعدّ قطاع الصناعات الغذائية من أكثر وأسرع القطاعات الاقتصادية نمواً، بسبب حيويته وتنوّع منتجاته وتطوّره المتلاحق في الجودة والنوعية، فتعزّزت أهميته هذا القطاع في المنطقة؛ وهو يسهم في زيادة القدرات التصديرية للمنتجين المحليين في الأسواق الخارجية، خاصة الأوروبية.

- **ثقة السكّان بالمنتجات المحليّة:** حيث يطمئن سكّان المنطقة لمنتجاتها، فمصدرها معروف، وإدراك جودتها قوي، واستهلاكها يعني إظهار المواطنة والاندماج في مجتمعها.

- **سهولة الوصول وقرب المسافة، والرّابط المباشر بين المنتج والمستهلك،** يوضّح حجم الطلب القويّ على هذه المنتجات، وتفسّر تفضيلها على المنتجات الأجنبية التي يُنظر إليها على أنّها غامضة؛ كل ذلك يدعو إلى ضرورة زيادتها في المستقبل.

- **تعزيز الاستهلاك المحلي في المنطقة:** تؤثّر قوّة هويّة المنتجات الغذائية وغير الغذائية، في الاقتصاد المحليّ، وتجعل من زراعات المنطقة تخصصاً حضارياً محلياً، يتكامل بشكل وثيق مع اقتصاد المنطقة، وبوجه بالأساس نحو الاستهلاك المحليّ، إذ نشأت هذه المنتجات لتلبّي الطلب المحليّ، كما تؤدّي دوراً أساسياً في توسيع وتنويع الإنتاج، وتسهم في تحقيق الأهداف الأساسية للتنمية المستدامة.

3.2.2.3. الأثر

تأثير تلك المنتجات على المطاعم والسّياحة: يشهد قطاع تقديم الطّعام تحوّلاً كمياً ونوعياً، حيث انتقل من مطاعم صغيرة إلى شبكة من الورش والمطاعم التي تزوّد المعامل بمنتجات الألبان والأجبان، وتقدّم وجبات تقليدية تشكّل جزءاً من عروض السّياحة الرّيفيّة، وتترافق مع مهرجانات تذوّق الطّعام التي أصبحت تشكّل القوّة الدّافعة للتنمية المحليّة؛ وأهمّها: القاورما والصّفيحة البعلبكيّة ومنتجات الأجبان والألبان والكشك والشّنكليش، إضافة الى لحوم الأغنام والماعز البلديّ التي ترعى في المراعي الطّبيعيّة التي تعتمد عليها بعض المطاعم والأفران، ويقصدها النّازحون الذين يفنون الى المنطقة خصيصاً لشرائها، على الرّغم أنّها لا تلبّي الاحتياجات المحليّة.

- تتسم هذه الصناعات بالمرونة في الانتقال بين البلدات وصولاً إلى بعلبك وبيروت، ممّا يقلل من تكاليف النقل والعمل، ويزيد من الوفرة الناجمة عن التّركّز الحرفي.

- تلبي هذه الصناعات احتياجات المراكز الحضرية في المدينة، وتسهم في جذب السيّاح إلى مطاعم المنطقة، ممّا يسهم في تحديث الوظائف الحضرية، وتعزيز النّمّو المستمرّ في أنشطة هذه الصناعات.

4.2.2.3. الاستجابة

أ- الرّبط بين المراتفات والاستراتيجيات

- إقامة شراكات مع المؤسّسات والمنظّمات الأخرى والجمعيات، إضافة الى تضافر جهود التّعاون بين المستثمرين والمعنيين والبلديات، من أجل وضع برامج تدعم المشاريع الصّغيرة والمتوسطة الحجم، وتوفير الخبرات لهم.

- يمكن التّوسّع في تصنيع الفواكه والخضار، بهدف منع كسادها في ظلّ المنافسة وارتفاع كلفة توبييها أو تصديرها إلى الخارج، فضلاً عن تذبذب الأسعار. علماً أنّ المنتجات المصنّعة غالباً ما تكون باهظة الثّمّن مقارنة بقدرة السكّان الشرائية، ولا يمكن أن ترتقي إلى مستوى الهوية الإقليمية إلّا من خلال زيادة الاستثمار؛ وذلك من خلال:

زيادة المنتجات ذات العلامة التجارية، مع ضرورة التوسع في المساحات الرعوية وزيادة مزارع الأغنام والماعز والبقر الحلوب التي تسمح بزيادة عدد الورش والمصانع وتنوّع الإنتاج في ظلّ تغيّر نمط الاستهلاك والانفتاح ووجود عشرات الخريجين في مجال التّغذية والطّب البيطري، كما يمكن التّوسّع في إنشاء مصانع للتّبييض تزامناً مع توسّع مساحات زراعة العنب ذات الجودة بدل تصديره لمصانع الجوار.

هيكلة النسيج الصّناعي الرّاعي مع الاستهلاك المتزايد، ولا بدّ من التّعاون الصّريح بين المزارعين والصّناعيين والمورعين وأصحاب المطاعم، في سبيل زيادة الكمية وتعزيز الجودة واستعادة السّمة الطّيبّة للمنطقة، وترسيخ الانتماء والهوية، ومن ثمّ جذب الاستثمار؛ وكذلك يجب العمل على تعزيز الهوية الطّهوّة للمنطقة التي تتهيكل بناءً على تلك المنتجات، وتحظى بالتّقدير لقيمتها وطابعها الرّمزي؛ لأنّها تعمل كمحدّد للمنطقة، فهي تؤكّد نفسها كعنصر قويّ في توليد هويّة المنطقة.

ب- توافق الاستراتيجيات مع الأهداف

- تسمح العلامات التجارية في تنمية مواهب سكان المنطقة واستثمار مدّخراتهم وتعزيز المساواة بين الجنسين، حيث ترتفع نسب مشاركة الإناث في تلك الصناعات، ممّا يساعد على نشوء مجتمع منتج، وتأمين التّوظيف، والبنى التّحتيّة الخاصّة بالموادّ الغذائيّة مثل التّخزين والتّبريد وأسواق البيع.

- تسهم في دفع عجلة تطوير المنتجات السياحيّة، كما تسهم في تحقيق العدالة التّتموية والتّوازن الجغرافي بين البلدات و تقليل التّفاوت الاقتصاديّ، وتدعم القطاعات الإنتاجية بعضها بعضاً.

- يعزّز الاستهلاك المحليّ الشّعور بالانتماء، من خلال جودة المنتجات وحفاظ السّكان على التّراث القديم المرتبط بها، كما يسهم انتشارها عبر السّائحين في توثيق الرّوابط الاجتماعيّة والعاطفيّة مع الأماكن التي زاروها في المنطقة، إضافة الى أنّها تكون السّبب الرّئيس لزيارة المنطقة لدى سكّانها أو سيّاح المواقع الأثريّة.

رابعاً: السّياحة

الهوية السياحيّة للمنطقة: ترتبط السّياحة ارتباطاً مباشراً بتاريخ وحضارة المنطقة وقيمها المكانية، ويشكّل تراثها العمق الحضاريّ والتّاريخيّ والقيميّ لسكان المنطقة، ويختزن كمّاً من المعارف والعادات المختلفة التي تراكمت عبر التّاريخ، وتطوّرت وشكّلت هويّة المنطقة وانتمائها الحضاريّ.

1.4. الحالة

- **غنى المنطقة بالتّراث:** تتمتع المنطقة بمجموعة هائلة من الأصول السياحيّة تشكّل رموزاً تميّز بها المنطقة عن سائر الأماكن السياحيّة الأخرى في لبنان، فتعطيها هويّة وتمنحها نقوّاً تنافسيّاً؛ وتمثّل هذه الرّموز مقوّمات لوجهة سياحيّة متكاملة على الصّعيد الوطنيّ والإقليميّ والمحليّ، بحسب طبيعة الاحتياجات. ومن خلال هذه المقوّمات، يمكن إنشاء صورة علامة تجاريّة تمزج بين الأصول والسّمات الجوهريّة للمنطقة، من موارد طبيعيّة وسياحيّة، والقيمة العاطفيّة المرتبطة بها، لتكون بمستوى الجودة والسّمعة التي تعكس تلك الرّموز؛ وأهمّها:

أ- **الذاكرة العربية والرومانية:** يعدّ التراث التاريخي للمنطقة جزءاً حياً من الذاكرة العربية والرومانية، إذ يسهم في تشكيل الهوية الثقافية للسكان، ويعزّز ارتباطهم بالمكان؛ كما يفعل مختلف الجوانب البيئية والمادية والاجتماعية؛ ويمكن استثمار المواقع الأثرية لتكون مراكز علمية أو بحثية في مجالات التاريخ والآثار والعمارة والتراث، ما يجعلها محل استقطاب السياح، خاصة من الطلبة والباحثين المختصين.

ب- تعدّ هياكل بعلبك ومعابدها وأدراجها من أبرز المعالم الرومانية المدرجة ضمن قائمة التراث العالمي، وتتوزّع آثار رومانية أخرى لا تقلّ قيمة عنها في أنحاء مدينة بعلبك؛ وإلى الشمال يبرز «قاموع الهرمل» النصب الشامخ الذي يعود تاريخه إلى نحو 2000 سنة، إضافة إلى قناة الملكة زنوبيا وبقايا الكنيسة البيزنطية ومجموعة من المغاور في منطقة بريسّا، كما تحتضن المنطقة لوحتين للملك نبوخذ نصر، وتعدّان من أندر اللوحات التاريخية في العالم.

ج- تزخر المنطقة بالعديد من الجوامع والمساجد والكنائس القديمة التي يتخطى عمرها الـ 400 سنة، ومن أبرزها: دير مار مارون الذي يعدّ منطلق المارونية في لبنان، ودير سيّدة رأس بعلبك العائد إلى القرن الرابع الميلادي، ويؤمّه المسيحيون من مختلف المناطق اللبنانية، خاصة في عيد انتقال السيّدة العذراء. وقد عُثِر في هذا الدير على أيقونة بيزنطية نادرة تمثل السيّدة مريم، كما تحتضن المنطقة بقايا «معبد الرهبان» عند ضفاف نهر الأربعين، وكنيسة القديسة بربارة، ابنة مدينة بعلبك، زلا يمكن إغفال مزار سيّدة بشوات الذي يقصده المسيحيون من كلّ لبنان، إلى جانب مزارات دينية أخرى.

د- **طاحونة العميرية:** تدلّ على التراث اللبناني الأصيل، وتتميّز بروعة هندستها التي تتجلى في تشييدها فوق نهر العاصي؛ أمّا جسر العميرية الأثري فقد بُني على هذا النهر ليربط بين الأراضي اللبنانية والسورية، كما يربط بين ضفتي العاصي.

هـ- **التراث الطبيعي:** تزخر المنطقة بمزايا فريدة، إذ تحتضن أماكن مميزة تشكّل علامات تجارية، تبلغ مساحتها مئات الهكتارات، وتضمّ الأراضي الحرجية والعديد من المحميات الطبيعية؛ ومن أهمّها: «دائرة اليمونة» التي تعدّ من أهمّ الدارات الممتدة على طول الفالق الذي يحمل اسمها ليس في لبنان فحسب، بل على مستوى الخارج، وتشكّل زيارتها رحلة علمية؛ إلى جانبها تبرز «دائرة عيون أرغش»، حيث تتفرّد

المنطقة بوجود مثل هذه الدّارات في لبنان. وتشكّل تلك الأماكن موقعاً مميزاً وسياحياً ومثاليّاً للرّاعبين في إقامة التّزهات والتّمتّع بالمناظر الطّبيعيّة التي تشهد نمواً متزايداً للمطاعم المتميّزة فيها.

و- التّركيز على أساس هويّة المنطقة بالكرم والضيافة: إنّ التّنوّع السيّاحي والتّراثي والحضاريّ في المنطقة، إلى جانب تجربة الزّائر أثناء تنقّله فيها، يشعره بقيم الحفاوة والتّرحاب والضيافة التي تميّز أهلها.

ب- المهارات والتّقاليد ذات الرّمزيّة الخاصّة كالدّبكة والأغاني والموسيقى تعدّ من الرّكائز المؤثّرة في تنمية الفنون وعروض الأداء، ويعدّ الفلكلور الشّعبيّ أبرز تجلّياتها، وفي طليعته فرقة كركلا التي تمثّل تراث الأجداد مصبوعاً بتميّز الحداثة؛ أمّا مهرجانات بعلبك التي أطلقها الجنرال غورو سنة 1922 فهي رمزيّة يتغنّى بها سكّان المنطقة، وتمثّل ذروة النّشاط السيّاحي، إذ تستقطب محبّي الموسيقى وتعدّ من أكبر الفعاليّات السيّاحيّة في لبنان، وقد شارك فيها العديد من مشاهير العالم، وهي محميّة بموجب العلامات التّجاريّة المسجّلة.

ج- الخدمات السيّاحة ذات الصّيت الدّائع: يشهد القطاع السيّاحي نمواً ملحوظاً من خلال ازدياد عدد الفنادق والمطاعم والخدمات في الأماكن السيّاحيّة، إضافة إلى اتّساع نطاق المباني الأثريّة التي تشملها عمليّات التّرميم؛ ويؤدّي الاستخدام المتكرّر للعلامات التّجاريّة للسّلع والخدمات إلى تعزيز صورتها في أذهان الزوّار.

- يمثّل إنشاء علامة «نكهة بعلبكيّة» خطوة استراتيجيّة تهدف إلى تحديد معايير جودة خاصّة بالمنتجات الزراعيّة والمأكولات التّقليديّة في المنطقة، فيتيح لمالكي المطاعم والفنادق التّعرّف على هذه المحليّة واعتمادها. وتسهم هذه العلامة في إشاعة ثقافة الاستهلاك المستدام لدى الزّبائن، وتمنح المأكولات البعلبكيّة طابعاً من الخصوصيّة والتّميّز.

- استخدام المؤشر الجغرافي لدفع عجلة السياحة وإحداث الوظائف في البلديات : تعدّ بعض أنواع الصناعات الغذائيّة الاسريّة وتم إنشاء العديد من المقاهي والمطاعم التي تحمل رمز المدينة في بيروت وفي زحلة (مثل مطعم هياكل بعلبك في لدكوانة).

- **النَّبِيذ:** يجذب الزوّار من خارج المنطقة بفضل التجارب السيّاحيّة القائمة على تنوّق النّبِيذ؛ وقد يكون دافعاً لتوسيع نطاق زيارة المنطقة واستقطاب المزيد من الاستثمارات في قطاعها السيّاحيّة.

- **تشكّل العلامات التجاريّة في قطاع الخدمات** ركيزة أساسيّة في تعزيز الجذب السيّاحي، من خلال إرساء هويّة خدماتيّة مميّزة للمنطقة، لا سيما عبر مختبرات النّجْميل كالذّكتور الحسيني ومحفوظ قاسم... والمراكز الطّبيّة كمستشفى دار الحكمة ومستشفى دار الأمل. وتوازيًا، يسهم تطوير البنية التّحتيّة ومناطق النّشاط الحديثة، ولا سيّما في قطاع الاتّصالات، في ترسيخ مكانة المنطقة كمقصد سياحيّ وخدماتيّ متكامل.

تعدّ العلامات التجاريّة للمنتجات التي تباع بشكل أفضل رافعة اقتصاديّة، ويزداد تأثيرها بفضل اقترانها بتنظيم الأحداث التّقافيّة أو الرّياضيّة، فتخلق فرص العمل وعائد ملموس.

2.4. الضّغوط والقوّة الدّافعة

1.2.4. الضّغوط

تواجه المنطقة تحديّات متزايدة في تنمية المشروعات السيّاحيّة والتّقافيّة، في ظلّ تحولات أيدلوجيّة واقتصاديّة وعالميّة متسارعة، ما يحدّ من قدرتها على توظيف تنوّع الموروث التّقافي والعمراني في القطاع السيّاحيّ بصورة تحقّق التّمتية المستدامة؛ وذلك بسبب:

- **نقل صورة سيئة عن المنطقة لدى العديد من سكّان المناطق اللّبنانيّة** بأنّها خارجة عن القانون أو يتمّ نقل صورة نمطيّة بأنّها منطقة زراعيّة.

- **الخدمات غير كافية:** فهي محصورة فقط بالمنطقة الأثريّة إلى جانب ضعف الاستثمار، كما أنّ التّرويج الأعلاميّ للسياحة فيها يكاد يكون معدومًا، على الرّغم أنّ المهرجانات تسهم في الإضاءة على المنطقة، إلّا أنّ هذه الفعاليّات غالبًا تعود بالنّفع على جهات خارجيّة، في حين يبقى سكّان بعلبك من دون مردود يذكر، إذ إنّ معظم الزوّار يأتون ليلاً ويغادرون ليلاً، من دون أن يخلفوا أيّ أثر اقتصاديّ ملموس

للمنطقة.

2.2.4. القوة الدافعة

- يؤصل التراث الحضاري الهوية ويرسخها، ويجعل لديها ارتباطاً ثقافياً وفنياً وحضارياً ببيئتها ويكون شخصيتها، ويشكل هويتها التي تترك بصمة في ذهن السائح تجعله يميز المقصد السياحي عن غيره.

- الهوية السياحية الغالبة على المنطقة تبّد الصورة السلبية الملتصقة بالمنطقة: أسهمت الآثار والأنشطة الثقافية في المنطقة في تشكيل هوية تاريخية، ترسّخت في أذهان سكّان المنطقة وخارجها؛ وتبرز الرموز أو عناصر الجذب جزءاً من صورة هويتها التي يعتز بها السكّان، ويتغنّون بتراث بعلبك وجمال الأماكن الطبيعية، لا سيّما في اليمونة وعيون أرغش المعروفتين على صعيد لبنان، فتتعرّز الدعوة إلى زيارتها، وتنشط الحركة السياحية والاقتصادية في المنطقة.

الموقع الجغرافي للمنطقة عزز الهوية السياحية

أ- تتمتع المنطقة بهوية بيئية وسياحة متكاملة، لا تقوم على التنافس، حيث إنّ المناطق السياحية الموجودة في قضاء الهرمل أو في اليمونة أو في بعلبك لا تشبه بعضها، فيمكن للزائر أن يقوم بأنشطة سياحية متعدّدة، ويزور أماكن عدّة في نفس الرحلة التي تمتدّ لأيام عدّة، ويمكن تفعيل قطاع الفنادق والمطاعم.

ب- تنوّع المناخ: يمكن للسائح بفضل الموقع الجغرافي للمنطقة الاستمتاع بتنوّع الأطعمة وتعدّد المناخات داخلها، إلى جانب شراء فواكه خارج موسمها الطبيعيّ، مثل الكرز والمشمش وغيرها؛ وسيتيح تسجيل العلامة التجارية فرصة للتعرف على المرشدين المؤهلين، ودور الضيافة والفعاليّات والبضائع الرسميّة التي تسوّقها البلديات والتعاونيات.

ج- انفتاح المنطقة وتواصلها بفعل اتّصالها بثلاثة أقضية: تتميز الهوية بسهولة تذكرها، إذ تخلق شعوراً بالتواصل والانتماء؛ ويمكن الوصول إلى المنطقة عبر طرق جبلية، مثل طريق الأرز أو عيون السمان أو طريق الهرمل - عكار التي تربط الساحل بالمنطقة، فيتيح للزوّار الاستمتاع بالمناظر الخلابة الجبلية أثناء القدوم

والعودة، مع إمكانية تغيير مسارات الرحلة.

وتقوم سياحة المسارات على إبقاء السائح مدة زمنية أطول في المناطق السياحية والأثرية الواقعة ضمن المسار، فيمكنه من الاستمتاع بكل المقومات السياحية في كل منطقة، مما يحفز السكان المحليين على المشاركة الفاعلة في التنمية السياحية، لتغدو سياحة المسار منتجاً سياحياً متكاملًا.

د- تنوع ديني: تمازج الثقافات: تتمتع المنطقة بتنوع ديني وثقافي كبير، ويؤدي تفاعل ثقافة السائح مع الثقافة المحلية إلى نشوء مشروعات سياحية تنموية تعزز المعارف وتغني الخبرات من خلال الاتصال الثقافي الذي ينتج عنه تحديث بعض السمات الثقافية التي تؤثر بدورها على طبيعة العادات والتقاليد السائدة.

3.2.4. الاثر: ترسيخ الهوية من خلال اهتمام أكبر من قبل السكان وكذلك الزوار

بتراث المنطقة

يسهم سكان المنطقة في تميز بلداتهم واماكنهم، فتتراكم الذاكرة المكانية التي تمثل كنزاً جماعياً، يتمثل في:

أ- ارتفاع ارتباط سكان المنطقة العميق ببيئتهم إلى مستوى الهوية الإقليمية، من خلال توجيه النشاط السياحي نحو ما يميز المنطقة من حضارات وعادات وتقاليد عريقة، مع التركيز على المعارض السياحية، وقد رسّخ تنمية القطاع السياحي في بعض الأماكن هوية المنطقة، خاصة اليمونة ومحيط القلعة.

ب- مطالبة السكان بالحاح بتنمية القطاع السياحي في المنطقة، وهم واثقون بقدراتهم، منطلقين من ثوابتهم الدينية وموروثهم الاجتماعي والثقافي والتاريخي، بهدف بلورة هوية سياحية متميزة.

ج- الاهتمام بالنواحي البيئية، لا سيما من خلال معالجة المشكلات البيئية والتخلص من التلوث البصري، يوسّس لمشهد جمالي يستقطب السياح. وقد شجّع ذلك على التوسع في الخدمات، ومن ثم في القطاعات التي ترتبط بها، خاصة الصناعات الغذائية في دورة اقتصادية متكاملة.

د- السياحة ركيزة اقتصاد المنطقة: من خلال تنمية السياحة ازدهرت الصناعات

الغذائية والقطاع الحيواني والزراعات المرتبطة بها، وتعززت العلامات التجارية التي تتميز بها وتلتصق بالمنطقة وترسخ هويتها، علماً أنّ بعض الأماكن تشتهر بمزارعها وبصناعاتها الغذائية، لكنّها لا تدرج ضمن القيمة السياحية.

4.2.4. الاستجابة

أ- **تجدد العلامات التجارية:** تتألف من المعالم الأثرية والتراثية، وتشكل ذاكرة المنطقة، وتعبّر عن الثقافة والتقاليد والقيم الاجتماعية، وتعزز الانتماء وتنمي السياحة من خلال:

- **بناء هوية جديدة تواكب طموحات المنطقة** التي تمزج بين القيمة التاريخية والتراث الثقافي والمجتمعي والبيئة والسمات الفردية والجماعية، كما تمزج بين الحداثة والأصالة والتجديد، وتعبّر عن هوية المنطقة وما يؤمن به سكانها من عادات وتقاليد؛ لتشكل بذلك الصورة العامة للمنطقة التي لها دور كبير في نقل تراثها بشكل حضاري وتفاعلي إلى زوّار المنطقة وترسيخ هويتها.

- **انفتاح سكان المنطقة وتوظيف التراث وتطوير الخدمات** يسهم في تعزيز البنية التحتية السياحية وتنويع المنتجات السياحية، بما يثري النسيج الثقافي والاجتماعي، وبضمن القيمة الاقتصادية للأنشطة المختلفة. كما يُعنى هذا التوجّه بالارتقاء بمستوى الخدمات، بما يسهم في تنمية القطاع السياحي وخلق فرص اقتصادية، مثل إنشاء الفنادق والمطاعم وتوفير فرص عمل للسكان.

- **صناعة علامة تجارية من خلال وضع استراتيجية لدعم المزارعين** داخل مزارع العنب والتفاح والورود، مع إطلاعهم على أساليب تصنيع المنتجات، فتنعزّز ثقتهم بها. ويسهم الاستخدام الناجح للعلامة التجارية في تحويل سمعة المنتج وجودته إلى فرص تجارية في قطاع السياحة مؤكّداً التفوق التنافسي، ومعززاً سمعة الوجهات السياحية.

- **تطوير الجذب السياحي وتطوير المهن التراثية والتسويق لها**، من خلال تشجيع الاستثمار السياحي.

ب- **توافق الاستراتيجيات مع الاهداف:** تؤثر الهوية في عمليات التنمية من خلال:

- السّياحة: تسمح للزّوّار باختبار المنطقة في الواقع ونقل تصوّراتهم بمجرّد عودتهم إلى بلدانهم الأصليّة.

- التّقاليف: القدرة على إضافة تفاصيل للصّور، وإثارة الاهتمام بزيارة المنطقة.

- السّكان: زرع الشّعور بالفخر بين سكّانها الذين يتصرّفون كسفراء لبلداتهم حتّى في سلوكهم اليوميّ.

- السّياسة: نقل القيم خارج حدود المنطقة.

- الاستثمار: التّرحيب بالاستثمارات الأجنبيّة، وجذب استثمارات جديدة ونخب جديدة إلى البلدات.

- المنتجات: تحمل اسم المنطقة وتجذب المستثمرين إليها.

وضمن هذه الأبعاد الستّة، يمكن لعوامل فرعيّة عديدة أن تسهم بشكل خاصّ في بناء أسس هوية قويّة وتنافسيّة، لها أهميّة بالغة في تشكيل صورة مستقبلية تمثّل بوابة لتنمية الشّعور بالانتماء، وتعطي فرصة ممتازة لإبراز هويّة المنطقة وجذب اهتمام السّياح لزيارتها.

ولا بدّ من ربط المنتجين المحليين الصّغار والمتوسّطين بالمزوّدين السّياحيين الكبار، من أجل دعم التّنمية المحليّة المستدامة، وتعزيزاً للقدرة التّنافسيّة من خلال اعتماد المنتجات والتّجارب السّياحيّة المبتكرة.

النتيجة

تعدّ الزّراعات ذات الشّهرة المحليّة، إلى جانب المزارع الحيوانيّة والمراعي في المنطقة ومراكز الأبحاث الزراعيّة في الجوار، فرصة لتطوير المنطقة وجعلها مركزاً للصّناعات الغذائيّة اللّبنانيّة. ويتمّ ذلك من خلال استثمار الفائض الزراعيّ وتصنيعه وتصديره، والتّوسّع في زراعته، إلى جانب تنظيم الأراضي وتحديد نوعيّة استخداماتها، بحيث تُلصق بها الهوية التي تعزز انتماء السّكان إليها وتعزّز شعورهم بالارتباط بها. كلّ ذلك يسهم في استقطاب الكوادر الفنيّة والخبرات المتخصّصة وأموال المهاجرين.

تضفي السياحة المستندة إلى تراث المنطقة قيمة اقتصادية على المنتجات ذات العلامة التجارية، في الزراعة والغذاء والحرف التي تتميز بها المنطقة، وتسعى إلى تطويرها. وهي قادرة على توظيف الإمكانيات الثقافية والفنية لخلق فرص اقتصادية تضمن دخلاً وفيراً، وتعزز الأنشطة الاقتصادية.

يسهم دعم العلامات التجارية في القطاعات الاقتصادية في دعم هوية المنطقة والترويج لها، وترسيخ انتماء السكان إليها، إذ يستثمرون الموروثات الثقافية والحضارية والبيئية للمنطقة بالشكل الأمثل، وبرؤية اقتصادية بحتة، فيسهم في جذب الاستثمارات، ولا سيما من خلال رؤوس أموال المهاجرين والتّازحين.

المراجع

Sabine Menu (2025) La formation des mobilisations économiques et le rôle de l'identité régionale dans trois régions européennes, Institut d'Etudes Politiques de Paris.

Ahmed Yehia Mohamed Gamal, (2010), Identity as an approach to civilization sustainability in the light of community partnership, Mansoura University

Akerlof, G. A. et Kranton, R. E. (2000). Economics and Identity. Quarterly Journal of Economics,

Fine, B. (2008). L'économie de l'identité et l'identité de l'économie ? Cambridge Journal of Economics,

Matsangou, E. (2019,). L'économie de l'identité, <https://www.worldfinance.com>

Michel Garrabé, (2001) ,Identité de l'économie sociale et de l'économie solidaire, <https://id.erudit.org/iderudit/1023666ar>

MICHAEL KEATING (1998) National and Regional Identity in Europe in the Nineteenth, Centuries,

Peter Van Ham, ,(2001) European identity beyond the state:: governance, democracy, identity.

Nora Mareï et Yann Richard, (2024) , Régionalisations du monde et intégration (macro)régionale. <https://journals.openedition.org/belgeo/43451>

Yann Richard, Intégration régionale, régionalisation, régionalisme – l'Université Paris 1 Panthéon–Sorbonne,

دور الشركات العائلية في التنمية الاجتماعية والاقتصادية في محافظة لبنان
الجنوبية خلال الأزمة الاقتصادية 2019-2024

Le rôle des entreprises familiales dans le développement socio-économique au Sud-Liban durant la crise économique (2019-2024)

د. لانا جرجي موسى

Dr. Lena Moussa

تاريخ القبول 2025 /4/8

تاريخ الاستلام 2025 /3/20

ملخص

تعدّ الشركات العائلية ركيزة أساسية في الاقتصاد العالمي، حيث تمثل 70% من الشركات عالمياً وتشارك بنسبة كبيرة في الناتج المحلي الإجمالي والتوظيف. في لبنان، تشكّل هذه الشركات حوالي 85% من القطاع الخاص، وقد أثبتت مرونة كبيرة خلال الأزمة الاقتصادية التي بدأت عام 2019، والتي شهدت انهياراً مالياً حاداً وارتفاعاً كبيراً في التضخم؛ وعلى الرغم من هذه التحديات، استطاعت العديد من الشركات العائلية في جنوب لبنان، خاصة في بلدة مغدوشة، التكيف مع الظروف عبر استراتيجيات مثل تنويع الأنشطة واعتماد الحوكمة العائلية.

تميّزت هذه الشركات بخصائص مثل توارث الخبرات، الثقة المتبادلة، واتخاذ القرار السريع، لكنها واجهت أيضاً تحديات كالصراعات العائلية وضعف التخطيط للخلافة؛ ومن خلال مقابلات مع أصحاب شركات عائلية، تبين أنّ نجاحها يعتمد على التكامل بين الأجيال والتخصّص الأكاديمي لأفراد العائلة، كما أسهمت هذه الشركات في التنمية المحلية عبر توفير فرص العمل وتحفيز القطاعات الزراعية والسياحية.

ختاماً، تؤكد الدراسة أهمية تعزيز الحوكمة والتخطيط الاستراتيجي لضمان استمرارية الشركات العائلية، مع الحفاظ على قيمها الاجتماعية كأداة للتنمية في ظلّ الأزمات.

Résumé

Les entreprises familiales jouent un rôle clé dans l'économie mondiale, représentant environ 70 % des entreprises et contribuant significativement au PIB et à l'emploi. Au Liban, elles constituent près de 85 % du secteur privé et sont vitales pour la résilience économique, surtout durant la crise de 2019–2024, marquée par l'effondrement monétaire et une inflation galopante. Malgré ces défis, ces entreprises ont démontré une remarquable adaptabilité, préservant des emplois et soutenant les communautés locales.

L'étude se concentre sur le Sud-Liban, notamment le village de Maghdouché, où des entretiens avec des propriétaires d'entreprises familiales ont révélé leur importance dans le développement local. Ces entreprises, souvent transmises sur plusieurs générations, allient traditions et modernité, tout en favorisant la cohésion sociale. Leur force réside dans leur flexibilité, leur rapidité de décision et leur engagement familial, bien qu'elles puissent souffrir de conflits internes ou d'une gestion émotionnelle.

Pour assurer leur pérennité, une gouvernance structurée, incluant des conseils familiaux et une planification successorale, est essentielle. Ces entreprises restent un pilier de l'économie libanaise, mais leur avenir dépendra de leur capacité à intégrer des pratiques professionnelles tout en conservant leurs valeurs familiales.

مقدمة

يعدّ البحث في موضوع الشركات العائلية من الموضوعات المهمة التي باتت محلّ اهتمام الباحثين في علمي إدارة الأعمال والاقتصاد على حدّ سواء؛ لما تؤدّيه هذه الشركات من دور مهمّ في صياغة وتشكيل الكثير من اقتصاديّات الدّول في العالم بشكل عامّ، وفي الدّول العربيّة بشكل خاصّ، إذ تسهم في تحقيق التّموّ الشّامل وتوفير فرص العمل، فهي تمثّل حوالي 70% من إجمالي الأعمال التجاريّة العالميّة (IFC, 2012)، في أميركا اللاتينية لوحدها تسهم الشركات العائلية بحوالي 60% من الناتج القوميّ

الإجماليّ (عبيد، بنتور، و طلحة، 2020، صفحة 3).

وعلى الرّغم من تغيّر الظروف الاقتصادية بوتيرة متسارعة، لا يزال قطاع الشّركات العائليّة قادرًا على تحقيق النّجاح والمكاسب الاقتصاديّة على المستوى المحليّ والوطنيّ، وقد كان أداء الشّركات العائليّة المدرجة في أسواق المال الأوروبيّة الرّئيسة أفضل من الشّركات غير العائليّة في الفترة ما قبل جائحة كوفيد-19 (بنقا، 2023، صفحة 1)، كما أظهرت العديد من هذه الشّركات صمودًا ومرونة كبيرة خلال فترة الجائحة (PWC، 2021).

وتشكّل الشّركات العائليّة في المشرق العربيّ ما يصل إلى 90% من جميع الشّركات، وتوظّف 80% من القوّة العاملة. وتسهم بنسبة 60% من النّاتج المحليّ الإجمالي للمنطقة (PWC, Family Business survey, Family firm: A resilient model for the 21st century, 2012). وأهمّ ما يميّز الشّركات العائليّة في المنطقة هو وجود الثقافات الرّاسخة والقيم القويّة والطّرق المختلفة لقياس النّجاح وسرعة اتّخاذ القرار.

في لبنان، تقوم الشّركات العائليّة بدور فعّال وهامّ في دعم الاقتصاد، وهي تؤدّي دورًا مهمًّا في خلق فرص العمل وفي رفع مستويات التّنمية الاقتصاديّة، إذ تسهم بنحو 80% من النّاتج المحليّ الإجمالي وتوفّر 1.05 مليون فرصة عمل من أصل 1.24 في لبنان (فهد ن.، 2018).

وانطلاقًا من أهميّة دور الشّركات العائليّة في التّنمية الاقتصاديّة، أنشئت جمعية الشّركات العائليّة في لبنان برئاسة ريكاردو حصري التي انتسبت الى جمعية الشّركات العائليّة الدوليّة الموجودة في سويسرا، إلّا أنّ لبنان شهد عام 2019 أزمة صحيّة واقتصاديّة، حيث انتشرت جائحة كورونا مترافقة بأزمة اقتصاديّة أثّرت بشكل سلبيّ وقويّ على جميع القطاعات لا سيّما الماليّة والنّقدية منها، وانعكس ذلك على المستوى المعيشيّ للشّعب اللّبنانيّ الذي يعيش حتّى يومنا هذا ضائقة ماليّة وترديًا اجتماعيًّا كبيرًا؛ فقد تدهور سعر صرف الليرة اللّبنانيّة مقابل الدّولار الأميركي من حوالي 1500 ليرة لكلّ دولار ما قبل الأزمة إلى حدود 89 ألف ليرة حاليًّا؛ وبالتالي فقدت القدرة الشرائيّة لليرة اللّبنانيّة حوالي 98% من قيمتها، وانخفضت قيمة رواتب الموظّفين ممّا أثّر على التّوازن الاجتماعيّ؛ إذ تقلّصت نسبة الطّبقّة الوسطى من 70% إلى نحو 30-40%، وارتفع

مؤشر أسعار الاستهلاك من 115.54% مع نهاية عام 2019 ليصل إلى رقم قياسي 5978.13% في نهاية العام 2023، في دلالة واضحة على الارتفاع الكبير جداً في أسعار السلع الأساسية من مأكّل وملبس وسكن واتّصالات وتعلم وطبابة وغيرها، وأدّى ذلك إلى ازدياد معدّل النّضخ الماليّ من 2.9% في العام 2019، إلى 231.1% في العام 2023؛ فضعت قدرة المواطنين على تأمين مقومات حياتهم اليوميّة وأرهقت الفئات الاجتماعيّة الأكثر فقراً، فكان لا بدّ من الاعتماد على مؤسّسات وشركات القطاع الخاصّ، خاصّة تلك التي استطاعت مواجهة الأزمة وتخطيها بأقلّ ضرر ممكن (عمر، 2024).

وعلى الرّغم من مضي أكثر من أربع سنوات على الانهيار التّقديّ والماليّ والاقتصاديّ، فإنّ القطاع الخاصّ الذي تشكّل الشركات العائليّة حوالي 85% من مجموع الشركات العاملة، لا يزال صامداً، وكذلك الاقتصاد اللّبنانيّ، بعدما تأقلمت هذه الشركات مع التّطوّرات الحاصلة، خصوصاً على صعيد اللّوّل والدولار والتّقلّبات الحادّة في سعر الصرف؛ فاستطاعت مدّ الخزينة اللّبنانيّة بالإيرادات المطلوبة لتحقيق النّمّو المستدام وتأمين فرص العمل (حصري، 2024).

انطلاقاً ممّا سبق، واستناداً لأهميّة دور الشركة العائليّة في عمليّة التّمتية الاجتماعيّة والاقتصاديّة، يمكن لنا طرح تساؤلات حول تاريخ الشركات العائليّة ونشأتها في لبنان، ودورها في عمليّة التّمتية الاجتماعيّة والاقتصاديّة: ما العوامل التي أسهمت في صمود هذه الشركات واستمراريتها في ظلّ الأزمة الاقتصاديّة والماليّة التي أرخت بظلالها على لبنان منذ العام 2019، وما رافقها من انهيار للعملة الوطنيّة وارتفاع أسعار السلع، بالإضافة إلى تراجع قيمة الأجور والقدرة الشرائيّة لدى المواطن اللّبناني؟ وما مدى تأثير هذه الأزمة على واقع الشركات العائليّة الحالي؟ وما الإجراءات والتّدابير والسياسات التي اعتمدتها هذه الشركات لضمان استدامتها وانقائها لأجيال متعاقبة؟

أهداف البحث

نسعى من خلال هذا البحث تحديد مفهوم وواقع الشركات العائليّة من خلال:

- تحديد الإطار النظري والمفاهيمي للشركات العائلية.
- تبيان أهمية دور الشركات العائلية في التنمية الاجتماعية والاقتصادية.
- تبيان نقاط القوة والضعف في عملها وتأثيرها على أعمال الشركة.
- تحديد واقع الشركات العائلية في لبنان.
- الوقوف عند تأثير الأزمة الاقتصادية اللبنانية على الشركات العائلية.
- تحديد سبل تخطي الشركات العائلية للأزمات المالية وطرق معالجتها.

منهجية البحث

من أجل الإجابة على إشكالية البحث، وتحقيق الأهداف المرجوة منها، اتبعت المنهج الاستنباطي، ويُعرف المنهج الاستنباطي أنه دراسة لمشكلة بشكل كلي انطلاقاً من المُسلّمات أو النظريات أو المعارف العامة، وبعد ذلك الانتقال للجزئيات، من خلال الاستنتاجات، أي أنه دراسة تبدأ بالعام ثم تنتقل إلى الخاص في مراحلها التالية، ومن التسميات الأخرى للمنهج الاستنباطي: «المنهج الاستدلالي» و«المنهج الاستنتاجي»، بالإضافة إلى منهج تحليل المضمون، وهو أداة أو أسلوب (برنارد بيرلسون وأولي هولستي)، من خلال معالجة وتحليل ما توصلنا إليه من معطيات ميدانية عبر المقابلات المباشرة مع أصحاب الشركات العائلية في لبنان.

المجال الزماني والمكاني

أجريت هذه الدراسة في بلدة مغدوشة، إحدى قرى محافظة الجنوب في لبنان، تبعد حوالي 50 كلم عن جنوب بيروت، قمنا بإجراء ثماني مقابلات مع أصحاب مهن وشركات ذات طابع عائلي، وذلك خلال شهر أيار من العام 2024، للتعرف على آراء أصحاب المهن والمصالح والشركات حول تاريخ عملهم في شركاتهم العائلية، أبرز مميّزاتها، وإيجابياتها وسلبياتها، وتطلعاتهم لمستقبل العمل فيها، والإجراءات التي يقومون بها لضمان استمراريتها عبر الأجيال.

تعريف الشركة العائلية

على الرغم من وجود عدّة أصناف للشركات إلا أنّ تصنيفها حسب الوضع القانوني هو الذي سيصل بنا إلى تعريف واضح للشركات العائلية؛ فبحسب القوانين اللبنانية المرعية الإجراء توجد الأنواع التالية للشركات: شركات الأشخاص التي تضمّ الشركة المحدودة المسؤولة، وشركة التضامن، وشركة المحاصة، وشركات الأموال التي منها الشركة المساهمة اللبنانية، وشركة التوصية بالأسهم، وشركة الهولدنغ، وشركة الأوف شور...

أمّا عن الشركة العائلية فلا يوجد لها تعريف متفق عليه، بحسب الأدبيات والتقارير المنشورة، وقد أشارت دراسة بعنوان *Ownership and the stock Market Family* المنشورة في سويسرا عام 2018 م (Eugster, 2019)، إلى عدم وجود تعريف محدّد سواء من الجانب المادي أم المالي، لكن قد تعدّ الشركة عائلية، بحسب الدراسة، بناءً على عدّة عوامل أهمّها ما يلي:

- ملكية العائلة: تعتمد على نسبة التصويت، أو حقّ التدفّقات النقدية التي يملكها أفراد الأسرة.
- إدارة الشركة من قبل العائلة: وذلك إذا كان مؤسس الشركة أو شريك في تأسيس الشركة هو الرئيس التنفيذي للشركة، على أنّ الباحثين يختلفون في هذا التعريف بحسب عدد المناصب التي يتولّاها مجموعة أشخاص من نفس العائلة في إدارة الشركة.
- تصوّر الشركة بأنّها شركة عائلية من قبل العائلة: عندما يرى الرئيس التنفيذي، أو رئيس مجلس الإدارة أنّ شركتهما شركة عائلية، أو أنّ مديري الشركة مرتبطون بعضهم ببعض بصفتهم أقارب، ويعدّ هذا كافياً لتعريف الشركة على أنها عائلية.
- انتقال ملكية الشركة بين الأجيال: يعتمد ذلك على انتقال السلطة والإدارة إلى أجيال أخرى بعد مؤسس الشركة، كوجود نوع من السلطة في مجلس الإدارة، أو إدارة الشركة من أحد أفراد العائلة كرئيس تنفيذي.
- عوامل متعدّدة: المقصود بها هو وجود عاملين أو أكثر مجتمعة حتّى يؤخذ بالحسبان أنّ الشركة تعدّ عائلية كتحقيق حدّ أدنى من الملكية والتمثيل في مجلس الإدارة على

سبيل المثال (الشهراني، مختار، و المشرف، 2021، صفحة 7).

في المملكة العربية السعودية مثلاً، تُطرق إلى مفهوم الشركة العائلية في دليل حوكمة الشركات العائلية وميثاقها الاسترشادي الصادر عن وزارة التجارة في عام 2018 (الميثاق الاسترشادي، 2018)، وعُرفت أنّها: «الشركة التي تملكها بالكامل أو تسيطر عليها عائلة معينة»، مع الإشارة إلى إمكانية اختلاف معنى السيطرة، وأنّه يشمل في كلّ الأحوال السيطرة الناجمة عن ملكية أكثرية حصص أو أسهم شركة ما، كذلك ذكر الدليل أنّه من غير الضروري أن تعود ملكية الشركة العائلية إلى عائلة واحدة فقط، بل قد تكون لأكثر من عائلة.

■ تعريف الاتحاد الأوروبي

- اعتمد الاتحاد الأوروبي على عدد من الحالات التي في حال توافر أيّ منها، تعدّ الشركة شركة عائلية، وهذه الحالات هي:
- أن تكون أغلبية الملكية تحت سيطرة الشخص المؤسس للشركة، أو أحد أفراد أسرته.
 - ألا تقلّ ملكية العائلة عن 25% من أسهم الشركة.
 - في حال كانت الشركة مدرجة في سوق الأوراق المالية، تحكم العائلة في اتخاذ القرارات في الشركة سواء بشكل مباشر أم غير مباشر.
 - وجود أحد أفراد العائلة على الأقلّ في مجلس إدارة الشركة (الدبل، 2013، صفحة 129).

■ تعريف مؤسسة التمويل الدولية

عرفت مؤسسة التمويل الدولية الشركة العائلية أنّها: الشركة التي تكون فيها أغلبية الأصوات في أيدي العائلة المسيطرة، بما في ذلك المؤسس (المؤسسون) الذي يعتزم نقل الشركة إلى الأجيال القادمة.

ويكون للمصطلحات التالية: المؤسسة التجارية العائلية، والمنشأة العائلية، والشركة العائلية، والمؤسسة التجارية المملوكة للعائلة، والشركة المملوكة للعائلة، والشركة التي تسيطر عليها عائلة نفس المعنى (الدبل، 2013، صفحة 131).

أخيراً، يمكن اعتماد تعريف الشركة العائلية في دراستنا هذه على أنها تلك الأعمال التجارية المملوكة للأسرة، وهي بذلك أي عمل يشارك فيه اثنان أو أكثر من أفراد العائلة، وتكون فيها الملكية لهم، ويملكون أيضاً حق السيطرة على الإدارة وحق اتخاذ القرار. ويكون الهدف من هذه الهيمنة العائلية هو الحفاظ على استمراريته وتوريث أعمالها إلى جيل آخر على الأقل، ولا يربطها فقط المصالح الاستثمارية المشتركة وإنما أيضاً العلاقات الشخصية، حيث تمثل وحدة ديناميكية تربطها العلاقة الأسرية بشكل أو بآخر؛ وانطلاقاً من هذا التعريف، أجرينا ثمانى مقابلات مع أصحاب مهن وشركات تنطبق على أعمالهم خصائص الشركات العائلية.

أهمية الشركات العائلية

ظهرت الشركات العائلية في العالم بصفتهما مركزاً اقتصادياً كبيراً تمارس فيه الأدوار الاقتصادية المختلفة، حيث تؤدي الشركات العائلية دوراً كبيراً في النمو الاقتصادي لأي بلد، كما توفر الشركات العائلية فرصاً كثيرة للتوظيف والقضاء على البطالة في المجتمعات، وتقوم تلك الشركات على تنمية اقتصاد الدولة من خلال المساهمة في الناتج المحلي؛ فهي تعدّ نموذجاً لأقدم المؤسسات التجارية وأكثرها شيوعاً على مستوى العالم؛ وفي العديد من البلدان تمثل الشركات العائلية الركيزة الأساسية التي يقوم عليها الاقتصاد. (مولاي، 2013، صفحة 184).

خصائص الشركات العائلية

نستعرض في ما يلي أبرز خصائص الشركات العائلية التي تميزها عن الشركات غير العائلية:

- تأصيل مبدأ التخصص وتوارث الخبرات، حيث يستمر العمل في الشركات العائلية في نفس المجال الذي أنشئت له على أيدي المؤسسين، ثم تنتقل الخبرة إلى الأبناء، ويستمرّون في العمل وتنميته وتطويره.
- توفر الثقة المتبادلة بين الجمعية العامة والإدارة التنفيذية التي تسند عادة إلى أحد أفراد العائلة المالكة للشركة أو لغالبية رأسمالها، أو إلى أحد الأشخاص المرتبطين بها أو المنتمين إليها.

- الترابط والتلاحم بين أفراد العائلة نتيجة حرصهم على مصالح مشتركة، إذ يسود بينهم شعور بالانتماء إلى العائلة الكبيرة، مع إتاحة فرص عمل لغير أفراد العائلة المؤهلين.
- ارتفاع ثقة السوق في الشركة، وذلك نتيجة ما تتمتع به العائلة المالكة من سمعة طيبة، مما يوفر لها مزايا تفضيلية في عمليات البيع والشراء، وكذلك في توفير التمويل والائتمان اللذين تحتاجهما الشركة لتنفيذ مشروعاتها وأعمالها.
- قيادة الجانب الاجتماعي للوضع الربحي داخل تلك الشركات، حيث يسعى أصحابها إلى الظهور في مكانة اجتماعية كبيرة، تعبّر عن صورتهم الإيجابية في السوق والمجتمع، فيجعلهم يسعون إلى تعظيم الأرباح لتحقيق ذلك الهدف.
- استقرار الإدارة وآلية اتخاذ القرار نتيجة لعدم تعقّد الهيكل الإداري والتحرّر من إجراءات اللوائح.
- ارتفاع درجة الحماس بين أفراد العائلة لإنجاح الشركة.
- ظهور الصّراعات بين الأولويات الاقتصادية والأهداف العائلية، وتغلب المؤثرات العاطفية، مما يؤدي إلى ضعف جودة القرارات المتخذة (زيرق، 2019، صفحة 207).

وقد أكّد لنا السيّد موريّس قبّطي هذه الخصائص المميّزة للعمل ضمن الشركات العائلية، حيث صرّح خلال المقابلة التي أجريت معه (قبّطي، 2024)، بأنّ فكرة العمل بمجال صناعة المفروشات بدأت مع جدّه منذ العام 1995، ومن ثمّ طوّر فكرة هذا العمل والده، إلى أن دخل السيّد موريّس ميدان العمل مع أهله، وكان يتابع تعليمه في الوقت نفسه، وعندما بلغ مرحلة التّخصّص، اختار مجالاً يخدم هذا العمل، فتخصّص في «التّجارة والمحاسبة» بهدف متابعة عمل والده، على أن يتابعه ابنه في المستقبل؛ وكانت بداية العمل، حسب ما أفاد السيّد موريّس، مع الجدّ الذي امتنّ بتصليح وتثجيد المفروشات، أمّا والده فكان يقوم بشراء المفروشات المستعملة والقيام بتصليحها وتجديدها لإعادة بيعها، وعندما بدأ السيّد موريّس بالعمل معهم، عمد إلى توسعة مكان العمل بشراء محل إضافي كبير؛ ليفتتح غاليري باسم «مفروشات القبّطي» الذي تخصّص في

بيع الأثاث المنزلي والأدوات الكهربائية، مع الحفاظ على عمل الوالد في تجديد وصيانة المفروشات المستعملة.

من هنا، نرى أنّ تأصيل مبدأ التخصّص وتوارث الخبرات من أبرز خصائص الشركة العائلية، فهي تسهم في نقل وتطوير المعارف والخبرات والتجارب المهنية من جيل إلى آخر، وتدفع أصحاب العمل نحو التخصّص العلمي لإتقان أساليب وسبل تطوير العمل بشكل أفضل لإنجاحه وضمان استمراريته.

كما يسهم العمل ضمن شركة عائلية في تحقيق الاستقرار النفسي والرضا الوظيفي، وقد أكّد السيّد موريس ذلك، نظرًا إلى أنّ العمل يجري مع أشخاص نثق بهم ونرتاح لهم، فتزيد الثقة بالنفس والاطمئنان في مقرّ العمل، وتكون المصلحة واحدة والهدف واحد.

مراحل نموّ وتطور الشركات العائلية

عادة ما تمرّ الشركات العائلية بثلاث مراحل من التطوّر، تتميز بخصائص معيّنة؛ يمكن تلخيصها كالآتي:

■ مرحلة المؤسّس أو المؤسّسون

هي المرحلة الأولى لإنشاء الشركة العائلية، وتكون ملكية الشركة بالكامل للمؤسّس (المؤسّسون)، وقد يلجأ بعض المؤسّسين إلى استشارة عدد قليل من المستشارين الخارجيين و/أو رفقاء العمل، لكنّهم يتّخذون غالبية القرارات الرئيسة بأنفسهم؛ وتتسم هذه المرحلة بالتزام شديد من قبل المؤسّس بالعمل على تحقيق النجاح لشركته، كما تتسم بهيكل حوكمة بسيط. ولعلّ أهمّ تحدّي تواجهه الشركة العائلية في هذه المرحلة هي خطط انتقال الملكية؛ لأنّ اكتمال تطوّر الشركة إلى المرحلة التالية يحتمّ على المؤسّس اتخاذ الجهود اللازمة للتخطيط لانتقال الملكية، ولإعداد القائد التالي للشركة (التميمي، 2018، الصفحات 16-17).

وللنظر في مثال عمليّ حول كيفية تأسيس عمل ضمن شركة عائلية، أجرينا مقابلة مع السيّد «فاديا عمون» التي أشارت إلى أنّ فكرة عملها بدأت عام 1990، عندما مرّت العائلة بضائقة اقتصادية، فأرادت العمل لتحسين مستوى معيشتهم، فلجأت إلى الاستفادة من مستودع يمتلكه والدها، وعمدت إلى تجهيزه ليكون محل لبيع الخضروات،

نظرًا للخبرة التي امتلكتها في هذا العمل من خلال العمل مع أبيها الذي اعتاد أن يبيع معدات زراعية لمزارعي البلدة قبل التهجير؛ فبدأت السيدة فاديا العمل ببيع عدد قليل من المعدات الزراعية، ومع الوقت توسّعت تجارتها وأصبح المحل يتضمّن العديد من التجهيزات والمعدات الزراعية والصناعية... وقد ساعدها في العمل كلّ من زوجها وأولادها، وسيستلم قريبًا ابنها العمل عنها، خاصةً أنّه تخصصّ في مجال إدارة الأعمال؛ لتكون لديه القدرة على تطوير وتوسيع العمل مستقبلاً (عمون، 2024).

يمكن لنا أن نستنتج ممّا أوردته السيدة عمون، أنّ تأسيس شركة عائلية يحتاج إلى دافع قويّ وإصرار وصبر، بدءًا من ابتكار فكرة العمل والتّخطيط الجيّد لها، ثمّ الاستفادة من الموارد المتاحة لتنفيذ الفكرة والاجتهاد في تطويرها.

ويتّضح أنّ العمل في إطار شركة عائلية يضيف أجواء من الاتحاد بين أفرادها؛ وهذا ما يعني الانسجام غالبًا في أخذ القرارات، وفي تحديد المصلحة العامة المشتركة، والحرص على الحفاظ عليها؛ وهو ما يسمح أيضًا، بوضع المخطّطات وتنفيذ المشاريع من دون إضاعة الفرص والوقت، فيشعر أفراد الأسرة في هذه الحالة بالالتزام وبأهميّة الحفاظ على الشركة ومقدّراتها البشريّة والماديّة، والابتعاد قدر الإمكان عن كلّ ما يمكن أن يسبّب الخسارة في العلاقات وفي العمل.

■ مرحلة إشراك الأبناء (الجيل الثاني)

في هذه المرحلة، تنتقل إدارة وملكيّة الشركة إلى أبناء المؤسّس (المؤسّسون)، ونظرًا لانضمام مزيد من أعضاء العائلة إلى الشركة، فإنّ مشاكل الإدارة ستصبح معقّدة نسبيًا عمّا كانت عليه في المرحلة الأولى من إنشاء الشركة؛ ومن بين أهمّ التّحديات الشّائعة في هذه المرحلة، الحفاظ على التّجانس بين الأبناء، وتنظيف عمليّات وإجراءات العمل، وإرساء قنوات الاتّصال الفعّالة بين أعضاء العائلة، وتأمين خطّة انتقال المناصب الإداريّة الرئيّسة (غلاب، 2019، صفحة 252).

وقد شرحت لنا السيدة فاديا طنّوس كيفيّة تأسيس عملها في بلدة مغدوشة وافتتاح مطعمها، وكيفيّة انتقال العمل من أمّها إليها ثمّ إلى ابنها، خلال مقابلة أجريناها معها، حيث صرّحت أنّ أمها كانت تطبخ لبعض العائلات في الضيعة، خصوصًا في

المناسبات والأعياد، ومنذ العام 1993 بدأت تساعد والدتها في إعداد هذه المأكولات والحلويات، إلى أن أصبح لديها القدرة على افتتاح مطعم صغير، وتلبية عدد أكبر من الزبائن، وذلك بمساعدة زوجها وابنها الذي توجه لدراسة الفندقية؛ ليكون ملماً أكثر بأصول العمل وتطويره (طنوس، 2024).

إنّ الدافعية والاهتمام والرغبة إلى جانب الروابط العائلية القويّة تساعد الأبناء على اتخاذ قرار متابعة المسار المهنيّ للأهل، إذ يُخلَق لديهم حافز قوي لتطوير العمل بما يتناسب مع قدراتهم العلمية وإمكاناتهم الإبداعية. الأمر الذي يساعد على ضمان استدامة العمل العائليّ عبر انتقالها إلى الجيل التّالي.

■ مرحلة اتحاد الأقرباء (الجيل التّالث)

في هذه المرحلة تزداد تعقيدات حوكمة الشّركة مع تزايد انضمام أفراد العائلة في أعمالها، سواء بطريقة مباشرة أم غير مباشرة، بما في ذلك أبناء الأخوة وأبناء الأعمام والأصهار. ونظراً لانتماء كثير من هؤلاء الأفراد إلى أجيال وفروع مختلفة من العائلة، فقد تتباين أفكارهم بشأن كيفية إدارة الشركة ووضع استراتيجيتها العامة.

وعلاوة على ذلك، من المحتمل بدرجة كبيرة أن ينتقل أيّ صراع كان قائماً بين الأخوة في المرحلة السابقة إلى جيل أبناء العمومة أيضاً؛ ونتيجة لذلك، تتطوي هذه المرحلة على معظم قضايا الحوكمة العائلية. ومن أكثر القضايا المعروفة التي تواجهها الشركات العائلية في هذه المرحلة: توظيف أفراد العائلة، وحقوق المساهمين من العائلة، وتسييل الأسهم، وسياسة توزيع الأرباح، ودور أفراد العائلة في الشّركة، وفضّ المنازعات في العائلة ورؤية العائلة ورسالتها (مولاي، 2013، صفحة 188).

وللوقوف عند عمل الأقرباء مع بعضهم، عمدنا إلى إجراء مقابلة مع السيّد «جورج يونان» صاحب سوبر ماركت، في بلدة مغدوشة، وقد أطلعنا على تاريخ عمله في السوبر ماركت حيث قال: استلمت عملي في السوبر ماركت من أبي الذي ورثه عن جدي، حينها كان المحلّ غرفة صغيرة، لم أكن صراحة بوارد استلام هذه المصلحة، فأنا كنت أدرس اختصاصاً احبّه وأسعى إلى السّفر خارج لبنان، ولكن مع الجهد في تطوير العمل وتنظيمه، قمت بشراء محلّ ملاصق للمحلّ، بهدف التوسيع والتّطوير كلما

استطعت. هذه المصلحة كان يعمل فيها ثلاث أسر من العائلة، وكل واحد منهم يعرف دوره ضمن قسم معيّن خلال وقت محدّد.

حقّقت هذه المصلحة الكثير، كالرفاهية العالية لي ولعائلي، وللعائلات التي تعمل معي أيضًا؛ حاليًا، أدير المحلّ بكلّ جوانبه، وأؤمن طلبات كلّ الزبائن، وبفعل التعاون والشرّكة مع أقاربي، خاصّة مع تحديد مهامّ كلّ شخص، واحترامنا لآراء الجميع ولأفكارهم ولتطلعاتهم في ما يخص السوبر ماركت، بتنا مقصدًا للجميع وزاد نجاحنا» (يونان، 2024).

نستنتج هنا، أنّ عمل عدد من أفراد العائلة الواحدة يساعد على تخطّي العقبات، ويسهم في إنجاز العمل بشكل أسرع وأسهل، لمعرفة أفراد العائلة بقدراتهم وطاقاتهم ومواهبهم ومدى قدرتهم على العمل في مجال ما، فضلًا عن الطّباع والصفّات التي يتسمون بها على المستوى الشّخصي، ما يسهّل أمر توزيع المهمّات والحصول على أفضل النتائج وتحقيق الأهداف، إذ إنّ نجاح الشّركات العائليّة لا يقوم فقط على الأرباح الماليّة التي تكسبها إنّما على القيمة المضافة التي تحقّقها للمستثمرين، وهم عادة أفراد العائلة، فنجاحها يقوم على مدى قدرتها على خلق قيمة اقتصادية وتنافسيّة جيّدة في السوق، وما تحقّقه أيضًا من قيمة مضافة اقتصادية لأفراد العائلة.

إيجابيّات وسلبيّات العمل في الشّركات العائليّة

لا بدّ لنا من تحديد أبرز إيجابيّات وسلبيّات العمل في الشّركات العائليّة، خاصّة في ما يتعلق ببيئة العمل والعاملين والإجراءات الإداريّة:

■ الإيجابيّات

يحب الكثير من الاشخاص العمل في شركة عائليّة، فهذا يسمح لهم تحقيق العديد من الطّموحات، ويتيح حرية أخذ القرار، ويساعد على بلوغ تطور أكبر من ذلك الذي يتحقّق من خلال الوظيفة التقليديّة، وتضاف الى هذا عدد من الفوائد الأخرى:

- يوفرّ العمل في إطار شركة الأسرة أجواء من الاتّحاد بين أفرادها؛ وهذا ما يعني الانسجام غالبًا في أخذ القرارات، وفي تحديد المصلحة العامّة المشتركة والحرص على الحفاظ عليها، وهو ما يسمح أيضًا بوضع المخطّطات وتنفيذ المشاريع من

دون إضاعة الفرص والوقت.

- في هذه الحالة، يشعر أفراد الأسرة بمسؤولية وحرص تجاه الحفاظ على الشركة ومقدّراتها البشريّة والماديّة، ويسعون إلى الابتعاد قدر الإمكان عن كلّ ما يمكن أن يسبّب خسائر، سواء على المستوى الماديّ أو في العلاقات. ولهذا، فإنّهم لا يضيّعون الوقت، ولا يهدرون الطّاقة، ولا الوسائل، من دون الحصول على نتيجة مرضية.

- في الظروف الصّعبة، يمكن لاتّحاد أفراد الأسرة أن يساعد على إيجاد الحلول الفضلى للمشاكل، وأن يعيّن على مواجهة التّحدّيات، وتخطّي المعوّقات، واجتياز الحواجز.

- في حال العمل ضمن الشركة العائليّة، يعرف كلّ من أفراد الأسرة قدرات الآخرين وطاقاتهم ومواهبهم ومدى قدرتهم على العمل في مجال ما، فضلاً عن الطّباع والصفّات التي يتّسمون بها على المستوى الشّخصيّ؛ فيصير توزيع المهمّات أمراً سهلاً وفعّالاً، كما أنّه يسهّل الحصول على أفضل النّتائج وتحقيق الأهداف؛ وفي هذه الحالة يشعر الأفراد العاملون ضمن الشركة بالراحة النّفسيّة، فيضمن تعزيز القدرة على العطاء والإبداع، كما أنّه يشجّع على تقديم الأفكار الخلاقة والفريدة.

■ السّلبيّات

على الرّغم من الإيجابيّات الكثيرة التي يمكن أن ينطوي عليها العمل ضمن المؤسّسة العائليّة، من الممكن أن يؤدّي هذا في المقابل إلى ظهور بعض السّلبيّات:

- بحكم التقارب بين أفراد الأسرة الواحدة من الممكن أن تشهد أجواء العمل بعض المشادّات؛ والسّبب أنّهم يعملون كأنّهم في المنزل.

- في حال استقْدَم موظّفون من خارج دائرة العائلة، قد يسعى بعض أفرادها إلى منافسة هؤلاء من أجل إثبات تفوّقهم كمالكين ومؤسّسين، وهو ما قد يشيع أجواء من التّوتّر وعدم الارتياح.

- قد يستغل بعض أفراد الأسرة صلاحيّاتهم ويفرضون آراءهم ووجهات نظرهم بطريقة تعسفيّة؛ وفي هذه الحالة من الممكن أن يطلبوا مثلاً من الموظّفين الآخرين القيام

بمهمات غير مفيدة، أو لا تصبّ في مصلحة العمل العامة، أو تؤدّي إلى نتائج غير مرضية.

- قد لا يتمكّن كلّ أفراد العائلة من الفصل بين حياتهم الأسرية وتلك المهنية، ومن الممكن أن ينقلوا بعض هواجسهم الخاصة إلى المكتب أو المؤسسة، وهو ما قد يؤثر سلباً على حسن سير العمل.
- من الضروري في المقابل أثناء العمل في شركة عائلية عدم نقل المشاكل المهنية الى المنزل؛ وهكذا يمكن من الشعور بالتوازن والارتياح على المستوى النفسي، فيضمن تقديم أداء مهنيّ وأسري مميّز في الوقت نفسه. (دياب، 2020)

الحوكمة

لا بدّ للجيل الأوّل والثاني للشركة العائلية التي يرغب أفرادها وأعضاؤها -بغضّ النظر عن حجمها- أن يحدّدوا الأولويات، إمّا الرغبة في الاستمرار والنموّ ضمن الشكّل التلقائيّ الشفاف عبر الروابط العاطفية والأسرية، وبالتالي احتمال انقسام الشركة في جيلها الثالث قد يكون وارداً بقوة، وإمّا التطوير المحكم المعتمد على قوانين ودستور ينظّم علاقات أفراد العائلة المالكين والإداريين، وبالتالي احتمال استمرارها وتطورها في النجاح هو الاحتمال الأرجح، وهو ما نطلق عليه بالحوكمة.

- إنشاء مجلس إدارة عائليّ مصغّر مؤلّف من الأفراد الذين يديرون العمل فعلياً وممّن لا يديرونه؛ لكنهم يملكون حقوقاً في الشركة؛ ولهذا من الأهميّة تعزيز مبدأ المشاركة في التخطيط واتّخاذ القرارات الاستراتيجية، الذي يعزّز الشفافية، ويسهم في الابتكار.
- خلق دستور عائليّ قانونيّ يعزّز مبدأ التّوّاب والعقاب في الإدارة والمحاسبة، ضمن الأطر الإدارية التي تعمل على إضفاء روح المبادرة والتّقاني والإخلاص والابتعاد عن الأنانيّة الفرديّة، وتعزيز رويّة فريق العمل.
- تعيين خبير أو عضو مجلس إدارة من خارج العائلة ذي كفاءة معيّنة، وصوت ترجيحيّ في اتّخاذ القرارات الهامّة التي قد تكون محلّ خلاف أو اختلاف بين أفراد العائلة، بحيث يكون هذا الخبير مؤهّلاً إمّا أكاديمياً أو بالخبرة العمليّة، قادراً على حسم الخلاف.

- التركيز على المصلحة العامة للشركة، وليس على المصالح الشخصية التي من شأنها خلق منازعات للانقسام وتشتيت تطبيق الاستراتيجية بالشكل الصحيح، وبالتالي رفع الكلفة الانتاجية، وخفض القيمة المعنوية والفكرية (مغنية، 2020).

الشركات العائلية في لبنان... تاريخياً

تأسست هذه الشركات في مجتمع نعدّ فيه عوامل التغيير سريعة، وكذلك عايشت هذه الشركات حروباً وحوادث أمنية، وأزمات اقتصادية مختلفة في تأثيراتها، حسب موقع الشركة وقربها الجغرافي من مناطق التماس أو ساحة القتال. ويعود تاريخ تأسيس بعض هذه الشركات إلى العام 1857، ومعظم الشركات العائلية التي تأسست في نهاية القرن التاسع عشر، غلب عليها الطابع الحرفي والبساطة في بدايتها، إلا أنها وعلى الرغم من نشأتها الحرفية العائلية الخاصة، تمكّنت عن طريق التوارث التقليدي أن تنتقل عبر الأجيال، وقد مكّنتها مواكبتها للحدثة وإتقانها لفن الإدارة العصرية والتطور التكنولوجي، مع فخرها بتاريخ تأسيسها العريق، أن تتجدّد منذ تأسيسها في الخمسينيات مع الحفاظ على طابع التوريث الذكوري، خاصة لمن كان يؤدي أدواراً حيوية فيها (شريف، 2017). وهناك العديد من الشركات العائلية اللبنانية المعروفة التي نجحت وتناقلتها الأجيال؛ وبعض هذه الأعمال تشمل (الشركات العائلية اللبنانية المعروفة، 2024):

- خوري وأولاده: تأسست عام 1890، هي واحدة من أقدم شركات المجوهرات وأكثرها احتراماً في الشرق الأوسط.
- مجموعة فنادق سيدار: تأسست هذه المجموعة الفندقية المملوكة عائلياً عام 1953، وتدير عدّة فنادق فاخرة في لبنان وحول العالم.
- مجموعة منصور: تأسست عام 1960، ولها مصالح في صناعات مختلفة مثل السيارات والأدوية والأعمال التجارية الزراعية.
- صعب وشركاه: تأسست عام 1966، هي إحدى شركات البناء والهندسة الرائدة في لبنان.
- مجموعة سكيك: تأسست هذه الشركة العائلية في عام 1947، ولها مصالح في مختلف الصناعات؛ مثل: العقارات وتجارة التجزئة.

هذه مجرد أمثلة قليلة عن العديد من الشركات العائلية اللبنانية الناجحة التي صنعت لنفسها اسمًا في مختلف الصناعات.

الشركات العائلية اللبنانية بعد الأزمة الاقتصادية

على الرغم من مضي أكثر من أربع سنوات على الانهيار النقدي والمالي والاقتصادي، فإن القطاع الخاص الذي تشكّل الشركات العائلية حوالي ٨٥ % من مجموع عامّ الشركات العاملة فيه، ما زال لبنان واقتصاده صامدان بفضلها بعد أن تأقلمت مع التطوّرات الحاصلة، خصوصًا على صعيد الدولار والتقلّبات الحادة في سعر الصرف.

وعلى الرغم أنّها شركات تعتمد على العائلة وتعاقب الأجيال في نظامها، إلّا أنّها تؤدّي دورًا مهمًا في الاقتصاد والمجتمع وفي مدّ الخزينة اللبنانية بالإيرادات المطلوبة لتحقيق التّموّ المستدام وتأمين فرص العمل وتبديد شبح البطالة عن شبابنا الخريجين، إذ إنّ 85% من الشركات في لبنان هي شركات خاصّة، تشكّل الشركات العائلية نسبة 95% منها، أي أنّ 90% من المؤسسات الخاصّة هي مؤسسات عائلية (فهد، 2024).

إنّ نجاح الشركات العائلية لا يقوم فقط على الأرباح المالية التي تكسبها إنّما على القيمة المضافة التي تحقّقها للمستثمرين، وهم عادة أفراد العائلة، فنجاحها يقوم على مدى قدرتها على خلق قيمة اقتصادية وتنافسية جيّدة في السوق، وما تحقّقه أيضًا من قيمة مضافة اقتصادية لأفراد العائلة أو المستثمرين.

وقد تأثرت شركات القطاع الخاص سلبيًا بالأزمة الاقتصادية التي حلّت على لبنان، ولا سيّما تلك الصّغيرة التي ما استطاعت المقاومة، واضطّرت إلى الخروج من السوق، حيث ارتفعت الكلفة والمصاريف، فصارت المؤسسات الخاصّة تعاني الأمرين، وتراجعت المبيعات بفعل التّخبط داخل السوق، وبفعل التّلاعب السّريع في أسعار الصّرف، فخسرت بعض الشركات رأسمالها، وبعضها الآخر خسر جزءًا كبيرًا منه؛ ومن استطاعت التّأقلم وتدبّرت أمورها بقيت في السوق مستمرة لكن بصعوبة.

دور الشركات العائلية في التنمية الاقتصادية

قامت الشركات العائلية، ولا تزال، بدور كبير في التنمية الاقتصادية الوطنية للبلدان التي تنتمي إليها، ولم يقلّ هذا الدور حتّى في الدّول المتقدّمة صناعيًا، ذات الشركات

الضّخمة!

تمثّل الشّركات العائليّة مكانةً كبيرةً في اقتصاديّات الكثير من دول العالم، بغضّ النظر عن تنوّع النّهج الاقتصاديّ لهذه الدّول، ومكانتها على خريطة الاقتصاد العالميّ، وتتنّح هذه المكانة من خلال ما تقوم به من دور مهمّ في عمليّة التّثميّة البشريّة، وتسهم في العمل على الحدّ من مشكلة البطالة؛ وتعمل - عبر التّوسّعات في الأعمال والتّطوير المستمرّ - على زيادة عدد الوظائف المتاحة، وهذا الدّور يمثّل قيمة اقتصاديّة واجتماعيّة كبيرة للمجتمع ككلّ؛

وعلى الرّغم من كلّ ذلك نجد أنّ هذا الدور الكبير والمهمّ الذي تقوم به هذه الشّركات، لا يسلم من وجود نقص مهمّ وخطير يتعلّق بالشّركات العائليّة ذاتها! ألا وهو إمكانيّة عدم استمراريّة هذه الشّركات؛ حيث إنّ من ضمن خصائصها أنّ عامل السلوك الإنسانيّ والطّبيعة البشريّة قد يغلب على قرارات هذه الشّركات في أوقات كثيرة، وقد ينتج عن مثل هذه القرارات المتأثّرة بعامل السلوك الإنسانيّ عدم الأخذ بوسائل الإدارة الحديثة، وعدم الاستفادة من الخبرة من خارج نطاق العائلة، أو عدم الأخذ بمبدأ التّدريب المستمرّ للعاملين المنتمين لهذه الشركة، أو عدم الأخذ بالوسائل التكنولوجيّة الحديثة في تطوير منتجات الشركة، تحت حجة تقليل التّفقات! ممّا قد يعرّض هذه الشّركات إلى عدم مواكبة مثيلاتها، وعدم قدرتها على المنافسة، مفضيًّا في النّهاية إلى انهيارها وخروجها من السّوق! (عيسى، 2007).

ولتأكيد دور الشّركات والمصالح العائليّة في التّثميّة الاقتصاديّة المحليّة، أجرينا مقابلة مع السيّد «إلياس قسطنطين»، صاحب شركة «إلياس للمنتوجات الزراعيّة»، وهو في الأصل مزارع من بلدة مغدوشة، عمل منذ الصّغر مع عائلته وأقاربه في تقطير زهر اللّيمون، وورث خبرته في مجال عمله من جدّه وأبيه، فأهالي منطقة مغدوشة مشهورون بتقطير ماء الزّهر، فهذه المنطقة من المناطق الغنيّة بشجر اللّيمون «أبو صفيّر».

تابع السيّد إلياس العمل في تقطير الزّهر وازدهرت تجارته، ولم يكتف بما تقدّمه أرضه من محصول، فصار يضمن أراضي إضافية لزيادة الإنتاج بما يتناسب مع الطّلب، إذ زاد الطلب على إنتاج ماء الزّهر من خارج البلدة، ومع محافظته على الطّريقة التّقليديّة في التّقطير -أي على الحطب- عمد إلى توسعة مكان العمل، واستخدام عدد أكبر

من المعدّات المتطوّرة الخاصّة بتقطير ماء الزهر وماء الورد، وعمل بمجال استثمار الأراضي حسب المواسم، مثل: كروم العنب والزيتون والسّمّاق وغيرها وبيع منتجاتها.

لا يعمل السيّد إلياس وحده، بل يساعده جميع أفراد عائلته في المواسم على القطاف والنّقطير وفي بيع هذه المحاصيل وتوزيعها على الزبائن، وتقوم العائلة الكبرى كالأصهرة وأولاد العمّ وغيرهم على تسويق المحصول وبيعه في بيروت؛ وبذلك، تعناش أربع عائلات من خلال العمل مع السيّد إلياس. (قسطنطين، 2024).

إنّ بيع ما تنتجه شركة السيّد إلياس لا يتوقّف عند حدود بلدة مغدوشة، بل يتعدّاه إلى البلدات والمدن المجاورة، كما أنّ منتجاته صارت مقصدًا للزوّار والسّوّاح والزبائن ممّن يطلبون شراء ماء الزهر وماء الورد تحديدًا.

من هنا، نرى أنّ نجاح وتطوير واستمراريّة عمل الشركة لم يعد بالفائدة فقط على عائلة صاحب الشّركة والعوائل العاملة معه، بل تعدّاه إلى تحقيق استثمارات في الأراضي لتقيد أبناء البلدة وتنمية القطاع الزراعي والتّجاريّ فيها.

التّجربة اللّبنانيّة للشّركة العائليّة

استنادًا إلى الدّراسة التي أجرتها الدّكتورة «منى شريف البزن» للحصول على درجة الدّكتوراه من الجامعة اللّبنانيّة بعنوان: «الشّركة العائليّة: انتقال السّلطة من جيل إلى جيل» عام 2016، أي ما قبل الأزمة الاقتصاديّة، يمكن لنا الاستفادة من بعض ما ورد فيها، للوقوف عند واقع التّجربة اللّبنانيّة للشّركات العائليّة، وقد توصّلت إلى أنّ الشّركات العائليّة باتت تستوعب 75 % من أبنائها وأحفادها في التّوظيف مقارنة بـ 20 % منذ ثلاثة أو أربعة عقود؛ ذلك لأنّ المفاهيم التي كانت تحكم العمل وتربطه بمفهوم الدّكورة وتلغي دور المرأة في الشّركات العائليّة انقرضت سريعًا، وتغيّرت المفاهيم الأسريّة والنّظرة التّقليديّة لجهة دخول المرأة ميدان العمل، وكذلك مفهوم أولوية الابن الأكبر الذي تحوّل إلى مفهوم من يمتلك المعرفة والمقدرة وحسّ المسؤوليّة أكثر من غيره، بمعنى أنّه لم يعد العمر يعني لأفراد العائلة سوى كونه رقمًا لا أكثر، ونموّ وتوسّع حجم الشّركة العائليّة بات يعدّ عامل جذب يحظى باهتمام جيل الشّباب في العائلة.

كما أنّ جميع الأقسام تُدار من قبل أفراد من العائلة يمتلكون الكفاءة والشّهادات المتخصصةّة في مجالاتهم، حيث صار لدى الشركة مديرون متخصصون في الهندسة الصناعية، والإدارة الماليّة، وفي المحاسبة وإدارة الأعمال والتسويق أيضاً. وقد بلغت نسبة أبناء العائلة الذين يشغلون المراكز الإداريّة نحو 76 %، خاصّة مع زيادة التعقيد الإداري في الشركات الكبرى التي تتطلّب مزيداً من الاختصاصيين من أبناء العائلة.

ويرتبط مؤشر الأجر في الشّركة العائليّة بدلالات ذات معنى على مستوى الفاعلين من أبناء العائلة، إذ إنّ المساواة في الأجر تختلف عن التّساوي في الأرباح التي تتطلّب مراعاة الأقدميّة في العمل.

وتختلف معايير الأجر لأبناء العائلة من شركة إلى أخرى، إذ إنّ بعضهم يميّزون بين من انضمّ حديثاً بعد تخرّجه، وبين من عمل لسنوات، وتبدو هذه المعايير عادلة من وجهة نظر الإدارة. أما في الحالات التي تغلب فيها المؤثرات العاطفيّة وتُفرض فيها المساواة، فإنّها تنتج شعوراً بالامتناع والانعراج بين الأبناء، الأمر الذي ينتج عنه انخفاض مستوى الأداء عند أبناء العائلة ونزاع مستتر لا يلبث أن يطفو على السطح عند أول تصادم، ما يفصح عن بداية حدوث النزاعات.

وقد أظهرت البيانات أنّ نسبة التّساوي في الأجر بين أفراد العائلة داخل الشّركات العائليّة اللّبنانيّة تصل إلى 62.5 %، فيما تُربط الأجور بالمهارة بنسبة 66.8 %، وتوزّع الأرباح بالتساوي بنسبة 70.4%.

إنّ المعطيات الإحصائيّة السّابقة، على الرّغم من كونها تعود إلى عام 2016، أي ما قبل الأزمة الاقتصاديّة، إلّا أنّها قدّمت تصوّراً عامّاً حول واقع التّجربة اللّبنانيّة للشّركات العائليّة، لا سيّما في ظلّ غياب الدّراسات الحديثة حول واقع الشّركات العائليّة في لبنان وانعكاس الأزمة الاقتصاديّة عليها.

دور الشّركات العائليّة اللّبنانيّة في التّنمية المحليّة

في لبنان، تؤدّي الشّركات العائليّة دوراً مهمّاً في دعم المجتمع وتنمية الاقتصاد المحليّ، حيث تقوم بالعديد من المشاريع الخيريّة والاستثماريّة التي تعزّز التّنمية الاجتماعيّة والاقتصاديّة للمنطقة القائمة فيها.

ومثال على هذه المشاريع، المشروع الذي قامت به السيّدة كريستي خوري، مع الإشارة إلى أنّ تنفيذ الفكرة بدأ مع والدتها، إذ كانت تمتلك قطعة أرض في بلدة مغدوشة مطّلة على البحر، فقررت القيام بمشروع (كافيه - صيفي)؛ ومن أجل تحسين المشروع، خضعت لدورات عديدة مع الجمعيات لكسب الخبرة، كتعلّم إدارة مشاريع صغيرة بغية إدارة المشروع بشكل أفضل، وتخصّصت ابنها السيّدة كريستي بمجال إدارة الأعمال والمشاريع ثم بدأت العمل مع والدتها، واستقطب المقهى العديد من الزبائن من القرى القريبة والبعيدة، وكان تهافت النّاس وسرورهم بالمقهى حافزاً للعمل باستمرار على تطويره وتحسينه وتوسيعه بشكل مستمر.

وعندما تخرّج أخوها (رامي) من كلّية الهندسة، عمد إلى توسعة المقهى وإضافة الديكورات؛ ليصبح مكاناً خاصّاً بإحياء المناسبات الاجتماعية كالأعراس والأعياد والسّهرات، وتمّ افتتاح مطعم لتقديم الوجبات والمأكولات البحريّة (خوري، 2024).

تدير السيّدة كريستي العمل إلى جانب أمها وأخيها، ويتقاسم الثلاثة المهام الرئيسة، كالإشراف على تحضير الطّعام وتقديمه، ومتابعة التّجهيزات الكهربائيّة والإضاءة، ومتابعة الزبائن وتنسيق الحجوزات، والإدارة الماليّة... بالإضافة إلى عدد من العاملين من العائلة.

إنّ مشروع السيّدة كرسّتي الذي بدأ مع والدتها كمقهى صغير، تطوّر بفضل تضافر جهود العائلة وكفاءتهم العلميّة والمهنيّة؛ ليصبح مطعمّاً وصالة، يستقطب الزوّار اللبنانيين من مختلف البلدات والمناطق اللبنانيّة، ويقصده السّواح بفضل متابعة التّسويق له عبر وسائل التّواصل الاجتماعيّ.

إنّ الجهود المبذولة من قبل العائلة أسهمت في تحويل موقع المطعم إلى منطقة ذات طابع سياحيّ، وتنشيط الحركة التجاريّة في الأسواق المجاورة لها؛ وبالتالي، فإنّ خصوصيّة الشّركة العائليّة القائمة على التّكاتف والتّعاون والتّضحيات بين أفراد العائلة، بوصفها عاملاً أساسيّاً في تحقيق النّجاح والتّطوير والاستمراريّة، كما تؤدّي دوراً فاعلاً في تحقيق التّنمية المحليّة وتنشيط القطاعات الإنتاجيّة والخدميّة.

أسباب فشل استمرار الشركات العائلية

الهدف الرئيس لأي شركة عائلية عند القيام بالتخطيط للتعاقب هو ضمان الانتقال السلس للثروة والكيان التجاري من جيل لآخر، مع الحفاظ على الانسجام الأسري وتحقيق الإدارة المثلى للشركة، ومع ذلك تفشل الكثير من الكيانات التجارية والاستثمارية العائلية في التخطيط لهذا التعاقب؛ لاعتمادها على نهج تقليدي غير مدروس، عوض العمل على إنجاز هذه المهمة بشكل مستمر على المدى الطويل، ومن بين أهم أسباب فشل استمرارية الشركات العائلية عبر الأجيال:

- عدم استيعاب الأجيال الجديدة لرسالة الشركة ورؤيتها، إلى جانب انهيار الثقة والتواصل داخل الأسرة.
- عدم إعداد الجيل الجديد لتولي المسؤوليات الإدارية في الشركة.
- الإهمال المهني من الجيل الجديد.
- عدم الاستفادة من القدرة على دمج الخبرات المهنية للجيل السابق مع التحصيل العلمي للجيل الجديد.

خلاصة عامة

أثبتت الشركات العائلية أنها عصب الاقتصاد اللبناني، لا سيما في ظل الظروف الاقتصادية التي مرّ بها لبنان؛ فقد أظهرت نتائج المقابلات التي أجريت مع عدد من أصحاب هذه الشركات أن أداء المؤسسات العائلية قوي، ويعود ذلك إلى الترابط القوي بين أفراد العائلة الذي يخلق التزاماً عالياً وأداءً فعالاً يدفع المؤسسة نحو الاستمرار والنجاح، وهو ما يميزها عن باقي الشركات الخاصة.

تؤدي الشركات العائلية دوراً مهماً في تأمين فرص عمل لأفراد العائلة المالكة وللعدد كبير من أفراد العائلة الكبيرة، وتسهم في تحسين مستوى معيشتهم وتحقيق الاستقرار الاجتماعي لهم.

يتيح العمل في الشركات العائلية الفرصة لأفراد العائلة في تحقيق التنوع التخصصي لهم؛ وبالتالي يكون لكل فرد منهم دور في إنجاح العمل وتطويره.

تسهم الشركات العائلية في تحقيق الاستثمار الفعّال للممتلكات، كالأراضي الزراعيّة والمحالّ والمخازن، من خلال تضافر جهود أفراد العائلة مجتمعين في الأعمال الزراعيّة والصنّاعيّة والتّجاريّة، كالعمل في قطاف المواسم الزراعيّة، وبيعها في الأسواق، أو تحويلها إلى منتجات استهلاكيّة.

إنّ عمل بعض العائلات ضمن مجال محدّد، كصناعة الصّابون، وصناعة المونة المنزليّة، وتحضير الألبان والأجبان... ساعدها على إنشاء شركات عائليّة، تشتهر ببيع منتجاتها ضمن مواصفات مميّزة، فجعلها مقصدًا للسّياح وللبنانيين من مختلف المناطق، فأسهم ذلك في تنشيط السّياحة الدّاخلية والخارجيّة.

إنّ عمل الشركات العائلية على الرّغم من أهمّيّته ودوره في تحقيق التّمية في مختلف القطاعات قد يتوقّف، فاستدامة الشركات العائلية وانتقالها لأجيال متعاقبة، يحتاج إلى التّخطيط والمتابعة والتّطوير الإداريّ والتّنفذيّ، مع وجود النّقة والشفافيّة والتّواصل بين أفراد العائلة العاملين، بالإضافة إلى استمرار الدّافعيّة لدى المالكين الجدد في الحفاظ على العمل وتطويره.

المراجع

1. الشركات العائلية اللبنانية المعروفة. (2024). تم الاسترداد من إجابة: <https://www.ejaba.com/question>
2. الميثاق الاسترشادي. (2018). الميثاق الاسترشادي للشركات العائلية السعودية، وزارة التجارة والاستثمار. تم الاسترداد من <https://maaal.com/wp->
3. الياس قسطنطين. (21 نيسان، 2024). العمل ضمن شركة عائلية. (الباحثة، المحاور)
4. أيمن عمر. (2024). مآل الاقتصاد اللبناني بين الأزمة المالية وأعباء المواجهات جنوبًا. تم الاسترداد من <https://studies.aljazeera.net/ar/article/5859>
5. بيار الحايك. (22 نيسان، 2024). العمل ضمن شركة خاصة كاسكافي. (الباحثة، المحاور)
6. جورج يونان. (12 نيسان، 2024). العمل في شركة ذات طابع عائلي. (الباحثة، المحاور)
7. جوزيان فهد. (8 نيسان، 2024). الديار. تم الاسترداد من [Leb economy: https://](https://Leb economy.com/)
8. رامي عبيد، المصطفى بنتور، و الوليد طلحة. (2020). حوكمة الشركات العائلية في الدول

- العربية. أمانة مجلس محافظي المصارف المركزية ومؤسسات النقد العربية، صندوق النقد العربي.
9. رندة الدبل. (2013). تقييم الشركات العائلية. عمان: دار البازوري.
10. ريكاردو حصري. (2024). الشركات العائلية تشكل ٨٥ في المئة من شركات القطاع الخاص. تم الاسترداد من / Lebanon Economy: <https://lebanoneconomy.net/>
11. سناء دياب. (أكتوبر، 2020). العمل في شركة عائلية بين الايجابيات والسلبيات. تم الاسترداد من الجميلة: <https://www.aljamila.com/node/>
12. سوسن زريق. (2019). أهمية حوكمة الشركات في ادارة النموذج الثلاثي للشركات العائلية. مجلة مينا للدراسات الاقتصادية.
13. عبد الإله الشهراني، لؤي مختار، و عبد الله المشرف. (2021). تطور الشركات العائلية في السوق المالية السعودية. السعودية: هيئة السوق المالية.
14. علم الدين بنقا. (2023). دور الشركات العائلية في التنمية المستدامة في الدول العربية. سلسلة دراسات تنمية، المعهد العربي للتخطيط بالكويت.
15. علي أحمد مغنية. (مارس، 2020). الشركات العائلية بين مطرقة الإدارة وسندان الملكية. تم الاسترداد من الملف الاستراتيجي: <https://strategicfile.com/>
16. فاتح غلاب. (2019). إشكالية التحكم في استدامة الشركات العائلية من منظور حوكمة الشركات دراسة تحليلية. الجزائر: مجلة التنمية والاقتصاد التطبيقي، جامعة المسيلة.
17. فاديا طنوس. (17 نيسان، 2024). العمل ضمن شركة عائلية. (الباحثة، المحاور)
18. فاديا عمون. (17 نيسان، 2024). العمل ضمن شركة عائلية. (الباحثة، المحاور)
19. كريستي خوري. (5 نيسان، 2024). العمل ضمن شركة ذات طابع عائلي. (الباحثة، المحاور)
20. لخضر عبد الرزاق مولاي. (2013). حوكمة الشركات العائلية، ملتقى دولي: آليات حوكمة الشركات ومتطلبات تحقيق التنمية المستدامة. الجزائر.
21. محمود حسين عيسى. (2007). الشركات العائلية ودورها في التنمية البشرية والاقتصادية. تم الاسترداد من الألوكة الثقافية: <https://www.alukah.net/culture/0/668/>
22. منى محمد شريف. (2017). الشركة العائلية: انتقال السلطة من جيل إلى جيل. لبنان: أطروحة دكتوراه، الجامعة اللبنانية، بيروت.

23. مورييس قبّطي. (18 نيسان، 2024). العمل ضمن شركة عائلية. (الباحثة، المحاور)
24. نبيل فهد. (2018). الترتيبات والاجراءات التي يجب اتخاذها لضمان حسن انتقال الشركات العائلية من الجيل الى الجيل، غرفة بيروت وجبل لبنان بالتعاون مع جمعية خريجي جامعة HEC - باريس. تم الاسترداد من بوابة تمكين النساء اقتصاديا: <https://www.weepor-tal-lb.org/ar>
25. نعيم شبانة التميمي. (2018). الشركات العائلية في محافظة الخليل: المشكلات وسبل التطوير. فلسطين: رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة الخليل.
26. Eugster, N. (2019). Founding family ownership, stock market returns, and agency problems. Retrieved from Journal of Banking & Finance: <https://www.sciencedirect.com/science/article/abs/pii/S0378426619301670>
27. IFC. (2012). International Finance cooperation (IFC), 2012 «IFC Family Business Governance Handbook». Retrieved from <https://www.ifc.org/wps/wcm/connect/2c93b2cb-dec6-4819ffb-60335069cbac/FamilyBusinessGovernanceHandbook.pdf?MOD=AJPERES7CVID=mskqtDE>
28. PWC. (2012). Family Business survey, Family firm: A resilient model for the 21st century. Retrieved from <https://www.pwc.com/gx/en/pwc-family-business-survey/assets/pwc-family-business-survey-2012.pdf>
29. PWC .(2021) .Middle East Family Business Survey 2021,Diversifying ,investing ,digitising.

المحاور الرومانسية في الشعر العالمي

Romantic themes in Amil poetry

علي خليل جعفر¹

Ali Khalil Jaafar

تاريخ القبول 2025 /4/29

تاريخ الاستلام 2025 /4/1

الملخص

يتناول البحث أثر المدرسة الرومانسية في الشعر العالمي بعد ظهورها في أوروبا، فكان الإنسان ضحيتها، ما خلف لدى الأدباء حالة من الضيق بين ما تأمل النفس وما تستطيع، ودور الترجمة في نقل هذا الأثر عن الأدب الأوروبي، في حين كانت البيئة العربية والوطنية مهياة للبعث والتغيير. ومن ثم دراسة المحاور الرومانسية في الشعر العالمي، والسير نحو الحداثة والتجدد لدى بعض الشعراء العالميين في حقبة تاريخية معينة.

الكلمات المفتاحية: دور الترجمة – الاغتراب والألم – الحب والمعاناة – الطبيعة – الثورة والحريّة – نحو الحداثة

Abstract

This research examines the impact of the Romantic school on Amil poetry after its emergence in Europe. Man was its victim, leaving writers feeling a sense of distress between what the soul hopes for and what it can achieve. It also examines the role of translation in conveying this influence from European literature, at a time when the Arab and national environment was ripe for revival and change. The research then examines the Romantic themes in Amil poetry and the path toward modernity and renewal among some Amil poets during a specific historical period.

Keywords: The Role of Translation – Philosophy of Pain – Love and Suffering – Nature – Revolution and Freedom – Towards Modernity

1 - طالب مرحلة الدكتوراه النهائية، اللغة العربية وآدابها، الجامعة الإسلامية، خلدو - بيروت.

أولاً:

1- المقدمة

لكل أمة أو مجموعة بشرية خصوصية، لها فنونها وآدابها، لكنّها خصوصية مفتوحة على تجارب الآخرين حتى لا تجفّ أو تموت. وهذا لا يتحقّق عن طريق تصيّد الأشكال العالمية أو الإبداع في إطارها. وإنّما هو وعي المحليّة نفسها وعياً إنسانياً والنّفاذ إلى أعماق الواقع المحليّ. وعندما يكون الأدب قائماً على الفكر، يجب أن يتضمّن الحرارة القادرة على أن تحرّك وجدان الإنسان¹. فالأدب الصادق مرتبط بهوم الإنسان وما يحيط به وما تقع عليه عيناه من مظاهر الألم والأمل².

وقد بدأت حركات التحرّر والتّمرد على النظريّات الأدبيّة القديمة بالحركة الرّومانيّة لدى الشعراء اللّبنانيّين، وتأثّر بها شعراء جبل عامل، وبدورها كان لها تأثير على أدبه وإنتاجه الشعريّ والنثريّ.

تري الرّومانيّة أنّ الأدب الحيّ هو أدب التحرّر والانطلاق، وهذا ما كان المجتمع العامليّ يتطلّع إليه في حقبة نهاية الحكم العثمانيّ وبداية الانتداب الفرنسيّ. ففي هذه الحقبة كان همّ الشاعر العامليّ الالتفات إلى المجتمع لتحرّره وإصلاحه ومعالجة قضاياها الوطنيّة.

من هنا بدأ الاتّصال بين العامليّين والنّيّارات الأدبيّة الجديدة ومنها النّيّار الرّومانيّ عن طريق التّرجمات التي كتبت عن هذه المدارس الأدبيّة وعن شعرائها بالإضافة إلى إقدام العديد من أدباء جبل لبنان، وأدباء المهجر الأميركيّ على تبنيّ المذهب الرّومانيّ، ما سهّل تأثّر العامليّين بما يتوافق مع مقاييس هذه المدرسة، مع أدواقهم وأهوائهم، ودفعهم لهجر القوالب المحفوظة المبتذلة وأخذت تظهر فنون جديدة من التّعبير فيها الزّوعة والجّدّة والطّرافة³.

إشكالية البحث

وسأحاول من خلال هذا البحث الإجابة عن هذه الأسئلة:

- 1 - مندور، محمد، الأدب وفنونه، المطبوعات العربية، بيروت، لا.ط، لا.ت، ص 4.
- 2 - المقالح، عبدالعزيز، ثرثرات في شتاء الأدب العربي، دار العودة، بيروت، ط1، 1983، ص 126-127.
- 3 - أمين، أحمد، النقد الأدبيّ، بيروت، دار الكاتب العربي، ط4، 1967، ص 328.

- هل أثّرت المدرسة الرومانسيّة في الشّعْر العامليّ؟
- كيف نظر الشعراء العامليّون إلى مبادئها في مجتمعهم؟ وفي التّعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم الذاتيّة؟
- كيف تحقّقت المحاور الرومانسيّة لدى الشعراء العامليّين؟

منهجية البحث

لا بدّ للباحث من الاستناد إلى منهج في دراسته، لذا، اخترت لهذا البحث المنهج النّفسيّ الأكثر ملاءمة في تحليل الموضوعات وتقصّي محاور الدّراسة.

2- دور التّرجمة

أدّت عملية التّرجمة والتّعريب دوراً مهمّاً في نقل التّراث الإنسانيّ العالميّ «فليس من فنّ يحيا من ذاته، بل على أصحابه أن يتغذّوا بروائع غيرهم إذ لا تجديد ولا إزدهار إلا من خلال رؤية الآخر. فالإبداع والخلق في أيّ مجال فنّي يلزمه دم جديد، هكذا شأن الأدب في شعره ونثره، إذا لم يتطعّم الأدب بأداب توافقه وتفوقه تطوّراً يبقى متكلّناً على ذاته، منظوياً على نفسه وعلى شعبه»¹.

وقد جاءت القصيدة المترجمة نثراً لتشكل أحد أهمّ المداخل التي نفذت منها قصيدة النثر إلى أذهان وعقول المثقّفين العامليّين، وأوّل من قام بالتّرجمة عن اللّغات الأجنبيّة محمد علي حامد حشيشو، حيث قال في هامش التّرجمة: «هذه المقالة النّثريّة لها علاقة كبرى بباب النّفحات والنّسمات، إذ تضمّنت من الأسلوب الشّعريّ ما جعلنا نعتقد أنّها من قبيل الشّعْر المنثور»².

وبدأ الشعراء العامليّون يتحفون المثقّفين بقصائد مترجمة عن اللّغات الأجنبيّة، ومنها ما ترجم بقصائد منظومة مقفاة كقصيدة «ليلة شاعر» لزهرة الحر وقد عرّبتها عن الفرنسيّة ومن أبياتها³:

1 - البقاعي، شفيق، أدب عصر النهضة، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1990، ص 229.

2 - العرفان، مج2، 1910، ص 53.

3 - العرفان، مج 26، ص 48. لم تذكر المترجمة اسم الشاعرة التي أخذت عنها القصيدة.

كصدّ في الهوى مرّ	غروب الشّمس يشجيني
ويفضح دائماً سرّي	ونور البدر يؤلمني
من النّسمات في البرّ	أحبّ لقلبي عاصفة
وتردي زمرة الشرّ	تظهر أنفساً فسدت
لربّ النّظم والنثر	وأحنو الرأس إجلالاً

وينشد الشعراء الحرّية بصوت عالٍ للإفلات من القيود الحاقدة والإنطلاق مع الريح والعواصف الثائرة. فمن قصيدة القيد المحطّم للشاعرة الإنكليزية فليسا دورثا هيمانز، ترجم مرتضى شرارة بعضاً منها¹.

إنّي حرّة، انفجرت من قيدي الحقود
وعادت لي حياة صغار النّسور من جديد
أستطيع أن أشقّ بزورقي الشّراعي البحر الطّروب
وأطوف حيثما تطوف الرّياح... إنّ طريقي حرّ
أيّها الأسير المستعبد ألا تحطم قيدك
أنت حرّ في الفلاة وفي لجج البحر؟
أجل هناك تحلق روحك في فخر؟

ثانياً: المحاور الرومانسيّة

1- اللّيل والألم

اللّيل أحد محاور القاعدة الرّئيسة للرومانسيّة عموماً إلى جانب محور الألم النّفسيّ، وفي هذا السّياق يقول الكاتب العامليّ عبداللطيف شرارة: «إنّ النّزعة الرّومنطقيّة تحمل صاحبها على التّعني بالألم والتّململ من الحياة، نعرفها لدى شعراء العربيّة، وقد عبّر عنها المتنبي مرّات عديدة بكل وضوح»². وهذا ما قصده زهرة الحر في غروب الشّمس من الشّجى والألم من نور البدر في دجى اللّيل.

1 - العرفان، مج 34، 1946، ص 1104.

2 - غريب، فيكتور، الرّومنطقيّة في الشعر العربي المعاصر، شركة مطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ط1، 2013، ص 245.

وإن أضاعت «نجمة الغروب» لدى الشاعر كامل سليمان، فهي مبعث للشحوب والأسى. هذه القصيدة التي استوحاها من قصيدة الصّفاة «لأفرد دي موسى»¹:

يا نجمة في الأفق تبدو لنا	كالعين تبدو في صورتها الشّاحبة
لا تحري نفسك من ثورةٍ	للحبّ مستأزمة غاضبة
وابتردي من الماء للألة	أو فارقُصي لاهية لاعبة
وقبل أن تمضي إلى قصره	لتطفئ زفراتك اللاهية
تلفتي نحوي فإنّي فتى	يهجره الصّاحب والصّاحبة

ينادي الشاعر نجمة الغروب من نفس قلقة مضطربة وصورة اللّيل الشّاحبة، فتزول لديه مساحة الأمل والنّور وتطغى عليه خيبات الهموم الدّاتية.

أمّا عبد المطلب الأمين فالألم لديه له فلسفة خاصة، من عمق ذاته المعانية في حكاية سفر وجرح إلى نظرة إنسانية شاملة، تتجاوز هموم الفرد إلى نوازع المشاعر الإنسانية:

جراحي جراح الكون لست بمفرد ولا أنا باللّحن النّشار بمغرم

هكذا يعبرّ الشاعر الأمين بلغة النّبل الإنساني عن رؤيته لقضية الكائن الأدمي، بكل زخم الصّراع مع الأشواق المتناقضة من ضجيج صراع الكائنات إلى قوافل المواسم العائدة والمهاجرة متمردًا على الألم السّطحيّ المتسكّع الغافي على نتن مستنقع².

ألم التّقاهة عفّته وملّته وحنّنت للألم العميق الملهم

ألم خمرة قلم أبي شبكة في «غلواء»³:

أجرح القلب واسق شعرك منه فدم القلب خمرة الأقلام

إنّه يرى الإبداع في ألم القلوب والأقلام، في سفر الجرح على مثلث الزّمن والألم والحبّ. في قضية الإنسان من منظورها الثّوري «أنّ الإنسان قدرة خالق وتجسيد إبداع».

من هذه الرّؤية عاش الأمين معاناته بتوتر بالغ، مستغرقًا فيها إلى أقصى الحدود،

1 - العرفان، مج 34، 1927، ص 232.

2 - الأمين، عبدالمطلب، ديوان شعر، شقراء، لبنان، المطبعة العاملية، ط1، 1976، ص 7.

3 - الفاضل، أحمد، تاريخ وعصور الأدب العربي، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 2003، ص 545.

مهاجرًا في ظلمات الوحدة والغربة، حتى الإنسحاق رمادًا في نرف الجرح¹:

نفة الصبف فاء اللفف
ورماد اللفاف السوءاء
لففك الظلماء عفا ذلفا
ففت أقدام كبرفاء الضفاء

لم تكن الرومانسية لدى الشاعر الأمين خائفة سلبية من أجل الشكوى والضعف، بل دق من خلالها على جدار الوجود وحاول اكتناه الزمن عن جدلية العلاقة بين البداية والنهاية هذا اللغز المبهم منذ الأزل. إنها رومانسية إعمال الفكر ومحاولة الاستكشاف. وهنا ممكن المعاناة وحقيقة الوجود في تناقضاته، فيراها مصدرًا لواقع متقلب²:

أنت نافي يا كأس
والنعم الحلو عطاء من كفك الخرساء
أنت حطمتني وسقت حياتي
في دياجير هذه الظلماء
أنا لولاك جذوة من طموح
لم تسعها مدارج العليا

حكاية جرح الأمين هذه، امتدت ظلالها إلى علاقته بمسار حركة الشعر العربي الجديدة، مسار يتقاطع معها حينًا ويتوازي حينًا آخر. هذه الظلال كانت حاجزًا بينه وبين الحركة الشعرية في الإبداع والتطور. حكاية القلق الوجودي بكل معانيها، غربة عن الذات، عن الحياة، حتى يكون فناء³.

يا غريب الديار إنني غريب
صمت الكون فالفناء المجيب
ما شمننا من الحياة عطرًا
ولا خالج الأنوف طيوب
إنه بوح دفين، نغم مرارة بلا ضفاف، نداء يتردد في الأصداء، لقاء مع صلاح عبد الصبور في حزنه الصباحي⁴:

يا صاحبي، إنني حزين

طلع الصباح، فما ابتسمت، ولم يُنر وجهي الصباح

1 - الأمين، عبدالمطلب، الديوان، م.س، ص 11.

2 - م.ن، ص 12.

3 - م.ن، ص 21.

4 - عبد الصبور، صلاح، الديوان، دار العودة، بيروت، ط1، 1976، ص 36.

ومن آهات اللّيل الطّويل يخاطب الشّاعر الأمين الألم¹:

أخي عمري كالسّهام أجزّها من ساحق الأعماق في الجرح الظّمي
دفع الجراح سنّي إن عدّتها ودقائقي القطرات تقطر من دمي
أجتزّ آهاتي وأعصر مهجتي أقّات من جود السّراب المعدم
لم يبقَ لي إلا الكؤوس نواصرًا وبلاسمًا في مهجتي في أعظمي
في ليلى القزم الطويل ملالة وتفاهة، ونهاري المتهمّج
ويدخل الشّاعر في ليله الخاص، ليل رؤيته الكونيّة، المنطوية على الأشباح والأطياف،
والكآبة السّارحة في فيافي العمر، فتغيب الألحان وتخرس الشّوادي عن التّغريد، فيصوغ
اللّيل ألعانه في موكب يحدوه اللّظى²:

... وانطوى اللّيل على أشباحه يصطفّيها من رؤى عريده
... وهو لو أفصح عن أشجانه لم يُدعْ شادٍ على تغريده
ولصاغ اللّيل لحناً كامداً يوحش الدنيا صدى ترديده
لقد ارتقى الشّاعر الأمين بالواقع المؤلم إلى يقين وّضعه في إطار معادلة فلسفيّة
لحياة التي تأخذ الإنسان في مسيرتها إلى النّهاية من دون اختيار، وكأنّه يلمح إلى
فكرة الجبريّة في الوجود³.

... فلا الحياة ورود بعده صور ولا النّهاية تبرير لدنيانا
... تلك الكؤوس شربناها على مضض ومذ فرغنا سلّون النّاس والحانا
ويبقى الأمين يدقّ على جدار الزّمن، الماضي، الحاضر، الآتي ويسأل عن المصير،
البداية، النّهاية، وما بينهما من سعادة وشقاء، قلق وحيرة ونداء⁴.

1 - الأمين، عبدالمطلب، الديوان، م.س، ص 24.

2 - م. ن، ص 25-26.

3 - م. ن، ص 25.

4 - م. ن، ص 29.

يا أمس، يا غد، يا يومي! بأيكم
 أنمي وأرثي واستحي وأبتسم
 يومي وأمسي، وأخشى أن أقول غدي
 غرقت في الألم الساجي وما علموا!
 كأن تلك الدنى أشباح واهمة
 لا أكوؤوس لمعت فيها ولا نغم
 تباً له الزمن الواهي فمر بها
 مرّ الكرام: عيون أوصدت وفم
 ويبقى الجواب عن السؤال الدائم عن الوجود لغزاً في دائرة معجزة الخلق، فهذا الحدّ
 يبقى دونه عقل الإنسان عاجزاً عن الجواب مهما حاول السؤال. وتبقى العبرة للعاقل
 والتائه معلقة على جدار الأبد.

2- الحبّ والمعاناة

صحيح أن الشاعر الأمين عاش مأساة القلق الوجودي على حدّه المضني وما زاد من
 هذه القسوة معاناته العاطفية. ويبدو أن الشاعر كان يعيش جنة بلذيتها فوقع في عذاب
 الندم بخسرانها، يحاول إعادتها عبر الخيال وجمال الذكرى، فكشف في هذه الأبيات¹
 عن هذا الجانب من هواه العمري².

محمومة الشفتين لو نطق الدّم
 لم يعدّ ما تهذي به وتنتمم
 ... آمنت بالظّمأ الذي لا يرتوي
 وفتنت بالثّغر الذي لا يبسم
 هو في لماك لبانة منهومة
 وعلى شفاهاك شهوة تنكّم
 مرّت بها القبل الظّمأ كليلة
 لم ترتعش شفة ولم يخفق فم
 ... دنيا إذا شاء الشّباب رحيبة
 ريّانة صخابة تنبسم
 خلقت بها شفتاك معجزة الهوى
 متعاً إذا سُئِم الهوى لا تُسأم
 قبلاً كألحان الجحيم مرّة
 هوجاء تعصف بالشفاه وتهدم

واضح من هذه الأبيات أنّ الشاعر فقد جنة في الهوى كان يمتلكها أو يسعى إلى
 امتلاكها عبر التّمنّي والشّوق، وأنّ قلباً قهر الشاعر وفلت من عقاب حبّه، يحاول
 استرجاعه من سحيق النّدم، ولم تبقَ له إلا الذكرى تتاديه من بئر الحرمان، أو من قيم

1 - الأمين، عبدالمطلب، الديوان، م.س، ص 34.

2 - نسبة إلى شعر عمر بن أبي ربيعة الإباضي.

التربية الأخلاقية والبيئة المحافظة.

ذكراك، يا ظمأ الهجير إلى الندى
وتطلع البأساء بالنعماء
ذكراك، يا ماضي أفاض وكم سخا
وكسا الحياة روائع اللألاء
من هذا المنحى السوداوي يسأل الأمين عن الحبّ واللّقاء، والشّعْر وفي التكرار مأساة
مضاعفة¹:

ماذا أقول لماضيّ الذي ذهب
ماذا أقول لأتّي الذي هرب
ماذا أقول لأشباحي وأخيلتي
ماذا أقول لنبع الشّعْر إن نضبا
ماذا أقول لهذا الحبّ والهفى
هل نلتقي؟ يا لعهد الحبّ إن كذبا
من هذه الصّورة الحادة في تضادها، يبرز الوجه العاطفيّ والنّفسيّ للشّاعر، وتبقى
الحسرة للحبّ الذي مضى، ونأى عن الصّباية وتحوّلت واحة الهوى إلى صحراء²:

الحبّ واحة عمرنا كم حومت
ففي فيئها وظلالها صحرائي
ما بلل الظمأ القديم صبايةً
تهب الهجير طراوة الأنداء
كانت لذاذاتٍ وكانت صبوّةً
والحبّ عنها كالغريب النائي
صحراء الهوى هذه، أودت بالأمين إلى «دمية الماخور» بنزعة عبثية، هي ملجؤه في
دنيا السّراب، يخاطبها بلغة الأمر المتكرر بإصرار وعناء، فلعل هذه الصّيغة اللّغويّة
تكون صحوّة للعابث، تعوّضه عن الفرح الذي تركه فريسة المأساة والمعاناة، وفي التّحليل
النّفسيّ لهذا السّلك قد يكون شفاء للذّات من المهاوي التي قادته إلى هذا المصير³:

صُبّي فلن يصحو الفتى المخمور
ما شَعّ في الدنيا طلا وثغور
... واسقيه حتى ترتوي بدمائه
أحشاؤك الظمأى ضنى وتفور
واسقيه حتى يستفيق خياله
ويعود يخفق جناحه المهصور

1 - م. ن، ص.ن.

2 - م. ن، ص 42.

3 - م. ن، ص 26-27.

ويعود للهوى السبب في كل هذا الألم، وهذا الإنسحاق المتحكم به، هي «حواء»
وعيونها المسؤولة عن هذا الليل الطويل الآسي¹:

يا دمية الماخور أين عن الهوى هذا المجنون الفاتر الممكور
... أين العيون يشع من أحداقها للنشوة الكبرى سنى وسعير
... أواه ما في ليلك الدامي سوى حرق يداعبها الأسى وتثير

ورغم أن الشاعر الأمين ييوح بمكنونات صدره يوزعها مآسي ولوعات على المسامع،
فقد وصل به المطاف إلى النهاية، الأمل بعودة ربيع الحب، الضياء من عتمة الماضي،
إلى الإرتواء من كأس الهوى، إلى تلك الآهات الحبيسة في الجوارح، بلغة الاستعطاف
التي أثبتت أنها أقوى من كبرياء الحب.

3- الطّبيعة

مهّدت مناداة الحبيب للعودة إلى الميناء المنشود الذي وجده في أحضان الطّبيعة، بعد
أن طالت المسيرة في هجير صحرائها، إلى الندى والربيع، إلى آمال النفس المتجددة
بعد سفر شاق طويل.

وتأتي الطّبيعة ينبوعاً رئيساً للشاعر الرومانسيّ. وشاعر الطّبيعة شاعر الإنسان. كما
قالوا: مواضيع الشّعر ثلاثة: الله والطّبيعة والإنسان². ومع الطّبيعة نرى كيف تتغير من
الوصف إلى جعلها مادة غنية بالأحاسيس تندمج مع الحالة النّفسية للشاعر وإن عودة
شعراء المهجر إلى الطّبيعة كانت طريقة جديدة متميزة في إنشادها ووصفها وعشقها،
حتى أصبحت مصدر «دلالات» في مواضيع الحنين والحبّ والذّكريات، وهي عناصر
حيّة في المسار الرومانسيّ. وأصبحت الطّبيعة إلهام الشّاعر الغني بالخيال والأحلام
والأسرار، يختلط فيها بصورة حميمة تتغلّى «بالأنا». وموضوع الطّبيعة لا يعني العزلة،
بل يعتبر مصدر الإلهام والجمال وصور الحنين للشاعر الرومانسيّ، تجمع في حناياها
الأمانة والعزاء والصداقة، وكذلك الصدى الناعم والمخلص لكل الخلجات التي تعترى
الإنسان³.

1 - م. ن، ص. ن.

2 - نوفل، سايد، الطّبيعة في الأدب العربي، القاهرة، 1945، ص 11 و 27.

3 - غريب، فيكتور، الرومنطيقية في الشعر العربي المعاصر، م. س، ص 61.

وقد أثبت محمود باشو في حديثه عن ربيع صيدا أن الطّبيعة ليست لغربة الشّاعر الرّومانيّ بل فيها الحياة والعيد وجنة الفردوس¹.

وأجمل ما صبت روعي إليه ربيعٌ كلّ ما فيه جميلٌ
إذا وافى الربيعُ فذاك عيدي وفردوسِ الحقائقِ والحقولِ
أطيرُ إلى الغديرِ كعندليبٍ يطيرُ به إلى الماءِ الغليلِ

وقد تكون الطّبيعة عنصراً إيجابياً مساعداً لدى شعراء الرّومانيّة لبث الشكوى فيرتاحون لها كأنها صدر الأمّ الحنون، وملجأ يحميهم من أذى الحياة والمجتمع حيث العدالة مفقودة²:

ألا يا نهر جئت إليك أشكو حياة لا تحيط بها العقولُ
حياةً كلنا يشكو أذاها وعنّها لا يطيب لنا الرحيلُ
بنوها كالذّئاب أذىً وغدراً حديث شرورهم شرح يطولُ
يصيب فقيرهم ذلّ وبؤس وحظّ غنيهم مجدّ أثيلُ

وهنا مكنم مفصل التّحوّل في مفهوم الرّومانيّة، الحرّيّة والتّجدّد والبعث. والعودة بالحنين إلى الطّفولة والذّكريات، إلى وطن المولد والنّشأة³. فكانت مع الطّبيعة ثورة على الذات والواقع⁴:

ذكراك، يا ظمأ الهجير إلى الندى وتطلع البأساء بالنعماء
ذكراك، يا ماضٍ أفاض وكم سخا وكسا الحياة روائع اللألاء

ويرى في الشام صوراً داعبت خياله إلى الماضي البريء، بل القديم من عمر أيامه الأولى⁵:

1 - العرفان، مج 13، ص 1137.

2 - م. ن، ص.ن.

3 - ولد ونشأ في حي كان يطلق عليه «حي الخراب»، وقد غيّرت اسمه الحكومة السورية بعد جلاء الفرنسيين إلى «حي الأمين» تكريماً لمواقف والده السيد محسن الأمين الوطنية والقومية.

4 - الأمين، عبدالمطلب، الديوان، م.س، ص 29.

5 - م. ن، ص 42.

طبيبي دمشق ثرى وطبيبي محتدا
عبق الجنان على ثراك تجسدا
وأشم تربك عابقا، بل عابدا
طفلا بأحضان الأمومة وُسدا
طال الفراق وما سلوت ولا غفا
ثمل بأنغام الوفا قد عريدا
بيتي القديم وحارتي ومدارسي
والحب والذكرى السخية والصدا

في هذا الحنين الرقيق إلى دمشق وحاراتها ومدارسها يتجلى الجانب الرومانسي المضيء الحي لدى الشاعر الأمين. فهو وإن قست عليه سطوة الألم والوحشة الذاتية، فإن لديه عاطفة رومانسية متجددة رغم أسى النوى، إلا أن دربه ما ضيعت بوصلتها مواكب المجد زمن الانتداب تحت راية الكبرياء والعروبة¹:

كم في سمائك من خيالي موكب
للمجد كم راضى النجوم وجندا²
ما اختار إلا الكبرياء منارة
بشعاعه وسوى الكرامة مورد
عيناك نبراس العروبة قائدا
ثرياك ينبوع الكرامة والندی

4- الثورة والحرية

تهتم الرومانسية بالمجتمع من أجل عالم أفضل، تسوده العدالة والمساواة، والشعراء الرومانسيون مولعون بالحرية يشجعون على التجدد في الحياة، ويعملون على نشر الأفكار الفلسفية والأخلاقية والاجتماعية، ويقفون بوجه المناوئين لحركات التجدد. وبرغم استغراق عبد المطلب الأمين في رومانسيته الذاتية ورؤاه الكونية الفلسفية وإبحاره في متاهات الاغتراب وألم الهوى ومعاناته الطويلة المتحولة بكل الاتجاهات.

إلا أن القضية تبقى عنده في منطقها الثوري، أن لا نكون أو أن نكون، في هذه الحدود كان يفهم الأحداث وقضايا المجتمع، فيضع خصوصية قضيته في منظور متقدم لثورة مسحوق، وعزة تائر. فكان مصداقاً لقول بدوي الجبل في ذكرى أبي العلاء المعري³:

من راح يحمل في جوانحه الضحى هانت عليه أشعة المصباح

1 - م. ن، ص. ن.

2 - م. ن، ص 43-42.

3- مغنية، منير، ديوان الأمين، م. س، ص 125-124.

من هذا المنظور النَّوْرِيّ كتب الشَّعر عن أحداث الوطن والعالم والتَّاريخ، واختلال الموازين في المجتمعات العربيَّة¹:

«... وروائح البترول تزكم أنف كل الأنبياء

تطغى على نتن الجريمة في دهاeliz الثراء

... يا شعب جرحك في يديك، وبين كَفَيْك الدواء

«... قل للطَّغاة السَّادرين بغيهم حان القطاف: أرغموا أم شاءوا

.. لا شيء إلا الشَّعب حي خالد والباقيات سفاسف وفناء

كل الطَّغاة على تراب نعاله تهوي وتُشحق: رمّة شوهاه

لو يقرأ التَّاريخ طاغية لما عصفت بتافه عقله الخيلاء²

أقام الشَّاعر الأمين معادلة للصراع بين الطَّغاة والشعوب، حيث يتمادون في ظلمهم، لا بد من مفترق بين ما يشاؤون وبين ما يرغمون عليه، والشعب خالد في هذه المعادلة هو باقٍ وهم إلى زوال، لأنهم لم يقرأوا حكمة التَّاريخ في الدوام والزوال.

وحين يكون الشَّعر قيمة إنسانيَّة عليا، والطَّغاة في سفاسف الألقاب الصَّغيرة، يأبى الشَّاعر أن يذكرهم في المعنى الكبير، حتى ولو في معرض الهجاء المرير، فيوجه خطابه لكل طاغية³:

أدعوك ماذا؟ بالرَّئيس أم الرَّعيم أم المشير؟

إني رحمتك من عظيم اللَّفظ في المعنى الصَّغير

ورحمت نفسي أن أهين الشَّعر في نخل القشور

وبمجد الشَّاعر كامل مصباح فرحات شعارات الرُّومانيَّة في الحق والحرية والتصدي للظلم، والانتماء للإنسان فيقول⁴:

1- الأمين، عبدالمطلب، الديوان، م.س، ص 46-47.

2- م.ن، ص 41.

3- م.ن، ص 48.

4- فرحات، كامل مصباح، ديوان الشلال، بيروت، 1959، ص 43.

... حريتي مثل جنات تحف بها وجرأتي فوق النسور تأتلق
 إني جعلت شعاري الحق اشهره سيفاً صدور رجال الظلم يخترق
 ... المرء من أي دين كان فهو أخي ارثي له إن عراه الحزن والقلق
 ويرى الشاعر فرحات وظيفة الشعر، في ما يرى الرومانسيون في الشعر والشعراء¹:
 قلت شعري يا ملاكي ثروتي ولذا ما خفت فقراً وانكساراً
 أسمع الأمة أنغام العلى جاعلاً حرية الرأي شعاراً
 بنشيدي أثمل الأرواح يا دعد فالناس بأشعاري سكارى

5- نحو الحداثة

ثارت الرومانسية على التقاليد والقوالب الجامدة. فوقف الأدباء والشعراء العاملين بين معارض ومؤيد للقديم بقدمه، ورابط بين القديم والجديد، ومشجع ومؤيد ومدافع عن مقاييسها ونظرياتها إن بالشكل أو بالموضوعات فانطلقوا معها نحو الحرية وكسر القيود، وحققوا أهدافها في الثورة والتمرد على الواقع والتحرر والإبداع الخلاق ومخالفة الموروث².

أنا لا أبالي بالتقاليد التي قد قيدتكم إنني متمرد
 من لم يكن في ذي الدنى متحرراً مثلي فلا يهنأ بها أو يسعد
 ... لا تعبدوا عاداتكم ناشدكم بالهكم بجلاله لا تعبدوا
 ... خالفناها وسحقناها ونبذناها فتهددوا ما شئتم وتوعدوا

وقال الشاعر أحمد عارف الحر في الشعارات التي طرحتها الرومانسية حول القديم والجديد³:

يقولون «بعث» قلت خلق مجدد حقيق ولكن هل تراه يروق
 يقولون هل تهوى الجديد أجبتهم إذا كان نفع بالجديد حقيق

1- م. ن، ص. ن.

2- فرحات، كامل مصباح، ديوان الشلال، م. س، ص 35.

3- العرفان، مج 31، 1942، ص 217.

شعور صحيح لا جمود بروحه مسالك فضل بالأديب تليق
فكل جميل بالجديد يروق لي وكل جميل بالقديم يروق
وكل قديم كان قبل مجدداً وكل جديد في الغداة عتيق
وأحسن مازان الجديد انطلاقه من القيد والتقليد فهو طليق

لقد طرح الشاعر الحر بهذه الأبيات إشكالية الحداثة التي تخرج من رحم القديم وأقام معادلة بين القديم والجديد جسرها التواصل والتوصيل.

وإذا كانت الغنائية أسلوب الرومانسيين في التعبير عن المشاعر والأحاسيس المخنوقة، بلغة الكآبة والحزن والبؤس والتعاسة. فإن هذه الغنائية تبقى صفة للذهب الرومنطيقي، «وهي الفرع وليست الأصل... وهي تؤدي صفة الألحان والأنغام¹. لكن شعراء جبل عامل استطاعوا أن يرتقوا بمبادئ المدرسة الرومانسية إلى مستويات فكرية في النظرة إلى الوجود ومعالجة قضايا المجتمع، والنحو إلى التمرد والكفاح والإصلاح والتجديد والحداثة، كما صدى تاريخهم، دون أن ينسوا مشاعرهم الإنسانية ومشاعرهم الذاتية.

الخاتمة

لقد تحققت شعارات الرومانسية في الشعر العاملي لدى بعض الشعراء في حقبة ما قبل الحرب العالمية الأولى وبين الحرب العالمية الثانية، هذه الحقبة التي شهدت تحولات في السياسة والاجتماع والأدب ومناحي الفكر والعلم عامة، وانعكس ذلك على مثقفي جبل عامل فارتقى بعضهم إلى مصافي شعراء الرومانسية العربية بل العالمية. وأثبت الشعراء العامليون من خلال ترجمات بعضهم أنهم جديرون بالتجديد والحداثة والتعامل مع مبادئ الرومانسية الذاتية وطرح الأسئلة المصيرية الوجودية، ومكنتهم من مراكمة المواقف والمشاعر في نص واحد. حدا بهم نحو القومية العربية الواحدة.

لقد وضعت الرومانسية المتلقي العاملي على تخوم الواقع فبات مثقفاً بما قدمه له بعض شعرائه من دخر فني رائع، جدير به أن يُجمع ويُشر ليُعبّر عن مكنونات وكنوز الإنتاج العاملي. فيتكامل مع الآداب العربية والإنطلاق نحو الآداب العالمية في حوارية إنسانية شاملة.

1 - غريب، فيكتور، الرومانسية في الشعر العربي المعاصر، م.س، ص 1908.

المصادر والمراجع

- 1 - أمين، أحمد، النّقد الأدبيّ، بيروت، دار الكاتب العربيّ، ط4، 1967، ص 328.
- 2 - الأمين، عبدالمطلب، ديوان شعر، شقراء، لبنان، المطبعة العامليّة، ط1، 1976، ص 7.
- 3 - البقاعي، شفيق، أدب عصر النّهضة، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1990، ص 229.
- 4 - عبد الصّبور، صلاح، الديوان، دار العودة، بيروت، ط1، 1976، ص 36.
- 5 - غريب، فيكتور، الرومنطقية في الشّع العربي المعاصر، شركة مطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ط1، 2013، ص 245.
- 6 - الفاضل، أحمد، تاريخ وعصور الأدب العربي، دار الفكر اللبنانيّ، بيروت، ط1، 2003، ص 545.
- 7 - فرحات، كامل مصباح، ديوان الشّلال، بيروت، 1959، ص 43.
- 8 - المقالح، عبدالعزيز، ثرثرات في ثناء الأدب العربي، دار العودة، بيروت، ط1، 1983، ص 126-127.
- 9 - مندور، محمد، الأدب وفنونه، المطبوعات العربيّة، بيروت، لا.ط، لا.ت، ص 4.
- 10 - نوفل سايد، شعراء الطّبيعة في الأدب العربي، القاهرة، 1945، ص 11 و 27.

الدّوريات:

- 1 - العرفان، مج2، 1910، ص 53.
- 2 - العرفان، مج 26، ص 48.
- 3 - العرفان، مج 34، 1927، ص 232.
- 4 - العرفان، مج 31، 1942، ص 217.

التشكيلات السردية في الدراسة التاريخية قراءة في مأزقات الهوية

كتاب «مسيحيو الشرق الأدنى في زمن الإصلاح الكاثوليكي»

لبرنار هيربرجيه¹ نموذجًا

Les structures narratives dans l'étude historique Une lecture des apories de l'identité

Le livre «Les chrétiens du Proche-Orient au temps de la réforme catholique»

de Bernard Heyberger comme prototype

شادي القهوجي²

Chadi Kahwaji

تاريخ القبول 2025 / 2/13

تاريخ الاستلام 2025/1/28

الملخص

يتناول هذا البحث العلاقة المعقدة بين السرد التاريخي والأدب التخيلي، مع التركيز على دمج الوثائق التاريخية في الخطاب الروائي. ويستكشف أيضًا كيفية استناد الروائيين، عبر تفاعل دقيق مع المصادر الأرشيفية، إلى مزج الدقة التاريخية بالسرد الإبداعي، مما يؤدي إلى إنتاج نصوص تثير تساؤلات حول حدود الحقيقة والخيال. يدعو هذا التداخل القراء إلى تقييم مصداقية التمثيل التاريخي ودور الأدب في تفسير الماضي بشكل نقدي.

1- برنار هيربرجيه، مؤرخ ومستشرق، يشغل منصب مدير الدراسات في مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية ومدرسة الدراسات العليا التطبيقية. يركز أبحاثه على تاريخ المسيحيين في الشرق، وبخاصة العلاقات بين المسيحية والإسلام (الشرق الأدنى في العصر العثماني، البعثات المسيحية في البلدان الإسلامية...). من أبرز أعماله المنشورة «مسيحيو الشرق الأدنى في زمن الإصلاح الكاثوليكي»، «مسيحيو المشرق»، «هنديّة/ الصوفيّة الأثمة: أزمة دينيّة وسياسيّة في جبل لبنان القرن الثامن عشر...».

2- أستاذ محاضر في جامعة القديس يوسف في بيروت، وأستاذ ومنسق مادة اللغة العربية وآدابها في مجموعة من الثانويات؛ مدقق ومحرر في مجموعة من المؤسسات الفكرية والحقوقية ودور النشر، منها مركز التراث العربي المسيحي (CEDRAC) وحبيب ناشرون، والمفكرة القانونية ومبادرة سياسات الغد. شارك في وضع مناهج اللغة العربية لوارثي اللغة، وفي تأليف كتب موجهة للتعليم الجامعي في جامعة جورجتاون في دولة قطر.

من خلال دراسة حالة لكتاب «مسيحيو الشرق الأدنى في زمن الإصلاح الكاثوليكي» لبرنار هيرجيه، يحلّ البحث كيفية معالجة السرد التاريخي المرجعي قضايا الهوية والصراع الثقافي وديناميكيات السلطة. ويُعدّ عمل هيرجيه مثالا غنياً يوضح كيف تعيد السرديات التاريخية تشكيل هويّات مسيحيي الشرق في القرنين السابع عشر والثامن عشر، مع معالجة موضوعات الإصلاح الديني، والتفاعلات الثقافية المتبادلة، والتحوّلات الاجتماعية والسياسية. ويبرز البحث التصوير المتقن للتعايش والصدام بين الجماعات الدينية والاجتماعية المختلفة، مقدّمًا رؤى حول جدليّات، مثل الانفتاح والانغلاق، العنف والتسامح.

علاوةً على ذلك، يبرز البحث الطبيعة المزدوجة للكتابة التاريخية بوصفها سردًا وتفسيرًا، ويناقش كيف يستعين الكتاب بالوثائق الأرشيفية لإضفاء المصداقية على أعمالهم، وفي الوقت ذاته يخرطون في إعادة بناء تخيلية، ما يُنتج نصوصًا «متعددة الطبقات» تتجاوز حدود التأريخ الجامد، وتعكس هذه الطبيعة المزدوجة التوتّر بين التمثيل الموضوعي والتفسير الذاتي، كاشفةً عن التأريخ كحوار متطور بين أحداث الماضي وتأمّلات الحاضر.

وفي النهاية، يؤكّد البحث الدور المحوريّ للأدب التاريخي في سدّ الفجوة بين الذاكرة والسرد؛ فهو لا يصرّو التأريخ مجرد سرد ثابت للأحداث، بل كعملية ديناميكية لإعادة التفسير، تتشكّل بفعل تفاعلات السرد القصصي، والهوية الثقافية، والاستقصاء الإبستمولوجي؛ ويضع هذا البحث الأدب التاريخي، بطبقاته المختلفة، كأداة حيوية لفهم تعقيدات التجربة الإنسانية عبر الزمن.

الكلمات-المفاتيح

السرد التاريخي - الأدب الروائي التخيلي - الوثائق - الهوية - الصراع الثقافي - الإصلاح الكاثوليكي - مسيحيو الشرق - الذاكرة.

Résumé

Cette étude explore la relation complexe entre le récit historique et la fiction, mettant en exergue l'intégration des documents historiques dans le

discours romanesque. Elle examine, par une interaction minutieuse avec les archives, la méthode par laquelle les romanciers parviennent à mêler précision historique et narration créative, ce qui produit par conséquent des textes qui interrogent les frontières entre vérité et imagination. Cette interaction invite les lecteurs à évaluer de manière critique la crédibilité de la représentation historique et le rôle de la fiction dans l'interprétation du passé.

À travers une étude de cas de l'ouvrage *Les chrétiens du Proche-Orient* au temps de la Réforme catholique de Bernard Heyberger, le chercheur analyse les questions d'identité, de conflit culturel et de dynamiques de pouvoir abordées dans les récits historiques. L'œuvre de Heyberger constitue un exemple riche qui illustre la reconfiguration des identités des chrétiens d'Orient aux XVII^e et XVIII^e siècles dans les récits historiques, tout en traitant des thèmes de réforme religieuse, d'interactions culturelles et de bouleversements socio-politiques. L'effort du chercheur consiste à mettre en lumière la représentation nuancée de la coexistence et des confrontations entre différents groupes religieux et sociaux, offrant des perspectives sur des dialectiques telles que l'ouverture et le repli, la violence et la tolérance.

En outre, cette recherche met en évidence la dualité de l'écriture historique en tant que récit et interprétation. En effet, les auteurs utilisent les archives pour conférer de la crédibilité à leurs œuvres tout en engageant une reconstruction imaginative, produisant ainsi des textes « feuilletés » qui transcendent les limites de l'historiographie rigide. La dualité récit imaginaire/historique reflète la tension entre la représentation objective et l'interprétation subjective, révélant l'histoire comme un dialogue évolutif

entre les événements passés et les réflexions contemporaines.

Enfin, l'étude souligne le rôle essentiel de la fiction historique dans le rapprochement entre mémoire et narration. Loin de se limiter à un simple récit figé des événements, l'histoire y est dépeinte comme un processus dynamique de réinterprétation, façonné par les interactions entre le récit, l'identité culturelle et la quête épistémologique. Cette recherche pose la fiction historique, avec ses multiples dimensions, comme un outil vital pour comprendre les complexités de l'expérience humaine à travers le temps.

Mots Clés

Récit historique – Fiction romanesque – Archives – Identité – Conflit culturel – Réforme catholique – Chrétiens d'Orient – Mémoire

مقدمة

لم يتوقف التاريخ والرواية يوماً منذ بدايتهما، على الرغم من انفصالهما، عن أن يكونا مرتبطين، ذلك أن عزلهما عن بعضهما، هو «حدود مضجرة تأبى الأعمال الأدبية نفسها أن تقوم بفرضها»¹؛ وتشير الرواية المستندة إلى الوثيقة التاريخية إلى أن النص يعمل على مستويات متعددة من الخطاب التاريخي؛ فهي تعالج كلاً من «التاريخ» بمعناه الكبير، ذلك الذي وصفه بيريك Perec بالتاريخ ذي الفأس الكبيرة² و«التاريخ» بمعناه الشخصي، أي الحياة اليومية للأفراد الذين يحاولون المحافظة على بقائهم ومعنى وجودهم في خضمّ دوامة التاريخ.

وبما أن الروائيين لم يعيشوا الحدث التاريخي الذي يتناولونه، فإنّ خبرتهم تستند إلى دراسة معمّقة في الوثائق الأرشيفية وكتب التاريخ، التي يُسهبون في الاقتباس منها بوصفها أدلة لتعزيز سلطتهم السردية، ويتركون لروايتهم نفسها أن تضع عقداً غامضاً مع القارئ، وتشجّعه على التساؤل حول دقة الرواية التاريخية المفترضة.

1- إدوار سعيد، الثقافة والإمبريالية، (بيروت: دار الآداب، 1977)، 190.

2- Georges Perec, W ou le souvenir d'enfance, (Paris : Denoël, 1975), p. 17.

لكن على الرغم من أنّ الرّوائيّ-الرّأوي يُقدّم نفسه كخبير في المجال التّاريخيّ، يبقى من الصّعب على القارئ تقييم مصداقيّته، بخاصّة أنّ طبيعة العلاقة بين السّرد التّاريخيّ والأدب الرّوائيّ التّخييليّ متشابكة، نظرًا إلى عمق تأثير دمج الوثائق التّاريخيّة في الخطاب الرّوائيّ وفضح عوامل تشكيل الهويّة الثقافيّة والتّاريخيّة، الفرديّة والجماعيّة. فكيف يمكن للقارئ أن يتيقّن من أنّ ما يروى له قد حدث بالفعل؟ وهل هناك فجوة لا يمكن تجاوزها بين التّوعين السّرديّين، الرّوائيّ والتّاريخيّ؟ وإلى أيّ حدّ تتسرّب إلى النّص التّاريخيّ العلميّ تشكيلات الفضاء السّرديّ وما يتضمّنه من مظاهر صراعيّة تجسّدت في بينيّات مأزقيّة؟

أولاً: الكتابة المتعدّدة الطبقات

يلجأ الرّوائيّ إلى التّاريخ كمصدر للإلهام، سواء لاختيار موضوع الكتابة أم لصقل الأسلوب، مُظهرًا تنوّعًا للأرشفة، بحيث نرى نصّه يزخر بالاقتباسات المستمدّة من وثائق تاريخيّة، غير أنّ «لا شيء، في الواقع، يُظهر الفجوة بين نوعيّ السّرد أكثر من هذه الملاحظات الوثائقيّة: عندما تظهر في رواية، فإنّها تحدث زلزالًا صغيرًا، كأنّه إطلاق رصاصة خلال حفل موسيقيّ»¹، ذلك أنّها تُحدث بالفعل انقطاعًا في السّرد التّاريخيّ، ممّا يدفع القارئ إلى التّشكيك، ليس في موثوقيّة المصادر فقط، بل أيضًا في تفسير الراوي لها.

تبدو الاقتباسات من الوثائق التّاريخيّة، ضمن الخطاب الرّوائيّ التّخييليّ، كأنّها محاولة لمحاكاة الأسلوب التّاريخيّ، وهو بحدّ ذاته «خطاب يضمّ داخله، على شكل اقتباسات تُشكّل آثارًا للواقع، الموادّ التي يعتمد عليها والتي يهدف إلى تقديم فهمها»²؛ فالكتابة التّاريخيّة «كتابة متعدّدة الطبقات»: «يُطرح الخطاب بصفته تأريخيًا عندما «يستوعب» الآخر، السّجلّ، الأرشفة، الوثيقة، أي عندما يُنظّم كنصّ متعدّد الطبقات، يعتمد جزء منه (المستمرّ) على الآخر (المبعثر)»³.

1- Mona Ozouf, « Récit des romanciers, récit des historiens », Le débat, 165, 2011, 21.

2- Roger Chartier, Au bord de la falaise. L'histoire entre certitudes et inquiétude, (Paris : Albin Michel, 1998), 93.

3- Michel de Certeau, L'écriture de l'histoire, (Paris : Gallimard, 2000), 130-131.

هكذا، تصير الكتابة كآلية تستخرج من الاقتباس مصداقية السرد وتثبت المعرفة، محاولة بثّ الوثوقية، أو قلّ، واحة القارئ في حالة من التساؤل التابع من عدم اليقين. فعندما يكشف الروائي المراجع والوثائق التي تشكّل الأساس التاريخي للرواية، تتماهى في ذهن القارئ حدود الحقائق والخيال؛ وبدلاً من قبول النصّ كمزيج من الوقائع التاريخية والزخارف المنخيلة، يصير الهمّ متمحوراً حول معرفة أجزاء النصّ المنتمية إلى التاريخ وتلك التي نسجها الخيال، هذا عدا عن الشكّ الذي يعزّزه احتمال تحريف الحقائق المبنوثة في تقرّعات الخطاب التخيلي، وبخاصّة أنّ الرواة يتجاوزون دور المؤرّخ التقليدي حين يحضرون في النصّ من خلال التعبير عن المشاعر التي تُثيرها الوثائق التاريخية في ذواتهم، سواءً أكانت شكوكاً، أم افتراضات، أم تأملات، ممّا يُعقّد مهمة القارئ.

من هذه الناحية، يؤكّد الروائيون، أنّ الوثائق الأرشيفية تشكّل، بالنسبة إليهم، نقطة انطلاق أو مصدر إلهام، فيتطابق عملهم مع عمل الباحث في التاريخ، حيث تتجذّر معرفتهم في قراءات متأنية للمصادر التاريخية، ممّا يجعل سردهم يعارض في جوهره بين طريقتين للتعبير عن المعرفة: الرسالة الجامدة المستندة إلى فكر مُستمدّ من عصر ما، مع خطر الوقوع في التجريد والموضوعية الضيقة، وخيال الراوي الذي يُخضع مطلب الحقيقة لمتعة السرد، هذا السرد الذي يُربك القارئ ويدفعه إلى المشاركة في عملية تفسير التاريخ وإعادة بنائه.

يشكّل السرد التخيلي المبني على الوثيقة والشاهد طبقةً من «الكتابة المتعدّدة الطبقات»، إذ يتكشف أثر التاريخ فيه بوصفه مرجعاً حياً في بنية الرواية التي تتحدّث عن زمن ماضٍ، وفي كلّ مكوناتها، بحيث نقلت الخطاب السرديّ مجدّداً من عالم الدالّ السرديّ إلى عالم المرجع¹، وذلك من خلال إعادة الصّفة للوثائق، المدونة في سياق السرد وفي إحالات في الهوامش، التي أعادت ربط كلّ من الفواعل والزّمان والمكان بمرجع خارجيّ قائم في الواقع، عاشه الإنسان.

تسبق طبقة السرد التاريخيّ التخيليّ طبقة السرد التاريخيّ الذي يعدّه بول فاين Paul Veyne، في المقام الأوّل، سرداً لأحداث حقيقة²، يستمدّ مضمونه من مجموعة من

1- معنى العيد، الرواية العربية: المتخيّل وبنيتها، (بيروت: دار الفارابي، 2011)، 10.

2- Paul Veyne, Comment on écrit l'histoire ?, (Paris : Seuil, 1971), 35-47.

المصادر الخارجية، فيجمع بالتالي بين سردين متوازيين يعززان بعضهما بعضاً: سرد الشاهد وسرد المؤرخ¹. ويعتمد سرد المؤرخ على شهادة الشاهد، فهو يدون ما حكاه، أو يحكيه، فيمنحه معنًى تاريخياً ضمن سياق سردي؛ فالمؤرخ، وفق ميشال فوكو Michel Foucault، يقول ما كان موجوداً بالفعل، ولكنه لم يُقل من قبل²، ويمنح الشهادة بالتالي، من خلال سرده الذي يكتسب الطابع العلمي، شرعية البقاء، مع العلم أنّ هذا التفاعل المتبادل بين السردين يؤدي إلى بنية سردية خاصة تمزج بين خطابين متشابهين، مُستبعدة، الأصوات المتناقضة بغية الحفاظ على انسجام السرد، معيدة بناء استمرارية سردية تتجاوز فجوات الجهل التي يُلقي المؤرخ فوقها جسوراً، استمرارية تحمل في طياتها استمرارية منطقية لسردٍ هو في الوقت نفسه خطاب. هكذا، يؤدي النصّ التاريخي وظيفة مزدوجة: السرد والتفسير.

من هذه الازدواجية، يكتسب السرد التاريخي، بصفته نوعاً من الخطاب، بنية تنظيمية محددة تجعل من المؤشرات الزمنية أدوات منطقية أيضاً؛ وهكذا، يُقدّم النصّ إطاراً سببياً يتحوّل إلى نظام للحقيقة، وتصبح السرديات التاريخية، بما تتضمنه من دراسة المجتمعات، ذاتية المرجعية، إذ تسعى إلى حماية نفسها من الشكّ في كونها مُصطنعة؛ حيث تحدّد الواقع إلى درجة جعلها، في الوقت نفسه، معقولة وقابلة للتوثيق، وتختلط وجهة نظر المؤرخ مع الواقع الموضوعي حتّى يصبح معها غير مميزين؛ فصحيح أنّه لا يمكن سرد حدث، أو تمثيل بنية، أو وصف عملية من دون استخدام مفاهيم تاريخية تساعد على فهم الماضي؛ لكن، في الواقع، يتجاوز كلّ مفهوم التّفرد التاريخي الذي يسعى إلى فهمه؛ فلا يوجد حدث فريد يمكن أن يُروى ضمن فئات تساوي في فريدتها الحدث نفسه، على الرّغم من أنّ هذا الحدث قد يطالب بهذا الحق³.

كذلك، يبتكر المؤرخ لغة أو أسلوباً يمكن من استعادة الأصوات الصامتة، تلك المدفونة أو الغارقة في التّصوص المنسية، ويجعلها تتحاور مع حاضرنّا؛ فمما لا شكّ فيه أنّ هذه الأصوات صدحت في لحظة تاريخية معينة، ليست لحظتنا؛ لكن ما الذي يمكننا إدراكه من خطاب الغائب؟ الحاضر في وثائق آتية من مجتمع قديم يروي قصّته ويُعبّر عن

1- Antoine Prost, Douze leçons sur l'histoire, (Paris : Seuil, 1996), 13-14.

2- Michel Foucault, L'Archéologie du savoir, (Paris : Gallimard, 1969), 27-28.

3- Reinhart Koselleck, Le futur passé. Contribution à la sémantique des temps historiques, (Paris : EHESS, 1990), 140.

نفسه، بصدقٍ، أو ربّما بكذبٍ، وثائقٌ شَيِّدتْ قسماً كبيراً منها الذاكرة التي «تتحرك لتؤكد استمرارية كياننا؛ فحياتنا، أو ما تبقى منها، معلّقة على بضع حبات مسبحة مشدودة بخيوط رفيعة من الذاكرة، الذي قد ينقطع في أي لحظة؛ ومع ذلك، من يُثبت لنا أنّ شذرات الذاكرة هذه هي فعلاً أصليّة؟»¹.

بغضّ النظر عن ذلك، تؤسّس هذه الخطابات، التّاريخيّة العلميّة والتّخييليّة، حالةً من الغيريّة؛ فهي، من خلال الوثائق، حيث النقص، والفراغ والصمت، تحثّ أعيننا وعقولنا على إزالة غشاوة العمى، مثيرةً فينا شغفاً في سرقة شيء من أولئك الذين عاشوا في الماضي، في الخوض داخل سرديات صغيرة تشكّل «فضاء روائياً» موجوداً بالفعل، فضاءً روائياً يختبئ من دون أن ندركه؛ ففي قلب تلك الحيات والوقائع المدفونة، تكمن شبكة من العلاقات المحدّدة والجديدة بين شخصيات تنتمي إلى طبقات اجتماعيّة مختلفة، في ظلّ وجود سلطة توجّه وتأمّر وتعيد تشكيل الهويّات.

فالذات نفسها لا يمكن فهمها إلّا من خلال الآخر، وتتجلّى هذه الاستحالة في التفاعل اللفظي، بحيث يقوم الـ «أنا» بإنشاء الـ «أنت» والعكس: «عندما أقول «أنت»، أفهم أنّك قادر على تحديد نفسك كـ «أنا»²؛ بشكل عامّ، يمكننا القول: إنّ هذا التّوّع هو في الواقع شرط وأداة لديناميكيّة الهوية، فـ «الآخر هو النّظير والمختلف في الوقت نفسه، نظيرٌ بسماته البشريّة أو الثّقافيّة المشتركة، ومختلف في تميّزه الفرديّ أو في اختلافه العرقيّ، فالاتّصال بالآخر هو خامّة وجود الدّائيّة وبيئة وجود الشّخص، وبدونها يهلك، إلّا أنّ «أنا» التي تحمل في داخلها ذاتاً أخرى غريبة عنها «أنا هي أخرى» تحتفظ بتأكيداتها الذاتيّة الذي لا يمكن التخلّي عنه»³.

وللإضاءة على التّشكيلات السّردية في النّص التّاريخي، ارتأينا العمل على كتاب «مسيحيو الشرق الأدنى زمن الإصلاح الكاثوليكي»⁴، بوصفه نموذجاً نقصّ من خلال ما ورد فيه من وثائق وشهادات وتحليلات، سردية تحوّل هويّة مسيحيي الشرق في

1- Marcel Lévy, La Vie et moi, (Paris : Phébus, 1998), 43.

2- Paul Ricoeur, « Le 'soi', digne d'estime et de respect », Morales, 10, 1993, 92.

3- إدغار موران، النهج: إنسانيّة البشريّة-الهويّة البشريّة، (الإمارات العربيّة المتّحدة: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، 2009)، 94-95.

4-Bernard Heyberger, Les chrétiens du Proche-Orient au temps de la Réforme catholique, (Rome: Ecole Française de Rome, 2014).

القرنين السابع عشر والثامن عشر، وكيفية نجاح الإصلاح الكاثوليكي في سبر أغوار ورسم معالم أعادت تشكيلها، وذلك ضمن مجتمع متعدّد الثقافات والانتماءات، على أن تستند مقاربتنا إلى المنهج السيميائي الاجتماعيّ للتعمّق في التفاعلات بين الفواعل التاريخية والسيّاقات الاجتماعية التي تعيد تشكيل الهوية.

لقد كان كلام بيار روندو Pierre Rondot، الذي استهلّ به برنار هيبيرجيه Bernard Heyberger كتابه، «إنّ تشتّت سكّان الشّرق المسيحيّين يثير أقصى الاهتمام أولاً، وليس بأقلّ من ذلك تنوّعهم الغريب: إنّها فسيفساء بالغة التعقيد والتداخل، حتّى إنّها تصيب رسّامها باليأس»¹، حافزاً لتقصّي حقيقة الهوية من خلال الكشف عن مظاهر صراعية تجسّدت في بينيّات مأزقية في نصّه التاريخي المرجعي السّارد مجموعة من المواقف والأحداث، متناولاً معضلات العلاقة بين الشّرق والغرب، أو بمعنى آخر المجابهة الحضارية، وواقع المسيحيّين الشرقيّين - الذين عرفوا مراحل ثلاث: البحث عن الهوية - مسالة الهوية - فقدان الهوية أو إعادة تشكيلها.

ثانياً: تشكيلات الفضاء السردّي في النصّ التاريخي - مأزقيات الهوية

1- البحث عن الهوية

تمثّلت المرحلة الأولى إذاً في البحث عن الهوية، أي محاولة اكتشاف طبيعة (ال «أنا» - ال «نحن») من خلال إدراك طبيعة الآخر، إذ لم يكن المسيحيّون موحّدين؛ فقد قُسموا ثلاث مجموعات يتباينون لغة وتقليداً وثقافة، الموارنة والروم والأرمن؛ وقد عاشت كنائسهم جدالات متوارثة حول موضوعات لاهوتية أحدثت تصدّعات، وعاشت مجتمعاتهم انشقاقات ثقافية وسياسية، وعاشوا جميعاً مُتأثرين في جغرافيةٍ بمعظمها مُسلمة، في أحياء مشتركة مع المسلمين أو منفصلة عنهم، أو في قرى جبلية عرفوا فيها العزلة حيناً، والتنقّل والتشتّت والتشتّت المؤقت أو الدائم حيناً آخر، يتعايشون مع الآخرين سلمياً أو لا، بحسب تبدّلات الظروف السياسية.

تبرز حقيقة الهوية من خلال مظاهر صراعية تجسّدت في بينيّات مأزقية تتكشف في: العنف والتسامح، الانغلاق والانفتاح، الظلم والعدل، الاستسلام والمقاومة.

1- Bernard Heyberger, Les chrétiens du Proche-Orient au temps de la Réforme catholique, (Rome: Ecole Française de Rome, 2014)..13

1 - العنف والّلطف

يفترض العنف وجودَ أطراف، تغيبُ مساحات التّلاقّي والحوار بينها، في مستوى قادة الدّول والرّعماء، وفي مستوى الأفراد وعامّة الشّعب، وقد شهدت مناطق التّواجد المسيحيّ اضطرابات سياسيّة نتيجة التّوتر بين الأسر الحاكمة، وقد ظهرها النّصّ بشكل واضح، إلّا أنّ هذه النّزعة العنفيّة لم تكن دائمةً المسيطرة، إذ برزت مظاهر لُطف وتسامُح تجلّت في بعض المواقف

العنف	الّلطف
- قيام الأمير موسى بن حروفش بنهب جبّة بشرّي.	- تمتّع أسرة الخازن المارونيّة بصلاحيّات جعلتها حاكمة.
- لجوء الموارنة إلى الكهوف للاحتماء من حملة عسكريّة لحاكم طرابلس.	- تحوّل منطقة كسروان إلى أرض مسيحيّة كاملة أيام الحكم المعنيّ.
- فرار الناس تهرّباً من الضّريبة.	- إسهام الشّيوخ الدّروز الجنوبيّين في إقامة الرّوم والموارنة بين رعاياهم.
- عجز الدّويهي عن ممارسة مهمّته كمُرسل عام 1659 بسبب الاستبداد ¹ .	- لجوء البطريرك عام 1609 إلى الشّوف تحت حماية الأمير.
	- تعايش الموارنة مع المسلمين والرّوم في الشّوف وصيدا والبقاع ² .

2 - الانغلاق والانفتاح

تنامت الصّراعات نتيجة الانغلاق ورفض الآخر المختلف عقائديّاً، فكانت الكراهية، والخشية المتبادلة بين مختلف الجماعات، ويعود الأساس الأيديولوجيّ لهذا الصراع إلى إعلاء كلّ فئة شأن هويّتها الجماعيّة ومحاولة إظهارها بصورة المتفوّق القادر على إلغاء الآخر؛ ويتكشف الصّراع، في وجهة أولى، في ملفوظات حالة انغلاقية تعبّر عن الخشية من الآخر، أو في ملفوظات حالة تترأى في التّمرّكز الذاتيّ والشّعور بالتّفوّق على الآخر، ويتمظهر، في وجهة ثانية، في ملفوظات فعلية حين لا يقتصر الصّراع على التّبّابين الفكريّ، إنّما يتعدّاه إلى قمع الآخر ومنعه من ممارسة شعائره الدّينيّة، ورفضه

1 - Bernard Heyberger, Les chrétiens du Proche-Orient au temps de la Réforme catholique, (Rome: Ecole Française de Rome, 2014 29-30.

2 - المصدر نفسه، 33-34

في المجتمع بوصفه غريباً لا ينتمي إلى محيطه:

من الملفوظات الفعلية	من الملفوظات المعبرة عن الشعور بالتفوق على الآخر واحتقاره
شكوى خوري المدينة لأنّ على رعاياه من الروم الكاثوليك أن يشتركوا في الهيكل مع القساوسة السنّة المنشقّين عن طقسهم الديني. ³	قول الشيخ النابلسي: «من الأفضل أن يبقى المهتدي الحديث للإسلام مسيحياً، فإنّ الله وحده، وإن وضع عمامة بيضاء ولبس ثياباً إسلاميّة، يستطيع فعلاً أن يعرف ما في قلبه. لم ينسَ ذاك الجلف الغليظ كيف كان يحارب المُسلمين، مؤلّهاً المسيح، وأكلأ لحم الخنزير، وعابداً الأصنام؛ فإذا ما بصق، خرجت الخمرة من فمه». ⁴

في ظلّ الغشاوة التي أحدثتها تاريخ الصّراعات والانغلاق، تبرق لامعةً بعض المواقف الإنسانيّة الانفتاحيّة معيدةً التّوازن إلى العلاقات بين الأطراف المتباينة، وقد تمثّلت في تميّز مواقف المسلمين تجاه اليهود والمسيحيّين بالتّعاطف والانفتاح في أحيان كثيرة... وتلقّي شبّان مسيحيّين دراسة اللّغة العربيّة على يد الشّيخ سليمان النّحوي³؛ ونقل الأعيان الأثرياء من المُسلمين بضائعهم على سفن مسيحيّة...⁴.

ج- الظلم والعدل

أنّجت غالبية الأحداث والخطابات النّعسفيّة أوضاعاً خطرة، بتأسيسها واقعاً مأساوياً، وقد جاء الظلم من الآخر العثمانيّ أو المسلم، مثلما تكرّس في الداخل، أي بين الطوائف المسيحيّة نفسها، وغالباً ما اختزنت ملفوظات العبوديّة والتّمييز؛ لكن، في المقابل، يشير النّصّ إلى أحداث وخطاب عكسا العدل، بما يحمل من مفاهيم الإنصاف، والرّحمة، ومطلب الحرّيّة.

1 - المصدر نفسه، 35.

2 - المصدر نفسه، 41.

3 - المصدر نفسه، 42.

4 - المصدر نفسه، 43.

الظلم	العدل
- تمتع المسلمين بامتيازات حُرِّمَ منها المسيحيون كتملك الأراضي والأبنية التجارية في حلب. - منع رجل دين من شراء الطحين لطائفته في القدس قبل تلبية حاجات المسلمين كافة⁵. - إجبار المسيحيين على دفع الجزية، وغالبًا ما كانت الضرائب تعسفية. - فرض علامات تمييزية على الذميين، ما دفع الروم الأرثوذكس إلى الشكوى لدى بطريرك القسطنطينية ليشتكوا من وضعهم البائس. - إلزام المسيحيين بوضع قبعة وارتداء ملابس باللون الأزرق عام 1780⁶.	- في الجبل اللبناني، تحت حكم الأمراء المعنيين والشهابيين، أفلت المسيحيون من تلك التمييزات، فكتب الدويهي: «رفع المسيحيون رؤوسهم وشيدوا كنائس...»⁷. - في النصف الأول من القرن السابع عشر، كثرت المشاريع الترميمية لمباني المسيحيين في حلب. - ورد على لسان الشيخ علي المرادي حين دُمِّرَ معبد صيدنايا: «أذهبوا إلى هناك وابنوا فإن هذا الدير هو ديري»⁸.

د- الاستسلام والمقاومة

تجسدت المأزومية إزاء عنف الحروب⁴، والانغلاق، وظلم السلطات، في صورة صراع وجودي بين الاستسلام والمقاومة، مثلتها الخطابات والأفعال؛ أما سبب هذا التراجح الداخلي فيعود إلى كمّ المصائب التي يسببها المعتدون، وكثافة الظلمية التي تدفع ببعض الدّوات إمّا إلى خضوع بلا رجاء واستسلام لسيطرتها، وإمّا إلى مقاومة تتحوّل إلى تحرر رغبةً في حياة لا مذلة فيها ولا عذابات، إلّا أنّ هذه الثنائية تماهت بسبب الصراع المسيحي الداخلي، فبات الفعل نفسه استسلامًا ومقاومةً تبعًا للمصالح.

لقد كان الكاثوليك في صدارة المشكوك في وفائهم للسلطنة العثمانية وبخاصة بعدما تواطأوا مع العدو زمن الحروب الصليبية، وأنهم الموارنة بالانتماء إلى حزب البابا، بعدما كانوا أوفياء لفخر الدين، إذ تمرّدوا على الصدر الأعظم الذي أغلق الكنائس ولاحق البطريرك⁵.

1 - المصدر نفسه، 44.

2 - المصدر نفسه، 45.

3 - المصدر نفسه، 53.

4 - المصدر نفسه، 58.

5 - المصدر نفسه، 65.

لكن في المقابل، ظهر خصوم الحزب الكاثوليكيّ وطنيّين أكثر من العثمانيّين، فاتّهموا منافسيهم بأنّهم «إفرنجة»، إذ تحالف السّريان والأرمن بواسطة المفتي الأكبر ضدّ الكاثوليك الذين من طانفتهم، ولكي يرغموا قاضي حلب على تنفيذ الأحكام تجمّهموا مرّات كثيرة أمام قصر العدل وهم يصرخون: «يا ابن محمّد، نحن من رعايا الصّدر الأعظم، لا نتعرّف إلى أمير آخر، ولا نريد أن نكون خاضعين للبابا»¹.

تجسّدت المقاومة أيضاً عملياً من خلال تحويل أزمة المثقّف آنذاك إلى عمل تغييريّ إصلاحيّ، فصحیح أنّ أزمة المثقّف تتمثّل في شعورين، الأوّل المسؤوليّة تجاه المجتمع والثّاني العجز عن تغيير الواقع وعن هدم جدران قيم يعيش عليها الناس ويتبنّونها، مع استحالة إيجاد لغة مشتركة للتّواصل... إلّا أنّ مُثَقّفي روما الشّرقيّين أثبتوا عكس ذلك، ولم يكتفوا بتدجين أفكارهم وإيثارهم العزلة، إنّما سعوا إلى إعادة بناء مجتمعاتهم من خلال بناء المدارس وتعليم الأولاد وتوجيه الإكليروس المحليّ، فلم يواجه هؤلاء واقعهم بعنّيّة، إنّما وضعوا مشروعاً اختاروا من خلاله الأصالة الإنسانيّة في أحلك الظروف العبثيّة، فهم أرادوا في خضمّ عظمة المأساة، الالتزام بموقف مُحدّد.

2- مساءلة الهويّة

ننتقل إلى المرحلة الثّانية، وهي مرحلة مساءلة الهويّة، حيث الاغتراب عن العالم الحضاريّ النّفائيّ الخاصّ وعن عالم الآخر، بسبب العجز عن تحقيق الانتماء لأيّ منهما.

ويرتسم بذلك مفهوم أوّل وهو: الاغتراب، إذ يظهر بوضوح الانحراف بمعناه الفلسفيّ عن هويّة الآخرين والانجذاب إلى غيريّة سائدة؛ وقد شكّل هذا المفهوم مادّة دسمة للفلاسفة مثل هيجل وماركس وصولاً إلى فلاسفة الوجود المعاصرين كسارتر وياسبرز، بحيث باتت الهويّة مجرّد افتراض ميتافيزيقيّ في ظلّ وجود إنسان مغترب بطرق شتّى ودرجات متباينة، يتنازع قطبان الهويّة والاغتراب؛ وبمعنى أوضح تشدّه حرّيّة داخلية تذكّره بما ينبغي أن يكون، وتُخضعه ظروف خارجيّة؛ فينشط ويشتت، أو ربّما يصطلح.

1- المصدر نفسه، 65.

وإنّا نتلمّس هذا الصّراع في الاغتراب الذي عاشه «المسيحيّون الشرقيّون» ذاتيّاً وجماعيّاً ومكانيّاً، وبشكل حسيّ أكثر في واقعهم الاجتماعيّ والنّفسيّ والاقتصاديّ والدّينيّ؛ فانفتاح اقتصاد المنطقة على الغرب وازدياد تبعيّة له، دفع الكنائس والأفراد إلى البحث عن مساعدة المجتمعات المسيحيّة وممثليها، فهم شهدوا المدّ الغربيّ من خلال حضور النّجّار الإفرنجية في المرافئ والدّبّلماسيين الذين أمّنوا غطاء لمبعوثي الكنيسة الرّومانيّة¹، وتطلّع المسيحيّون إلى البحث عن أشكال جديدة من التّضامن خارج الإمبراطوريّة العثمانيّة، مع سعيّ إلى الارتباط بروما واختيار الكاثوليكيّة وفق مجمع ترانت المسكوني².

أما المفهوم الثّاني: الهوية والتّمسك بها فيتكوّن من الهاجس النّفسيّ المتحكّم في الذات التي تلتحق بإطار اجتماعيّ وتلتزم بالعادات والتّقاليد والقيم بصفتها ركائز أساسيّة لحركة الذات داخل الجماعة؛ ومما أشار إلى هذا التّمسك:

دهشة الأوروبيّين أمام تمسك المجتمع المسيحيّ الشرقيّ بخصوصيّاته، أبرزها: تقديم الموارد القدّاس وهم حفاة بحجّة التقوى؛ امتناع النساء المسيحيّات، المحجّبات شأن المسلمين، عن التردّد إلى الكنيسة في معظم الأحيان...³؛ الاختلاف بين موارد مدينة حلب وموارد الجبل انعكس انشاقاً بين الحلبيين والبلديّين⁴؛ وجود قسم في الكنيسة مخصّص للنساء يفصلهنّ عن الرجال ويدخلن إليه من باب مستقلّ⁵؛ تأثير نظام القرابة والانتماء إلى الأعيان في اختيار البطريرك والأساقفة⁶.

كانت هذه الطّوابع الأخلاقيّة والدّينيّة والعائليّة تشكّل تراثاً مشتركاً لكلّ سكّان الشّرق الأدنى، مهما كان انتماؤهم الدّينيّ، مع خصوصيّة الهوية المسيحيّة؛ لهذا نجد المسيحيّ أقرب إلى جاره السّنيّ أو الدّرزيّ منه إلى المسيحيّ الغربيّ؛ وفي ظلّ هذا الصّراع بين الاغتراب والتّمسك تبدأ الرّحلة أو الحلم بعالم جديد بلغ حدوداً متقدّمة حضاريّاً... لذا، ونظرًا إلى دقّة هذه المرحلة، ولتفادي نقل الصّور الملمّعة أو المشوّهة المحفورة في

1- المصدر نفسه، 107.

2- المصدر نفسه، 91.

3- المصدر نفسه، 110.

4- المصدر نفسه، 111.

5- المصدر نفسه، 135.

6- المصدر نفسه، 131.

الأذهان، حاول الكاتب في نصّه أن ينقل لنا العلاقة بين الأنا والآخر، الآخر الداخلي والخارجي، راسماً لنا لوحة فيها انتقاد وإدانة من جهة، ونقد ذاتي وفصح واعتراف بالفضل من جهة أخرى.

فمن ناحية، ألقى الضوء على الطابع الاستعماري الغربي ومحاولة القبض على الشعوب الضعيفة وإفقادها الثقة بحضاراتها وأديانها وخصوصياتها؛ فقد تبين أنّ المحافظة على الأماكن المقدسة لم تكن سوى امتدادٍ للحملة الصليبية ومثال على المقاومة الكاثوليكية في مواجهة الأعداء والكفار والمنشقين أو الهرطقة¹.

وفي هذا الجو من الحرب الصليبية بدأت الإرساليات الكاثوليكية بالتوجّه إلى سوريا التي تشكّل إحدى المسارح الممكنة لتحقيق الطموحات، وطوال القرن السابع عشر دعم البابوات مشاريع الحرب ضد الكفرة بالمساعدات المادية وبعود النعم الروحية²، ويُذكر أنّ الكبوشيين أو اليسوعيين ما كانوا بأقلّ حماسة من الفرنسيين في النضال ضدّ التركيّ، فتجنّدوا في الدبلوماسية البابوية لتنظيم التحالفات ولجمع الأموال³.

إلا أنّه من ناحية أخرى، فضح هذا الجوّ الأوهام التي جعلت الآخر الأوروبي -حصراً- السبب الرئيس في كثير من حالات التشتت الذاتي وفقدان الهوية، ولمع صورة كانت مُشوَّشة وضبابية في الأذهان، واعترف بنزعة الإصلاح من خلال تخليص الشعب من وحشيته وهامشيته، بعيداً من فكرة الانتهاك والاعتصاب الحضاريّ.

فقد أجمعت تقارير المرسلين على جهل الشعب والإكليروس. إذ "يفترض الغالبية أنّ الشرقيين هم في مُنتهى الجهل حتّى أنّه يُمكن إقناعهم بكلّ ما يريدون. حقّاً إنّ الجهل كبيرٌ جداً بين هؤلاء المسيحيين، الذين يتّون منذ أكثر من ألف عام رازحين تحت طغيان أمة بربرية. لكنّ الحال ليست سيئة جداً لدرجة أنّه قد وُجد، وما يزال موجوداً، أساقفة قادرون على أن يتصدّوا لمرسلين قليلي الكفاءة، شأن معظمهم"⁴.

وكتب مرسل كبوشي: «لا يوجد شخصان من عشرين يعرفون صلاة السّلام الملائكيّ والأبانا»؛ كذلك ذكر يسوعيّ بأنّه أعطى كعقاب في سرّ الاعتراف أن يكرّر المعترف

1- المصدر نفسه، 184.

2- المصدر نفسه، 193.

3- المصدر نفسه، 195.

4- المصدر نفسه، 141.

إشارات الصليب؛ لأنه لا يعرف من المسيحية غير ذلك»¹.

من هنا، كانت الدعوة إلى إنشاء مدرسة في حلب يديرها الآباء اليسوعيون²، واقتراح بطريرك الملكيين أفثيموس السكزي على المرسل اليسوعي جبروم كيرو المجيء إلى دمشق ليدرس هناك، واغتباط مكاريوس الزعيم لرؤيته الرهبان الكبوشيين والرهبان الكرمل يعلمون في الكنيسة وفي البيوت³.

3- إعادة تشكّل الهوية

نُجسد المرحلة الثالثة إعادة تكوين الهوية، وبخاصة أن وجود المرسلين في الشرق ألزم الدول التي ينتمون إليها بحمايتهم، وشجّع البطارقة كالدويهي مثلاً على طلب الحماية الفرنسية وإعلام لويس الرابع عشر بعمليات العنف المرتكبة ضد الأمة وضده من المسلمين والهراطقة⁴. وقد مهدت هذه الحماية إلى التدخّل في شؤون الطوائف ووضع الشرقيين تحت الوصاية. لكنّ قسماً من المرسلين رفض اللجوء إلى الإرغام والتهديد، وألحّ على حرية اعتناق الإيمان المسيحي ورفض تعديل تقاليد البلاد حين لا تخالف الأخلاق أو الإيمان؛ من هنا، كان تأكيد مجمع انتشار الإيمان على شرعية الطقوس الشرقية، وعلى عدم الحاجة إلى المرور إلى الطقس اللاتيني أو خلط التقاليد.

وبدأ المرسلون بالانتشار أكثر فأكثر من خلال تعلّم اللغة العربية، وسماع اعترافات الشرقيين، وتسلم وظائف رعية، والعمل في التدريس، وإحضار كتب من الغرب تعالج قضايا عقائدية، وزيادة عدد الإخوة المنتشرين في المدن، والإصرار على تدريب المرسلين، والوعظ وسماع الاعترافات، والاستعداد للمناقشة في قضايا عقائدية مثل الروح القدس، والمطهر، والأسرار المقدسة، وأخطاء الشرقيين.

ولم يهدف هؤلاء إلى هداية المسلمين، إنّما اقتصر ذلك على المرتدين بينهم وعلى المنشقين من دروز وعلويين ويزيديين، في حين أقاموا اتصالات مع الفقهاء المسلمين والشيوخ والمفتين، وانفتحوا على المتصوفين والدراويش، وناقشوا في شؤون دينية لكسر جدار النفور، ولتوضيح بعض العقائد؛ ورأوا أنّه وجبت تنقية الطقوس الشرقية نتيجة

1- المصدر نفسه، 140.

2- المصدر نفسه، 140.

3- المصدر نفسه، 141.

4- المصدر نفسه، 251.

الجهل والابتعاد عن الكنيسة الأمّ، لذا كان هدفهم:

تعليم المبادئ الأساسيّة للإيمان، والاهتمام بنظافة أماكن العبادة والزينة، وإعادة النظر في الأعراف والسلوك، والعناية بالأطفال والنساء المهملين والمبعدين عن ممارسة الشعائر والتربية الدينيّة، وتعميق الديانة واللجوء إلى فحص الضمير والتّمارين الروحيّة¹، والتّقرّب من الإكليروس الهرطوقيّ أو المنشقّ²، وإنشاء الأخويّات وتكثيف الاحتفالات الدينيّة، وزيارة القرى النائية التي تعيش بؤساً كبيراً من دون أيّ خدمة طبيّة أو تعليم ديني³.

وعلى الرّغم من معارضة السلطان الإكليروس الشرقيّ، وعلى الرّغم من الانتقاد الكبير لما عدّ احتقاراً للإيمان المسيحيّ الشرقيّ وتعطيماً للإيمان اللاتينيّ: «أليسوا مسيحيين؟ أليس من المخجل أن يتخلّى المرء عن ديانة أجداده؛ ليتبع أجنبيّين أو ثلاثة؟ ألا يؤمن السكّان المسيحيّون الشرقيّون بالمسيح؟...»

وعلى الرّغم من اتّهامهم بخداع النّساء والأطفال، وبتدبير المؤامرات، وإثارة نزاعات في صفوف المؤمنين... فقد نجح هؤلاء إلى حدّ كبير في بدء الإصلاح الكاثوليكيّ، وإعادة تكوين الهوية المسيحيّة الشرقيّة من خلال:

- اتّحاد قسم من المسيحيّين الشرقيّين من روم وأرمين بكنيسة روما.
- تحديد عمر محدّد للوصول إلى مختلف درجات الكهنوت.
- إلزام البطريرك والأساقفة بزيارة الأبرشيّات كلّ عامين⁴.
- إرسال المسابح لنشر الورديّة، وكتب التّعليم المسيحيّ لتعليم القساوسة كي يحسنوا منح الأسرار المقدّسة.
- توزيع الزينة والكتب والأدوات الليتurgiّة أو المال على الكنائس⁵.
- تأسيس معهد أوربانوس سنة 1627 لإعداد قساوسة الأبرشيّات وسط إقبال عدد من

1- المصدر نفسه، 338.

2- المصدر نفسه، 353.

3- المصدر نفسه، 376.

4- المصدر نفسه، 405.

5- المصدر نفسه، 406.

طَلَابُ الشَّرْقِ الْأَدْنَى¹.

- إصلاح الرهبان عن طريق تعديلات في القوانين الرهبانية كالالتزام بالصلاة وحظر الملكية الشخصية...
- إعداد العلمانيين عبر تأسيس مدارس وتعليم الأولاد في الأديرة والنزل وتأمين الرعاية الصحية والغذائية لهم، والاهتمام بالإعداد اللغوي الأجنبي والعربي².
- التّنديد بالتربية التقليديّة وبناء جيل يتمنّع بسلوك اجتماعي يميّزه من الآخرين من خلال إعادة النّظر في الأساليب التربويّة انطلاقاً من الأساليب اللاتينيّة³.
- تعليم الإناث واستقبالهنّ في أخويّات مثل أخويّة القديسة كلير⁴.
- الاهتمام بتمارين الميثة الصّالحة ومواجهة الآلام وعبادة القديسين، وتعديل بعض المظاهر المنحرفة عن الإيمان في أثناء وداع الميت، وإدخال مفهوم الوصية لفضّ النزاعات المحتملة بسبب الميراث، وإعادة النّظر في التقاليد المتعلّقة بالزّواج⁵.

حملتنا المشاريع ذات الطّابع السّردّي التي تبنّتها الفواعل البارزة في النّصّ التّاريخي إلى التّعقّق فيها، من طريق رصد معاجم الملفوظات والخطاب السّردّي بشكل عامّ، في سبيل تأويلها تأويلاً سيميائياً اجتماعياً. ذلك أنّ القضايا الأساسيّة، والفئات الاجتماعيّة بهويّاتها المختلفة، تتجلى في اللّهجات الاجتماعيّة وفي خطابات المتكلّمين وأفعالهم الذين يحملون إيديولوجيا خاصّة بهم، تنقل تصوّره للعالم؛ وهذا التّصوّر، الذي يُعدّ حصيلة خبرات تاريخيّة وآراء وأفكار في صيرورة بناء المجتمع، يدفع بالفرد إلى أن يعي انتماءه إلى جماعة تختلف عن الآخرين، بكلّ تمايزها؛ ولا يفتأ هذا الوعي يُبنى كلّما نشطت آليّة الصّراع والمواجهة؛ والظاهر أنّ الحركيّة نسِمُ فضاء الشّرق الأدنى، إمّا بسبب تبدّل معالمه بتأثير من حوادث الزّمن، وإمّا بسبب تشنّت الجماعة الإنسانيّة وتنقّلاتها؛ وبهذا ينحو الاستقرار منحيين: سلبيّ يتمثّل في التشنّت والضّياع والمحو، وإيجابيّ يتجلى في تغيير الوضع القائم وإعادة تشكّل الهويّة.

1- المصدر نفسه، 437.

2- المصدر نفسه، 461.

3- المصدر نفسه، 466.

4- المصدر نفسه، 471.

5- المصدر نفسه، 525-526.

وبهذا يُقرأ التاريخ قراءة مُتماسكة، ويُنظر إلى الزمن المتراكم نظرة أكثر واقعية، فيوضع حجر الأساس: إن لتحوّلات عرفها المجتمع الشرقيّ بشكل عامّ واللبنانيّ بشكل خاصّ، من انغلاق إلى انفتاح على الغرب المتحضّر المختلف؛ وإن لثوابت وعود أبدية لتشتّت واغتراب؛ فلقد ارتبطت الذات المسيحية الشرقية بتراتها وبمجتمعها، لكنّها ظلّت أبداً مسكونة بالغيريّة، على حدّ قول بول ريكور «الذات عينها هي الآخر».

ثالثاً: النصّ التاريخي - رهان الحقيقي/المتخيّل

بعد الإضاءة السريعة على «سردية النصّ التاريخي المرجعي»، يتأكّد لنا أنّ الكتابة التاريخية تمثّل نوعاً من السّلطة، ذلك أنّ التاريخ، كعلم، يستمدّ قوّته من معرفة الآخر، ويعمل لتأسيس «الحقيقة»، وهذا ما يفسّر وقوع الكتابة التاريخية في مجال القوة؛ قوّة المؤسّسة العلميّة، وأيضاً قوّة المثال الأخلاقيّ، وبالتالي، حول هذين المسؤولين والمفهوم الأخلاقيّ، تتبلور عمليّة السرد التاريخي. لذا، تخضع عمليّة السرد التاريخي، كما تلمّسنا في بنية الخطاب التاريخي لدى هيبيرجيه، لقواعد واضحة، ففيها المخطّطات المنطقيّة، والأساليب التفسيرية، وحسن انتقاء المصادر والوثائق والشهادات والأرشف، في سبيل ربط الأحداث بخطاباتها؛ لكنّ هذا الطّموح، أعني به حسن توجيه السّلطة، يواجه بمدى القدرة على الالتزام بالصدق، أو ربّما تمييز الصادق من المزيف - المتسرّب في الوثائق والشهادات التي تؤثّق الحياة اليوميّة، والتي من البديهيّ أن يُبالغ في الاتكاء عليها، ناسجةً فضاءً للدهشة والتأمّل في طبيعة التفاعلات بين التجارب الفردية والسياقات الاجتماعيّة والسياسيّة المعقّدة - الذي يحمل المؤرّخ، في كثير من الأحيان، إلى اقتحام عالم التخيّل السردية، بإدراكه - حيث التّحيّز الإيديولوجي الذي يمنح وظيفة إثباتيّة لبعض التمثيلات الاجتماعيّة على حساب أخرى - أو من دونه.

لكن هل يمثّل ذلك عيباً أو تشويهاً للتاريخ، ونحن ندرك أنّ الواقع التاريخي الذي يخضع لحكمنا هو بناء تأويليّ للحدث كما يمكن أن يكون، أو يجب أن يكون، قد حدث، ممّا يجعله بطبيعته خياليّاً، وإن بشكل جزئيّ، بحيث يطوّر السرد التاريخي حبكة، ويرسم شخصيات، ويحدّد وحدة للزمان والمكان، ويستخدم صوراً وأشكالاً بلاغيّة تتشكّل في خطاباتها الوقائع، إذ «من العبث البحث عن صلة مباشرة بين الشكّل السردية والأحداث كما وقعت بالفعل؛ فالصلة لا يمكن أن تكون إلّا غير مباشرة عبر الشّرح، ومن خلال

المرحلة الوثائقية التي تعتمد بدورها على الشهادة وعلى مدى تصديقنا كلام الآخرين»¹. في هذا الإطار، نستحضر ما قاله كونديرا «لن ننهي أبداً من الانتقادات التي توجّه إلى أولئك الذين يشوّهون الماضي، يعيدون كتابته، ويزوّدونه، ويضخّمون أهميّة حدث معيّن ويغضّون الطّرف عن آخر؛ هذه الانتقادات مبرّرة [...] لكنّها تظلّ بلا أهميّة كبيرة إذا لم تسبقها انتقادات جوهرية أكثر: نقد الذاكرة البشرية ذاتها [...] حتّى أغنى الأرشيفات لا تستطيع تقديم الحلّ؛ فالذاكرة معزولة عمّا سبقها وما تلاها [...] وإذا أردنا رواية هذا التذكّر كقصة صغيرة ذات معنى، فسيكون لزاماً إدراجه ضمن سلسلة سببية لأحداث وأفعال وأقوال أخرى؛ وبما أنّنا نسيناها، فلن يبقى لنا سوى أن نخترعها لجعل التذكّر مفهوماً»².

هكذا، عبر حكايات حقيقة أو سرد تخيليّ، يُنظر إلى التّاريخ كرواية يمكن استكشافها بعدّة طرق، أو كدائرة زمنية لا نهائية؛ ومن ثمّ، فإنّ استدعاءه يُسائل أنواع الزّمن المختلفة: الخطّيّ، الدائريّ، اللّولبيّ/الإهليلجيّ، وكذلك العلاقة بين الأزمنة الماضية والحاضرة، ومنها نحو زمن «ما بعد».

الخاتمة

ختاماً، يُمكن القول إنّ التّشكيلات السردية في الدّراسة التّاريخية تُمثّل بُعداً جوهرياً في فهم الحقب الزّمنية المختلفة وتحليل الأحداث بشكل متماسك. وقد أظهرت هذه الدّراسة عدم اقتصار السرد التّاريخيّ على سرد الأحداث وفق تسلسلها الزّمنيّ، بل تجاوزه ذلك إلى تشكيل رؤية معرفيّة تتيح إدراك التّرابط بين الطّواهر التّاريخية واستنباط المعاني والدروس منها.

بيّن البحث أنّ التّشكيل السرديّ يتأثّر بالسياقات الثقافيّة والفكرية التي عاشها المؤرّخ أو انكأ عليها، ممّا يعكس تنوعاً في أساليب معالجة الحدث التّاريخيّ ويبرز إشكاليّات الموضوعيّة والتّأويل.

لقد سعينا من خلال هذه الدّراسة إلى توضيح العلاقة بين السرد التّاريخيّ والبنية النّصيّة للمادّة المدروسة، بحيث تناولنا جوانب هذا المفهوم، النّظرية والتّطبيقية، وخلصنا

1-Paul Ricœur, La mémoire, l'histoire, l'oubli, (Paris : Seuil, 2003), 315

2-Milan Kundera, L'ignorance, (Paris : Gallimard, 2003), 116-117

إلى أن السرد ليس مجرد أداة وصفية بل هو عملية مركبة تتطوي على اختيار، وتحليل، وإعادة صياغة للماضي. ومع ذلك، تبقى الحاجة ملحة إلى مزيد من الدراسات التي تستكشف هذا الموضوع من زوايا مختلفة، خاصة في ما يتعلق بالتحليل المقارن بين السرديات التاريخية في الثقافات المتنوعة.

مصادر الدراسة ومراجعها

المصادر والمراجع العربية والمعرّبة

سعيد، إدوار. **الثقافة والإمبريالية**، ترجمة كمال أبو ديب، بيروت: دار الآداب، 1977.

العبد، يمنى. **الرواية العربية: المتخيل وبنيتها**، بيروت: دار الفارابي، 2011.

موران، إدغار. **النهج: إنسانية البشرية-الهوية البشرية**، الإمارات العربية المتحدة: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، 2009.

المصادر والمراجع الأجنبية

Certeau (de), Michel. **L'écriture de l'histoire**, Paris : Gallimard, 2002.

Chartier, Roger. **Au bord de la falaise. L'histoire entre certitudes et inquiétude**, Paris : Albin Michel, 1998.

Foucault, Michel. **L'Archéologie du savoir**, Paris : Gallimard, 1969.

Heyberger, Bernard. **Les chrétiens du Proche-Orient au temps de la Réforme catholique**, Rome: Ecole Française de Rome, 2014.

Koselleck, Reinhart. **Le futur passé. Contribution à la sémantique des temps historiques**, Paris : EHESS, 1990.

Kundera, Milan. **L'ignorance**, Paris : Gallimard, 2003.

Lévy, Marcel. **La Vie et moi**, Paris : Phébus, 1998.

Mona Ozouf, « Récit des romanciers, récit des historiens », **Le débat**, 165, 2011, 13-25.

Perec, Georges. **W ou le souvenir d'enfance**, Paris : Denoël, 1975.

Prost, Antoine. **Douze leçons sur l'histoire**, Paris : Seuil, 1996.

Ricoeur, Paul. **La mémoire, l'histoire, l'oubli**, Paris : Seuil, 2003.

Ricoeur, Paul. « Le 'soi', digne d'estime et de respect », **Morales** 10, 88-99.

Veyne, Paul. **Comment on écrit l'histoire ?**, Paris : Seuil, 1971.

Watzlawick, Paul (dir.). **L'invention de la réalité. Contributions au constructivisme**, Paris : Seuil, 2000.

تَطَوُّرُ التَّأْلِيفِ فِي الدَّرْسِ الصَّرْفِيِّ

Developing Authorship through Morphological Instruction

ريان حمادي¹

Rayan Hamady

تاريخ القبول 2025 /4/14

تاريخ الاستلام 2025 /3/25

المُلخَص

إنَّ الدَّرْسَ الصَّرْفِيَّ مِنَ الْعُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي تُدْرَسُ بِهَا أُبْنِيَّةُ الْكَلَامِ، وَمَا يَطْرَأُ عَلَيْهَا مِنْ تَغْيِيرٍ، وَقَدْ نَشَأَ فِي مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ الْهَجْرِيِّ مَعَ عِلْمِ النَّحْوِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ فَقَدْ تَطَوَّرَ وَحْدَهُ مُنْفَصِلًا. وَقَدْ سَعَتِ الْبَاحِثَةُ فِي هَذِهِ الدِّرَاسَةِ إِلَى الْكَشْفِ عَنِ هَذَا التَّطَوُّرِ، عَارِضَةً مَرَاجِلَ تَطَوُّرِهِ، كَاشِفَةً الدَّرْسَ الصَّرْفِيَّ عِنْدَ الْقَدَمَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ، مُرَفِّقَةً بِنَمَازِجٍ تَطْبِيقِيَّةٍ. فَالْمُتَمَعِّنُ فِي الدَّرْسِ الصَّرْفِيِّ يُدْرِكُ قُوَى الْإِخْتِلَافِ فِي تَنَاوُلِ الْقَضَايَا الصَّرْفِيَّةِ بَيْنَ الْقَدَمَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ، سِوَاءٍ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَادَّةِ أَوْ الْمَنْهَجِ الْمُتَّبَعِ، وَذَلِكَ نَتِيجَةُ إِعَادَةِ هَيْكَلَتِهِ وَتَنْظِيمِ قَوَاعِيدِهِ، وَضَبْطِهَا مِنْ مَنْظُورٍ حَدِيثٍ يُسَهِّلُ عَلَى الْبَاحِثِ اسْتِعَابَهُ وَفَهْمَ قَوَاعِيدِهِ مِنْ جِهَةٍ، وَمُوَكَبَةِ التَّطَوُّرَاتِ الْعِلْمِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى.

Abstract

The morphological lesson from the Arabic sciences in which the structures of speech are studied, and the changes that occur to them, and it arose in the middle of the first century AH with the science of grammar and after that it has developed on its own separately. Its development, revealing the morphological lesson of the ancients and moderns, accompanied by applied models. The study of the morphological lesson realizes the forces of difference in dealing with morphological issues between the ancients and the moderns, whether in terms of the material or the approach followed, as a result of its restructuring, organizing and controlling its rules from a modern perspective that makes it easier for the researcher to assimilate and understand its rules on the one hand and keep pace with scientific developments on the other hand.

1- طَالِبَةُ دَكْتُورَاهِ فِي الْجَامِعَةِ الْبُسُوعِيَّةِ -بِئِروَت- (اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَأَدَابُهَا). مُعَلِّمَةُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْهَجِ الْبَكَالُورِيَا الدَّوْلِيَّةِ وَالْمَنْهَجِ اللَّبْنَانِيِّ-الْمَدْرَسَةُ اللَّبْنَانِيَّةُ -قَطْرَ.

أولاً: مقدمة الدراسة

لا يخفى على أحد ما للدَّرسِ الصَّرْفِيِّ من أهميَّةٍ في صَوْنِ اللِّسانِ مِنَ الخطأِ في المُفْرَدَاتِ، وذلكَ مِنْ حيثُ بِنْيَةُ الكَلِمَةِ مِنْ داخِلِها، وَمِنْ آخِرِها، ومُحاوَلَةِ ضَبْطِ مُفْرَدَاتِ اللُّغَةِ ذاتِ البَيِّنَاتِ المُحَدَّدَةِ (الأَسْمَاءِ والأَفْعَالِ)، وتصنيفِها إلى أنماطٍ مُحدَّدةٍ، بِحيثُ يُمكنُ اسْتِعْمالُ مَجْمُوعَةٍ مُحدَّدةٍ مِنَ الصِّيغِ، يُمكنُ بِها التَّعَرُّفُ على جَمِيعِ أَفْعالِ اللُّغَةِ وأَسْمائِها، ومُلاحَظَةِ الفُروقِ في تراكيبِها المُخْتَلِفَةِ؛ وذلكَ لأنَّ الدَّرْسَ الصَّرْفِيَّ هو «عِلْمُ تولِّدِ الألفاظِ المُخْتَلِفَةِ والمعاني المُتفاوتَةِ»¹. وفيه «تعرَّفَ أصولُ الكلامِ العربِ من الزوائدِ الداخلةِ عليه، ولا يُصلُ معرفةُ الاشتقاقِ إلَّا به»². نلاحظُ أنَّ الصَّرفَ يَدورُ حولَ التَّغييرِ والتَّبدِيلِ، ولكن مع بداياتِ النُّحوِ، حين أخذَ اللُّحنُ اللُّغوي يَشيعُ خاصَّةً بين الأَعاجمِ في الصِّدْرِ الإسلاميِّ الأوَّلِ، اعتَرى اللِّسانَ العربيَّ التَّبدُّلُ بسببِ اتِّساعِ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ، ودخولِ غيرِ العربِ في الإسلامِ، ما جعلَ ثُلَّةً من أَهلِ العربيَّةِ تتولَّى الدِّفاعَ عنها ممَّا يعْتريها، تبتغي صَوْنِها، فأصلُّوا للنُّحوِ ووضَعوا الإعرابَ، وكان الدَّرْسُ الصَّرْفِيَّ مندرَجًا تحت الإعرابِ، وكانَ يُطلَقُ عليه اسمُ العربيَّةِ، لم تُفصَّلْ في أوَّلِ عَهْدِها ولم تُحدَّدْ مباحثُها.³ ولم يستقرَّ الدَّرْسُ الصَّرْفِيَّ عن النُّحوِ إلَّا في أَطوارٍ لاحِقَةٍ إذ تَأصَّلَتْ فيها أصولٌ كثيرةٌ.

إنَّ الناظِرَ في القواميسِ العربيَّةِ يَحْتَاجُ لأنَّ يَكُونَ على مَعْرِفَةٍ بالصَّرْفِ ومَسائِلِهِ، فالخَلِيلُ بنُ أَحْمَدَ الفَرَاهيديُّ (170هـ) يُصَنِّفُ مَعْجَمَ «العَيْنِ» واضْعًا الكَلِمَاتِ فِيهِ تَبَعًا لِحُرُوفِها الأَصْلِيَّةِ فَقَطْ، وعلى هَذَا النَّسَقِ سارَتِ مَعْظَمُ المَعاجِمِ؛ ومعنى ذلكَ أنَّ الناظِرَ في المَعاجِمِ العربيَّةِ إنَّما يَحْتَاجُ لِمَعْرِفَةٍ صَرْفِيَّةٍ بِحُرُوفِ الزِّيادَةِ وطَريقَةِ تَجْريدِ الكَلِمَةِ، وعليه لا بدَّ أن يَكُونَ على بَيِّنَةٍ مِنَ الثَّنائِيِّ والثَّلَاثِيِّ الصَّحِيحِ، والثَّلَاثِيِّ المَعْتَلِّ، واللَّفَيفِ والرُّباعِيِّ والخُماسِيِّ.

فمَعْرِفَةُ مَسائِلِ الدَّرْسِ الصَّرْفِيِّ تُساعِدُ في ضَبْطِ صِيغِ اللُّغَةِ العربيَّةِ، وتَجْعَلُ المُتَعَلِّمَ مَتَمَكِّنًا مِنْ ضَبْطِ مُفْرَدَاتِ اللُّغَةِ ضَبْطًا سَلِيمًا، وتُساعِدُهُ على التَّمييزِ بَيْنَ ما هو سَماعِيٌّ

1- الجرجاني، عبد القاهر. (1978). المفتاح في الصرف (الطبعة الأولى). بيروت: مؤسسة الرسالة، ص 26.

2- ابن جني، أبو الفتح عثمان. (1954). المنصف (الطبعة الأولى، الجزء 1، القاهرة: إدارة إحياء التراث القديم. ص 1-2.

3- الدناع، محمد خليفة. (1991). دور الصرف في منهجي النحو والمعجم. بنغازي: منشورات جامعة قارونس. ص 27.

وما هو شاذٌّ وما يجبُ تجنُّبه. ولكنَّ هذه المعرفةَ بالدُّروسِ الصَّرْفِيَّةِ قد تطوَّرتُ التَّأليفُ فيها، ومرَّ بمراحلٍ متعدِّدةٍ حتى استوى على صورته، وتباينَ ما بينَ القُدماءِ والمُحدثين. وقد أُنْتُت هذه الدِّراسةُ لتوضِّحَ هذا التَّطوُّرَ في الدِّرسِ الصَّرْفِيِّ. واقتضتْ طبيعةُ الدِّراسةِ أن تكونَ موزَّعةً على تمهيدٍ يتضمَّنُ نشأةَ الدِّرسِ الصَّرْفِيِّ منذُ بدايته، موزَّعةً على ثلاثةٍ مباحثَ:

سأتناولُ في المبحثِ الأوَّلِ الدِّرسَ الصَّرْفِيَّ عندَ القُدماءِ، أُبينُ فيه مفهومَ الصَّرْفِ ومراحلَ تشكُّلهِ واستقلالهِ عن علمِ النُّحوِ في الدِّرسِ اللُّغويِّ عندَ العربِ، مُدعِمةً ذلكَ بنماذجٍ تطبيقيَّةٍ.

أمَّا المبحثُ الثَّاني فسأتطرَّقُ فيه إلى مراحلِ تطوُّرِ الدِّرسِ الصَّرْفِيِّ. ليأتيَ المبحثُ الثَّالثُ فأقدِّمُ فيه الدِّرسَ الصَّرْفِيَّ عندَ المُحدثينَ (المَدارسِ اللُّغويَّةِ الحديثة)، وأبرزُ تحليلها لصورَةِ الدِّرسِ الصَّرْفِيِّ، والجهودَ الَّتِي بُذِلَتْ لتطوُّره، مُدَيِّلةً الدِّراسةَ بخاتمةٍ موجزةٍ عن أهمِّ نتائجها.

ثانيًا: إشكاليَّةُ الدراسة:

لقد فرضتْ طبيعةُ الدراسةِ الإجابةَ على إشكاليَّةٍ فحواها:

- ما هو الدرس الصرفي؟ كيف كان التأليف في الدرس الصرفي عند الأقدمين؟
- كيف تطوَّر التأليف في الدرس الصرفي؟ وما هي مراحل تطوُّره؟ وكيف أتى عند المحدثين؟

ثالثًا: فرضيَّاتُ الدراسة:

- لقد تطوَّرتُ التأليف في الدرس الصرفي وطراً عليه عدَّةُ تغييراتٍ مع اتِّصاله بعلم اللغة الحديث.
- يوجدُ اختلافٌ أساسيٌّ في التأليف للدرس الصرفيِّ بين القدامى والمحدثين في ميادين عدَّة.

رابعاً : المنهج المتبع: باعتبار الدراسة تقوم على الاطلاع على آراء القدماء، فقد اتبعت المنهج التاريخي الذي يدرس الماضي وسجلاته ووثائقه؛ ويقوم على الجمع والانتقاء والتصنيف وتأويل الواقع¹. فقد أعانني على استقراء الدرس الصرفي؛ وتحليل ظاهرة التطور فقد اتبعت المنهج الوصفي التحليلي الذي ساعدني على فهم الظاهرة واستخلاص سماتها.

خامساً: اختيار الدراسة: إنّ من دوافع اختيار هذه الدراسة، كونها على صلة بالموروث العربي القديم، والجدل القائم حول التطورات الحادثة في الدرس الصرفي.

سادساً: تحليل نص الدراسة

التمهيد: إنّ التغيير الذي يطرأ على بنية الكلمة يكون لغرضٍ معنويٍّ أو لفظيٍّ، والمراد ببنية الكلمة وزنها وصيغتها وهيئتها التي يُمكن أن تشاركها فيها. فالتغيير الذي يطرأ لغرضٍ معنويٍّ هو كتغيير المفرد إلى المثنى أو الجمع كالتصغير والنسب وأخذ المشتقات من المصدر أو الفعل وتوكيد الفعل بالنون وغير ذلك.

أما التغيير الذي يطرأ لغرضٍ لفظيٍّ، فيكون بحذف حرفٍ أو أكثر في الكلمة أو بزيادة حرفٍ أو أكثر عليها، أو بإبدال حرفٍ من آخر، أو بقلب حرفٍ علّةٍ إلى حرفٍ آخر؛ أي أنّ هذا التغيير ينحصر في خمسة أشياء هي الحذف والزيادة والنقل والإقلاب والإدغام.

لقد خسر علماء الصرف العرب الكلمات التي يدرسها الصرف في نوعين هما: الاسم المتمكّن والفعل المتصرف، ويعدّ الميزان الصرفي أساساً من الأسس التي تركز عليها دراسة علم الصرف، وهو أحد الموازين التي وضعها علماء العربية الأقدمين، إذ لاحظوا أكثر الكلمات على ثلاثة حروف. لذا فإنهم اعتبروا أصول الكلمات على ثلاثة أحرف واختاروا مادة (فعل) الثلاثية.² ولقد اهتمّ المحدثون بالدرس الصرفي كثيراً، وسعوا وإلى إعادة هيكلته وهيكلة قواعده من منظورٍ جديدٍ، ليقدم للباحثين والدارسين بطرق أكثر ملاءمة مع التطور العلمي الذي حدث في المجتمع؛ فالدرس الصرفي أشرف شطري العربية وأعظمها، فالذي يبيّن شرفه احتياج جميع المشتغلين في اللغة العربية من نحويّ ولغويّ أيما حاجةٍ إليه، لأنّه يأخذ جزءاً كبيراً من اللغة بالقياس ولا يتوصّل إلى ذلك

1- العسكري، عبود. (2002). منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية (ط. 1). دمشق: دار النمير. ص 6.

2- زرنج، كرم محمد. (2007). أسس الدرس الصرفي في العربية (ط. ٤). دمشق: دار الفكر. ص 18.

إلا عن طريق الدرس الصرفي». ¹مع العودة إلى الموروث اللغوي القديم؛ بل لا بد أن يكون تأكيداً لقيمته «لأن الموروث هو نقطة الانطلاق في الدرس الصرفي، وقد تطوّر التأليف فيه بمراحل متعدّدة حتى وصلَ على صيغته اليوم. والبحث اللغوي الحديث يتناول مسائل الصرف على أساس صوتي بدلاً من اعتماد القدماء على الكتابة في تحديث الكلمة، فكل مجموعة من الحروف تُكتب مجتمعةً وتأخذ شكلاً مستقلاً في الكتابة اعتبرها القدماء كلمة، في حين يتعاملُ البحث اللغوي الحديث مع الوحدة الصرفية مورفيم morphème. فالصرفُ في علم اللغة الحديث هو أحد مستويات البحث في دراسة اللغة، وهذه المستويّات على أشهر الآراء هي: علم الأصوات، علم الصرف، علم النحو والدراسات المعجميّة الدلاليّة» ².

المبحث الأول: الدرس الصرفي عند القدماء

لقد كانَ علما النحو والصرف معاً في النشأة، بعدما شُعر بالحاجة الملحة إليهما بسبب تفتّشِ اللحن، ولفهم النصّ القرآنيّ باعتباره مناطَ الأحكام التي تنظم الحياة. ³وأوّل كتابٍ ظهر في النحو هو كتاب سيبويه (180هـ) الذي مازج فيه بين مباحث النحو والصرف، وضمّ أيضاً ابن جني (392هـ) مباحث تنتمي إلى علم الصرف الذي كانت ملامحه قد اتّضحت في عصره، وصنّف فيه كتباً معرّفاً النحو بأنّه انتحاءٌ سمّت كلامُ العرب في تصرفه من إعرابٍ وغيره كالتثنية والجمع والتحقيق والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة «⁴ وبعد عصر ابن جني عُرف التصريف بأنّه جزءٌ من أجزاء النحو بلا خلافٍ من أهل الصناعة، يقول: «إنّك لا تكادُ تجدُ كتاباً في النحو إلا والتصريف في آخره...» ⁵ «فالتصريف إذاً لمعرفة أنفس الكلم الثابتة. ثم جاء المازني (247هـ)، فأخذ من كتاب سيبويه الأبواب الصرفية، وعرضها وحدها في كتاب التصريف، وهو أوّل الكتب التي أفردت لأبواب الصرف مؤلفاً خاصاً بها. وقد تفاوتت الدارسون تفاوتاً بيّناً في تقدير كتاب المازني، إذ نجدُ من جهةٍ أنّ الكتابَ حظي بتقدير القدماء، فشرح شروحاً متعدّدة، وكذا

1- ابن عصفور. (1973). الممتع في التصريف (ط. 3). حلب، سوريا: دار النمير. ج 1، ص 30.

2- بشر، كمال. (2005). التفكير اللغوي القديم والجديد. القاهرة: دار الثقافة العربية. ص 238.

3- الحملاوي، أحمد. (1998). شذا العرف في فنّ الصرف. الرياض: دار البيان للطباعة والنشر والتوزيع، ص 27.

4- المصدر نفسه.

5- الاسترأبادي، الرضي. (2005). شرح الشافية لابن الحاجب. بيروت: دار الكتب العلميّة. ج 1، ص 6.

نوة بعض المعاصرين بقيمته الأدبية العلمية، ونجدُ بعض المعاصرين يقلُّ من قيمة الكتاب العلمي، ويُقرَّر أنه مستقلٌّ عن كتاب سيبويه لا غير؛ بل إنه لم يصل إلى حدِّ استيعاب أبواب الصرف ومسائله، كما استوعب ذلك سيبويه». لما لبث أن أصبح التأليف في الدرس الصرفي نموذجًا مستقلًا يختلف عن النموذج النحوي وله نظريته الخاصة.

«ذهب الكثيرون من الباحثين إلى أن واضع علم الصرف هو معاذ بن مسلم الهراء (187هـ) من أعلام مدرسة الكوفة الأوائل، ولكن هذا الرأي غير موثوق به، فقد كان علماء اللغة في أول عهدهم في التصنيف في العربية والنحو والصرف والعروض بصفة عامة، وكان العالم بالعربية لغويًا نحويًا إخباريًا روائية، ثم انفصلت العلوم العربية بتنوع مدارسها وبالانقاف الطلاب حول أسانذتهم في نوع معين من علوم اللغة». وبذلك يكون مؤلف (التصريف) الذي أنشأه المازني (247هـ) الأثر البالغ الأهمية في سياق تطور الدرس الصرفي، حيث أعلن أحقية هذا العلم بالتميز والاستقلال في المنهج وفي نوع القضايا، وفتح الجهود أمام النحاة لاستقالة علم الصرف عن النحو.

أدى تطور الدرس الصرفي من جهة المنهج، وحدود القضايا التي تدخل فيه ومنه، للوصول في نهاية المطاف إلى نظرية صرفية مستقلة ومختلفة إلى حد ما عن النظرية النحوية. وقد احتوت كتب الدرس الصرفي على أبواب وموضوعات من صميم الدرس الصرفي، تتعلق بتصريف الأفعال، الاشتقاق، والصيغ ومعاني الزيادة. فقد بين علماء الصرف القدامى أن الصرف يتناول الكلمة في حال الأفراد، أي من حال كونها خارج التركيب، وذلك بغية معرفة أنفس الكلمة الثانية، وقد قسموا تلك الأحكام إلى قسمين رئيسيين:

- قسم من يدرس ما يطرأ على بنية الكلمة من تغييرات لضروب من المعاني، كأن تُغيَّر صيغة المصدر مثلاً إلى الفعل الماضي أو المضارع أو الأمر، أو إلى أي صيغة أخرى تتحمل دلالة جديدة كالمشتقات بأنواعها، وجُموع التكسير، والمصغر، والمنسوب، وهذا النوع من التغييرات حُجرت عادة النحويين بذكره قبل علم التصريف وإن كان منه.

وقسم يدرس ما على البنية من التغييرات التي لا تكون دالة على معانٍ جديدة كالنقص،

1- عضيمة، محمد عبد الخالق. (1962). المغني في تصريف الأفعال (ط. 3). القاهرة: دار الحديث. ص 12.

2- هندأوي، حسن. (1989). مناهج الصرفيين ومذاهبهم في القرنين الثالث والرابع من الهجرة. دمشق: دار الفكر. ص 59.

والإبدال، والقلب، والنقل، والإدغام. والدرس الصرفي عند القدماء يدرس البنية بأنواعها المختلفة ويبحث في أحوالها، والبنية هي التي حظيت باهتمام القدماء، فوصفوا صورها وهيئاتها التي تتشكل منها؛ فعند القدماء أن بنية الكلمة تتحدد بعدد حروفها المرتبة في (عقل) بنية، و(قلع) بنية أخرى. وتتحدد بحركاتها وسكونها في (علم) بنية، و(علم) بنية ثانية، و(علم) بنية ثالثة.

وهناك من القدماء من يرى أن الدراسة الصرفية يجب أن تختص بدراسة أحوال الكلمة التي تتأهب للدخول في التركيب، والتي تتمثل في نقل الكلمة من المفرد إلى المثنى فالجمع، ومن حالة التذكير إلى التعريف، ومن التذكير إلى التأنيث. وكذلك تتمثل في أحوال الفعل المختلفة من حيث دلالاته على الزمن، والهيئة، والنسب، والعدد، والشخص. أما التغييرات الأخرى التي تطرأ على الكلمة كالاشتقاق، والتصغير، والنسب، والتجريد، والزيادة، فإنها نعد جزءاً من علم المعجم. وعلم الصرف هو القواعد الكلية التي يعرف بها التغيير الذي يطرأ على بنية الكلمة، وغاية هذا التغيير، واشتقاق الكلمة من غيرها، واشتقاق غيرها منها، وبيان المشتق والمشتق منه.

فهو علم يبحث في هيئة الكلمة، أو بنيتها، أو صيغتها؛ أي عدد حروفها، ونوعها، وترتيبها، وضبطها، بعيداً عن إعرابها وبنائها، فإن الإعراب والبناء من اختصاص علم النحو. وعلم الصرف يضع الموازين الدقيقة لكل كلمة، ويكشف عن حروفها الأصلية، وفائدة هذه الزيادة، ويرد الكلمة إلى فعلها والمصدر الذي اشتقت منه، ويبيّن ما دخل عليها من إبدال، أو إعلال، أو إدغام، وما اعتراها من حذف لبعض أصولها، وسبب ذلك الحذف وكيفية رده، وليان ما يدخل على الملمة من تغيير في معانيها بسبب تضعيفها أو زيادة حروف على حروفها. وعلم الصرف وثيق الصلة بالعلوم كلها، فهو شقيق لأن كلا منهما يبحث في الكلمة العربية، ويضع القواعد التي تصون اللسان عن الخطأ في الكلام؛ إلا أن الدرس الصرفي عند القدماء يبحث عن بنية الكلمة. وهذه بعض النماذج التطبيقية:

1- فَيَا لَيْلُ كَمْ مِنْ حَاجَةٍ لِي مُهِمَّةٍ إِذَا جِئْتُكُمْ بِاللَّيْلِ لَمْ أَدْرِ مَا هِيَ؟

مُهِمَّةٌ: مُفَعَّلَةٌ: اسم ثلاثي مزيد فيه حرف واحد، قبل الفاء، صحيح الآخر، مؤنث وهو مشتقٌّ، على صيغة اسم الفاعل من مصدر «أَهَمَّ، يُهَمُّ». أصله «مهممةٌ». التقى فيه مثلان متحرّكان هما الميمان وقبلها ساكن، فنقلت حركة الميم الأولى إلى الساكن قبلها وأدغمت في الثانية، وهو إدغامٌ كبيرٌ واجب.

بِاللَّيْلِ: بالفعل، اسم ثلاثي مجرد صحيح الآخر، مذكر مجازي، وهو اسم جنس جامد يدلّ على ذات، وأصله «اللَّيْلُ» التقى فيه مثلان هما اللامان، الأولى ساكنة وأدغمت في الثانية، وهو إدغامٌ كبيرٌ واجب.

أَدْرِ: أفع: فعل مضارع ماضيه (درى) على وزن (فَعَلَ)؛ فهو فعلٌ ثلاثيٌّ مجرد ناقص من الباب الثاني، وأصله (أدري) استثقلت الضمة على الياء فسكنت، ولما جُزم حذفت الياء.

2- خَلِيلِي إِنْ لَا تَبْكِيَانِي أَلْتَمَسْ خَلِيلاً إِذَا أَنْزَفْتُ دَمْعِي بَكَى لِيَا

تَبْكِيَا: تفعلا: فعل مضارع ماضيه «بكى» على وزن «فَعَلَ»، فهو ثلاثي مجرد ناقص. **أَلْتَمَسْ:** أفتعل: فعل مضارع ماضيه «التمس» على وزن «افتعل»، فهو فعلٌ ثلاثيٌّ مزيد فيه حرفان بينهما الفاء، والزيادة فيه للاستغناء عن المجرد، وهو ليس على وزن الرباعي صحيح سالم.

أَنْزَفْتُ: أفعلت: فعل ثلاثي مزيد فيه حرف واحد قبل الفاء، والزيادة فيه للمبالغة، وهو ملحقٌ به وعلى وزن الرباعي، وغير ملحق به صحيح سالم.

دَمْعِي: فعلي: اسم ثلاثي مجرد، وهو اسم جنس جمعي، مفردة دمعة، والدمعة اسم جنس جامد يدلّ على ذات، صحيح الآخر، مؤنث مجازي.

3- فَمَا أَشْرَفُ الْأَيْفَاعِ إِلَّا صَبَابَةٌ وَلَا أَنْشِدُ الْأَشْعَارَ إِلَّا تَدَاوِيَا

أَشْرَفُ: أفعِل: فعل مضارع ماضيه «أشرف» على وزن «أفعل»، فهو فعلٌ ثلاثيٌّ مزيد فيه حرف واحد قبل الفاء، والزيادة فيه للمبالغة، وهو على وزن الرباعي وغير ملحق به صحيح سالم، أصله «أوشرف» التقى فيه همزتان، فحذفت ثانيهما للتخفيف.

الأَيْفَاعُ: الأفعال: اسم ثلاثي مزيد بحرفين، بينهما الفاء والعين، وهو جمعُ تكسير من جموع القلّة مفردة «يفعّ» و«اليفع» اسم جنس جامد يدلّ على ذات، صحيح الآخر، مذكر مجازي.

صَبَابَةٌ: فعالة: اسم ثلاثي مزيد فيه حرفٌ واحدٌ، بين العين واللام، صحيح الآخر، مؤنث مجازي، وهو اسم جنس معنويّ جامد، مصدر «صبّ: يصبّ»

أُنْشِدُ: أَفْعِلُ: فعل مضارع، ماضيه أنشدَ، على وزن «أفعل»، فهو فعلٌ ثلاثي مزيد فيه حرفٌ واحد، قبل الفاء، والزيادة فيه للإغناء عن المجرد، وهو على وزن الرباعي غير الملحق به، صحيح سالم، أصله «أونشدُ» التقت فيه همزتان فحذفت ثانيتهما للتخفيف.

الأَشْعَارُ: الأفعال: اسم ثلاثي مزيد فيه حرفان بينهما الفاء والعين، وهو جمعُ تكسير من جموع القلّة مفردة «شِعْرٌ»، و«الشّعْرُ» اسم جنس جامد يدلّ على ذات، صحيح الآخر، مذكر مجازي.

تداويا: تفاعلا: اسم ثلاثي مزيد فيه حرفان بينهما الفاء، منقوص مذكر مجازي، وهو اسم جنس معنويّ جامد، مصدر «تداوى، يتداوى»، أصله «تداويّ»، وقعت فيه الياء متطرّفةً بعد ضمٍّ، فقلبت الضمة كسرة لتجانس الياء، واستثقلت الضمة على الياء فسكنت، فالتقى ساكنان هما الياء والتتوين، فحذفت الياء لأنها حرف مدّ فصار «تداوٍ»، ولما نصبت ردّت الياء إليه.

4- وَقَدْ يَجْمَعُ اللَّهُ الشَّيْئَيْنِ بَعْدَمَا يَظُنَّانِ كُلَّ الظَّنِّ أَنْ لَا تَلَاقِيَا

يَظُنُّانِ: يَفْعَلَانِ: فعلٌ مضارع، ماضيه «ظنّ» على وزن «فعل»، فنوع فعل ثلاثي مجرد صحيح مضعّف، من الباب الأوّل أصله «يظُنُّن»، التقى فيه مثلان متحركان هما النون وقبلها ساكن، فنقلت حركة النون الأولى إلى الساكنة قبلها، وأدغمت في الثانية، وهو إدغامٌ كبيرٌ واجبٌ.

الظَّنُّ: الفَعْلُ، اسم ثلاثي مجرّد صحيح الآخر، مذكر مجازي، وهو اسم جنس معنويّ، جامد مصدر «ظنّ» «يظنّ» أصله «الظنُّن» التقى فيه مثلان هما النونان، الأولى ساكنة فأدغمت في الثانية، وهو إدغامٌ صغير واجب. والتقى فيه أيضاً متقاربان هما لام التعريف الساكنة والطاء، فأبدلت اللام طاء وأدغمت في الطاء الثانية، وهو إدغامٌ

صغيرٌ واجب.

تَلَاقِيَا: تفاعلا: اسم ثلاثيٍّ مزيد فيه حرفان بينهما الفاء، منقوص مذكر مجازي، وهو اسم جنس معنويٍّ جامد مصدر «تلاقى، يتلاقى». أصله «تلاقى» وقعت فيه الياء متطرفة بعد ضم، فقلبت الضمة كسرة لتجانس الياء، استنقلت الضمة على الياء فسكنت، فالتقى ساكنان هما الياء والتتوين، فحذفت الياء لأنها حرف مدّ، فصار «تلاقى»، ولما نصب ردت الياء إليه.¹

«لقد اختارَ الصرفيون القدماء مادة (فعل) لتكون ميزاناً صرفياً، والسببُ في ذلك هو أنَّ مادة (فعل) أشملُ الموادِ وأعمقها. فكلَّ حدثٍ يُسمى فعلاً، ومادة (فعل) هي أشملُ المواد التي يطرُدُ فيها التغيُّير ويكثرُ إنَّما هو الفعل والأسماء المتَّصلة بالأسماء المشتقة، ومخارج الحروف ثلاثة (الحلق واللسان والشفة) فأخذوا من كلِّ حرفٍ مخرجاً (الفاء) من الشفة، و(العين) من الحلق، و(اللام) من اللسان».² ولما كان أكثر الكلمات العربية ثلاثياً، عدَّ علماء الصرف أنَّ أصولَ الكلمات ثلاثة أحرف، وقابلوها عند الوزن بالفاء والعين واللام مصوَّرةً بصورة الموزون، فيقولون في وزن (قَمَر): فعل بالتحريك، وفي جَمَل: فعل بكسر الفاء وسكون العين، وفي كَرَم: فَعْل بفتح الفاء، وضمَّ العين ... ويُسمون الحرف الأوَّل فاء الكلمة، والثاني عين الكلمة، والثالث لام الكلمة، فإذا كانت الكلمة زيادة على ثلاثة أحرف؛ فإن كانت زيادتها ناشئةً من أصل وضع الكلمة على أربعة أحرفٍ أو خمسة، زدت في الميزان لاماً أو لامين على الأحرف (فعل)، فتقول في وزن دحرج مثلاً (فعلل)، وفي وزن جَحْمَرِش (فعللل)، وإن كانت ناشئةً من زيادة حرفٍ أو أكثر كرَّرت ما يُقابلة في الميزان، وإن كانت الزيادة ناشئةً من زيادة حرفٍ أو أكثر من حروف (سألتومنيها) التي هي حروف الزيادة، قابلت الأصول بالأصول، وعبرت عن الزائد بلفظه، فتقول في لفظ قائم (فاعل)، وفي وزن تقدَّم (تفعَّل)، وفي وزن استخرج (استفعل)، وفي وزن مجتهد (مُفتعل) ...³ ويرى المحدثون أنَّ الكلمة يجبُ أن توزن على ما هي عليه فعلاً لا على ما كانت عليه أصلاً بغضِّ النظر عن التغيُّير الذي أصابها.

1- الرمالي، ممدوح. (2000). تطوُّر التأليف في الدرس الصرفي. منتدى سور الأزيكية. ص 40.
2- الجرجاني، عبدالقاهر. (1987). المفتاح في الصرف (ط. 1). بيروت: مؤسسة الرسالة. ص 27.
3- الحملاوي، أحمد. (1998). شذا العرف في فنِّ الصرف. ص 14.

المبحث الثاني: مراحل تطوّر الدرس الصرفي

إنّ اللغويين عندما أرادوا وضع مؤلّفات عن الدرس الصرفي ارتأوا أنّ هناك عدّة أبواب صرفيّة يجب إعادة النظر في ترتيبها وزجّها في المؤلف الصرفي، مُعتبرين أنّ هناك أبواباً تُعدّ أقرب إلى المعجم منها إلى الدرس الصرفي؛ وبالتالي ألَبسوها مكانها المناسب مع المصنّفات المعجميّة، فهي أقرب للدرس الصوتي، فمثلاً (أبواب الفعل الثلاثي الستة) يؤكّد الصرفيون أنفسهم أنّها خاضعة للسمع وتُستفاد من المعجم ودراسة اللغة وتطوّر صيغها. وأنّ أبواباً دعا الصرفيون إلى إلغائها، فقد عدّها البعض من قبيل التمارين العقلية، فلم يسعوا إلى تضمينها في مؤلّفاتهم. كباب الإخبار بالذي والألف واللام، فقد عدّها البعض بأنّه بابٌ وضعه النحويون لامتحان الطالب وتدريبه، كما وضعوا باب التمرين في التصريف لذلك.¹ واعتمدوا في تأليفهم للدروس الصرفية على الأبواب التي تهتمّ بالمفردات العربيّة من حيث البحث عن كَيْفِيّة صياغتها لإفادة المعنى، أو من حيث البحث عن أحوالها العارضة لها من صحّة وإعلال، وإذا تتبعنا كتب التراجم والطبقات فيما ذكرت من مؤلّفات النحاة في التصريف، ومجالسهم في تناظرٍ بمسائله، نلاحظ أنّ هذا العلم مرّ في طريق اكتماله واستوائه بعدّة مراحل وأطوار، يمكن تلخيصها في ثلاث:

الأولى: «مرحلة اندماجه مع علم النحو، ثمّثلها مؤلّفات كبار النحاة الأوائل حتّى منتصف القرن الثالث الهجريّ، الذين أدرجوا مباحث «الصرف والتصريف» مع مباحث «النحو» دون استقلالٍ لأحدهما عن الآخر، ك«الكتاب» سيبويه (180هـ) و«المقتضب» المبرّد (285هـ)؛ أمّا الطابع العام لهذه المرحلة هو أنّ الصرف كان ينسرب بين مباحث النحو تأليفاً وتناظراً ما بين النحويين، ومن ذلك ما بدأ به مجلس سيبويه مع الكسائي وأصحابه بحضرة الرشيد».²

الثانية: «بدء تميّزه وانفصاله واستقلاله تدريجياً عن النحو، وظهوره كعلمٍ قائمٍ مستقلّ باسم «علم التصريف». وذلك بصدور بعض المؤلّفات والمصنّفات الخاصّة به، مثل «كتاب التصريف» لأبي عثمان المازني (248هـ) و«التكملة» لأبي عليّ الفارسي (377هـ) «التصريف الملوكي» لأبي الفتح ابن جنّي (392هـ).

1- ابن عقيل النحوي. (1995). شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك. بيروت: دار الفكر. ج 1، ص 399.

2- الزجاجي. (1999). مجالس العلماء. القاهرة: مكتبة الخانجي. ص 7.

الثالثة: هي مرحلة تكوين «علم الصرف» ونضوجه أو اكتماله، ليكون بذلك علماً مستقلاً قسماً لـ «علم النحو» لا قسماً منه. ويمثلها المتأخرون من النحاة، كعبد القاهر الجرجاني (471هـ) في «كتاب المفتاح في علم الصرف»، وابن عصفور (699هـ) في «المتع في التصريف»، وابن الحاجب (646هـ) في «الشافية»، وغيرهم. يختص علم الصرف بدراسة الفعل المتصرف.

الرابعة: وهي المرحلة التي بلغ فيها الدرس الصرفي أوجه ما بين القرن السادس والسابع الهجري، وفيها اكتمل صرح التصريف، وبلغ التأليف ذروته على يد علمائها الذين جاءت مؤلفاتهم غاية في الاستيعاب لجميع أبواب التصريف، فوضعوا أهم مصنفاته وأدقها وأكملها وأجودها توضيحاً وتهذيباً ومنهجاً، وكان إمام هذه الفترة ونجمها اللامع ابن القطاع الصقلي (515هـ)؛ الذي أدخل الصرف بتأليفه في الأبنية مجالاً جديداً، والذي ظهر تأثيره واضحاً في مجالات من جاء بعده، وكتب اللغة كالقاموس وشرح القاموس ولسان العرب¹. وجاءت معظم مؤلفات هذه المرحلة مُصنَّفة في التصريف جملةً لا في بعض مسائله، وقد ألَّفَ المُحدِّثون كُتُباً كثيرةً في الدرسِ الصِّرفيِّ بهدف الإيجاز والتيسير. فكانوا ما بين مائلٍ إلى الاختصار، ومائلٍ إلى التيسير والتسهيل مع ما يتطلبه ذلك من مرونة في اللغة واللحاق بالركب الحديث، فجاءت معظم مؤلفات الدرس الصِّرفيِّ ميسرةً ومسهلةً، فالقارئ يعود لها بكلِّ بساطة وبُسرٍ، ومن أراد الفهم والتوسُّع يعود إلى بطون أمهات الكتب. وبناءً على ذلك نستطيع أن نعرف بأن الدرس الصِّرفيَّ قد تطوَّر منذُ القَدَم مع علم النحو، ثم انفصل عنه، ثم لجأ العلماء المُحدِّثون إلى البحث عن أساليب ومناهج جديدةٍ ميسرةٍ، فأتت المؤلفاتُ بِدِقَّةٍ أكبرٍ ومنهجيةٍ أحدث.

المبحث الثالث: الدرس الصرفي عند المحدثين

إذا كان علماء الصرف القدامى قد عرّفوا علم الصرف بأنه العلم بأصول يُعرفُ بها بنية أحوال الكلمة التي ليست بإعراب أو بناء، والمقصود «بأحوال» هو التغيرات التي تطرأ على الكلمة، فإنّ هذا المفهوم للصرف يرتبطُ إلى حدٍّ كبير بمفهوم المورفولوجيا morphology عند علماء اللغة من حيث دراسة ما يطرأ من زيادات، وكذلك التحولات التي تغيّر دلالتها أو وظيفتها نتيجةً لدخول عناصر لغوية معينة، غير أنّ الاختلاف

1- عبدالله، أحمد محمد عبدالدايم. (1980). ابن القطاع وأثره في الدراسات الصرفية مع تحقيق كتاب أبنية الأسماء والأفعال والمصادر. رسالة دكتوراه، كلية العلوم. ص 87.

بينهما يكمن في أنّ الدرس الصرفي كما وضعه علماء العربية يختصّ بتحليل النظام الصرفي للغة العربية وحدها، أو اللغات التي تشبهها مثل بعض اللغات السامية.

أمّا المورفولوجيا فهو أعمّ من ذلك؛ إذ يتّصل بتحليل النظام الصرفي في أيّ لغة، وقد يقترب كلّ منهما في منهج التحليل أحياناً وإن اختلفت المصطلحات.

والمصطلح الأساسي في المورفولوجيا الذي يتّصل بصيغة الكلمة ووظيفتها هو المورفيم morpheme، حيث يحاول عالم اللغة أن يقسم الكلمة أو الجملة إلى العناصر المكوّنة لها ثمّ تصنيف هذه العناصر؛ والمرحلة الأولى في هذا التقسيم تكون على المستوى الصوتي والفونولوجي، أي تحليل النظام الصوتي الفونولوجي للغة، حيث يحدّد عالم اللغة الفونيمات وأنواعها ووظائفها، وكذا الملامح غير البنيوية، مثل النبر، التنغيم، المقاطع... والمرحلة الثانية يسعى فيها إلى التعرّف على المباني أو الوحدات الأكثر تعقيداً، وهو ما يُطلق عليه علماء اللغة المورفولوجيا، والوحدة الأساسية في تحليل النظام المورفولوجي هي المورفيم، وهناك تعريفات كثيرة للمورفيم قد تختلف باختلاف المدارس اللغوية والحديثة المعاصرة، غير أنّها تتفق جميعاً في النظر إلى المورفيم على أنّه أصغر وحدة لغوية تحمل معنى أو وظيفة نحوية، وقد وصل علماء اللغة إلى هذا التحديد للمورفيم من خلال بحثهم عن مفهوم الكلمة؛ لأنّهم نظروا إلى الكلمة في صورٍ مختلفة على أساس أنّ لها وظيفة صرفيةً محدّدة هي تحويل الماضي إلى المضارع. واسم الفاعل «ذاهب» يهتمّ به المحدثون من حيث النظر بالألف التي هي الأساس في إنتاج صيغة «فاعل» الدالة على اسم الفاعل نفسه.

في الدرس الصرفي morphology هو الحقل اللغوي الذي يدرس بنية الكلمة، وتعريفات المحدثين تعريفاتٌ متقاربةٌ تكادُ تجمعُ على أنّ بنية الكلمة هي موضوع هذا العلم، فعرّف بأنّه دراسة المصرفات وأنواعها Arrangements في بناء الكلمات.¹

وعرّف بأنّه دراسة البنية القواعدية للكلمات.² كما عرّفه بعض اللغويين بأنّه دراسة الوحدات الصغرى الحاملة للمعنى، والقواعد Rules التي تحكمها؛ أي دراسة بنية

1-Nida, E. A. (1962). **Morphology** (2nd ed., p. 1). The University of Michigan Press

2- Robins, R. H. (Year). **General linguistics** (p. 181). [Publisher]

الكلمة.¹ وأهم أمتثلتها الكلمات وأجزاؤها ذات المعاني الصرفية كالسوابق واللاحق.

يعمّد الدرس الصرفي عند المحدثين إلى دراسة الوحدات التي تمثل أساس التحليل المورفولوجي للصيغ الصرفية للكلمات، ولا تنطرق إلى مسائل التركيب النحوي لذاتها؛ بل عندما تتطلب دراسة الصيغ النظر فيها في حال تركيبها، المورفولوجيا تتناول الكلمات في قوائم أو أنماط صرفية تختلف باختلاف اللغات، ففي الإنجليزية مثلاً كلمة book «كتاب» تدرج في قائمة الاسم، في حال تصنيف كلمة (write) يكتب تحت قائمة الفعل، و(happy) سعيد تحت قائمة الصفة، وبذلك يكون التصريف بهذا المعنى مختلفاً عن القدماء، يتناول نوعين من التغييرات التي تعتري أبنية الكلام، يترتب على الأول منهما تغيير يطال اللفظ والمعنى، وعلى الثاني مجرد التغيير اللفظي كالإعلان في (قول) و(بيع) إلى (قال) و(باع). وهو تغيير لا يترتب عليه أي اختلاف في المعنى؛ وإنما هو قائم على قضية «الأصل الافتراضي» القائمة على فكرة الأصل المتخيل لبنية الكلام؛ الأمر الذي جعل الكثير من مسائل الأصوات تُدرس عندهم.

أما علماء اللغة المحدثون، وبناءً على مستويات التحليل اللغوي الحديث، فقد أخرجوا هذا التغيير اللفظي من التصريف وأدرجوه في علم الأصوات، باعتباره تغييراً لا يؤدي إلى وظيفة جديدة غير الدلالة التي كانت للصيغة قبل حصول التغيير فيها.

«إن تحليل الدرس الصرفي عند المحدثين هو ثاني المستويات بعد مستوى الأصوات، مستوى الصرف، مستوى النحو، مستوى الدلالة؛ فلا غرابة في وجود نقاط النقاء له مع النظام الصوتي السابق له من جهة، ومع النظام النحوي التالي له من جهة أخرى، فهو حلقة وسطى بين النظامين الصوتي والتركيب في تحليل اللغة، فأصوات اللغة مثلاً تتأثر كثيراً بالصيغ، والعكس صحيح، والصوت والصيغة كلاهما يتأثران غالباً بالمعنى. كذلك يوجد تبادل مطرد بين الصرف والنحو، كما الحال في بعض اللغات حين تستعمل واحداً منها وتستغني عن الآخر، لذا فإن الصرف والنحو كثيراً ما يجمعان تحت اسم واحد هو التركيب القواعدي».² «فالنظام الصوتي بشقيه النطقي والوظيفي يُقدّم للنظام الصرفي البنية المُشتملة على أصوات لتكون مجال البحث والتحليل فيه، يتعامل معها من حيث

1-Crane, L. B., Yeager, E., & Whitman, R. L. (1981). *An introduction to linguistics* (p. 96). Little, Brown.

2- عبد العزيز، محمد حسن. (1983). *مدخل إلى علم اللغة*. القاهرة: دار الفكر العربي. ص 205.

تكوين عناصرها الأوليّة، ومدى التفاعل بين هذه العناصر.

إنّ الدرس الصرفي عند المُحدثين يقوم على البحث في أقسام الكلام للغة، وتحديد الفصائل النحويّة لأيّ لغة وتصنيفها، ودور السوابق واللواحق والتغيّرات الداخليّة التي تُؤدّي إلى تغيير المعنى الأساسي للكلمة مثل (كَتَبَ وَيَكْتُبُ وَكَاتِبٌ). إنّ تصنيف الفصائل النحويّة عملٌ من أعمال الصرف العام الذي لا يزال حتى الآن يَشُدُّ مَنْ يقوم بعمله، وإنّ على لغويّ المستقبل واجباً هو أن يُقارنوا بين الفصائل النحويّة الخاصّة بلُغاتٍ مُختلفة، وأن يُحدّدوا الخصائص والسّمات العالميّة أو على الأقلّ تلك المُنتشرة انتشاراً واسعاً¹، «وهذه الفصائل النحويّة تُعبّر عن معاني نحويّة كالجنس (مذكر، مؤنث، محايد)، والعدد (مفرد، مثنى، جمع)، والشخص (مُتكلم، مخاطب، غائب)، وزمن الفعل (ماضي، حاضر، مستقبل)، وهي مُعدّدة ومُتنوّعة عدداً ونوعاً باختلاف اللُغات، شيءٌ نسبيّ طبعاً بالنسبة إلى اللُغة التي تتصلّ بها، ووفقاً لفترةٍ ما من تاريخ هذه اللُغة، إذ ينتهي بعض عناصرها في عصرٍ ما ويظهر غيرُه.

إنّ الدرس الصرفي عند المُحدثين ينبغي أن يكون من واقع اللُغة نفسها، مُهملة التّقسيم التّقليديّ لأقسام الكلام واعتبارها (عالميّاتٍ لغويّة)؛ فعلى الباحث أن يُدرك أنّ لكلّ لغة أقسامها الخاصّة بها»².

إذاً من الملاحظ أنّ الدرس الصرفي عند المحدثين قد تطوّر وتغيّر متأثراً بنظريّة المورفيم الغربيّة، حيث تجاوزَ البحث لديهم مسألة النظر في البنية والتغيير الذي يقع عليها من إعلالٍ وإبدالٍ واشتقاقٍ مختلفة، إلى البحث مباشرةً في العلامات واللواحق الداخلة على الكلمة، والمسؤولة عن تغيير الأبنية واعتبارها مادة هذا العلم. والناظر في الدرس الصرفي العربي الحديث الذي تبناه المحدثون يُلاحظ اختلافاً واضحاً في تناول القضايا الصرفية عنه لدى النحاة القدامى؛ ليس في منهج أو طريقة تبويب هذه الكلمات فحسب، وإنّما في مادة البحث نفسها. إذ تحوّل الدرس من البحث في الكلمات وصيغها وتصريفاتها واشتقاقاتها، إلى البحث في اللواحق التي تؤدي دور هذا التنوّع في الصيغ والتصريف والاشتقاق؛ بل وأصبح تقسيم الكلام الذي أُلّف في مطالع كتب النحو قسماً

1- السمران، محمود. (1997). علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي (الطبعة 2). القاهرة: دار الفكر العربي. ص 190.

2- الراجحي، عبده. (1986). النحو العربي والدرس الحديث: بحث في المنهج. بيروت: دار النهضة العربية. ص 36.

أساسيًا في البحث الصرفي الحديث.

لقد اتخذ تحليل الأدوات منحى خاصًا في الدرس الصرفي الحديث؛ إذ جعلت الأدوات من طائفة المورفيمات المقيدة؛ أي المورفيمات التي لا تؤدي معنى كاملاً في نفسها، أي وهي مستقلة؛ ولكن لا بد أن ترتبط بكلمة أخرى سواءً أكانت اسماً أو فعلاً، وسواءً في أول الكلمة أو آخرها.

أما المورفيمات الحرة فهي الكلمات ذاتها، أي الأسماء والأفعال التي هي ميدان علم الصرف ومجالاته كما حددها القدماء في كتب الصرف التعليمية. ومن أمثلة ذلك النماذج الآتية:

1- فَقَدْ يَنْبُتُ الْمَرْعى عَلَى دِمَنِ الثَّرى وَتَبْقَى حَزَازَتُ النُّفوسِ كما هِيا

فقد: الفاء إستئنافية، و قد: حرفٌ يُفيد التقليل.

المرعى: ال: جنسية. على: للاستعلاء الحقيقي.

الثرى: ال: جنسية. وتبقى: الواو عاطفة لمطلق الجمع.

النفوس: مورفيم ال الجنسية. كما: الكاف مورفيم اسمية للتشبيه.

ما: اسمية موصولة للعاقل.

2- فِيا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضَتْ فَبَلَّغْنُ كِلَابًا وَحِيًّا مِنْ عُقِيلٍ، مَقَالِيا

فيا: الفاء استئنافية. يا: مورفيم لنداء البعيد

إمّا: إن: مورفيم شرط للمستقبل. و ما: زائدة للتوكيد

فبلغن: الفاء مورفيم رابطة للجواب، والنون: مورفيم للتوكيد

وحياً: الواو: مورفيم عاطف لمطلق الجمع

من: مورفيم للتبعيض.

3- لَعَمري لَقَدْ أَبَقْتُ وَقِيعَةً رَاهِطٍ لَمروانَ صَدْعًا بَيْننا مَتْنائِيا

لعمرى: اللام مورفيم للتوكيد .

لقد: لام الجواب: مورفيم للتوكيد

قد: مورفيم للتحقيق

لمروان: اللام: مورفيم للتعليل.

4- ولم تُرْ منِّي نبوةٌ غيرَ هذه فراري وتركِي صاحبيَّ ورأيا

ولم: الواو: مورفيم للاستئناف. لم: مورفيم نفي وقلب

منِّي: من: مورفيم لابتداء الغاية، والنون مورفيم للوقاية.

غير: مورفيم استثناء

هذه: الهاء مورفيم للتنبيه

وتركي: الواو: مورفيم عطف لمطلق الجمع.

5- عشيةٌ أجرى بالصعيدِ ولا أرى من القومِ إلّا من عليٍّ وما ليا

بالصعيدِ: الباء: ظرف مكان، وال: مورفيم للجنس

ولا: الواو: مورفيم حال. لا: مورفيم نفي الحال

من: مورفيم للتبعيض

القوم: مورفيم للعهدية الذهنية

إلّا: مورفيم للاستئناف

من: مورفيم اسمية موصولة للعاقل

على: مورفيم للاستعلاء المعنوي.

وما: الواو: مورفيم لمطلق الجمع ما: مورفيم للنفي والحال

ليا: اللام: مورفيم للاختصاص.¹

لم يحظَ المورفيمُ بالموافقةِ أو القبولِ لدى جميعِ اللغويين؛ بل تعرّضَ للنقدِ نظرًا

1- الرمالي، ممدوح. (2004). تطور التأليف في الدرس الصرفي: المصطلحات والمفاهيم والمعايير. القاهرة: نشر خاص بالمؤلف، ص 141.

للسعوبات التي تبرر في تطبيقه، إذ ليست كل النماذج اللغوية العامة لدى اللغويين تنسجم دائماً معه. ورغم بروز بعض الصعوبات في تطبيقه على الأنواع المختلفة لبعض اللغات، لا يزال أداة صالحة يمكن الاستفادة منها في تحليل الدرس الصرفي، فله أهمية كبرى وقيمة كوسيلة يعتمد عليها في التعبير عن العلاقات بين الأفكار التي يتكوّن منها المعنى العام للجملة، وتساعد على تمييز الفصائل الصرفية، فالنوع والعدد والشخص والزمن والحالة الفعلية والتبعية والغاية والآلة... كلها فصائل نحوية في اللغات تسمى دوال النسبة، يعني المورفيماث للتعبير عنها.

الخاتمة: لقد اعتمدت دراسة الصرف عند القدامى على الصيغ والميزان الصرفي، لأنّ هناك أبنية عروضية وموازين عروضية، فقد اعتمد القدامى اعتماداً كبيراً على الصيغ في تحليل الدرس الصرفي وظواهره، والمطلّع على دراساتهم الصرفية يلاحظ استنادهم إلى الحركات كمميزات صرفية، مُبتعدين عما يحيط بالأبنية من السياق وعناصره.

ومن الواضح أنّ الدراسات الصرفية قد انحصرت منذ بدء التأليف في الجانب التعليمي فحسب، وجاء الدرس اللغوي الحديث، وكان من تقسيماته مباحث اللغة إلى مستويات، فقد اعتمد الدرس الصرفي عند المحدثين على فرع الفونولوجيا، واستعانّت الدراسات الصرفية الحديثة بنوع التقسيم إلى مقاطع بعد أن كان مقتصرًا عند القدامى على الميزان الصرفي، كما أنهم استعملوا عناصر لغوية أخرى في التمييز، عناصر السياق اللغوي إضافة إلى الوحدات اللغوية كالفونيم والمورفيم. وقد تطوّر ومرّ بمراحل مختلفة تواكب حاجات العصر.

إذا يُعدّ الدرس الصرفي عند المحدثين بالسياق، أي التغييرات عن طريق الصياغة، أي السوابق واللاحق، والتغييرات الداخلية التي تؤدي إلى تغيير المعنى الأساسي، وعُرفت الوحدة الصرفية بأنها أصغر وحدة ذات معنى، ومنها المورفيم الحر المتصل والمقيّد، أما عند المتقدمين فهو تغيير بنية الكلمة بحسب ما يُعرض لها. ولا يتعلّق التصريف إلا بالأسماء المتمكنة والأفعال المتصرفّة التي لها أصالة. إذ فهم علم الصرف عند المحدثين بأنه علم الصياغة؛ وذلك بعد أن تدرّج به البعد التعليمي.

وبعد، فإنّ الدرس الصرفي كان قائماً على منهج معيّن اقتضى أن يكون بالصورة التي ظهر عليها، ولا يمكن الاستغناء عن الرجوع إليه لأنّه من الموروثات الغنيّة.

المصادر والمراجع

1. ابن جني، أبو الفتح عثمان. (1954). المنصف. القاهرة: إدارة إحياء التراث القديم.
2. ابن عصفور. (1973). الممتع في التصريف. حلب: دار النمير.
3. بشر، كمال. (2005). التفكير اللغوي القديم والجديد. القاهرة: دار الثقافة العربية.
4. الجرجاني، عبد القاهر. (1987). المفتاح في الصرف. بيروت: مؤسسة الرسالة.
5. الحملوي، أحمد. (1998). شذا العرف في فنّ الصرف. الرياض: دار البيان للطباعة والنشر والتوزيع.
6. الدّفاع، محمد خليفة. (1991). دور الصرف في منهجي النحو والمعجم. بنغازي: منشورات جامعة قاريونس.
7. الرّاجحي، عبده. (1986). النحو العربي والدرس الحديث: بحث في المنهج. بيروت: دار النهضة العربية.
8. الرّمالي، ممدوح. (2004). تطور التأليف في الدرس الصرفي: المصطلحات والمفاهيم والمعايير. القاهرة: نشر خاص بالمؤلف.
9. الرّمالي، ممدوح. (2000). تطوّر التأليف في الدرس الصرفي. منتدى سور الأزيكية.
10. زرند كرم محمد. (2007). أسس الدرس الصرفي في العربية. دمشق: دار الفكر.
11. الاستراباذي، الرضي. (2005). شرح الشافية لابن الحاجب. بيروت: دار الكتب العلمية.
12. السّعران، محمود. (1997). علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي. القاهرة: دار الفكر العربي.
13. عبد الله، أحمد محمد عبد الدايم. (1980). ابن القطاع وأثره في الدراسات الصرفية. رسالة دكتوراه، كلية العلوم.
14. عبد العزيز، محمد حسن. (1983). مدخل إلى علم اللغة. القاهرة: دار الفكر العربي.
15. عضيمة، محمد عبد الخالق. (1962). المغني في تصريف الأفعال. القاهرة: دار الحديث.
16. هنداي، حسن. (1989). مناهج الصرفيين ومذاهبهم في القرنين الثالث والرابع من الهجرة. دمشق: دار الفكر.

أدب الجدران، اللوحات الجدارية Graffiti Literature, murals

غيد توفيق الذهبي
Ghid Dhaybi

تاريخ القبول 2025 / 3/25

تاريخ الاستلام 2025 / 2/20

الملخص

حاولت الدراسة لفت النظر إلى هذا النوع من الفنّ أو الأدب والتأمل فيه وإبراز قيمته الفنية ونقدها. وأن تثبت قيمة الكتابات الجدارية الأدبية والتعبيرية، وإبعادها عن صفة «الخريشات العبتية» غير الهادفة. كما أنّ الهدف من هذه الدراسة إلقاء الضوء على الدوافع وإبراز الأسباب التي جعلت الفرد يلجأ إلى هذا الفنّ. وتبيان أسلوبه والأداة المساعدة في إيصال هذا الفنّ والبنية الفنية والخصائص المعنوية منه. ونلاحظ أنّ هذا الأدب هو أدب هجين خارج عن المعايير الأدبية التقليدية الموضوعية، متحرر من قوانينها وقواعدها. كما أنّ هذا النوع من الفنون قد اتسم بسريّة الكاتب الذي يعاني من التهميش والكبت فيلجأ لهذا النوع من الفنّ لبيث أفكاره وهواجسه ورؤاه الشخصية بشكل جديّ أو هزليّ، ويبقى مجهولاً في أغلب الأحيان، خوفاً من القمع الذي تمارسه السلطة عليه، وهرباً من العقاب. وقد اشتمل هذا الأدب على عدّة أنواع كالسياسة والحبّ والحياة والثورة والأمل والرياضة والعنف والفكاهة وغيرها من المواضيع التي تهّم الفرد.

Abstract

The study attempts to draw attention to this type of art or literature, reflect on it, highlight its artistic value, and analyze it. It also aims to demonstrate the value of literary and expressive graffiti, distancing it from the label of “absurd scribbles» that are aimless. This study aims to shed light on the motivations and reasons that drive individuals to resort to this art form. It

also aims to clarify its style, the tools used to convey it, its artistic structure, and its moral characteristics. We note that this literature is a hybrid form of literature that departs from established traditional literary standards, free from the laws and rules that govern it. Furthermore, this type of art is characterized by the secrecy of the writer, who suffers from marginalization and repression and resorts to this type of art to express his thoughts, concerns, and personal visions, whether seriously or humorously. He often remains anonymous, fearing repression by the authorities and escaping punishment. This literature includes many genres, such as politics, love, life, revolution, hope, sports, violence, humor, and other topics of interest to the individual.

مقدمة

إنّ الكتابة هي سلوك بشريّ شأنه شأن أيّ سلوك آخر . منها ما هو بدائيّ ومنها ما هو منظمّ يتبع قوانين وقواعد معيّنة . وكما أنّ الفنون حديثاً أعطت مكانة وقيمة لخريشات اليدّ وحسبتها نوعاً من الفنون التي تحمل في طيّاتها قيمة فنيّة ونفسيّة، فكان لا بدّ من الالتفات إلى الكتابات الجداريّة التي كثر انتشارها في كلّ مكان . والنّظر إلى قيمتها الفنيّة التّعبيريّة.

إنّ الانسان بطبعه لا يخطّ كلمة إلّا بدوافع معيّنة . فإذا ما تمتّع بذائقة فنيّة أدبيّة مكّنه ذلك من كتابة نصوص تعبيريّة . وإذا ما وجد ما يمنعه من الكتابة والتّدوين بالأساليب التقليديّة، أكان على ورق أو من خلال المواقع الالكترونية، وكان هناك ما يعيق هذا التّعبير والافصاح عن ما يخالجه وما يشعر به، ابتدع طرقاً ووسائل خاصّة به لتحقيق هذا التّعبير .

ظهرت الجداريّات أو الكتابة الحائطيّة كوسيلة لتوثيق وتقديم معلومات هامّة من إنتاج الإنسان، تعكس معتقداته وأفكاره وطوقسه ومواقفه . وتُعتبر شهادة على حضارات سابقة لم يكن لديها وسيلة للتّعبير سوى الجدران والرّسوم .

اتّسمت هذه الجداريات بسهولة وعدم خضوعها للبروتوكولات والرقابة المفروضة. إذ تعدّ هذه الجداريات بديل الصوت والرأي في عالم مليء بالقيود، هدفها التمرّد والتّنفيس عن الاختلاجات، والتّوجيه العام والاعلام، والتّواصل بين الأفراد في المجتمع وحشد أصواتهم ومواقفهم. كما كانت أيضًا نقطة تحوّل مع مجال والإعلان الحديث، في اعتمادها على الدالّ الأيقوني واللّغة المكتوبة، لإغراء النّاظرين. فهي لافتة للنّظر، وتعلق سريعًا في الأذهان.

ويمكن رصد هذه الظّاهرة في كلّ مكان تقريبًا، إذ لا يمكن أن نخفي تأثيرها على المنشآت العمرانيّة والمؤسّسات والمرافق العموميّة، على جدران المدن والأحياء، على جدران المدارس والجامعات والمقابر ودور العبادة.

لا مكان يسلم من هذه الظاهرة التي تتحرّر من قيد المراقبة. وهي في مواضيعها تطرح كلّ القضايا التي تهّم الإنسان من حبّ وكره وعنف وثورة وسياسة ورياضة وموسيقى وغيرها من مكبوتات ممنوعة ومحظورة، كالعلاقات العاطفيّة والمكبوتات الجنسيّة خاصّة عند الشّباب.

لم تعد الكتابات الجداريّة بمعزل عن وجود الإنسان بل كانت تتكيّف مع وجوده، داخل فضاءات من العفويّة والتلقائيّة. و «التصوير الشّعبي عبّر عن تاريخ الأمة بما لها من تقاليد وعادات وتعبير عن روح الجماعة التي أفرزتها الثّقافة؛ وقد كان له بعد وظيفيّ ذو غاية جماليّة. بقصد تزيين البيوت والمحلات والجسد، إمّا سحريّ بقصد طرد الأرواح الشريرة، وإمّا دينيّ حول السّير الشّعبيّة والدين والتّاريخ والزخرفة». (قانسوه، 1995، صفحة 13).

أدّت هذه الجداريات بعدًا إيديولوجيًا وقد بقيت موضوعات الجداريات واللافتات في المجتمعات العربيّة، أفقًا معرفيًا خصبًا وفسيحًا، يعانق اللّغة ويتجاوز حدودها. و«في العصر الحديث أصبحت الجداريات من أهمّ رسائل الاتّصال الجماهيريّ لوجودها في أماكن عامة، لا يحتاج إلى مختصّين في الفنّ التّشكيليّ أو لمعارض فنيّة، إذ تعدّ أداة مؤثّرة في تحقيق أهداف سياسيّة أو اجتماعيّة وغيرها، وفي الوقت نفسه أداة تجميل للمدن والسّاحات والحوائط في الأماكن العامّة والخاصّة أو وسيلة دعائيّة ناجحة». (الغامدي، 2013، صفحة 117).

وهذا ما عمل هذا البحث على دراسته ومناقشته مستعينة بالمنهج التكاملي، الذي يشتمل المنهج النفسي لمعرفة الدوافع وراء هذه الممارسات، والمنهج الاجتماعي لدراسة الموضوعات والمضامين، والمنهج البنوي الذي يساعد في دراسة شكل النصّ وبنيته والأسلوب الذي يميّزه. كلّ ذلك في محاولة للإجابة عن الأسئلة الأساسية:

- ما هي أهمّ المواضيع التي تسطرّ على الجدران؟
- ما الدوافع الفردية والاجتماعية للكتابة على الجدران؟
- أدب الجدران بين القبول والرفض. هل يمكن أن يصبح فنّاً معترفاً به؟

أولاً: الكتابات الجدارية

1- تعريفها

إنّ أغلب الظواهر ممتدة ولها جذور تاريخية تعود للعصور الأولى في الحياة البشرية ومن هذه الظواهر، ظاهرة الكتابات الجدارية المتأصلة في عمق التاريخ. إذ يعود مصطلح الكتابات الجدارية أو الغرافيتي، إلى لفظ غرافيتي Graffiti وهو مصطلح لاتيني Graphium، «غير أنّ هذا المفهوم المستحدث لهذه اللفظة، قد ظهر في إيطاليا وهو يدلّ على الرّسول والكتابات المخطّطة بالفحم أو المنقوشة على الآثار القديمة، وكذلك على البيانات المعاصرة». (حسين، 2008). ويعود تاريخ الكتابات الجدارية إلى عصور ما قبل التاريخ. حيث اعتمد عليها الإنسان البدائي في حياته اليومية وممارساته مستخدماً سطح الصّخور والجدران كوسيلة للتعبير عن انفعالاته وما يخالجه نفسه، وعن أفكاره ورؤاه بالصّور أو الرّموز .

وقد أكّدت الكشوفات الأثرية ذلك، «فالنّجوم الثلاثة المرسومة على جدران كهوف (لاسكو) في فرنسا تعود إلى ما يقارب 16500 عام». (حسين، 2008).

فظاهرة الكتابة على الجدران موجودة منذ القدم، كالرومانية واليونانية والفرعونية، حيث عمدوا إلى تسجيل أحداثهم وتاريخهم وعاداتهم وحروبهم ومعتقداتهم على الألواح الخشبية. وكان الهدف من ذلك التوثيق الزمنيّ للفترات. و«إنّ أول الدّراسات التي ظهرت في مجال تحليل هذه الكتابات الجدارية كانت على يد الباحث اللّغويّ الأمريكيّ «ريد» سنة 1928 حيث أتيحت له الفرصة في دراسة وتحليل مجموعة كبيرة من

الكتابات على جدران المراهيض غرب الولايات المتحدة الأمريكية وكندا». (Reisner, 1964, p. 17)

ومع مرور الزمن وتقدّم الإنسان وتطوّره، تطوّرت العديد من الممارسات البدائية إلى فنون تصويرية معقّدة، مبتعدة عن الأساليب الرمزية البدائية. ومع ذلك، استمرت الكتابات الجدارية كظاهرة قائمة في العديد من المجتمعات، رغم اختلاف أشكالها وأغراضها عبر العصور والأماكن.

إنّ، فالكتابات الجدارية هي تسجيلات أو نقوش تُنقذ على الحجارة أو الجدران أو الأبواب أو محطات الحافلات، وبشكل عام في الأماكن العامة. والتي تعبّر عن مواضيع مختلفة كالمطالب السياسية أو تشجيع الأندية الرياضية، أو قد تعبّر عن نوع من الابداع الفني، أو قد تترجم رغبات ومكبوتات نفسية معينة، أو قد ترمز للعنف.

نشطت الكتابة الجدارية مؤخرًا في ستينيات القرن العشرين في شوارع باريس وعلى جدران جامعاتها إبان الثورة 1968 وذلك للتعبير عن رأي الثائرين، ونقل أفكار الشباب في معارض واضحة للنظام الاجتماعي والسياسي، وقد ارتبطت بحركة الهيب هوب Hip Hop، «التي انتشرت في نيويورك وأطلق عليها مصطلح من الطبقات المحرومة الفقيرة، ثم انتقلت إلى واشنطن. وناضلت إلى ثمانينات القرن العشرين حتّى انتشرت انتشارًا واسعًا في معظم العواصم الأوروبية». (المالكي، 2009).

وإذا ما انتقلنا إلى العالم العربي، فنرى أنّ هذه الظاهرة ازدهرت خلال فترة الاحتلال الأجنبي، وقد اتخذت سبيلًا للتّدييد بالمحتل والمستعمر، وطالب بالثّورة عليها و المطالبة بطرده من البلاد. وبقيت إلى ما بعد الاستقلال. إلّا أنّها صبغت بألوان جديدة وباتت شخصية في بعض الأحيان يعبّر فيها الشّخص عن شعوره وأفكاره الخاصة.

وفي العصر الحديث، شهدت هذه الظاهرة تحولًا ملحوظًا، حيث أصبحت «الغرافيتي» أو الكتابات الجدارية الحديثة وسيلة للتعبير الفردي، وأداة لطرح قضايا اجتماعية وسياسية وتوثيق الأحداث.

في السنوات الأخيرة، شهدنا تحولًا في توجّه «الكاتب على الجدران»، حيث بدأ يستلهم الجوانب الفنية التي تنمو في خياله ويعبّر عنها على الجدران، ساعيًا لتحقيق توازن بين

الجمالية والرسالة التي يحملها من خلال جدارياته. فهو يمزج بين الروح الفنية والإبداع مع الرموز والدلالات الخطابية، ليقول جداريات تحمل طابعاً رمزياً ودلالياً، لا تخلو من الجمال والإبداع الفني. هذا ما منح هذه الممارسة شرعية واعترافاً عالمياً، وجعلها تخرج عن نطاق الأنشطة المحظورة.

واليوم، تحتلّ الكتابات الجدارية مكانة بارزة في الساحات الثقافية والفكرية، مما يثير جدلاً واسعاً بين الباحثين والمختصين. هذه الظاهرة، التي تمتد جذورها عميقاً في التاريخ، لا تزال تلعب دوراً مهماً في التعبير عن هوية المجتمعات ومواقف الأفراد. فبينما يعتبرها البعض شكلاً من أشكال الفن الحضاري الذي يعبر عن حرية التعبير والتغيير، يرى آخرون أنها تلوث بصري وتشويش على المشهد الحضاري العام.

استمرت هذه الكتابة على الجدران و«الحوائط»، متماشية مع كل التطور الذي شهده العالم أجمع، بل وطوّعته في ما يخدمها. على سبيل المثال، أتاح مارك زوكربيرغ، مؤسس تطبيق «فيس بوك»، للناس الكتابة على «الحائط الافتراضي» الخاص بالتطبيق، ما أتاح لهم التعبير عن مشاعرهم وأفكارهم تحت أسماء حقيقية أو مستعارة. وتعتبر هذه الظاهرة من خلال النظريات النفسية في الجرافيتي إلى نظرية التنفيس التي يرى أصحابها «أنّ الكتاب الجداريين يعانون من سوء التكيف وأنهم غير قادرين على التعبير عن أفكارهم، والذي يكتب على الجدران في الأغلب لا يعرف لماذا يفعل ذلك، فالجرافيتي حسبهم، وسيلة للتعبير عن المكبوت ضمن فرضية التنفيس». (القطري، 2025).

2- دوافعها وأسبابها

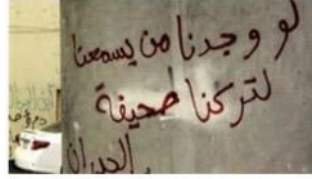
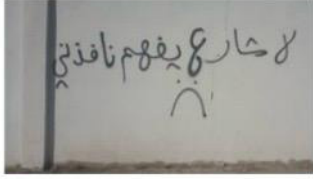
يهيمن في البدء تحديد لفظ الدوافع، فهو يقصد «ما يحمل على الفعل من غرائز وميول. فهو وجداني ولا شعوري».

أما الأسباب فهي ما يؤدي إلى أمر أو نتيجة. وتشير استعمالات الكلمة إلى علل خارجية أيضاً» (عمر، 2008)، وهكذا فالدوافع داخلية أما الأسباب فخارجية.

وهذه الدوافع كثيرة أهمها التعبير عن الذات عند الأفراد بشكل عام، أولئك الذين لا يجدون وسيلة أخرى للتعبير عن دواخلهم وعما يعانون منه من كبت وتهميش. إذ إنّه تكون أكثر حاجة للفرد المهمّش حيث تغدو هذه الكتابة مصدر لنفجير الكبت وإثبات

النفس واندفاعه إلى هذا النوع من الفنون الذي وجد فيه أفضل وسيلة للتعبير عما يشعر به وعما يعانيه به من كبت وتهميش على كافة الأصعدة، اجتماعيًا أو سياسيًا أو نفسيًا أو دينيًا أو فكريًا.

فيشير عبده خال إلى أنّ «رقعة التهميش لم تعد تقتصر على فئة بعينها. وعادة ما ترتبط كلمة المهمّشين بالمسحوقين، والطبقة الدنيا في المجتمع. لكنّ المهمّش يتجاوز المفهوم الماديّ، ليشمل كلّ من لا يستطيع التعبير عن ذاته، سواء أكان عملاً أو حتّى وزيراً». (خال، 2022). وبينّ خال عندما يتحدّث عن المهمّشين، فإنّه يستكشف الأفكار التي تثير قلق المجتمع. فقد اعتاد المجتمع على إسكات الأفكار الإبداعية التي تتبع من جهات وفئات متنوّعة. لذا، تأتي الرواية لفتح المجال وتعدّد الأصوات، ممّا يتيح للجميع التعبير عن رؤاهم وتطلّعاتهم وأفكارهم.



هذه الصّور التي تعكس حالة من التهميش الاجتماعيّ والكبت يعاني منها الأفراد، فيلجؤون إلى الجدران للتّنفيس عن ما في ذواتهم من مشاعر. إذ تبدو الحاجة للكتابة ملّحة للتغلّب على الظروف وإثبات الذات خاصّة عند الفرد المهمّش. فيقول « سكوت كونتر Scott Kuttner » أنّ الكتابة «هي الدعوة المقدّسة التي تشدّ روحك... هي وسيلة للحياة تنجذب لها، حتّى بذلنا قصارى جهدنا لنبتعد عنها...» (والد، 2019، الصفحات 63-64) ويضيف قائلاً «الكتابة تعني الوجود، فمن لا يكتب، يفشل في إدارة الحياة، وأنت تفشل إذا وقفت عن الكتابة». (والد، 2019، صفحة 82)

كما أنّ ثمة دافع مرتبط بالتّعبير عن الذات وهو التّنفيس عن «القمع المجتمعيّ». وقد سمّاه مصطفى فهمي (1998) «القمع suppression» مفرّقاً بينه وبين «الكبت». فيقول بأنّ «الكبت هو إنكار الإنسان لنوازه وكبتها كبتاً ذاتياً لا واعياً. لأنّ ضميره لا يقرّها ولا يسمح بها. أمّا قمع الإنسان لنوازه، فيقوم على ضبط نفسه وحبسها عما

تستهيه، وتندفع إليه في الأمور المحرمة في نظر الجماعة. وفي هذه الحالة يكون الإنسان على وعي بهذه التوازن. فيحول بينها وبين أن تظهر للناس. وبهذا يكون القمع خضوع النفس لنواهي المجتمع ومحرّماته». (فهمي، 1998، صفحة 167) ويصعب التحكم في النفس بشكل كامل، سواء كان الكبت ناتجاً عن دوافع داخلية أو خارجية. فالدوافع والتوازن تخلق آليات دفاعية للحفاظ على تلك المشاعر، إمّا من خلال التعبير عنها أو من خلال إيجاد طرق للتغلب عليها.

ويمكن عدّ الكتابة بشكل عام، وكتابة الجدران بشكل خاص، إحدى هذه الطرق للتعبير. إذ إنه عادة لا يكتب الشخص لسمع صوته الداخلي، رغم أنّ هذا الدافع موجود بشكل طبيعي، بل ليوصل صوته إلى جمهور معين. فكلّ ما يكتب على الجدران يجب أن يكون مرئياً للقراء، ما يحقق رغبة الكاتب في التواصل.

أو قد يكون هذا النوع من الكتابة ناتجاً عن العادة والألفة. ورغم أننا نعيش في عصر «ما بعد الحداثة» مع تقدّم التكنولوجيا الرقمية، فإنّ الكتابة على الجدران ستظلّ وسيلة فعالة للتعبير عن المشاعر بجانب الوسائل الرقمية.

بل راحت الكتابات الجدارية تغري المنصّات الرقمية، وأصبحت الجداريات خروجاً عن المؤلف ما لفت النظر إليها من جديد وأعادها إلى دائرة الضوء والاهتمام مجدّداً وزاد من جمهورها الذي تعدّى الجغرافية المكانية منتشراً على امتداد الفضاء الرقمي غير المحدود.

أ- العوامل الاجتماعية

السبب الأهمّ في انتشار هذا النوع من الفنون إذ أنّ الحديث عن الكتابة الجدارية يتطلب وجود مجتمع وظروف اجتماعية معينة تسهم في ظهور هذه الظاهرة، حيث تعكس في النهاية ثقافة هامشية لمجتمع ما وطريقة تفكير أفرادها، المعروفة بثقافة الشارع.

كما ويؤكد علماء الاجتماع أنّ الكتابات الجدارية تعكس جانباً من السيرة الذاتية للفرد، حيث يقوم الفرد بترجمة سيرة مجتمعه، ممّا يسهم في رسم ملامح التغيرات الاجتماعية التي تحدث في المدن والقرى والمجتمعات المدنية، وكذلك في المجتمعات السكانية حول العالم. وقد أصبحت هذه الظاهرة موضوعاً للدراسة الأكاديمية في المدارس الاجتماعية

في الولايات المتحدة، خاصة في مدرسة نيويورك، حيث ألف العالم الشهير «روبرت ريسنر Robert Leshner» كتابًا حول هذا الموضوع. تعبّر هذه الكتابات عن جوهر المجتمع والواقع المعيش، وعمومًا، ينظر علماء الاجتماع إلى هذه الظاهرة من زوايا متعدّدة، حيث يؤكّد معظمهم أنّ هذه الكتابات تُمارس من قبل عامّة الناس، الذين وجدوا في الجدران وسيلة هامة للاعتراف والتعبير عن أفكارهم وما يعتمل في نفوسهم من قلق اجتماعي.

2- العوامل الثقافية

تُعتبر الكتابات الجدارية تعبيرًا عن الثقافة الشعبية السائدة في المجتمع، حيث تعكس الأجواء العامة لهذه الثقافة.

وبالتالي، تعكس هذه الكتابات رؤى المجتمع وتفكيره، بالإضافة إلى القضايا السائدة فيه. كما تمثل هذه الصور وجهات نظر وتحليلات فردية للكتاب المهمّشين، الذين يعارضون الرؤية العامة للمجتمع، ممّا يدفعهم إلى استخدام الجدران كوسيلة للتعبير عن مشاعرهم المكبوتة. لذا، فإنّ هذه الخريشات ترتبط بنوع الثقافة السائدة، إذ تعكس الأفكار والقيم والتصورات التي يحملها المجتمع.

3- العوامل النفسية

يقول عبد الرحيم العنبي «أنّ هذا شكل من أشكال التعبير... وهو لجوء يتمّ بغية التعبير عن التآبوهات، إذ تصعب أحيانًا مناقشة قضايا كالجنس مثلاً، فالكتابة الحائطية تترجم التعبير عن حقيقة الذات خاصة في ما يتعلّق ببعض الحريات الفردية أو بعض الميولات الشخصية». (الزعواني، 2014). أي الكتابة الجدارية تترجم كلّ ما يصعب التعبير عنه من قبل الأفراد.

ثانيًا - ممارسو الغرافيتي

تبين السوسيولوجية الجزائرية فاطمة أوصديق في بحثها عن الخريشات الحائطية في الجزائر أنّ الغالبية الساحقة من المخريشين Les Tagueurs، هم من الذكور، أغلبهم ما بين الثنائي الثالث والجامعة، من طبقات اجتماعية متوسطة الحال، منوّهة على مفهوم الحكومة القديم. الذي بدأ في التراجع لديهم نظرًا لأنّ ممارس الكتابة الجدارية

حسبها يعبر من خلالها في شوارع وأحياء بعيدة عن مقر إقامته، وأن مستعملي الجدران يحسنون حتى الفرنسية والانجليزية».

وإن أغلب التلاميذ الذين يمارسون الكتابات الجدارية يعمدون إلى خدش الدوق العام، والاداب العامة، بدافع الانتقام وتصفية الحسابات مع رفاق الدراسة، وأحيانا بحثاً عن الشهرة، وعادة ما يريد المراهق أن يلفت الانتباه وخاصة لدى أقرانه، وخير دليل على ذلك ظهور جماعات الراب والهيب هوب، الذي ساعد في ظهور الرسوم والكتابات الجدارية، التي يطلقون عليها بفن الغرافيتي حيث تظهر حالياً إنتشاراً واسعاً في المجتمعات العربية وخاصة المجتمع المغربي منها والغريب في الأمر أن الخرشات الحائطية أحيانا ما تستهوي حتى الكبار - لكن بصيغة مختلفة عن كتابات المراهقين والشباب - حيث يستخدمونها كوسيلة إرشادية و تحذيرية عندما يتضايقون من تصرف ما، فتنتشر على جدران المنازل و المحلات ، عبارات «ممنوع رمي الأوساخ » أو «ممنوع الوقوف» أو ممنوع الجلوس في درج العمارة » و أحيانا تكون العبارات غاضبة و مستكبرة مثل عبارة «لا ترم الأوساخ يا...» وتكتب بطريقة تفتقد للجمالية ، وتستخدم أدوات غير مناسبة للكتابة كما وتكتب بخطوط رديئة وفيها الكثير من الأخطاء النحوية. (البقاعي، 2004).

ثالثاً - الأماكن المهمة للغرافيتي

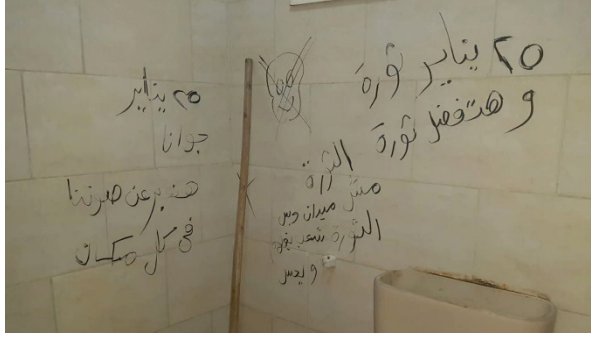
هذا الفن موجود في العديد من الأماكن العامة والخاصة حول العالم. يمكن رؤيته على الجدران، وفي الأحياء، والأنفاق، والجسور، والمؤسسات العامة، وغيرها من المواقع. هناك علاقة وثيقة بين مواقع الجداريات والرسائل التي تحملها. وقد بينت العديد من الدراسات والأبحاث العلاقة بين الكتابات العامة والأماكن التي تكتب فيها، فبقدر ما تكون الكتابة عامة غير متطرفة للمعاني الممنوعة أي خلو الرسالة من المضامين الجنسية، بقدر ما تكون قريبة من الإطار الجغرافي للحي أو المدينة التي يعيش فيها الكاتب، وبقدر احتوائها على المضمون السابق بقدر ما يبتعد عن الحي أو المدينة، على حد تعبير روبرت رسنر. فالكتابات الجداريون يختارون الفضاءات المناسبة بدقة. (المركز الفلسطيني للإعلام). ومن بين هذه الأماكن، نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

أ- جدران الشوارع والأحياء: تعكس جو المجتمع العام، من خلال رسوم عشوائية ذات مستوى رديء غير ثقافي، تعبر عن جو هذا المجتمع وتعكس واقعه وطموحات

أفراده. حيث يستخدم الأفراد هذه الجدران لإيصال رسائل اجتماعية ثقافية سياسية أو حتى شخصية.



ب- المراحيز والأحياء: تقول إحدى الجمعيات التي تدعى جمعية المراحيز البريطانية، «إنه يمكن معرفة الوجه الحقيقي لكل بلد من خلال الكتابات الموجودة على جدران المراحيز العمومية. فهي تعبر عما يختلج في نفوس الكثير من الناس الذين يخلون أو يخافون من قولها خارجاً. فلو تطرقنا للكتابات الجدارية الموجودة في البلدان الشرقية فإنه غالباً ما تنتشر الكتابات الجدارية السياسية (المعارضة للحكومة). أما المراحيز العامة العربية فتكتب عليها كلمات نابية وهي تعبر عن نوع من الثقافة المنتشرة لدى بعض الناس». (الجمري، 1999). وكما قلنا سابقاً بأن مكان اللآحة الجدارية يعكس تماماً قيمة المكتوب أو المرسوم ويعبر عن مستواها، هذا من خلال ملاحظتنا بأن أغلب المراحيز سواء أكانت داخل المؤسسات التعليمية أو محطات القطار أو المرافق العمومية فهي تمتلئ بالعبارات الجنسية والرسومات البذيئة وأرقام الهواتف والعناوين البريدية الإلكترونية وحسابات مواقع التواصل الاجتماعي، حيث «تكشف الحياة المكبوتة والسرية في مجتمعاتنا، وكأنها مساحة حرية يتخلص فيها الفرد من رقابة القيم والآخرين، ليعبر في هذا المكان عن مكبوتاته وهواجسه وأحلامه، كما تكثر فيه الشتائم؛ وأحياناً نجد عبارات النصيح والاستنكار التي تدعو إلى ترك هذه الأمور لأنها غير مفيدة وتصف كتابها بأبشع الأوصاف». (قاسم، 2007، صفحة 26).



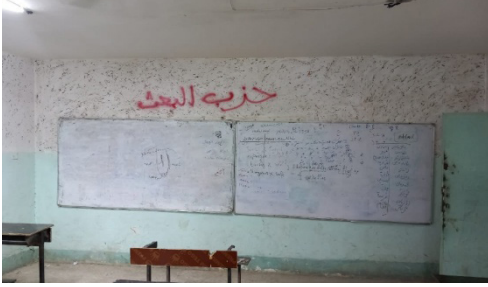
ج- جدران المحلات والدكاكين: في الآونة الأخيرة، لاحظنا أنّ العديد من أصحاب المحلات والدكاكين بدأوا يتجهون إلى الفنانين الذين يمارسون هذا النوع من الفن لتزيين واجهات محلاتهم برسوم هزلية ورموز وألوان حيوية فريدة.

وأصبحت هذه الرسومات وسيلة للإعلان والترويج، كما تساهم في تعزيز هوية المحلات وانتشارها. من خلال هذه الأعمال الفنية، يتم جذب انتباه المارة والزبائن، مما يترك انطباعاً مميزاً ويزيد من ارتباطهم بالمكان.



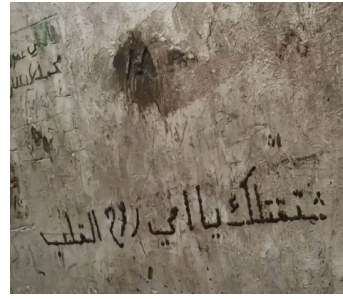
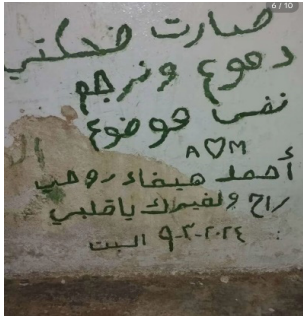
د- المؤسسات التعليمية: لم تفت هذه المؤسسات ظاهرة الكتابة الجدارية، حيث عبر الأفراد المنتمون إليها عن أفكارهم ومشاعرهم تجاه الإدارة والهيئة التعليمية، بالإضافة إلى زملائهم في المدرسة والجامعة. وأصبحت الجدران والألواح وسيلة فعالة لتبادل هذه الأفكار ونشرها بين التلاميذ، سواء كانت سياسية أو تعبيراً عن رفض بعض المعلمين والإدارة في بعض الأحيان. كما تضمنت الكتابات عبارات الحب والغزل والشعر، ولا

يمكننا أن نغفل كلمات الأغاني التي تزيّن تلك الجدران والمقاعد. بالإضافة إلى أرقام الهواتف والعناوين الإلكترونية.



هـ- الزنازين والسجون: إنّ الكتابات الجداريّة كان لها فضاءً مناسباً جداً في السجون ومراكز الاعتقال، فقد بثّ السّجناء ما عانوه وما شعروا به في ذلك المكان الذي يسلب السّجين من كلّ حقوقه، وصولاً إلى سلبه صوته. وتعتبر هذه الظّاهرة، ظاهرة ضاربة في القدم تاريخياً. ففي القرن السّادس عشر و«تحديداً في برج لندن الدّمويّ الذي استخدم في ذلك الوقت كسجن؛ نقش أحد المشاهير السّجناء «إدموند بول» بأظافره، شهادة قبره الّتي حملت عبارة «من زرع الشّقاء حصد الفرح» ووضّح ريتشارد في كتابه «الكتابات الحائطيّة»، أنّ كلّ من الزّنازين والقبور والمراحيض، تملك وجوه شبه مدهشة، ففيها يخيم جوّ مطبوع بالسّريّة... تلك السّريّة الّتي تكاد تكون جنينيّة...» (دناور، 2023).

ولا يمكننا أن نغفل عن الجداريّات الّتي ظهرت خلال تحرير السّجون السوريّة من المعتقلين، حيث نُقِشت على جدران الزّنازين والمهاجع عبارات ورسومات ورموز تعكس معاناة السّجناء. فقد خطّت فيها أحلامهم وأمنيّاتهم الّتي راودتهم في أثناء مدّة سجنهم، بالإضافة إلى أسماء أولادهم وأحبّائهم. كما احتوت على العديد من الرّسائل الّتي احتضنها الجدار، عسى أن تصل إلى أصحابها في يوم من الأيام. وكانت هذه العبارات وسيلة وحيدة لتوثيق آلامهم وأفكارهم، ودليلاً على أنّهم مرّوا من هنا يوماً ما. وهذا ما نراه واضحاً في الجداريّات التّالية.



رابعًا - موضوعات الكتابة

إنّ الكتابة الجداريّة تكون بشكل عفويّ، غير متكلّف يطغى عليها البساطة بأسلوب يلامس الواقع اليوميّ للأفراد.

وقد تتوّعت الموضوعات التي كان الجدران لسانًا لها عبر العصور. واتّسمت بالحرية والطلاقة. فهي موضوعات لا تتقيّد بقواعد أو نظم. كالحبّ والكراهة والفقر والغضب والحزن والعنف والشوق والحكمة والمديح والهزاء... وغيرها من القضايا الإنسانية والاجتماعيّة، وكلّ ما يفكّر به الفرد أو يخطر في باله. فيترجم هذه الأحاسيس إلى نصوص يخطّها على الجدران أينما كان ومتى شاء من غير حسيب أو رقيب بشكل مبهم غامض وسريّ.

وسنذكر عدّة موضوعات على سبيل المثال لا الحصر فيما يلي:

أ- السياسة

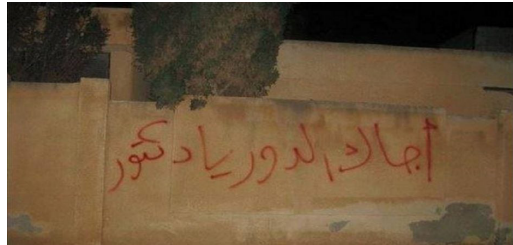
تعتبر الجداريات من الموضوعات الأساسيّة والأكثر أهميّة، حيث تمثّل مكانًا آمنًا

للتعبير عن الأفكار والرؤى السياسية والثورية التي كانت مكبوتة بشكل مخيف من قبل السلطة. تُعدّ هذه الجداريات وسيلة سريعة لنقل الرسائل.

وتعدّ السياسة من أبرز الأسباب التي أدّت إلى ظهور الكتابات الجدارية. ويمكن أن نردّ ذلك إلى غياب حرية التعبير السياسي وتقييدها بشكل شديد من قبل السلطة الحاكمة. «من خلال محدودية التعبير في وسائل التواصل كالتلفزيون والصحف والمواقع الإلكترونية، بالإضافة إلى الحدّ من المظاهر الثورية والمظاهرات. لذلك يلجأ هؤلاء المكبوتون إلى الجدران والشوارع في الليل وفي وضوح النهار». (حسين، 2008)، ليبثّوا أسرارهم.

وفي البلدان العربيّة، تمتد ظاهرة الكتابة الجدارية إلى عمق التاريخ. يستخدم الأفراد جدرانهم كوسيلة للتعبير عن رموزهم ورسائلهم السياسية وأفكارهم الثورية، التي يُمنعون من مناقشتها علناً. فقد واجه الفرد في المجتمع العربيّ قمعاً وكبتاً ليس فقط من قبل السلطة، بل أيضاً من الأهل والمجتمع المحيط به، وذلك خوفاً من حدوث مشاكل أو ردود فعل سلبية.

وعندما نتحدّث عن الجداريات السياسية في العالم العربيّ، لا يمكننا أن نغفل اللوحة الجدارية التي أشعلت الثورة في سوريا عام 2011، «جاييك الدور يا دكتور» التي كتبها مجموعة من الطلاب المراهقين على جدار المدرسة في درعا، في رسالة تهديد واضحة لبشار الأسد «الدكتور».



وحسب الباحث السوسيولوجي عبد الرحيم عني، فيرى أنّ الكتابات الجدارية «أحياناً تعبّر عن مواقف جريئة وصعبة لا تتماشى مع القوانين الجارية، أو أنّها تتجاوز ما يسمّى بالخطوط الحمراء للدولة ويتمّ التعامل مع أصحابها على هذا الأساس، ولكن لا

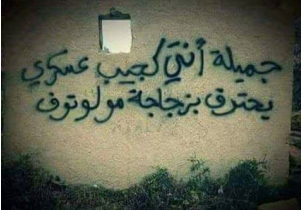
ينبغي التعامل معها قانونياً بل على أساس كونها موقفاً علنياً يجب الاستماع إليه واحتواء أصحابه». (الزعواني، 2014).

2- الحبّ والمواضيع الحميمية

الحبّ من الموضوعات التي تأخذ حيزاً واسعاً في كتابات الجدران. إذ يحضّر للجمال واللقاء والفرق والشوق والفرح والأسى... وكلّ ما يرافق تلك العاطفة من مشاعر، ويكتنفها من أحوال. ويُشار إلى أنّ الكتابات الغزلية كلّها أو جلّها سطرّها معجبون ذكور، ولعلّ في هذا خضوع للتقاليد، «على اعتبار أن الرّجل في تقاليد العاطفة العربيّة هو المحبّ دائماً، والطّالب دائماً، والإيجابي في العلاقة دائماً. وتبقى المرأة محبوبة مطلوبة، في موقع الصّدى أو التلقّي لعواطف محبّها». (عبدالله، 1980، صفحة 73). فيندر بوح النساء في السّبورات الليلية المفتوحة، والتي يجهل الغريب كاتبها، ويتلمس القريب ملامحه.

كثرت هذه المواضيع على الجدران والأبنية ومحطات القطار وغيرها الكثير من الأماكن، وتظهر هذه اللوائح الجدارية بطريقة عفوية بسيطة، غير متكلّفة، تعكس شعور الفرد تجاه حبيب أو عاشق. وتكون حاجة هنا إلى الاتصال العاطفي والتأكيد على الروابط الشخصية التي تتجاوز المكان والزمان، والصورة رقم (1) دليل على ذلك. وتحمل طابعاً من الانسانية والحميمية التي يصعب نقلها عبر أيّ وسيلة أخرى. هي تصوّرات حيّة تنبض بالمشاعر والأحاسيس. كما يمكن أن تتضمّن أسماء المحبوبات التي تعتبر من التّابوهات في العالم العربيّ، وهذا ما نشاهده في الصّورة رقم (2). ويمكن أن تشمل أيضاً كلاماً نابياً أو شتيمة أو تعكس تعابير غرامية تغطّي عليها روح الفكاهة الخفيفة، وهذا ما نراه في الصّورة رقم (3 و4).

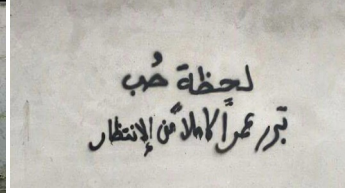
(3)



(2)



(1)



3- الأندية الرياضية والموسيقى

تكثر هذه الجداريات في الطرقات والمدارس وفي محطات القطار لانتشار هذا النوع من الرياضة والموسيقى بين العامة وشغفهم بالأندية واللاعبين والفرق الموسيقية والفنانين، فهي تحتوي على اسم فرق كرة القدم والفرق الموسيقية وأسماء يظهر أنها لمناصرين مستعدين لفعل أي شيء بعيداً عن قوانين الفن والرياضة وأخلاقياتها.



سادساً: اللوحات الجدارية بين الرّفص والقبول

مثل أي ظاهرة أخرى، ينقسم المجتمع إلى فئات مختلفة: فهناك من يرفضها تماماً، ومن يتقبلها، بالإضافة إلى أولئك الذين يتخذون موقفاً محايداً، حيث يتقبلونها وفقاً لقوانين وأنظمة معينة. وهذا هو الحال مع الكتابات الجدارية.

ينطلق الرافض لهذا النوع من الفن من مبدأ مكافحة محاولات تخريب الممتلكات العامة والخاصة من قبل ممارسي الغرافيتي غير المعروفين. فينادون بإيقافها ومعاقبة من يقوم بها. فهي تشوّه المنظر العام وتلوّثه. بينما يرى البعض الآخر بأنها نوع من الهوايات وفنّ من الفنون الذي يطلق عليه الغرافيتي أو فنّ الشارع، وباتوا ينظّمون معارض خاصة بهذا النوع من الفنّ، وأصبحت البلديات تهتمّ به بالماركة مع الجمعيات التي تعنى بالفنون، فيرون بهذا الفنّ وسيلة لتزيين الطرقات والجدران في المدن وتضفي رونقاً خاصاً عليها. ويرى البعض الآخر أنّ هذه الظاهرة نوع من الفنون، لكن يجب تهذيبها وترويضها فيما يخدم المجتمع والأفراد. حيث يقول الإعلامي سلطان سعود القاسمي: «نحن هنا نشجّع الفنّ العربيّ، والكتابة على الجدران، فهي شكل من أشكال الفنّ... نحن لا نتحدّث عن اللّغة البذيئة التي تكتب على الجدار، بل على قطعة من الفنّ الحقيقيّ التي تعزّز شعور المجتمع بالفنّ». (طارق، 2012).

استناداً إلى ما سبق، يمكن القول إنّ الكتابات الجدارية تمثّل ظاهرة عالمية، وقد واجهتها معظم الدّول بالرفض في بداياتها. ومع ذلك، انفتح الغرب على هذه الظاهرة من خلال دراستها وتخصيص مساحات واسعة لممارسيها، ممّا ساعد على توجيه طاقاتهم نحو إبراز الجانب الجماليّ لفنّ الغرافيتي. هذا الانفتاح أتاح لهم فرصة التّعبير عن مواهبهم في سياقات اجتماعية معينة. في المقابل، لا تزال هذه الظاهرة في مراحلها الأولى في الدّول العربيّة، بما في ذلك الجزائر، حيث لم تُدرس بشكل جادّ وعلميّ كما هو الحال في الدّول الغربيّة. نتيجة لذلك، تظل الكتابات الجدارية العربيّة أقلّ تطوّراً من حيث التّعبير الفنّي مقارنة بما هو موجود في أمريكا وأوروبا، ممّا يثير جدلاً حول قيمتها الفنيّة. هذا الجدل يزداد حدّة في ظلّ الظروف الجديدة التي يشهدها العالم العربيّ، حيث يلعب الغرافيتي دوراً في تحفيز ودفع الثّورات العربيّة.

خاتمة

في الختام يتبيّن لنا أنّ ظاهرة الكتابات الجدارية أو «الغرافيتي» لها أبعاد جديدة ومختلفة عمّا كانت عليه، حيث أصبحت وسيلة بديل سياسيّ يحرك الرّأي العام، ويؤثّر فيه كما هو مبين من خلال البلدان التي تعيش صراعات سياسيّة، وهي وسيلة للتّعبير عن معاناة الشّباب بدءاً من انعدام حريّة التّعبير إلى البطالة والفقر والتّهميش والحبّ

متحرراً من كلّ القوانين والقيود الاجتماعية والسياسية، إذ تعتبر هذه الجداريات مرآة لنفسية الأفراد على اختلاف مشاربهم، وهذا ما يفسّر اختلاف المواضيع التي تطرحها اللوحات والرسائل الغامضة والسريّة التي تبثّها. وقد وصلنا إلى عدّة نتائج نذكر منها:

- تعدّ الكتابة من أهمّ طرق التعبير عن الذات والبوح بما في النفس.
- يعدّ الكبت الاجتماعيّ من أهمّ ما يدفع المبدعين إلى التّخفي خلف الكتابات الجداريّة.
- يمكن أن يؤدّي التّهميش إلى عجز فئة معيّنة عن رؤية المشهد الإبداعيّ، لكنّه لا يمنعها من ابتكار طرق وأساليب للتّعبير عن وجودها.
- تظهر اللوحات الجداريّة المنتشرة على الصّفحات الإلكترونيّة أن الظواهر البدائيّة تمكّنت من جذب المعاصرة نحوها.
- تناولت الكتابات الجداريّة جميع جوانب الحياة وموضوعاتها، حيث شملت ما يتعلّق بالفرد والمجتمع، بالإضافة إلى المؤسّسات والسياسة والاجتماع والدين والفنّ.
- عرضت هذه الجداريات كلّ ما يتعلّق بظروف الحياة وأحوالها ومشكّالها ومعاناتها.
- غلبت الفكاهة والسخرية والتّهمك على الكثير من اللوائح الجداريّة ممّا عزّز من مكانتها والاهتمام بها من قبل الأفراد.
- جاءت اللّغة بسيطة عفويّة، دون إبهام، خرجت عن قواعد النّحو والإملاء.
- عدّت هذه الجداريات لوحات إعلانيّة جذّابة يصعب تجاهلها.

قائمة المراجع

1. Reisner, R. (1964). Graffiti: Two Thousand Years of Wall Writing. newyork: newyork cowles book co.
2. أحمد الزعواني. (2014). على جدران الأبنية والأسوار والمؤسسات العمومية. الكتابة الحائطية عند المغاربة. الهدد، 10432. تم الاسترداد من الهدد.
3. أحمد مختار عمر. (2008). معجم اللّغة العربية المعاصرة. القاهرة: عالم الكتب .
4. أكرم قانصوه. (1995). التّصوير الشّعبي العربي. الكويت: عالم المعرفة .
5. القطري، م. (2025). الشباب والكتابة على الجدران Retrieved from الوسط.
6. أميرة المالكي. (2009). جرافيتي الحرب والسلام، الكتابة على الجدران. الدبلوماسية، 45.
7. بدور الغامدي. (2013). الأبعاد الجمالية والتشكيلية لأعمدة الانارة العامة لإثراء الجدارية المعدنية المعاصرة- رسالة ماجستير . الرياض: جامعة أمّ القرى.
8. جانيس والد. (2019). إذا وقعت في حبّ كاتبه. الكويت: دار الخان للنشر والتوزيع.
9. حسين صالح قاسم. (2007). الابداع في الفن. عمان: دار مجلة للنشر والتوزيع.
10. عبده خال. (2022). المهمشون ليسوا دائما فقراء. تم الاسترداد من الامارات اليوم.
11. فرح البقاعي. (2004). عصابات الغرافيتي. الحوار المتمدن.
12. فطيم أحمد دناور. (2023). أدب الجدران المعاصر. الشارقة.
13. محمد حسن عبدالله. (1980). الحب في التراث العربي. القاهرة: عالم المعرفة.
14. مصطفى فهمي. (1998). الدوافع النفسيّة. القاهرة: مكتبة الأسرة.
15. منار طارق. (2012). الغرافيتي تخريب أم فنّ. الفجر.
16. منصور الجبري. (1999). جمعية المراحيض البريطانية. الوسط، 17.
17. مهذ حسين. (2008). الكتابة على الجدران ما بين الفن والسياسة. الحوار المتمدن، 2436.

«رجال في الشمس» و«أم سعد» لغسان كنفاني بين التأثير الآني والتشكيل الثقافي

**Men in the Sun and Umm Saad by Ghassan Kanafani:
Between Immediate Impact and Cultural Formation**

د. هبة العوطة

Dr. Hiba Al Outa

تاريخ القبول 2025 /4/2

تاريخ الاستلام 2025 /3/3

الملخص

إنّ غسان كنفاني لم يكن مجرد راوٍ للحكاية الفلسطينية، بل كان مُجدِّدًا في السرد العربي، استطاع أن يحوّل القضية من مأساة سياسية إلى تجربة إنسانية غنية بالأبعاد الرمزية والواقعية. فقد أظهرت «رجال في الشمس» الفلسطيني اللاجئ العالق بين الأمل والضياع، مستخدمةً الرمزية والموت العبيثي، بينما قدّمت «أم سعد» نموذجًا للفلسطيني المنخرط في النضال، مما عكس تطوّر رؤية كنفاني نحو القضية.

وقد أثبت البحث أن هذين العملين لم يقتصرا على التأثير الأدبي الفوري، بل أسهما في تشكيل وعي ثقافي عميق حول الهوية الفلسطينية، وفتحا آفاقًا جديدة في الأدب العربي لكيفية تناول القضية الفلسطينية. كما أن التباين بينهما لم يكن مجرد اختلاف في الأسلوب، بل كان انعكاسًا لتحولات فكرية واجتماعية أثّرت في خطاب المقاومة والهوية. وبذلك، تبقى أعمال كنفاني شاهدًا على التحولات السردية والثقافية التي شكّلت الأدب الفلسطيني الحديث ورسّخت مكانته في المشهد الأدبي العربي.

Abstract

This study highlights that Ghassan Kanafani was not merely a storyteller of the Palestinian cause but a literary innovator who transformed it from a political tragedy into a deeply human experience rich in both symbolic and realistic dimensions. Men in the Sun portrays the Palestinian refugee

trapped between hope and despair through symbolism and absurd death, while Umm Saad presents a character actively engaged in the struggle, reflecting Kanafani's evolving vision of the Palestinian issue.

The research demonstrates that these two works not only had an immediate literary impact but also contributed to shaping a profound cultural awareness of Palestinian identity. They opened new horizons in Arabic literature for addressing the Palestinian cause. The contrast between them was not just a stylistic difference but a reflection of intellectual and social transformations that influenced the discourse of resistance and identity. Thus, Kanafani's works remain a testament to the narrative and cultural shifts that shaped modern Palestinian literature and cemented its place in the Arabic literary landscape.

تمهيد

يُعدّ غسان كنفاني أحد أبرز الكتّاب الذين شكّلوا منعطفًا مهمًا في مسيرة الرواية الفلسطينية والعربية، حيث استطاع عبر أعماله أن يُحوّل القضية الفلسطينية من مجرد مأساة سياسية إلى تجربة إنسانية عميقة تتجلى في مصائر شخصياته وأسلوبه السردي. ومن بين أعماله الأكثر شهرة وتأثيرًا، تأتي روايتا «رجال في الشمس» (1963) و«أم سعد» (1969)، اللتان تُمثّلان رؤيتين متكاملتين للصراع الفلسطيني، إحداهما من خلال الحكاية الرمزية التي ترصد مأساة الهروب والضياع، والأخرى عبر التفاعل المباشر مع النضال والكفاح المسلح.

«كان أثر النكبة في الأدب دون المستوى لأنّ طبيعتها تغيّرت بسبب طول الزمن: كانت أوّل حدوثها روعة تأخذ بالنفوس والقلوب، كانت فاجعة، والفاجعة تُحدث عند من يتلقّاها - صاحبًا بعض الصّحو أو كلّه - ردًّا تلقائيًّا انفعاليًّا، وأدباء العرب في كلّ عصر يُحسنون هذا النوع من الانفعال المباشر الذي يُشبه انسكاب الدّموع. وقد كان العويل والنّذب من سمات الأدب الذي انفجر تويًّا بعد النكبة. ثمّ تراخى الزمن، وتبدّد الانفعال، ولم يعد النّظر إلى النكبة من زاوية مذبحه دير ياسين، أو عرض أبيح، أو طفل قُتل ...، إنّما أصبحت النكبة ذات عمق عربي (لا فلسطيني فقط)، وأصبحت مشكلة وجود،

أي غدت تتطلّب من الأديب العربيّ جذوة خالدة من الشّعور، بحيث يراها مشكلته، ويتحسّسها قبل أيّة مشكلة. وهذا الوضع يحتاج أصالة في الإدراك وسعة في الأفق وإيماناً بوحدة المصير»¹، وهذا ما ينطبق تماماً على أدب غسان كنفاني، الذي يُصوّر بصدق وبحرارة وبشاعرية مأسويّة، ملحمة شعب زلزلته الهزيمة...

ثمّ أخذ يتجمّع، ويتسلّح، ويستعمل السّلاح في حركة مقاومة شعبية ليحرّر أرضه المُغتصبة.

يعالج هذا البحث كلّاً من رواياتي: «رجال في الشمس»، «وأم سعد» بين التأثير الآنيّ والتّشكيل النّقافيّ لنضع إصبعنا على ما حمله غسان كنفاني من هموم وهواجس وتطلّعات حول قضية الأمّة المركزيّة (فلسطين).

1- التعريف بالروائي غسان كنفاني

غسان كنفاني: هو روائي وقاص وصحفي فلسطيني، ويعتبر غسان كنفاني أحد أشهر الكتاب والصحافيين العرب في القرن العشرين. فقد كانت أعماله الأدبية من روايات وقصص قصيرة متجذرة في عمق الثقافة العربية والفلسطينيّة.

ولد في عكا، شمال فلسطين، في التاسع من نيسان عام 1936م، وعاش في يافا حتى أيار 1948 حين أجبر على اللجوء مع عائلته في بادئ الأمر إلى لبنان ثم إلى سوريا. عاش وعمل في دمشق ثم في الكويت وبعد ذلك في بيروت، وفي تموز 1972، استشهد في بيروت مع ابنة أخته لميس في انفجار سيارة مفخخة على أيدي عملاء إسرائيليين.

أصدر غسان كنفاني حتى تاريخ وفاته المبكر ثمانية عشر كتاباً، وكتب مئات المقالات والدراسات في الثقافة والسياسة وكفاح الشعب الفلسطيني. في أعقاب اغتياله تمّت إعادة نشر جميع مؤلفاته بالعربية، في طبعات عديدة. وجمعت رواياته وقصصه القصيرة ومسرحياته ومقالاته ونشرت في أربعة مجلدات. وتُرجمت معظم أعمال غسان الأدبية إلى سبع عشرة لغة ونُشرت في أكثر من 20 بلداً، وتمّ إخراج بعضها في أعمال مسرحية وبرامج إذاعية في بلدان عربية وأجنبية عدة. اثنتان من رواياته تحولتا إلى فيلمين سينمائيين. وما زالت أعماله الأدبية التي كتبها بين عامي 1956 و1972

1 - احسان عباس، فلسطين والأدب، مجلة الآداب، العدد الثالث، 1964، ص 3.

تحظى اليوم بأهمية متزايدة.

على الرغم من أن روايات غسان وقصصه القصيرة ومعظم أعماله الأدبية الأخرى قد كتبت في إطار قضية فلسطين وشعبها فإن مواهبه الأدبية الفريدة أعطتها جاذبية عالمية شاملة.

كتب بشكل أساسي بمواضيع التحرر الفلسطيني، وهو عضو المكتب السياسي والناطق الرسمي باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. في عام 1948 أُجبر وعائلته على النزوح فعاش في لبنان ثم في سوريا. أكمل دراسته الثانوية في دمشق وحصل على شهادة البكالوريا السورية عام 1952. في ذات العام سجّل في كلية الأدب العربي في جامعة دمشق ولكنه انقطع عن الدراسة في نهاية السنة الثانية، انضم إلى حركة القوميين العرب التي ضمه إليها جورج حبش لدى لقائهما عام 1953. ذهب إلى الكويت حيث عمل في التدريس الابتدائي، ثم انتقل إلى بيروت للعمل في مجلة الحرية (1961)، التي كانت تنطق باسم الحركة، مسؤولاً عن القسم الثقافي فيها، ثم أصبح رئيس تحرير جريدة (المحرر) اللبنانية، وأصدر فيها (ملحق فلسطين) ثم انتقل للعمل في جريدة الأنوار اللبنانية وحين تأسست الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عام 1967 قام بتأسيس مجلة ناطقة باسمها حملت اسم «مجلة الهدف» وترأس غسان تحريرها، كما أصبح ناطقاً رسمياً باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. تزوج من سيدة دانماركية (آن) ورزق منها بولدين هما فايز وليلى.

من أعماله الروائية

- رجال في الشمس - مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت، 1963.
- أم سعد مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت، 1969.
- عائد إلى حيفا - مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت، 1970.

والقصصية

- موت سرير رقم 12 - بيروت، 1961.
- أرض البرتقال الحزين - بيروت، 1963.

- الشيء الآخر - صدرت بعد استشهاده، في بيروت، 1980.
- القميص المسروق وقصص أخرى.

ترجم له

ترجمت معظم أعمال غسان كنفاني ونشرت في حوالي 16 لغة في عشرين دولة مختلفة. وتم إفراغ بعض رواياته في قالب مسرحي قدم في الإذاعات وعلى المسارح في كثير من الدول العربية والأجنبية، بين عامي 1983 و1986 تم اختيار أربع روايات وقصص صغيرة من أعمال كنفاني لنقلها إلى اللغة الألمانية. في العام 1992 ترجمت إلى الألمانية الرواية الشهيرة «عائد إلى حيفا»، وفي العام 1994 رواية «أرض البرتقال الحزين». كانت رواية «رجال في الشمس» الأولى التي تم نقلها إلى اللغة الإنكليزية في السبعينيات وصدرت عن دور نشر في إنكلترا والولايات المتحدة الأمريكية، ثم نقلت الرواية نفسها وخلال السنوات العشرين الماضية إلى 16 لغة وصدرت الطبعة الدانماركية لها العام 1990 والطبعة الإنكليزية العام 1992 في القاهرة، وكانت نقلت إلى اللغة الإيطالية وصدرت العام 1991، وإلى الإسبانية العام 1991 أيضاً حيث جمعت الروايات الثلاث «رجال في الشمس»، «أم سعد»، و«ما تبقى لكم» في مجلد واحد صدر في مدريد. وكانت الرواية الأخيرة قد نقلت إلى الإنكليزية وصدرت في الولايات المتحدة العام 1990، في حين صدرت الطبعة الإيطالية لرواية «عائد إلى حيفا» في روما العام 1991 ونقلت مجدداً إلى الإنكليزية في الولايات المتحدة العام 1994. أما كتاب «عالم ليس لنا» وهو مجموعة قصص قصيرة صدرت العام، فقد نقلت إلى الإيطالية وصدرت في روما العام 1993. غير أن أشهر وأروع القصص التي خص كنفاني بها الأطفال هي في كتاب «القنديل الصغير» الذي زينه بالرسومات، ونُقل إلى الألمانية أولاً، ثم إلى الفرنسية، وحول إلى مسرحية دمي متحركة في الدانمارك. وقد لاقت رواية «أم سعد» اهتمام الإذاعة الدانماركية التي خصصت في العام 1993 برنامجين مطولين عن غسان كنفاني حياته وأعماله.

2- رواية غسان كنفاني والتأثير الآني

أ - التأثير الآني في رواية «رجال في الشمس»

«ليس من العسير على من يقرأ قصص غسان حسب تتابعها الزمني أن يلمح فيها صورة من التدرج الواعي المتعمد نحو واقعية صلبة محدّدة الحوافي، جاسية المظهر، مشمولة بمزيد من البساطة ومزيد من الوضوح، كأنما كان دائماً يحاول أن يقترب من حدود الهدف الذي وضعه لنفسه - في دور مبكر - وهو أن «تكون القصة واقعية مئة بالمئة، وبنفس الوقت تُعطي شعوراً هو غير موجود»¹.

ولا يدلّ ذلك على محاولة التّفرد والأصالة فحسب، وإنّما يدلّ أيضاً على مدى التّلازم بين الفنّ وقضية الانسان ومدى استعداد الفنّان لأن يجعل فنّه في خدمة الشعب، وقدرته على الاحتفاظ بالتّوازن الضّروري بين الإثارة الفنيّة المتجدّدة والحاجة الشعبيّة المتطوّرة. يُخيل إليّ أنّ غسان حين كتب هذه القصة (رجال في الشمس) كان يُعاني صراعاً حاداً بين الاحساس بالواقع والاحساس بالفنّ، كان في واقعه يحسّ أنّه كأيّ فلسطيني آخر، مقهور مقتول وحبيس في مصيدة العجز والخذلان، ولهذا سمح لنفسه بالاختيار الحرّ في كلّ خطوة، «انتقى كلّ شيء بإرادة من يملك أن يختار دون أن يُحاسبه أحد، وجرّ الواقع إلى جوار كومة من القمامة، ليطرحه هناك، ويتشقى بمصرعه، فهو واقع يغلّ يديه ويكبّل روحه، ولا بدّ له - كي يرتاح - من رؤيته صريعاً، فإذا كان ذلك امّحت المسافة بين ذلك الواقع وبين الفنّ»².

ومهما يكن من أمر فإنّ التأثير الآنيّ يختلف عند غسان كنفاني في رواية «رجال في الشمس» الأقدم عن «أم سعد» الأجدد، في حين كانت الارادة مسلوبة في الأولى، ثمّ بدأت تتضح وتتطوّر نحو التّشكّل في الثانية.

تعالج رواية غسان كنفاني «رجال في الشمس» الصّادرة عن «منشورات الرّمال» في 110 صفحات مشكلة المهاجرين الفلسطينيين بعد النّكبة وتبعاتها وويلاتها، وهي إن تحدّثت عن واقع معيشي فلسطيني خاصّ، وحاولت أن توصله لمشكلة الهجرة بوجه عام

1 - فضل النقيب، عالم غسان كنفاني، مجلة شؤون فلسطينية، العدد 13، 1972، ص 194.

2- إحسان عباس، الآثار الكاملة، المجلد الأوّل، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، 29 أيلول 1972، ص 11 - 14 - 20 - 21.

لأيّ شعب مطرود من أرضه قسراً إلى وطن الحلم والاستقرار والمال، وهذا ما يحدث حتّى اليوم فيما ناره من هجرات سبّبتها الحروب التي لا ترحم الانسان فحسب، بل امتدّ سعارها إلى الشجر والحجر، كما نرى في العراق وسوريا واليمن وليبيا التي يمتدّ شواظ ألسنتها إلى ما حولها كذلك .

والسؤال المحوري الذي يطرح نفسه في الرواية: هل استطاعت هذه الرواية القيام بدور تحريضي لمواجهة الاعتداءات اليومية التي يواجهها الشعب الفلسطيني من قبل الاسرائيليين؟

إنّ رواية «رجال في الشمس» عبّرت بعمق عما يحمله كنفاني من هواجس وهموم وتطلّعات فجاءت الرواية لتحكي وقائع نكبة 1948 التي ألمّت بالشعب الفلسطيني، وأنجبت جيلاً من اللاجئين الفلسطينيين.

إنّ هذه الرواية لا تزودنا بحلّ ايجابي، ولا تخلق بطلاً ثورياً، ليس لأسباب الشّاتات الدّائيّة، ولكن لأسباب موضوعية ترجع إلى عدم كفاية تطوّر تاريخي، وهي تمثّل نقداً ذاتياً للفلسطينيين، يُدين فيها غسان القيادات العاجزة والخائنة، والشّعب المستسلم في مرحلة آنية، كما تصوّر قسوة المنفى تحت كافّة أشكاله، ولنبداً بهذا المقطع الذي يجسّد الصّورة الحقيقيّة للقيادة العربيّة التي تجسّدت في أبي الخيزران: «ساقاه معلقتان إلى فوق وكنفاه ما زالتا فوق السّريّر الأبيض المريح والألم الرّهيّب يتلّولب بين فخذه ... كانت ثمة امرأة تساعد الأطباء، كلّما يتذكّر ذلك يعبق وجهه بالخل ... ثمّ ماذا نفعتك الوطنيّة ؟ لقد صرفت حياتك مغامراً، وها أنت ذا أعجز من أن تنام إلى جانب امرأة! وما الذي أفدته؟ ليكسر الفخار بعضه. أنا لست أريد الآن إلاّ مزيداً من النّقود ... مزيداً من النّقود»¹.

وفي مشهد آخر: «دفعه الشّرطي أمام الضّابط فقال له: تحسب نفسك بطلاً وأنت على أكتاف البغال تتظاهر في الطّريق! بصق على وجهه ولكنه لم يتحرّك فيما أخذت البصقة تسيل ببطء نازلة من جبينه، لزجة كريهة تتكوّم على قمة أنفه ... أخرجوه، وحينما كان في الممرّ سمع الشّرطي القابض على ذراعه بعنف يقول بصوت خفيض:

1- غسان كنفاني، رجال في الشمس، من ضمن مجموعة الآثار الكاملة، بيروت، مؤسّسة الأبحاث العربيّة، ط6، 2005، ص 131 .

«يلعن أبو هالبهدة» .. ثم أطلقه فمضى يركض»¹. حيث أنه ركب بغلاً وشارك المتظاهرين، وهذا ما كشف صورة حقيقية عن هذا الانتهازي المتسلق والذي صعد بعد عملية إخصائه لمركز قيادي وتابع حياته بشكل معتاد، والبصقة التي ألصقها الضابط تُجسد الدّول الكبرى التي قامت أولاً بإخصاء القيادة العربية ومن ثم إهانتها وإذلالها من دون أن تردّ الإهانة أن تدافع عن نفسها دفاعاً يعكس شخصية رجولية حقيقية، بل قبلت بها لتعكس نفسها ساقطة مُنحطة قابلة بذلّها وخنوعها، أمّا السّبب الحقيقي الذي جعل هذه القيادة تصعد سلّمها لم يكن هدفاً وطنياً بل كان هدفاً مادياً بحثاً، خمسون ديناراً هي التي جعلت أبو الخيزران يركب البغال مع المتظاهرين: «لولا ذلك لما حصل الخمسين ديناراً كلّ حياته»².

وعند الانتقال إلى الحوار الذي تلا وصول أبي الخيزران إلى النقطة الجمركية وقيام صاحب عمله بالسؤال عنه عدّة مرّات، تأخّر أياً ما في البصرة من أجل تلك الرّاقصة، الأمر الذي تسبّب في تأخّر الرّجال الثلاثة في الخزّان أكثر من الوقت اللازم ليتسبّب في موتهم الذي هو الهزيمة: «نظر الجميع إلى بعضهم فيما انقلب وجه أبي الخيزران الهزيل فصار مبيّضاً من فرط الرّعب وأخذ القلم يرتجف في يده

- قصّة تلك الرّاقصة.. ما اسمها يا علي؟

- كوكب.

ضرب أبو باقر طاولته بيده واتّسعت ابتسامته:

- كوكب! كوكب! يا أبا خيزرانة يا ملعون ... لماذا لا تحكي لنا قصصك في البصرة ؟ تمثّل أمامنا أنّك رجل مهذب، ثم تمضي إلى البصرة فتمارس الشّرور السّبعة مع تلك الرّاقصة .. كوكب»³...

هذا الحوار جسّد ما ذكر سابقاً حول قراءة الحدث في تفاصيله البسيطة، مومس تعاشر مخصّي ويتسبّب في تعطيل عمله وبثّ الدّعاية السيئة لنفسه، وهذا ما يُسمّى بأنّه رائحة الفساد قد فاحت من داخل جحور هذه القيادات، فهي قيادات مهزومة وانتهازية وثمّ

1- م.ن.، ص 131 .

2- م.ن.، ص 131 .

3- م.ن.، ص 137 - 138 .

مخصّية، إنّ كلّ هذه الصّفات إن اجتمعت في قيادة حتمًا ستوصل إلى هزيمة نكراء. في المشهد ما قبل الأخير من الرواية الذي قام به أبو الخيزران بإلقاء الرّجال الثلاثة في القمامة، غير مكثفٍ بقيادتهم للموت (الهزيمة) بل كشف عن وجهه الحقير حين قام بإلقائهم على قارعة الطّريق ليُزيح المسؤولية عن نفسه وينقلها لآخر مُخلّيًا مسؤوليّته بسهولة عمّا تسبّب به من موتهم: «هنا تكوّم البلديّة القمامة ... لو ألقيت الأجساد هنا لاكتشفت في الصّباح، ولدفنت بإشراف الحكومة»¹.

هذا المشهد جسّد الفكرة الحقيقيّة لما قامت به القيادة العربيّة من إلقاء الشّعوب المهزومة المتجسّدة في الرّجال الثلاثة على قارعة الطريق كي تُدفن بإشراف الحكومة، يعني هذا أنّ القيادة تُخلي مسؤوليتها منهم تمامًا .

ولنسير باتجاه الخاتمة التي حملت السّؤال الذي حاول فيه أبو الخيزران إلقاء اللّوم على الموتى المهزومين الذين قادهم بنفسه للهزيمة وبالتالي للموت، كذلك ردّدت الصّحراء الصّدى: «لماذا لم يدقّوا جدران الخزّان؟... وفجأة بدأت الصّحراء كلّها تردّد الصّدى: لماذا لم تدقّوا جدران الخزّان؟ لماذا لم تقررّوا جدران الخزّان؟ لماذا؟ لماذا؟»². هذا السّؤال الذي أبّاه كنفاني مُبهم الاجابة في ذلك العام من انجاز الرواية، لكنّه عاد ليُجيب عنه مرّة أخرى في روايته «أم سعد»: «لقد التحق بالفدائيين»³، فكان هذا جواب السّؤال، المقاومة الشّعبيّة والعمل الفدائي هو السّبيل الوحيد لطرق الخزّان وخلق جيل جديد قادر أن يهزم الهزيمة التي خلّفتها القيادة الخرزانيّة في عام 1948 وتسبّبت في تشريد آلاف الفلسطينيين من مدنهم وقراهم إلى مدن أخرى في داخل فلسطين وإلى الدّول المجاورة.

ب - التأثير الآني في رواية «أم سعد»

تميّزت المرأة في الرواية الفلسطينيّة بخصوصيّة جعلتها أنموذجًا يزخر بها الواقع، من خلال ابراز علاقتها بالقضيّة الوطنيّة وبالعالم من حولها. وقد شاركت المرأة الفلسطينيّة في الثّورات والانقاضات الوطنيّة، ومارست دورًا نضاليًّا على جميع المستويات الوطنيّة والثقافيّة، وأسهمت مساهمة فعّالة إلى جنب الرّجل في صياغة مستقبل الوطن، فأثبتت

1- غسان كنفاني ، رجال في الشّمس ، من ضمن مجموعة الآثار الكاملة، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربيّة، ط6،

2005، ص 148 .

2- م. ن.، ص 152 .

3- م. ن.، ص 260 .

كفاءة عالية في تحمّل مسؤوليّة النّضال، وعبّرت عن حيويّة المجتمع الفلسطينيّ وقدرته على التّحوّل الايجابي تبعاً للظّروف

والدّخول إلى عالم رواية «غسان كنفاني» بعنوان «أم سعد» الصادرة في بيروت عن مؤسسة الأبحاث العربيّة، العام 2005 هو دعوة إلى اجتياز المسافة القائمة بين العالم المرجعي الذي شكّل منطلق الرواية بسطحه الذي يتساوى جميع النّاس بالنّظر إليه، وبين ما قدّمت رؤية غسان كنفاني منه. وذلك من خلال اللّغة التي صار معها العالم المرجعي عالماً مُتخيلاً. إنّ تعرّف تلك المسافة هو تعرّف الأدبيّة التي حفلت بها هذه الرواية.

«ولا تقع المسافة خارج العالم المرجعي، فهو عمق من أعماقه غير المتناهية. وهي ليست مستقلّة عن رؤية الأدبيّة، فهي تمثّل دقيق للطّاقة الكشفية الخاصّة بتلك الرّؤية، لقدرتها على التّوغّل داخل العالم المرجعي بما يغيب سطحه الظّاهر للعيان. إنّ العمق الذي تصل إليه الرّؤية هو الفريدة التي هي عين الأدبيّة»¹

ينتمي غسان كنفاني إلى الواقعيّة الاشتراكيّة من جهة تعامله مع الفاعليّة الأدبيّة، وإلى فضاء القضية الفلسطينيّة بوصفه فلسطينيّاً مقتنعاً من بيته وأرضه من جهة تفاعله مع القضايا الوطنيّة. يعني هذا أنّه قد جعل من حياته مرآة لمسيرة شعبه، ومن كتاباته شهادة على معنى التّمرد والمقاومة، إنّّه من أولئك الذين يعملون على تقصير المسافة بين الفعل والكلمة، ويتطلّعون إلى توليد جنس جديد من البشر.

يُشكّل العنوان «أم سعد» الأنموذج الأمثل للصّمود والمقاومة التي تمتلكها المرأة الفلسطينيّة، وهي لم تنشأ صدفة، ولم تتكوّن شخصيّتها من فراغ «أم سعد امرأة حقيقيّة، أعرفها جيّداً، وما زلت أراها دائماً، وأحادثها، وأتعلّم منها، وتربطني بها قرابة ما»². إنّها تحمل إرثاً من الوعي النّضالي، وهي ليست أم مُقتصرة على أبنائها فقط، بل هي أم لشعب بأسره، هي ذلك الصّوت الذي يصدح بالحقّ، وهي تلك الرّوح التي دفعت ثمن الهزيمة، بأمنها وبيتها وانتهاءً بابنها سعد، وتجهّز الذي يليه فداءً لفلسطين «تدفع، وتظلّ تدفع أكثر من الجميع»³.

1 - علي مهدي زيتون، أدبيّة الرواية، دار المواسم، بيروت، لبنان، 2016، ص 152.

2 - غسان كنفاني، أم سعد، من ضمن مجموعة الآثار الكاملة، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربيّة، ط6، 2005، ص 241.

3 - غسان كنفاني، أم سعد، من ضمن مجموعة الآثار الكاملة، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربيّة، ط6، ص 242.

يهدي غسان روايته إلى «أم سعد» كون الرواية تحمل اسم صاحبة الإهداء، ولكن الأمر أبعد من ذلك، إذ أنّ النَّصَّ الكامل للإهداء إلى أم سعد الشعب والمدرسة، وتحليل هادئ للعبارة يوضّح ما يلي: إنّها رواية موجّهة لامرأة من المخيم، ومن المعروف تاريخياً العبء الذي تحمّله المرأة الفلسطينية اللاجئة إثر النكبة. وماذا تكون الرواية ان لم تكن سؤالاً جيّداً ومسعىً مثابراً للإجابة أو محاولة تقديم إجابة؟ ماذا تكون إن لم تكن صورة الواقع في تحولاته وطموحه للتغيير وإيجاد قواعد جديدة؟ «أم سعد» لم يستحضرها غسان كنفاني من خياله، إنّها فلسطينية لحماً ودماً وثقافة، ذاكرة وتمثيلاً للوجود الانساني على الأرض، والقصة حين استحضرته عامل الزّمان الباني للرواية في عنوان اللوحة الأولى «أم سعد والحرب التي انتهت» أي نحن غداة حرب 1967، ويحوي هذا المدى الزّمني عشرين عاماً من عمر المنفى بعد اغتصاب فلسطين وهو المستوى الزّمني الأول . أمّا المستوى الزّمني الثاني فيخصّ عمر «أم سعد» أربعين عاماً «إنّها سيّدة في الأربعين»¹ تتدرج في إطار سابق للمستوى الأول، تمثل تطوّر الفلسطيني بصفة عامّة:

كانت أم سعد شاهداً عينياً لثورة 1936 - 1939، لنكبة 1948 ولحرب 1967، كان هذا الاستحضار وظيفياً، وهذا التّاريخ ليس تاريخاً عابراً هو تاريخ علاميّ مزدوج الدّلالة:

فهو إيماءة من حيث امتداده إلى ثلاثة أزمنة ذكرناها آنفاً، وهو إيماءة من حيث آخره العام 1967 إلى تسليم جيل مقاوم الرّاية إلى جيل آخر. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هل استطاع غسان كنفاني أن يرسّخ ولادة الفلسطيني الجديد لجهة التّأني عن الانسان المجرد والفلسطيني المجرد والاقتراب من الانسان الفلسطيني الذي يعي أسباب نكبته ويدرك أحوال العالم العربيّ ؟ وهل استطاع أن يجسّد قضايا أمّته وأن يكون الشّاهد على عُري عصره وارتجاج موازين القيم فيه، حيث الاستلاب الدّاخلي والخارجي والأشياء تفقد طعمها تحت وطأة القمع المتمازج مع الثّورة؟

جملة أسئلة تستدعي الولوج إلى عمق الرواية.

تُفتّح الرواية على مشهد الحرب الحزيرانيّة التي كانت سبباً لخسارة مُضاعفة للمسحوقين الذين تُمثّلهم «أم سعد» - الشعب مرّتين (1948 - 1967)، وجاءت الهزيمة الثّانية لتذكّر سكّان المخيم كم كانت تعيسة أمانهم، وكم كانت العاقبة وخيمة «كان ذلك

1- م، ن، ص 259 .

الصَّبَاحَ تَعِيسًا. وبدت الشَّمْسُ المتوهّجة وراء النّافذة وكأنّها مجرّد قرص من النّار يلتهب في قُبّة من الفراغ المروع، كنا نطوي أنفسنا على بعضنا كما تطوى الرّايّات ... وبدت أمام تلك الخلفيّة من الفراغ والصّمت والأسى مثل شيء ينبثق من رحم الأرض ... فوراء ظهورنا تراكمت الدّروع المحطومة فوق الرّمْل المهجور ... وشقّت طوابير النّازحين مسافات جديدة، كنت أسمع هدير الحرب من الرّاديو، ومنه سمعت صمت المقاتلين، وهو يتكئ على الطّاولَة ورأيي ينوح مثل أرملَة، ويطلّي بصوته المهزوم كل أشياء الغرفة بالتّفاهة: المكتبة، المقعد ... وأحلام المستقبل، ويجعل الحبر بلا لون»¹.

إنّ المفردات (الضّياح - الصّمت - الأسى) لخصّت واقع الهزيمة، و(الدّروع المحطومة) تُشير إلى الهزيمة التّاريخيّة، أما طوابير النّازحين (فتشير إلى الهزيمة الاجتماعيّة)، وكفّاني حين يصف المستقبل بالتّافه، إنّما يريد أن يُبرز من خلال هذه الصّفة فجيعته، فجيرة الأُمّة بالحدث الحزيراني .

«ثراها ماذا ستقول الآن؟ لماذا تجيء وكأنّها تريد أن تبصق في وجوهنا؟»² يُشير الاستفهام «لماذا» وتكراره مشفوعًا بالتّشبيه «وكانّها» إلى ادانة كلّ من كان سببًا في الهزيمة النّكراء، فأتى الاستفهام نابضًا بالألم والحسرة، مُعبّرًا عن عمق اليأس من الاخفاق الذي مُنوا به جميعًا.

لقد كان الانتظار على اختلاف أنواعه قاسمًا مُشتركًا بين كلّ فلسطينيي المخيم وهاجسًا يعيشونه في كلّ لحظة من لحظات العمر. فبدت الأيّام بطيئة الحركة، وثقيلة الوقع، تحمل معها تهديدًا بانقضاء الشّباب وضياح العمر من دون جدوى بعد أن تجرّعت الجماهير الفلسطينيّة كؤوس البؤس والشّقاء طوال عشرين سنة بُعيد النكسة حزيران 1967 «أنا متعبة يا ابن عمي. اهترأ عمري في ذلك المخيم. كلّ مساء أقول يا رب! وكلّ صباح أقول يا رب! وها قد مرّت عشرون سنة»³. فالمخيم ليس إلّا حبسًا «أتحسب أنّنا لا نعيش في الحبس؟ ماذا نفعل غير التّمشّي داخل ذلك الحبس العجيب؟ الحبوس أنواع يا ابن العم! المخيم حبس، وبينك حبس، والجريدة حبس، والرّاديو حبس،

1- غسان كنفاني، أم سعد، من ضمن مجموعة الآثار الكاملة، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربيّة، ط6، 2005، ص 245 - 246 .

2- م. ن.، ص 246 .

3- م. ن.، ص 263 .

والبابص ... أعمارنا حبس، والعشرون سنة الماضية، والمختار حبس.. تتكلم أنت على الحبوس؟ طول عمرك محبوس ... أنت توهم نفسك يا ابن العم بأن قضبان الحبس، حبس . أنت نفسك حبس»¹.. إنَّ استخدام الحوار هو الطريقة المثلى لإقناع المثقف بشكل سريع، وتكرار كلمة حبس (سبع عشرة مرّة) لتأكيد كافٍ على الشحنة المعنوية والدلالية الكامنة في نفس كنفاني لمعاناته مرارة الغربة والابتعاد عن حضن فلسطين.

ومن الانتظار إلى الحبس إلى واقع المخيم بكل أبعاده الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإنسانية ومكابدة الهموم، وقساوة الظروف المعيشية بما فيها من فقر وجوع وعمل مضنٍ، وسوء مأوى، وذلك الانتظار أمام أبواب وكالة الغوث الفقر يا ابن العم الفقر ... الفقر يجعل الملاك شيطاناً ويجعل الشيطان ملاكاً، ما كان بوسع أبو سعد أن يفعل غير أن يترك خلقه يطلع ويفشه بالناس وبخياله؟ كان أبو سعد مدعوساً، مدعوساً بالفقر، ومدعوساً بالمقاومة ومدعوساً بكثرة الاعاشة تحت سقف الزنكو ومدعوساً تحت بسطار الدولة ... فماذا كان بوسعه أن يفعل؟

إنَّ إثارة الكاتب لهذه الأسئلة ما هي إلا دلالة على عمق المأساة ومرارة التشتت التي كانت دافعاً لتحديد الهدف وتغيير المسار، والتفاؤل الثوري يغلب على قصص غسان رغم امتلائها بالألم والأسى الذي لا يتركه غسان من دون ردٍّ، فالأم تبشر بالثورة وتعرف أنَّ جيلاً جديداً سيحمل راية الانعتاق «إذا لم يذهب سعد فمن سيذهب؟.. قلتُ للمرأة التي جلست إلى جانبي في البابص أنَّ ولدي أضحي مقاتلاً ... أعتقد أنَّهم سيعطونه رشاشاً؟»² بدا واضحاً من المشهد أنَّ مقدمات رياح التغيير بدأت تهبّ لتجرف كلَّ أدران العفن التي لحقت بالأمة في السنوات العجاف، وبات لزاماً إشعال فتيل الصّحوة التي ستعيد ترتيب الأوضاع على أسس جديدة عنوانها المقاومة، «وحدي؟ ماذا تعتقد يا ابن العم؟ وحدي؟ كنا كالثمل. كل نساء المخيم وأولاده وشبابه خرجوا وكأثم اتفقوا على ذلك سلفاً، ووقفنا جميعاً هناك»³ يُظهر هذا المشهد أنَّ الاضطهاد أضنى المقهورين، وجعلهم في حال استنفار، لذلك نشأت الحاجة لمحاربة منبع الظلم، فترسخت القناعة الجماعية بأنَّ الكفاح هو السبيل الوحيد للخلاص، وباتحاد الوعي بين الجموع تولّد من

1- غسان كنفاني، أم سعد، من ضمن مجموعة الآثار الكاملة، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ط6 ص 255.

2- م، ن، ص 263 - 264.

3- م، ن، ص 294.

رحم الاضطهاد الجماعي حال من التضامن والالتقاء على وحدة المعركة الوجودية، فألقوا بخوفهم إلى هوة الجحيم، واختاروا المواجهة لتأكيد حقهم في الوجود، وإلى تجاوز العجز والمساهمة في صناعة النصر حيث يصبح تحدّي الموت وقهره بطولة . وبذلك يمكننا القول إن الظلم يغرس في وجدان الشعوب المقهورة بذور الكفاح والتمرد، فالتفّس البشرية توافقة إلى الكرامة والحرية والشّعور بتقدير الذات.

وفجأة تغيّر كل شيء «لقد ذهب تلك الظّهيرة إلى حيث كان مكبر الصّوت يعلو بحديث لم يكن يُسمع مثله من قبل، ووقف هناك فوق الجدار يرقب، مثلما المصاب بالذهول، أطفال المخيم وبناته ورجاله يقفزون عبر النّار ويزحفون تحت الأسلاك ويلوحون بأسلحتهم»¹ يَصوّر هذا المشهد نهوض المخيم وانتفاضه على اليأس، وإعلان رفض الهزيمة حيث دخول العمل الفدائي إلى المخيمات، فالثّورة تقلب الموازين وتغيّر البشر . ولعلّ خطاب أم سعد المرأة: «أمّا سعد نفسه ورفاقه، فيعتقدون أنّ حسن توصية بهم هي أن يرسلوا على الفور إلى الحرب»² هو تلخيص للنّاتج الثقافي الذي حاولت الرواية تقديمه، وينمّ عن تفاؤل كبير بأنّ الطّريق إلى التّحرير قد بدأ . وتقديم الرواية «سعد وسعيد» نموذجين يُفتدى بهما إنّما يُمثّل إلاحاً من الرواية على وجوب الانخراط في المقاومة، وتحريضاً على أنّ السّلاح هو القيمة الحقيقيّة القادرة على التّحرير، فتقّة كنفاني بالنّصر جعلته يرسمه في جبين الشّمس ظاهراً يراه الجميع دون خوفٍ أو وجل.

3- رواية غسان كنفاني والتّشكيل الثقافيّ

أ - التّشكيل الثقافيّ في رواية «رجال في الشّمس»

لقد عبّرت «رجال في الشّمس» عن القضية، ومعاناة الانسان الفلسطينيّ وطموحاته بعد النّكبة، فقد اعتمدت الرواية على عنصر المبالغة في التّصوير والمعالجة، مع محاولة الولوج إلى أعماق وأحاسيس الشّخصيّات ومعاناتها، وما يختمر في بواطنها من صراعات.

من واقع الحياة الفلسطينيّة، ومأساة الانسان الفلسطينيّ في تلك المرحلة، أبدع كنفاني طرائق مختلفة للتّعبير عن لحظات أكثر توتّراً وأكثر مباشرة، بل أكثر وقوفاً عند آلام

1- غسان كنفاني، أم سعد، من ضمن مجموعة الآثار الكاملة، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ط6، ص 332 .

2- م.ن.، ص 265 .

الفلسطينيَّ المجفوع بعد فقدّه وطنه «فالأديب الحقيقيّ يهجس دائماً بفكرة الخلود، بقدرة نصّه على فاعليّة مستمرة تؤثر في كلّ جيل من أجيال القراء، وتُسهم في تشكيل ثقافتهم»¹، ولعلّ هذا كان دافعاً لتقديم المؤلّف أفكاراً إنسانيّة، هي غاية في الدقّة لجوانب من حياة الشّعب الفلسطينيّ، ونضاله المستمرّ في البحث عن الحدّ الأدنى لمتطلّبات الحياة الإنسانيّة، إنّها «عملية كشفية مساهمة في إعادة تشكيل الانسان العربي الفلسطيني»².

العنوان حدّد ذاته يُحيل إلى رمزيّة متناقضة، فكلمة (رجال) تُطالعنا لتجعلنا نتخيّل أبطالاً يمثلون عنفوان الرّجولة وجوهرها، في حين تخذلنا أفعالهم، لا بل نرتطم بمدى انهزاميّتهم وتبعثرهم وشتاتهم، أما كلمة (الشمس) والتي تغمرنا بنورها وإشراقها، وتبعث فينا بصيص الحياة بمجرد نطق اسمها، فإنّها تغدو في الرواية أداة قاتلة، ومصدراً مُثيراً لبواعث القلق والإدانة. لقد وضعنا العنوان وسط مناخ مشوب بالتشويق، وجعلنا نتطلّع إلى كيفة تشكّل الحدث في الرواية، لأنّ هذا التشكّل هو النّظام السيمولوجي الذي يحدّد الوظيفة التي توخّاها كنفاني لروايته.

استثمر كنفاني حدث العودة في تشكيل عالم روايته الذي يحمل همومه النّقائيّة، ولعلّ الكاتب من هذا الجانب قد ارتقى ببعض شخصيّاته - كشخصيّة أبي قيس على سبيل المثال - ليصبح أنموذجاً للانسان القلق الباحث عن ذاته وهويّته ووجوده، كاسراً بهذا حدود الزّمان والمكان.

وهذا ما نلاحظه بوضوح في بداية الرواية: «كلّما تنفّس رائحة الأرض وهو مستلقٍ فوقها خيّل إليه أنّه يتنسّم شعر زوجه حين تخرج من الحّمّام وقد اغتسلت بالماء البارد.. الزّائحة أيّاها، رائحة امرأة اغتسلت بالماء البارد، وفرشت شعرها فوق وجهه وهو لم يزل رطيباً»³. يتجلّى في هذا العمل إيقاع الحنين إلى المكان المفقود، الأرض، والذّار والماضي بكلّ ما فيه، والاصرار المباشر على العودة إلى الأرض التي تغدو المرأة ذات الشّعْر المبلّل الرّطب، ورائحتها التي تتماهى مع رائحة الأرض والوطن، وهنا تبدأ رحلة عودته في

1- علي مهدي زيتون ، أدبية الرواية ، دار المواسم ، بيروت - لبنان ، 2016 ، ص 93 .

2- م، س، ص 95 .

3- غسان كنفاني ، رجال في الشّمس ، من ضمن مجموعة الآثار الكاملة، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، 6ط، 2005، ص 37 .

حلمه اليقظ إلى بلدته الصّغيرة القابعة في حزن الحزن والغمّ والترقّب والانتظار. لقد وضعنا هذا المشهد أمام عمق ما يحمله كنفاني من هموم وتطلّعات تتعلّق بالعودة، إنّه الهدف العاجل المنتمي إلى عمق التشكيل النّفافي الذي تنبّته الرّواية والذي لا تتفصل عنه.

إنّ ثقافة غسان الخاصّة لا تلغي العقل والفهم الصّحيح لحقائق الأمور، بل تتسم بالبساطة والوضوح والعمق في الوقت ذاته، حيث كانت ثقافته نابعة من ظروف الحياة المأسويّة التي عاشها، وظروف من حوله، وما يعانيه الانسان الفلسطيني من مشكلات، وما يتطلّع إليه من طموحات، ضمن مسار نضاله وتحديّه اليومي، معتمداً على المعالجات الثوريّة النضاليّة، لأنّها في أساس الأمر معالجات موجّهة للجماهير، وهذا ما يدفع إلى ضرورة اتسامها بهذا الطابع المباشر في التعبير الأدبي. ومهما يكن من أمر فقد أخذت رواية «رجال في الشّمس» من العلامة والرّمز وسيلة للتعبير، فأبطال الرّواية الثلاثة: أبو قيس، أسعد، مروان: رمزٌ للشّعب الفلسطيني كلّ الذي يمثّلونه، فهي تمثّل ثلاثة أجيال عمريّة مختلفة، وتمثّل حقبات متعاقبة، وكأنّه يُحمّلها مسؤوليّة الهزيمة كأشخاص رموز، كل منهم تُوجد له مشاكله الخاصّة، لكنّ الطّريق لحلّ هذه المشاكل واحدة، وكانت النّهاية لكلّ منهم أيضاً واحدة: «جرّ الجثث واحدة واحدة من أقدامها وألقاها على رأس الطّريق»¹. ورمزيّة العودة إلى الحلم الجميل الذي يُمثّل جزءاً لا يتجزأ من حياة الفلسطينيّ المشردّ الضّائع، الباحث عن هويّته وكيّنونته في كلّ لحظة من لحظات تشرّده وضياعه وتشتّته واحدة، فهو يحمل وطنه وكلّ القرى والأماكن التي سقطت في قلبه وعقله أينما ذهب، وهو روح هائمة تبحث عن مُستقرّ لها، وفي ذلك يقول أبو قيس مخاطباً نفسه: «تموت؟ هيه! من قال أنّ ذلك ليس أفضل من حياتك الآن؟ منذ عشر سنوات وأنت تأمل أن تعود إلى شجرات الرّيتون العشر التي امتلكتها مرّة في قرينك ... قرينك! هيه!»²، هذا الموت هو الذي يصل إليه أولئك المسافرون الثلاثة الممعنون انقطاعاً عن أرضهم، فموت هؤلاء الثلاثة كان محتوماً، وقذفهم في القمامة محتوم، ما داموا قد رضوا بالخرّان، والادانة هنا ضروريّة، وما داموا قد رضوا بالقيادة الفلسطينيّة آنذاك.

1- م. ن.، ص 151 .

2- غسان كنفاني ، رجال في الشّمس ، من ضمن مجموعة الآثار الكاملة، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربيّة، 6ط، 2005 ، ص 48 .

ولعلّ الكاتب قد أراد تفجير الحسّ الثوري، والانطلاق المنتظر والتجاوز المأمول داخل الشخصية ذاتها، وكأنّ هذا التبشير الرمزي بالثورة قد جاء على لسان أبي الخيزران: «لماذا لم تدقوا جدران الخزّان؟»، وقد حملت هذه الصرخة دلالة ترجمها غسان كنفاني على هذا المستوى: إلى متى تظلّ بوادر الثورة هاجعة لا تستيقظ ؟

مفاد القول أن هذه ثقافة جديدة ودعوة جديدة إلى بناء ثقافي يتجاوز النكسة إلى النّجاح.

ب - التشكيل الثقافي في رواية «أم سعد»

تعدّ الأرض من أبرز موضوعات الأدب الفلسطيني، فقد شكّلت وما زالت تُشكّل حضوراً مكثّفاً واعياً فيه، واكتسبت نتيجة لخصوصيّة الواقع الفلسطيني أبعاداً كثيرة.

وبما أنّ جوهر الصراع مع العدو الصهيونيّ هو صراع على الأرض فقد تناولها كنفاني بوصفها رمزاً مقدّساً للوجود له مزايا كثيرة: فهي أرض الرّباط ومهد الحضارات ومنطلق الرّسالات، وإليها أُسري رسولنا محمد(ص)، ومنها عُرج به إلى السّماوات العليا، وفيها المسجد الأقصى المبارك أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، فلم تعد مكاناً للحياة والسكنى ومصدراً للخير والسعادة والهاماً للجمال فقط، بل غدت تجسيداً واعياً للهويّة الوطنيّة، والنتام الذات بالوطن، وكياناً حيّاً يتفاعل مع الأحداث ومن البديهيّ أن ينظر إليها كنفاني من زاوية خاصّة . فقد اتخذت بُعداً وطنياً قومياً أكثر عمقاً، بوصفها أرضاً شكّلت الصراع بين أصحابها وبين طرف دخيل عليها، ثمّ سلّبت منهم بعد اقتلاعهم منها وتشريدهم، وهكذا اكتسبت معانٍ جديدة وقديسيّة أكثر من ذي قبل نتيجة الشّعور الناتج عن فقدانها.

ويبقى لنا أن نسأل ما مدى إمكانات خصوصيّة غسان كنفاني الرّؤيويّة في الكشف عن أعماق جديدة تعتمل داخل حياة الفلسطينيين بين ثقافة الرّفص والمقاومة بكلّ آلامها من جهة أخرى؟

وهل استطاع كنفاني أن يوحد (أم سعد/الأرض) لبيد ظلمات الواقع، ويحمّلها نبض الحياة ويدفعها نحو المستقبل لترنو إليه بعيون تمور بالثقة والأمل؟

مزج كنفاني بين أم سعد والأرض مستهدفًا تأصيل العلاقة بينهما، لتغدو أم سعد معادلًا موضوعيًا للأرض، حيث عجن الكاتب جسدها بهذه الأرض، وطبعه بملامحها، وفجر فيه ينباع من نور ونار ليصبح مؤهلًا لحمل شعلة النضال ودفع الجماهير الشعبية إلى النهوض والتحرير. لقد وُلدت أم سعد من رحم الأرض «مثل شيء ينبثق من رحم الأرض»¹، وحملت معها خصائص تلك الأرض وملامحها «ساعدها الذي يُشبه لونه لون الأرض»²، وجهها «وكأنه تراب مسقي»³، كفاها «كقطعتي حطب، مشققتين كجذع هرم»⁴، جبينها «الذي له لون التراب»⁵، قوّة «كما لا يستطيع الصخر»⁶... كل ذلك يستمدّ قيمته من الأرض التي تناضل من أجلها، وبذلك تتجاوز المرأة حجمها المألوف فتصبح قدرة مطلقة حين تتحوّل إلى رمز، لتساهم في نقل هموم كنفاني وأوجاعه، وفي هذه الحالة وعندما تُقارن بالأرض تحمل نفحة من الكونيّة تخرج بها عن المألوف «شارة من الضوء في بحر لا نهاية له من الظلام»⁷.

وإذا كان الانتظار على اختلاف أنواعه هو الهاجس الذي عاشه الأدباء الفلسطينيون كل لحظة من لحظات عمرهم إلا أنّ انتظار أم سعد واحساسها بمرور الزمن يبدو من نوع خاص. أنّه الانتظار الذي يصحبه العمل ويحدوه الأمل بحياة أفضل «أريد أن أعيش حتى أراها. لا أريد أن أموت هنا في الوحل ووسط المطابخ»⁸، إنّ تأكيد الفعل أعيش بتعليق الرؤية تجسيد للاحساس العميق والحادّ بمرور الزمن، فيتّضح بذلك الدور الذي يؤديه الزمن في حياتها. إنّها تعيش زمن النهوض المتمثّل في الثورة الشعبية المسلّحة «عادت أم سعد ففرشت راحتها أمامي، كانت الجروح تمتدّ فوق خشونتها أنهرًا حمراء جافة، تفوح منهما رائحة فريدة، رائحة المقاومة الباسلة حين تكون جزءًا من جسد الانسان ودمائه»⁹.

1- غسان كنفاني، أم سعد، من ضمن مجموعة الآثار الكاملة، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ط6، 2005، ص 245.

2- م. ن.، ص 278.

3- م. ن.، ص 269.

4- م. ن.، ص 260.

5- م. ن.، ص 250.

6- م. ن.، ص 259.

7- م. ن.، ص 273.

8- م. ن.، ص 271.

9- غسان كنفاني، أم سعد، من ضمن مجموعة الآثار الكاملة، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ط6، 2005، ص 297.

لقد صاغ كنفاني (الأرض/أم سعد) منظومة قيمية واحدة تحيل إلى قيم سامية مشتركة بينهما بمنح الحياة «هذه المرأة تلد الأولاد فيصيروا فدائيين، هي تخلف وفلسطين تأخذ!»¹، وبذلك تنتعش روحها المعذبة، وتضيء الطريق للأجيال، ويصبح الحلم قابلاً للتحقق. فالحلم ليس غيبياً بل هو الواقع الذي بالامكان اختياره، فقد كان استبدال أم سعد لحجابها القديم الذي كتبه لها شيخ «صنعه لي شيخ عتيق منذ كنا في فلسطين ... إنني أعلقه منذ كان عمري عشر سنين، ظللنا فقراء، وظللنا نهترئ بالشغل، وتشرّدنا، وعشنا هنا عشرين سنة ... اذا مع الحجاب هيك، فكيف بدونه؟»² برصاصة سعد المخبأة في فراشه هو النتيجة الطبيعية لإعلان عن تهاوي القيم القديمة التي كانت سبباً في الهزيمة لتحل محلها قيماً ثورية مستمدة من واقع جديد يرفض المهادنة والاستسلام للقدر، أم سعد اذاً تنتقد المسار القديم وتترك في الوقت نفسه المسار الحقيقي للتحرير. إنها دعوة إلى ثقافة وإنسان جديد وبداية التغيير الجذري المطلوب الذي يمثل عمقاً من أعماق ذلك الاحباط الذي وضعت الرواية اصبعها عليه.

تنتهي الرواية بالعود الجاف وقد اخضرّ وأزهر كما اخضر المخيم وأزهر بالنّورة. إنها قوانين الحياة من صراع ونفي وتحول تاريخي يفرضه الواقع. وكأنّ صوت أم سعد هو انتقام من المحادثة الأولى والجدال حول عدم فائدته «برعمت الدالية يا ابن العم برعمت!»³، ظلّ كنفاني متمسكاً بحلمه الذي تنمو أغصانه يوماً بعد يوم لتخترق عنان السماء وتزهر أوراقه، فهو على الرّغم من آلامه يمضي في سبيله ويزداد توهّجاً واشتعالاً، فالمناضل الفلسطيني مسكون بالحياة ودورتها الكاملة، مسكون بالخصوبة والبقاء والانبعاث ثانياً بعد طول جفاف «تنظر إلى رأس أخضر كان يشقّ التراب بعنفوان له صوت»⁴.

إنها ثقافة غسان كنفاني ورؤيته التي تأبى الهزيمة والتطويع والتطبيع، وتستشرف المستقبل الآتي ببارقة أمل رغم عتمة الواقع الذي لم يدخل كنفاني دائرة التشاؤم بل رسّخ إيمانه بإشراق فجر جديد ينبثق من الواقع الناهض ليبدد ظلمات الهزيمة، ويزرع الأمل والثقة في نفوس كليلة هدها الأسمى والانتظار، ليرسم آفاق الثورة والتحرير.

1- م. ن.، ص 334.

2- م. ن.، ص 326.

3- م. ن.، ص 336.

4 - غسان كنفاني، أم سعد، من ضمن مجموعة الآثار الكاملة، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ط6 ص 366

الخاتمة

إنّ قراءة متأثة لروايّتي «رجال في الشّمس» و«أم سعد» لغسان كنفاني تكشف الصّراع الحادّ الذي عاشه الشّعب الفلسطينيّ ضدّ العدوّ الاسرائيليّ وتُعيد طرح الأسئلة الوجودية الأساسية: أسئلة الولادة، والموت، والعلاقة بالأرض، والرّحلة والمصير . ولعلّ انشغال غسان بالعثور على أجوبة لأسئلته المؤرّقة حول فلسطين دفعة إلى تعميق أسئلته لتصبح سؤال الانسان المقتلع المنفي المغترب عن شرطه الوجودي، ما جعلها صالحة لتكون ذات صبغة انسانية خالصة، كونية الهوية بسبب الشّحنة الوجودية العميقة التي تنطوي عليها الشّخصيات والأحداث. فأمام شخصيّاته الرّوائية خيار الهرب من الهدف الأساس (وهو التحرير)، المعادل للهروب من الذات (أي الاستكانة والخضوع لمنطق العدوان).

ففي روايته «رجال في الشّمس» تشي مدلولات المعنى العام للنّص بإدانة الخيار السلبي، فنرى أنّ الشّخصيات الأساسية وهي (أبو قيس وأسد ومروان) تلقى حتفها في مسارها الهروبي عبر الصّحراء إلى الكويت داخل خزّان مقفل . وفي اللّحظة التي يرمي فيها سائق الصّهرج (أبو الخيزران) بالجثث الثّلاث تبدأ أزمتة فيصرخ لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟

وهكذا تنتهي الرّواية بهذا الشّعور المأزوم، وكأنّ الموت هنا يدلّ على خطأ مسار الهروب، وهو مسار يحتمل الموت وتنامي المأزق، كما أنّه يدلّ على خطأ موصّفة الأحلام في المكان الوهم. لذلك نجد النّص ينتهي عند ذروة الأزمة، فيختمه بسؤال معلق دون جواب. وتومئ هذه النّهاية إلى أنّ على الفلسطينيّ أن يكفّ عن مطاردة الحلم الوهم، أي وهم استرداد الكرامة في أرض أخرى، فلا مفرّ أمامه من مواجهة العدوّ بهدف تحويل الموت إلى حياة، والمهانة إلى كرامة.

بيد أنّ هذا الخيار يتحوّل إلى خيار إيجابي في «أم سعد» بفعل تنامي الوعي وتبدّل الأحداث السّياسيّة عن طريق بروز المقاومة المسلّحة. فالخيار المطروح في «أم سعد» هو الكفاح المسلّح، إذ يتمّ تحديد صورته وتأكيد حتميّة انتصاره، فيبرز أنّه الاستراتيجية الصّحيحة لاستعادة الأرض والهويّة.

نستنتج أنّ الوعي الفلسطينيّ كان منهماكّ بالهمّ اليوميّ في الرواية الأولى، وهو تجسيد الذات الباحثة عن حلّها الفردي، وأمّا في الرواية الثانية فتجسّد الرؤية الجماعيّة التي أدركت أنّ الحلّ الثوري هو طريق النضال الذي سيُعيد الذات والأرض. هكذا تتبلور أهميّة البحث عن الخلاص الجماعيّ الكفيل بكسر أسوار المخيم وتحويله من الدّاخل من ساحة فقر إلى ساحة ثورة، فالوعي الجماعي هو ثمرة تجارب تاريخيّة، وتراكمها أدّى إلى الانتقال من السّؤال إلى الجواب، وكأنّ سؤال الرواية الأولى تجيب عنه الثانية فتصير القضية المؤثّر الذي حوّل الفرد جماعي، ويعود ذلك إلى كون غسان يُدرك أنّ الحكاية الفلسطينيّة هي من بين الحكايات الكبرى والتّراجيديّات المعقّدة التي تصلح أن تُفسّر على خلفيّة معنى صراع البشر على الأرض والتّاريخ.

لا أظنّ في سياق مراجعة ما أنجزه غسان كنفاني أنّ هناك روائياً فلسطينياً آخر استطاع أن يغوص في أعماق التّجربة الفلسطينيّة ويكتب جوهر هذه التّجربة، جاعلاً مغامرة الفلسطينيين تتقاطع مع مصائر البشر جميعاً، مُعطياً الحكاية الفلسطينيّة ملامح تاريخيّة مركّبة وامتدادات فلسفيّة تدور حول أسئلة المصير والارادة وقدرة الانسان على التّدخّل في اللحظة الحاسمة لتقرير مصيره الفردي والعام. يبقى أنّ الروائيتين قد واكبنا حركة التّاريخ، وأومأتا إلى مناخات عاشها مجتمعنا مرحلة بعد أخرى، مسهمتين بذلك بدور تحضيريّ أني واستراتيجيّ.

ولكن هل استطاعت الرواية العربيّة أن تطرح أسئلتها المخرجة للثقافة العربيّة القائمة والتي تعيش تبعيّة واضحة للثقافة الغربيّة، في ظلّ عقل عربي عاجز؟ إنّ هذا السّؤال النوعي وحده كفيل باكتشاف موقعنا الثقافيّ في عالم اليوم من جهة، وبإعادة تشكيل ثقافتنا من جهة ثانية، فنكون على قدر المرحلة التي نتقيّ تحت ظلالها.

المصادر والمراجع

1. زيتون، علي مهدي، أدبية الرواية، دار المواسم، بيروت، لبنان، 2016.
2. عباس، إحسان، فلسطين والأدب، مجلة الآداب، العدد الثالث، 1964.
3. عباس، إحسان، الآثار الكاملة، المجلد الأول، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، 29 أيلول 1972.
4. كنفاني، غسان، رجال في الشمس، من ضمن مجموعة الآثار الكاملة، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ط6، 2005.
5. كنفاني، غسان، أم سعد، من ضمن مجموعة الآثار الكاملة، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ط6، 2005.
6. النقيب، فضل، عالم غسان كنفاني، مجلة شؤون فلسطينية، العدد 13، 1972.

الأسرار البلاغية في التركيب اللغوي للآيات المتشابهة في القرآن الكريم

Rhetorical secrets in the linguistic structure of similar verses in Qur'an al karim

نغم سلهب

Nagham Salhab

تاريخ القبول 2025 / 4/4

تاريخ الاستلام 2025 / 3/18

ملخص

جرت في هذا البحث مقارنة لغوية وسياقية بين بعض الآيات المتشابهة في جزء عم، وذلك بعد التعرف على معنى التشابه لغةً واصطلاحاً؛ فالمعنى اللغوي للتشابه يدور حول أمرين: التماثل والالتباس، وأما اصطلاحاً فقد تُوصّل إلى تعريف جامع للمتشابه اللفظي -الذي هو مدار البحث- وهو الآيات المتكررة في موضوع واحد متقارب المعنى، وهي إما متشابهة تشابهاً تاماً، وإما غير تام؛ وذلك باختلاف في اللفظ، أو في النظم، أو في كليهما معاً. وبالتالي، توزعت الآيات على أربعة أقسام:

➤ آيات المتشابه التام.

➤ آيات المتشابه المختلف في الإبدال.

➤ آيات المتشابه المختلف في الذكر والحذف.

➤ آيات المتشابه المختلف في أحوال الفعل.

وتبيّن أنّ الآيات التي تشابهت تشابهاً تاماً، قد اختلف المقصود فيها، فلم تكن تكراراً؛ فكل آية منها كان لها مدلولها الخاص وفق السياق الذي أتت فيه. والآيات التي اختلفت في الإبدال، أو في الذكر والحذف، أو في أحوال الأفعال، كشفت عن بعض الأسرار البلاغية المكتنزة في القرآن الكريم، فجاء كل تركيب في مكانه المناسب والملائم، فلا يصحّ إبداله بآخر لتناسبه مع الدلالة المقصودة. وأظهرت هذه الآيات القيمة المعنوية التي يحملها الحرف؛ فذكره في آية وحذفه في أخرى يؤدّيان إلى الاختلاف في الدلالة،

فمعاني الحرف لها تأثير واضح على معاني الآيات التي وردت فيها، فلا يمكن إغفالها أو عدم الالتفات إليها في تحديد الدلالات. وكذلك الأمر في أحوال الأفعال، فالوزن الذي جاء عليه الفعل، أو الزمن الذي صرّف فيه، قد تناسب تناسباً تاماً مع السياق الوارد فيه، فكان له انعكاس واضح في تحديد الدلالة.

الكلمات المفتاحية: المتشابه اللفظي - التركيب اللغوي - السياق - الدلالة - الإعجاز البلاغي.

Abstract

This research presents a linguistic and contextual comparative study between certain similar verses in (Amma) chapter, after identifying the meaning of similarity linguistically and terminologically. Linguistically, the meaning of similarity revolves around two things: resemblance and likeness. Terminologically, the research adopts Al-Jami' University's definition of verbal similarity, which is the main subject of the study — repeated verses on a particular topic with a similar meaning. These verses might be completely identical, or partially similar due to differences in wording, structure, or both. Accordingly, the similar verses were categorized into four sections:

1. Verses that are completely similar.
2. Verses that differ in substitution.
3. Verses that differ in addition or omission.
4. Verses that differ in verb conditions.

It was found that the verses that appeared similar, whether completely or partially, were not repeated randomly; rather, each had its specific context and particular connotation based on its surrounding context. As for the verses that differed in substitution, addition, omission, or verb conditions, they revealed some of the rhetorical secrets contained in the Qur'an. Every structure came perfectly suited to its context and the intended meaning, so substituting any word would not fit the intended indication. This study showed that these frequently repeated verses in the Qur'an

carried great rhetorical value, whether the difference was in the letter, the word, or its omission in one verse and inclusion in another. This variation contributes to refining the intended meaning of the verse, and it would not be appropriate to delete or replace them without affecting the meaning. This also applies to verb conditions, where the verb in its tense and form perfectly aligns with the context in which it appears, reflecting its role in clarifying the intended meaning.

Keywords: Verbal similarity – linguistic structure – context – meaning – rhetorical miracle.

المقدمة

تتوّعت أوجه الإعجاز في القرآن الكريم، فمنه العلميّ والتشريعيّ والإخبار عن الأمم السابقة وعن الغيب؛ ومن ذلك أيضاً الإعجاز البيانيّ البلاغيّ، المتمثّل في أسلوبه ونظمه وتركيبه اللّغويّ.

وبعدّ التّشابه اللفظيّ فيه من أبرز ظواهر الإعجاز البلاغيّ، فتتشابه بعض آياته تشابهاً تاماً، وتختلف في بعضها باختلاف كلمة (اسم، فعل، حرف)، أو وجود زيادة أو نقص أو تقديم أو تأخير، وغيرها من وجوه الاختلاف بين المتشابهات.

والنّظر إلى التّركيب اللّغويّ وحده في هذه الآيات، قد يؤدّي إلى الابتعاد عن فهم الدّلالة الكاملة، وقد نُرجع حينئذ هذا الاختلاف إلى وجوه جماليّة شكلية؛ وكأنّ وجود هذه الكلمة يوضّح المعنى، أو نقصها يفيد الوجد والافتقار. من هنا، كان لا بدّ -لمعرفة المعنى الدقيق للآية وسرّ اختلافها عن نظيرته- من ملاحظة السّياق؛ للإحاطة بالحقيقة البلاغيّة الكبرى، وهي لكلّ مقام مقال؛ لما في السّياق من دور مهمّ في بيان الدّلالة المرجّوة، فهي قد تصلح في سياق، ولا تصلح في سياق آخر.

ولمّا كانت الألفاظ وسيلةً لتحديد الأفكار والمعاني، وتتميّز بعضها عن بعض بما هي متفاوتة في العموم والخصوص، وفي الجنس والنوع؛ ولمّا كان الخلاف في معاني الألفاظ كثيراً في اللّغة، خصوصاً في المتشابهة فيها؛ ولما كانت البلاغة تقتضي اختيار اللفظة التي تناسب المعنى المراد والمقصود، كان الإعجاز فيها هو الدقّة في

التعبير، حيث لا يمكن للفظة أن يشاركها فيها غيرها.

وهذا ما تجلّى في كتاب الله العزيز القرآن الكريم، حيث حازت التراكيب اللغوية فيه مرتبة القدسية لكونها تدور في فلك الإعجاز، ويمكن أن يُكتشف ذلك عند تتبّع الآيات المتشابهة فيه؛ إذ نجد أنّ اللفظة تستعمل في مكانها الذي يناسبها ممّا لا محيص من إحلال غيرها محلّها. لذلك، فإنّشكالية البحث هي الإجابة عن هذا السؤال:

إلى أي مدى تجلّى اتساق التراكيب اللغوية في الآيات بسياقاتها إعجازاً بلاغياً؟

وبما أنّه لا يمكن الإحاطة بجميع الآيات المتشابهة لغوياً في القرآن، حدّد هذا البحث بإطار جزء عمّ، حيث سيتمّ اختيار بعض الآيات المتشابهة فيه.

أمّا الطريقة التي اتّبعت في دراسة الآيات وتحليلها للوصول إلى بعض أسرار الاختلاف فيها فكانت التالية:

أولاً- الرجوع إلى التفسير للكشف عن معنى الآيات ولطائفها.

ثانياً- البحث عن المعاني النحوية واللغوية في الآيات التي تتطلب ذلك.

ثالثاً- النظر في السياق بتأمّل وتمعّن، وربطه بمدلول الآيات وبالمعاني النحوية واللغوية إن وجدت، للوصول إلى نتيجة تُظهر نوعاً ما سرّاً من الأسرار البلاغية الكامنة في كتاب الله العزيز.

ولاستخراج ما تشابه من الآيات في جزء عمّ تمّ الرجوع إلى القرآن ذاته، إضافة إلى الاستعانة بالكتب التالية:

أ. دليل آيات متشابهة الألفاظ في كتاب الله العزيز¹.

ب. درّة التنزيل وغرّة التأويل².

ج. البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجّة والبيان³.

1- سراج صالح ملائكة، دليل آيات متشابهة الألفاظ في كتاب الله العزيز، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط 4، 2006 م.

2- أبو عبد الله محمد بن عبد الله الإسكافي: درّة التنزيل وغرّة التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1995 م.

3- برهان الدين أبو القاسم محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى: البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجّة والبيان، تحقيق السيّد الجميلي، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، 1997 م.

ووزعت الآيات المتشابهة على أربعة أقسام، وهي التالية:

1. آيات المتشابه التام.
2. آيات المتشابه المختلف في الإبدال.
3. آيات المتشابه المختلف في الذكر والحذف.
4. آيات المتشابه في أحوال الأفعال.

أولاً- مفهوم التشابه

1. في اللغة

«الشَّبَّه والشَّبَّه والشَّبَّيه: المِثْل، والجمع أمثال. وأشبه الشيء الشيء: ماثله.. وأشبَّهت فلاناً، وشابَّهته، وتشابَّه الشَّيْئَانِ، واشتَبَّها: أشبه كلَّ واحد صاحبه، وتقول: أشبه فلان أباه، وأنت مثله في الشَّبَّه والشَّبَّه، وتقول في فلان شبه من فلان، وهو شَبَّهه وشَبَّهه وشَبَّيْهه (...) والمشتَبَّهات من الأمور المشكلات، وتقول شَبَّهت عليَّ يا فلان إذا خلط عليك. واشتَبَّه الأمر إذا اختلط. والشَّبهَة: الالتباس، وأمور مشتبَّهة ومشبَّهة، وجمع الشَّبهَة: شبه. وشَبَّه عليه خلط عليه الأمر حتى اشتبه بغيره...»¹.

وفي المعجم الوسيط بيان بديع لمادة شبه يمكن إيجازه في ما يلي:

«شَبَّه الشيء بالشيء: مثَّله وأقامه مقامه لصفة مشتركة بينهما. وتشابَّه الشَّيْئَانِ: أشبه كلُّ منهما الآخر حتَّى التَّبَسَا. والتَّشْبِيه: التَّمْثِيل، وعند البيانين: إلحاق أمرٍ بأمرٍ لصفة مشتركة بينهما كتشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة. والشَّبَّه والشَّبَّيه: المِثْل، والجمع: أشباه. وشَبَّه عليه الأمر: أبهمه عليه حتَّى اشتبه بغيره. وشَبَّه عليه وله: لبَّس. وفي التَّنْزِيل العزيز: ﴿وَمَا قَنَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (النساء 157). واشتَبَّه الأمر عليه: اختلط. واشتَبَّه في المسألة: شكَّ في صحتها.

1- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط 3، 1993 م.

والشُّبْهَة: الالتباس، وفي الشَّرْع: ما التبس أمره، فلا يدري أحلالٌ هو أم حرام، وحقُّ هو أم باطل، والجمع: شبه¹.

وفي لفظ آخر لصاحب المصباح المنير:

«شَبَّهْتُ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ: أَقَمْتُهُ مُقَامَهُ لصفَةٍ جامعة بينهما. وأشبه الولد أباه وشابهه: إذا شاركه في صفة من صفاته. واشتبهت الأمور وتشابهت: التبتت فلم تتميز ولم تظهر»².

وهكذا، فإنَّ المعنى اللَّغَوِيَّ للتشابه يدور حول أمرين: التَّمَاثُل والالتباس. وعلى ضوء ذلك يمكن الاستدلال على معنى لفظ التَّشَابُه الوارد في القرآن الكريم.

2. في الاصطلاح

لم يرد عند العلماء تعريف منضبط أو محدّد للمتشابه اللَّفْظِيّ، بدءًا بالخطيب الإسكافي الذي يعدّ مؤسس هذا العلم، فهو لم يخصّ اصطلاح المتشابه اللَّفْظِيّ بتعريف، وإنّما ذكر ذلك حينما نوّه بمبعث كتابه ومادّته قائلاً: «تدعوني دواعٍ قويّةٌ يبعثها نظرٌ ورؤية في الآيات المتكرّرة بالكلمات المتّفِقة والمختلفة، وحروفها المتشابهة المنغلقة والمنحرفة، تطلّبًا لعلامات ترفع لبس إشكالها»³.

وكذلك الغرناطيّ لم يضع له بيانًا، وإنّما قال في معرض الإشارة إلى موضوع كتابه: «وإنَّ من مغفلات مصتفي أئمّتنا -رضي الله عنهم- في خدمة علومه، وتدبّر منظومه الجليل ومفهومه، توجيه ما تكرّر من آياته لفظًا أو اختلف بتقديم أو تأخير، وبعض زيادة في التعبير»⁴.

أمّا الزركشيّ فقد سمّاه بعلم المتشابه، وعرّفه قائلاً: «وهو إيراد القصّة الواحدة في صور شتّى، وفواصل مختلفة، ويكثر في إيراد القصص والأنباء، وحكمته التصرف في

1- أنيس، إبراهيم، منتصر، عبد الحليم، أحمد، محمد خلف الله: المعجم الوسيط، مطابع دار المعارف، مصر، ط 2، 1973 م، ج 1، ص 978-979.

2- الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقرئ: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت، ط 1، ج 1، ص 303-304.

3- الإسكافي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله: درة التنزيل وغرّة التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1995 م، ص 3.

4- الغرناطي، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه من أي التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1، 2006 م، ج 6، ص 336.

الكلام، وإتيانه على ضروب، ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك»¹.
ومن التعاريف الأكثر إيضاحاً، ما قاله إبراهيم الجرجي حيث أعاد الاختلاف إلى
السياق:

«وهو تشابه آيات القرآن الكريم في الألفاظ والمعاني بحيث يكون ثمّ تغاير طفيف بين
آية وآية وفق ما يقتضيه السياق والتعبير»².

هذه بعض تعاريف العلماء التي يمكن أن يُستفاد منها تعريف جامع للمتشابه اللفظي،
وهو:

الآيات المتكررة في موضوع واحد متقارب المعنى، وهي إما متشابهة تشابهاً تاماً وإما
غير تام، وذلك باختلاف في اللفظ، أو في النظم، أو في كليهما معاً.

ثانياً - أنواع التشابه اللفظي

1. التشابه التام

الموضع الأول

﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ﴾ (النّازعات 33).

﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ﴾ (عبس 32).

تشابهت هاتان الآيتان تشابهاً تاماً في سورتي النّازعات وعبس، فهل تُعدّان تكراراً أم
أنّ هناك فرقاً دلاليّاً بينهما؟

جاء في التفسير الكبير في تفسير آية النّازعات: «ثمّ إنّّه تعالى لما بيّن كيفية خلق
الأرض وكميّة منافعها قال ﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ﴾ والمعنى إنّما خلقنا هذه الأشياء
متعة ومنفعة لكم ولأنعامكم»³.

وفي تفسير آية عبس جاء فيه: «ولما ذكر الله تعالى ما يتغذّى به النّاس والحيوان قال
﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ﴾. قال الفراء خلقناه منفعة ومتعة لكم ولأنعامكم، وقال الزجاج

1- الزركشي، بدر الدين بن بهادر بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الحديث،
القاهرة، ط 1، 2006 م، ج 1، ص 112.

2- الجرمي، إبراهيم: معجم علوم القرآن، دار القلم، دمشق، ط 1، 2001 م، ص 241.

3- الرازي: التفسير الكبير، المجلد السادس عشر، ص 49.

هو منصوب لأنه مصدر مؤكد لقوله (فأنبتنا) لأنّ إنباته هذه الأشياء إمتاع لجميع الحيوان»¹.

وجاء في روح المعاني في تفسير الآية الأولى: «وقوله تعالى ﴿مَنَّاعًا لَّكُمْ وَلِأَنفُسِكُمْ﴾ (٣٢) قيل مفعول له، أي فعل ذلك تمتيعًا لكم ولأنعامكم، لأنّ فائدة ما ذكر من الدحو وإخراج الماء والمرعى واصله إليهم ولأنعامهم، فإنّ المرعى كما سمعت مجاز عما يأكله الإنسان وغيره، وقيل مصدر مؤكد لفعله المضمر، أي متّعكم بذلك متاعًا، أو مصدر من غير لفظه، فإنّ قوله تعالى أخرج منها ماءها ومرعاها في معنى متّع بذلك»².

وفي تفسير الآية الثانية جاء فيه: ﴿مَنَّاعًا لَّكُمْ وَلِأَنفُسِكُمْ﴾ (٣٢) قيل إمّا مفعول له أي فعل ذلك تمتيعًا لكم ولمواشيكم، فإنّ بعض النعم المعدودة طعام لهم، وبعضها علف لدوابهم ويورّع وينزل كلّ على مقتضاه والالتفات لتكميل الامتتان، وإمّا مصدر مؤكد لفعله المضمر بحذف الزوائد، أي متّعكم بذلك متاعًا أي تمتّعًا، أو مصدر من غير لفظه، فإنّ ما ذكر من الأفعال الثلاثة في معنى التمتع»³.

وفي تفسير الميزان جاء في تفسير الآية الأولى: «وقوله: ﴿مَنَّاعًا لَّكُمْ وَلِأَنفُسِكُمْ﴾ (٣٢) أي خلق ما ذكر من السماء والأرض ما دبر من أمرهما، ليكون متاعًا لكم ولأنعامكم التي سخرها لكم تتمتعون به في حياتكم، فهذا الخلق والتدبير الذي فيه تمتيعكم يوجب عليكم معرفة ربّكم، وخوف مقامه، وشكر نعمته؛ فهناك يوم تجزون فيه بما عملتم في ذلك، إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًا فشرًا؛ كما أنّ هذا الخلق والتدبير أشدّ من خلقكم، فليس لكم أن تستبعدوا خلقكم ثانيًا وتستصعبوه عليه تعالى»⁴.

وفي تفسير الآية الثانية جاء فيه: «وقوله: ﴿مَنَّاعًا لَّكُمْ وَلِأَنفُسِكُمْ﴾ (٣٢) مفعول له أي أنبتنا ما أنبتنا ممّا تطعمونه ليكون تمتيعًا لكم وللأنعام التي خصصتموها بأنفسكم»⁵.

يُلاحظ من خلال ما مرّ من تفسير هاتين الآيتين أنّه لا اختلاف دلاليًا بينهما، ولكن بالنظر إلى سياق كلّ واحدة منهما يتّضح الفرق.

1- الرازي: م ن، المجلّد السادس عشر، ص 63.

2- الآلوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج 15، ص 35.

3- الآلوسي: م ن، ج 15، ص 48.

4- الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، المجلّد العشرون، ص 191.

5- الطباطبائي: م ن، ص 210.

ففي سورة النازعات، سبق هذه الآية الحديث عن النعم التي يشترك فيها الإنسان والأنعام ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (٢٧) ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيَهَا﴾ (٢٨) ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ (٢٩) ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (٣٠) ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ (٣١) ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَسَهَا﴾ (٣٢) ﴿(النازعات 27 ← 32)﴾، فبناء السماء وتسويتها، وخلق الليل والنهار، ودحو الأرض ليستقر عليها جميع الخلق، وإخراج الماء والمرعى أي كلّ ما ينبت من الأرض، وتثبيت الجبال، كلّ هذه النعم غير مختصة بالإنسان وحده، فالأنعام تحتاج إليها لتنتفع بها. وبناءً عليه، فالمقصود بالمتاع هنا المتاع العامّ غير المخصّص لمخلوق دون الآخر، وعدم التخصيص يُناسب أيضًا الآية اللاحقة ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾ (٣٤) ﴿(النازعات 34)﴾، والطامة هي يوم القيامة، فقد جاء في لسان العرب «والطامة: الداهية تغلب ما سواها... ويُقال للشيء الذي يكثر حتّى يعلو: قد طمّ وهو يطمّ طمًا. وجاء السيل فطمّ كلّ شيء أي علاه، ومن ثمّ قيل: فوق كلّ شيء طامة، ومنه سميت القيامة طامة. وقال الفراء في قوله عزّ وجلّ: فإذا جاءت الطامة؛ قال: هي القيامة تطمّ على كلّ شيء»¹. وهذه الحالة التي تصيب الكون تشمل جميع المخلوقات حيث تتقلب الدنيا رأسًا على عقب، وتُطمّ معالمها لتظهر معالم عالم جديد هو يوم القيامة.

أما في سورة عبس، فالمقصود بالمتاع الخاصّ بالإنسان والمتاع الخاصّ بالأنعام، فقد سبقَت هذه الآية بالآية ﴿وَفَكَهَأَ وَأَبْأَ﴾ (٣١) ﴿(عبس 31)﴾؛ والفاكهة هي غذاء خاصّ بالإنسان، أمّا الأبّ فهو «المرعى لأنّه يؤبّ أي يؤمّ وينتجع»² وهو غذاء خاصّ بالأنعام، وهذا التخصيص يناسب الآيات اللاحقة التي تتحدّث عن الحالة الخاصة التي تصيب الإنسان عند حلول الصاخّة، «والصاخّة: القيامة، وبه فسّر أبو عبيدة قوله تعالى: فإذا جاءت الصاخّة؛ فإنّما أن يكون اسم الفاعل من صَخَّ يصخّ، وإنّما أن يكون المصدر؛ وقال أبو إسحق: الصاخّة هي الصيحة التي تكون فيها القيامة نصخّ الأسماع أي تصمّها فلا تسمع إلّا ما تدعى به للإحياء»³، ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّخَّةُ﴾ (٣٢) ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (٣٤) ﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ (٣٥) ﴿وَصَخِيئِهِ وَبَنِيهِ﴾ (٣٦) ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَ ذَلِكَ شَأْنٌ يَفْعَلُهُ﴾ (٣٧) ﴿(عبس 33)﴾، فالذين كان يأوي إليهم الإنسان ويلوذ بهم في الدنيا، يفرّ منهم يوم القيامة للشدة التي تحيط به بحيث لا تدعه يشغل بغيره ويعتني بما سواه كائنًا من كان، وهذا الوضع

1- ابن منظور: لسان العرب، المجلّد الثامن، ص 203.

2- الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، المجلّد الرابع، ص 220.

3- ابن منظور: لسان العرب، المجلّد السابع، ص 294.

مختصّ بالإنسان عند حلول الحساب. فاختلاف المقصود بالمتاع في كلتا الآيتين نفى وقوع التكرار بينهما.

الموضع الثاني

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (الانفطار 13).

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (المطففين 22).

تشابهت هاتان الآيتان تشابهًا تامًّا في سورتي الانفطار والمطففين، فهل تشابهتا أيضًا في الدلالة أم هناك اختلاف دلاليّ بينهما؟

بدايةً، لا بدّ من الاطلاع على ما ورد في بعض التفسيرات.

جاء في الميزان في تفسير الآية الأولى: «قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) الانفطار: 13-14 استئناف مبينٌ لنتيجة حفظ الأعمال بكتابة الكتب وظهورها يوم القيامة.

والأبرار هم المحسنون عملاً، والفسّار هم المنخرقون بالذنوب، والظاهر أنّ المراد بهم المتهنكون من الكفار، إذ لا خلود لمؤمن في النار، وفي تكثير (نعيم) و(جحيم) إشعارٌ بالتفخيم والتهويل كما قيل¹.

وفي تفسير الآية الثانية جاء فيه: «قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (٢٢) النعيم النعمة الكثيرة، وفي تكثيره دلالة على فخامة قدره، والمعنى إنّ الأبرار لفي نعمة كثيرة لا يحيط بها الوصف»².

وجاء في التفسير الكبير في تفسير الآية الأولى: «اعلم أنّ الله تعالى لما وصف الكرام الكائنين لأعمال العباد ذكر أحوال العاملين فقال ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (٢٢) وهو نعيم الجنة»³.

وفي تفسير الآية الثانية جاء فيه: «اعلم أنّه سبحانه وتعالى لما عظم كتابهم في الآية المتقدمة عظم بهذه الآية منزلتهم فقال ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (٢٢)»⁴.

1- الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، المجلد العشرون، ص 227.

2- الطباطبائي: م ن، ص 237.

3- الرازي: التفسير الكبير، المجلد السادس عشر، ص 84.

4- الرازي: م ن، ص 98.

ورود في مجمع البيان حول تفسير الآية الأولى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (٢٢) وهو الجنة، والأبرار أولياء الله المطيعون في الدنيا»¹.

وفي تفسير الآية الثانية ورد فيه: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (٢٢) أي يحصلون في ملاذ وأنواع من النعمة في الجنة»².

يظهر من خلال تفسير هاتين الآيتين أنه لا اختلاف دلاليًا بينهما، فقد تشابهتا من باب التكرار الذي يفيد التوكيد، ولكن بالنظر في سياق كل واحدة منهما يتبين وجه الاختلاف.

فالمقصود بالنعيم في الانفطار غير المقصود به في المطففين، ففي الأولى يُقصد به النعيم بالقوة، وأمّا الثانية فيُقصد به النعيم بالفعل، أي إنّ الأبرار في سورة الانفطار مستحقّون لنعيم الآخرة عند حلول يوم القيامة، فالآيات التي تسبق هذه الآية تتحدّث عن حفظ الملائكة للأعمال وتسجيلها إلى يوم الدين ﴿وإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ (١٠) ﴿كَرَامًا كَثِيرِينَ﴾ (١١) ﴿يَعْمَلُونَ مَا تَأْمُرُونَ﴾ (١٢) ﴿(الانفطار 10 ← 12)﴾، فمن يقوم بالبرّ يستحقّ النعيم، ومن يفجر يستحقّ الجحيم ﴿وإِنَّ الْفَجَارَ لَفِي حِمِيمٍ﴾ (١٤) ﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ (١٥) ﴿(الانفطار 14 ← 15)﴾.

وكما أنّ حفظ الأعمال يكون في الدنيا، قد يكون المقصود بالنعيم النعيم الدنيوي، فالله يُغْنق نعمه على المؤمن في الدنيا والآخرة. وبناءً عليه، فإنّ النعيم في هذه الآية يدلّ على استحقاق الأبرار للنعيم الأخروي، والترغيب للقيام بالأعمال البارة والصالحة التي تُحفظ في سجلّ الأعمال، وتجعل الإنسان يعيش في نعيم دنيويّ فضلاً عن استحقاقه للنعيم الأخروي.

أمّا النعيم في سورة المطففين فيختلف دلالةً عن النعيم في سورة الانفطار، إذ يُقصد به النعيم الفعلي، وذلك لسبق هذه الآية بالآيات التي تتحدّث عن مشاهدة الكتاب، والمشاهدة لا تتمّ إلّا في يوم الحساب ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيْوْنَ﴾ (١١) ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ (٢٠) ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (٢١) ﴿(المطففين 19 ← 21)﴾، واتباعها أيضاً بآيات تفصّل النعيم الموجود في الجنة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيْوْنَ﴾ (١١) ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ (٢٠) ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (٢١) ﴿(المطففين 19 ← 21)﴾، فالنعيم هنا هو ما ينتعم به المؤمنون في الجنة.

1- الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 9، ص 573.

2- الطبرسي: م ن، ص 581.

إذاً، باختلاف المقصود بالنَّعِيم يجعل لكل آية دلالتها الخاصّة، وإن تشابهت تشابهًا تامًّا مع الأخرى.

2. المتشابه المختلف في الإبدال

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۖ﴾ (التكوير 6).

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۖ﴾ (الانفطار 3).

اختلفت هاتان الآيتان في استخدام لفظتين مترادفتين (سَجِّرَتْ) و(فَجِّرَتْ)، فلماذا استخدمت سَجِّرَتْ في الأولى وفَجِّرَتْ في الآخرة؟

جاء في مجمع البيان: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۖ﴾ أي أرسل عذبتها على مالحها ومالحها على عذبتها حتّى امتلأت، وقيل إنّ المعنى فجر بعضها في بعض فصارت البحور كلّها بحرًا واحدًا، ويرتفع البرزخ عن مجاهد ومقاتل والضحاك، وقيل سَجِّرَتْ أي أوقدت فصارت نارا تضطرم عن ابن عباس¹. و«﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۖ﴾ أي فتح بعضها في بعض عذبتها في ملحها وملحها في عذبتها فصارت بحرًا واحدًا عن قتادة والجبائي، وقيل معناه ذهب ماؤها عن الحسن².

وفي تفسير الميزان: «قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۖ﴾ فسر التسجير بإضرام النار، وفسر بالملأ والمعنى على الأول، وإذا البحار أضرمت نارا، وعلى الثاني وإذا البحار ملئت³؛ و«قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۖ﴾ قال في المجمع: التقجير خرق بعض مواضع الماء إلى بعض الكثير، ومنه الفجور لانخراق صاحبه بالخروج إلى كثير من الذنوب، ومنه الفجر لانفجاره بالضياء، انتهى. وعليه يرجع تفسيرهم لتقجير البحار بفتح بعضها في بعض حتّى يزول الحائل ويختلط العذب منها والمالح ويعود بحرًا واحدًا، وهذا المعنى يُناسب تفسير قوله ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۖ﴾ التكوير: 6 بامتلاء البحار⁴.

وفي التفسير الكبير: «قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۖ﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد،

1- الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 9، ص 565.

2- الطبرسي: م ن، ص 572.

3- الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، المجلد العشرون، ص 214.

4- الطباطبائي: م ن، ص 223.

وفيه وجوه: (أحدها) أَنَّ أصل الكلمة من سَجَرَتِ النَّوْرِ إذا أوقدتها، والشَّيْء إذا وقد فيه نشف ما فيه من الرطوبة، فحينئذٍ لا يبقى في البحار شيء من المياه البتة، ثم إِنَّ الجبال قد سُيِّرَت على ما قال (وسُيِّرَتِ الجبال)، وحينئذٍ تصير البحار والأرض شيئاً واحداً في غاية الحرارة والإحراق، (وثانيها) أن يكون (سَجَرَت) بمعنى (فَجَرَت) وذلك لأنَّ بين البحار حاجزاً على ما قال ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ (١٩) يَلْتَقِيَانِ لَا يَتَّخِذَانِ ﴿٢٠﴾ (الرحمن 19-20) فإذا رفع الله ذلك الحاجز فاض البعض في البعض وصارت بحراً واحداً، وهو قول الكلبي، (وثالثها) (سَجَرَت) أوقدت¹.

وقوله ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ (٢٠) وفيه وجوه (أحدها) أَنَّهُ ينفذ بعض البحار في البعض بارتفاع الحاجز الذي جعله الله برزخاً، وحينئذٍ يصير الكلّ بحراً واحداً، وإنما يرتفع ذلك الحاجز لتزلزل الأرض وتصدعها، (وثانيها) أَنَّ مياه البحار الآن راكدة مجمعة، فإذا فجرت تفرقت وذهب ماؤها، (وثالثها) قال الحسن فجرت أي يبست².

بلحظ ما مرَّ من تفسير هاتين الآيتين، لا يُعثر على اختلاف جوهري بين دلالة الفعلين فيهما، فالفعل الأول يفيد بأنَّ البحور مُلئت وفَجَّر بعضها إلى بعض حتَّى صارت بحراً واحداً، والفعل الثاني يفيد بأنَّ البحور فُتحت على بعضها فاختلف العذب بالمالح وصارت بحراً واحداً.

ولكن بالرجوع إلى السِّياق العام لموضع الآيتين يُكتشف اختصاص كلِّ موضع بلفظه، فالفعل «سَجَرَت» ورد في سياق الآيات التالية: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعُشُورُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) (التكوير 1-7)، والتأمل في دلالة مادة «سجر» يكشف عن روابط دلالية بين الفعل «سَجَرَت» والسِّياق العام، فمادة «سجر» حسب ما ورد في لسان العرب تدلُّ على:

➤ النار والحرارة: «فالسجر الانتقاد في النَّوْر، والسجور: اسم الحطب، وسجر النَّوْر: أوقده وأحماء»³.

➤ سير الإبل: «سجرت الناقة: حنَّت الناقة فطربت في إثر ولدها، وانسجرت الإبل في

1- الرازي: التفسير الكبير، المجلد السادس عشر، ص 68.

2- الرازي: التفسير الكبير، ج 31، ص 77-76.

3- ابن منظور: لسان العرب، المجلد السادس، ص 177.

السير: تتابعت، والسَّجَر: ضرب من سَيْر الإبل»¹.

➤ القيد: «والساجور: القلادة أو الخشبة التي توضع في عنق الكلب. وسجر الكلب والرجل يسجره سجرًا وضع السَّجور في عنقه»².

➤ التقارب والانتلاف: «وسجير الرجل: خليله وصفيّه، والجمع سجراء. وساجره: صاحبه وصافاه»³.

➤ تداخل الألوان: «وعين سجراء: إذا خالط بياضها زرقة، أو هي حمرة في زرقة»⁴.
فالدلالة الأولى (النار والحرارة) تتقاطع مع دلالة الآيات ﴿وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝﴾ (التكوير 1-2) والآية ﴿وَإِذَا الْجَبَبِمْ سُعِرَتْ ۝﴾ (التكوير 12)، لما تستبطن هذه الآيات من معنى النار والحرارة.

والدلالة الثانية (سير الإبل) تتفاعل مع الآية الكريمة ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝﴾ (التكوير 4)، و«العشار هي النوق الحوامل التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر» فلا يخفى التناسب بين الفعل «سجرت» والعشار.

والدلالة الثالثة (القيد) تتلاءم مع دلالة الآية الكريمة ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝﴾ (التكوير 5) أي جمعت وقيد اضطرابها كما يتقيد الكلب بالساجور.

والدلالة الرابعة تناسب الآية الكريمة ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝﴾ (التكوير 7) أي قرنت بعضها إلى بعض.

أما الدلالة الأخيرة (تداخل الألوان) فتناسب مع الدلالة العامة للآيات، حيث يتحوّل الكون إلى صورة مغايرة عن صورته الأولى، فتتقاطع وتتمازج فيه الألوان عند رؤية تكوير الشّمس وانكدار النجوم وتسجير البحار...

إنّ شبكة العلاقات الدلالية بين مادّة (سجر) والسيّاق العام لا تتوافر في مادّة (فجر)، لذلك جاء الفعل (سُجِّرَتْ) في سورة التكوير، والفعل (فُجِّرَتْ) في سورة الانفطار، ولا يعني ما تقدّم غياب التقاطع الدلالي بين مادّة (فجر) وسيقاقها العام، فقد جاء الفعل

1- ابن منظور: م ن، ص 179.

2- ابن منظور: م ن، ص 178.

3- ابن منظور: م ن، ص 179.

4- ابن منظور: م ن، ص 178.

(فَجَرَتْ) في سياق التفرّق، إذ يتناسب انفجار البحار مع انفطار السّماء وانشقاقها وبعثرة القبور وانتثار الكواكب، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَطَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ۝٤﴾ (الانفطار 1-4)، وفي المقابل تحقّق تناسب بين الفعل (سَجَرَتْ) والسّياق العام، حيث جاء في سياق التجميع، إذ إنّ انفجار البحار وتحولها إلى بحرٍ واحد، وحشر الوحوش وتجميعها، وتزويج النفوس واقتزان بعضها ببعض، هو اجتماع وائتلاف يُناسب بعضه بعضاً. فكلّ لفظة جاءت مختصةً بمكانها المناسب.

3. المتشابه المختلف في الذكر والحذف

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾ (النبأ 4).

﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ (النبأ 5).

تميّزت الآية الثانية عن الأولى بدخول (ثمّ)، فهل يضيف هذا الحرف دلالةً جديدةً على الآية الثانية أم تكون تكراراً للأولى وتأكيداً لها؟

جاء في تفسير الميزان: «قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ ردع عن تساؤلهم عنه بانين ذلك على الاختلاف فالنفي، أي ليرتدعوا عن التساؤل لأنّه سينكشف لهم الأمر بوقوع هذا النّبأ فيعلمونه، وفي هذا التعبير تهديد كما في قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ۝٣٧﴾ الشعراء: 227.

وقوله: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ تأكيد للردع والتهديد السابقين، ولحن التهديد هو القرينة على أنّ المتساائلين هم المشركون النافون للبعث والجزاء، دون المؤمنين ودون المشركين والمؤمنين جميعاً¹.

وجاء في الكشف: «(كَلَّا) ردع للمتساائلين هزواً، و(سيعلمون) وعيد لهم بأنّهم يعلمون أنّ ما يتساءلون عنه ويضحكون منه حقّ لأنّه واقع لا ريب فيه، وتكرير الردع مع الوعيد تشديد في ذلك، ومعنى (ثمّ) الإشعار بأنّ الوعيد الثاني أبلغ من الأول وأشدّ»².

1- الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، المجلّد العشرون، ص 160.

2- الزمخشري: الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، المجلّد الرابع، ص 207.

وعن سيّد قطب في تفسيره: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ (٤) ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ (٥) ولفظ كَلَّا، يُقال في الردع والزجر، فهو أنسب هنا للظّل الذي يُراد إلقاؤه. وتكراره وتكرار الجملة كلّها فيه من التهديد ما فيه»¹.

لم يتبيّن من خلال ما مرّ من تفسير أنّ هاتين الآيتين تختلفان دلاليًا، ولكن بملاحظة السّياق والأخذ في الاعتبار ما تدلّ عليه (ثمّ) قد تظهر بعض الفروقات بينهما. بدايةً لا بدّ من التوقّف على دلالات حرف العطف (ثمّ).

جاء في الكتاب: «ومنه مررت برجل راكب وذاهب استحقّتهما لا لأنّ الرّكوب قبل الذهاب، ومنه مررت برجل راكب فذاهب استحقّتهما إلّا أنّه بيّن أنّ الذهاب بعد الرّكوب، وأنّه لا مهلة بينهما وجعله متّصلًا به، ومنه: مررت برجل راكب ثمّ ذاهب فبيّن أنّ الذهاب بعده وأنّ بينهما مهلة وجعله غير متّصل به فصيّره على حدّه»². وعن سيّويه أيضًا: «ومن ذلك قولك مررت بزيد فعمره، ومررت برجل فامرأة، فالفاء أشركت بينهما في المرور وجعلت الأول مبدوءًا به، ومن ذلك: مررت برجل ثمّ امرأة، فالمرور هنا مروّران، وجعلت ثمّ الأول مبدوءًا به وأشركت بينهما في الجرّ»³.

وجاء في المفردات: «ثمّ حرف عطف يقتضي تأخّر ما بعده عمّا قبله إمّا تأخيرًا بالذات أو بالمرتبة أو بالموضع»⁴.

وذكر الرضيّ بأنّ ثمّ قد تأتي لمجرّد الترتيب في الذّكر فقال: «وقد تجيء ثمّ لمجرّد الترتيب في الذّكر، والتدرّج في درج الارتقاء، وذكر ما هو الأولى ثمّ الأولى من دون اعتبار التراخي والبعد بين تلك الدرج، ولا أنّ الثاني بعد الأول في الزمان بل ربّما يكون قبله»⁵.

بناءً على ما تقدّم، يتبيّن أنّ (ثمّ) تمتاز عن الواو بالترتيب والمهلة، وعن الفاء بالتراخي الزمّنيّ أو الرّتبّيّ أو الوجوديّ، وقد تدلّ على الترتيب في الذّكر فقط.

1- سيّد، قطب: في ظلال القرآن، ج 8، ص 427.

2- سيّويه: الكتاب، ج 1، ص 429.

3- سيّويه: الكتاب، ج 1، ص 438.

4- الألفهاني، راغب: المفردات، ص 11.

5- الرضي، محمد بن الحسن الاسترأبادي السمنائي النجفي: شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، تح: حسن بن محمّد بن إبراهيم الحفظي ويحيى بشير مصطفى، جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلامية، ط 1، 1996 م، ج 2، ص 407.

وبالرجوع إلى الآيتين، وبعد الاطلاع على دلالات (ثم)، يتبين أن متعلق العلم في كل من الآيتين مختلف عن الآخر، ففي الأولى ﴿ثُمَّ لَا سِيَئَمُونَ ٥﴾ (النبا 4) أي سيعلمون بالذي يردعهم عن الاختلاف مع المؤمنين حول وقوع يوم الآخرة ﴿عَمَّ يَسَاءَ لُونِ ١﴾ عن أَلَنِيَا الْعَظِيمِ ٢ ﴿الَّذِي هُزِفَ فِيهِ مَخْلُفُونَ ٣﴾ (النبا 1 ← 3) وذلك من خلال التدبر بالآيات التي تدل على عظمة الله وقدرته ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ٧ وَخَلَقَ تَكْوَمَ أَرْوَجًا ٨ وَجَعَلَ نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ٩ وَجَعَلَ أَلَيْلَ لِيَاسًا ١٠ وَجَعَلَ النَّهَارَ مَعَاشًا ١١ وَبَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ١٢ وَجَعَلَ سِرَاجًا وَهَّاجًا ١٣ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ١٤ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ١٥ وَجَنَّتٍ أَلْفَافًا ١٦﴾ (النبا 6 ← 16)، فالتفكر في هذه الآيات يؤدي إلى التصديق بوقوع يوم الآخرة، إذا إلى منع وقوع الاختلاف.

أما العلم في الآية الثانية فهو للردع عن الكفر، فبعد التصديق باليوم الآخر لا يعود هناك من مبرر للكفر، والردع عن الاختلاف يسبق الردع عن الكفر، وهذا يتناسب مع معنى (ثم) في التراخي الرتبتي.

من ناحية أخرى، قد يكون المقصود بالآية الأولى أنهم سيعلمون صدقية ذلك عند الحشر والحساب ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ١٧ يَوْمَ يُفْعَلُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا ١٨﴾ (النبا 17-18)، والآية الثانية عند الجزاء، عندما يشاهدون مصيرهم أمام أعينهم ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ٢١ لِلطَّغْيِينَ مَتَابًا ٢٢ لَيْتِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ٢٣ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا ٢٥ جَزَاءً وَفَاقًا ٢٦﴾ (النبا 21 ← 26)، فيكون العلم الأول عند الحشر والثاني عند الجزاء، وما بين الحشر والجزاء مدة من الزمن، وهذا يتناسب مع دلالة (ثم) على التراخي الزمني.

4. المتشابه المختلف في أحوال الأفعال

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٣﴾ (الشمس 3).

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢﴾ (الليل 2).

اختلفت هاتان الآيتان في وزن الفعل، ففي الآية الأولى جاء الفعل على وزن فعل (جلاها)، وفي الآية الثانية جاء على وزن تفعل (تجلَّى)، وورد في جامع الدروس معنى هذين المصدرين فـ «باب فعل يكون للتكثير وللتعدية غالباً، فالتكثير يكون في الفعل نحو طَوَّفْتُ وَجَوَّلْتُ أي أكثرت من الطواف والجولان، وفي المفعول نحو غَلَقْتُ الأبواب أي

أبوابًا كثيرة. وباب تفعل يكون للتكلف غالبًا نحو تعلم، تصبر، تسجع، تحلم، وقد يكون التكلف ممزوجًا بادعاء شيء ليس من شأن المدعي نحو: تكبر وتعظم¹.

إذًا، فالفعل في الآية الأولى متعدّد وفي الآية الثانية لازم، وبناءً عليه، تكون الآية الأولى عن النهار من ناحية علاقته بغيره، والثانية عن النهار من ناحية علاقته بنفسه، وقبل التوقّف على سبب الاختلاف لا بدّ من إلقاء النظر على بعض تفاسير هاتين الآيتين.

ورد في تفسير الزمخشري: «(إذا جلاها) عند انتفاخ النهار وانبطاحه لأنّ الشمس تتجلى في ذلك الوقت تمام الانجلاء، وقيل الضمير للظلمة أو للدنيا أو للأرض وإن لم يجر لها ذكر كقولهم أصبحت باردة يريدون الغداة»² و«تجلى» ظهر بزوال ظلمة الليل أو تبين وتكشف بطلوع الشمس»³.

وجاء في تفسير الميزان: «قوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا﴾^٣، التجلية الإظهار والإبراز، وضمير التأنيث للأرض، والمعنى وأقسم بالنهار إذا أظهر الأرض للأبصار.

وقيل: ضمير الفاعل في (جلاها) للنهار وضمير المفعول للشمس، والمراد الإقسام بحال إظهار النهار للشمس فإنّها تتجلى وتظهر إذا انبطح النهار، وفيه أنّه لا يلائم ما تقدّمه فإنّ الشمس هي المظهرة للنهار دون العكس»⁴، و«قوله تعالى ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾^٢ عطف على الليل والتجلى ظهور الشيء بعد خفائه»⁵.

وذكر الرازي في تفسيره وجهين لضمير الهاء في جلاها حيث قال: «والضمير في جلاها إلى ماذا يعود؟ فيه وجهان (أحدهما) وهو قول الزجاج أنّه عائذ إلى الشمس وذلك لأنّ النهار عبارة عن نور الشمس. فكلّما كان النهار أجلى ظهورًا كانت الشمس أجلى ظهورًا... (الثاني) وهو قول الجمهور - أنّه عائذ إلى الظلمة، أو إلى الدنيا، أو إلى الأرض. وإن لم يجر لها ذكر، يقولون أصبحت باردة يريدون الغداة، وأرسلت يريدون السماء»⁶.

1- مصطفى، الغلاييني: جامع الدروس العربية، دار الفكر، بيروت، د ط، 2007 م، ص 142.
2- الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: المجلد الرابع، ص 258.
3- الزمخشري: المرجع نفسه، ص 260.
4- الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، المجلد العشرون، ص 296.
5- الطباطبائي: المرجع نفسه، ص 302.
6- الرازي: التفسير الكبير، المجلد السادس عشر، ص 190.

وفي تفسير آية الليل قال في الآية «وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ۖ»: «اعلم أنه تعالى أقسم بالليل الذي يأوي فيه كل حيوان إلى مأواه، ويسكن الخلق عن الاضطراب، ويغشاهم النوم الذي جعله الله راحةً لأبدانهم وغذاءً لأرواحهم، ثم أقسم بالنهار إذا تجلّى، لأنّ النهار إذا جاء انكشف بضوئه ما كان في الدنيا من الظلمة»¹.

بالرّبط بين ما ورد في التّفسير وبين معاني الأوزان، يمكننا استخلاص النتيجة التّالية هي أنّ كلتا الآيتين مرتبطتان بالنّهار وعلاقته بالشّمس فجلاها في الأولى أي أكثر من ظهورها ووضوحها، فما النّهار إلّا أثر لنور الشّمس فإذا قوي الأثر دلّ ذلك على قوّة المؤثر، فكلمًا قوي النهار في الوضوح أكثر من وضوح وظهور الشّمس. وتجلّى في الثّانية أي تكلف في الظهور، فظهور النّهار حقيقة ليس بذاته، وكأنّنه هنا يدّعي شيئاً ليس من شأنه، فالظهور الحقيقي للشّمس وإنّما نُسب للنهار لكونه انعكاساً لنورها.

الخاتمة

تناول هذا البحث موضوع الأسرار البلاغيّة للتركيب اللّغويّ في الآيات المتشابهة، التي تشابهت تشابهاً تاماً، أو تشابهاً مختلفاً في الإبدال، أو في الذّكر والحذف، أو في أحوال الأفعال.

ومن أبرز النتائج التي توصّل إليها هذا البحث:

1. مراعاة السّياق في تفسير الآيات أو توجيهها يكشف عن وجه من وجوه الإعجاز البلاغيّ فيها.
2. حسابان الآيات المتشابهة من أعظم الدلائل على إعجاز القرآن الكريم، فاختلاف جملة أو كلمة، بل حرف، يُبرز أسراراً عظيمة، وحكماً عجيبة، لا يتصوّرها إلّا من يتأمّل ويتدبّر فيها.

أمّا التوصيات المقترحة فيمكن إيجازها بالتالي:

1. الأخذ في الحسابان المعاني التّحويّة في تفسير الآيات لما لها من دور مهمّ في تحديد الدّلالة وتوجيهها.

2. الاعتناء بالسّياق والإحاطة به إحاطة كاملة لتحديد الدّلالة المقصودة من الكلام

1- الرازي: التفسير الكبير، المجلّد السادس عشر، ص 197.

بدقة.

3. البحث في التوجيهات التفصيلية للآيات المتشابهة في كل أجزاء القرآن لما يكتنف ذلك من لطائف بلاغية ولغوية لا مثيل لها.
- وأخيراً، إنّ البلاغة القرآنية هي المجال الأرحب للدراسات والبحوث البلاغية الراقية، فهي ذروة سنامه وعموده، وبحره الذي لا ينفد.

ثبت المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. ابن منظور: لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3، 1993 م.
3. الإسكافي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله: درة التنزيل وغرة التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1995 م.
4. الأصفهاني، الراغب: مفردات ألفاظ القرآن، دار المعرفة، بيروت، د ط، 1422 هـ.
5. الألوسي، عبد الله الحسيني: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ط، د تا.
6. الرازي، فخر الدين محمد بن عمر: التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3، د تا.
7. الرضي، محمد بن الحسن الاسترأبادي السمنائي النجفي: شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، تح: حسن بن محمد بن إبراهيم الحفظي ويحيى بشير مصطفى، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط 1، 1996 م.
8. الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت، د ط، د تا.
9. سراج صالح ملائكة، دليل آيات متشابهة الألفاظ في كتاب الله العزيز، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط 4، 2006 م.
10. سيبويه: الكتاب، تح: عبد السلام محمد بن هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 3، 1988 م.
11. الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلى للطبوعات، بيروت، ط 2، 1974 م.

12. الطبرسي، ابو علي الفضل بن الحسن: **مجمع البيان في تفسير القرآن**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 1986 م.
13. الغلاييني، مصطفى، **جامع الدروس العربية**، دار الفكر، بيروت، د ط، 2007 م.
14. قطب، سيد: **في ظلال القرآن**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 7، 1971 م.
15. الكرمانى، برهان الدين أبو القاسم محمود بن حمزة بن نصر: **البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان**، تحقيق السيد الجميلي، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، 1997 م.

الجريمة المعلوماتية بين الفعل والوسيلة

Cybercrime Between Action and Method

عبد الحفيظ حلمي سعد¹

Abdel Hafiz Hilmi Saad

تاريخ القبول 2025 /4/7

تاريخ الاستلام 2025 /3/17

الملخص

يتناول هذا البحث موضوع الجريمة المعلوماتية، حيث يسلط الضوء على ماهيتها وأهميتها في ظل التطور التكنولوجي الذي يشهده العالم. يهدف البحث إلى فهم طبيعة هذه الجرائم، وتحليل أركانها وخصائصها، بالإضافة إلى استعراض نصوص التجريم المتعلقة بها في قانون العقوبات.

يتناول البحث بالتفصيل الجرائم التي تمس الأشخاص، مثل التشهير والتحرش الإلكتروني، والجرائم التي تمس الأموال، مثل الاحتيال الإلكتروني والقرصنة. كما يتطرق إلى الوسائل التقنية المستخدمة في ارتكاب هذه الجرائم، مثل الإنترنت والحاسوب.

يقدم البحث تحليلاً شاملاً لأركان الجريمة المعلوماتية، بما في ذلك الركن المادي والمعنوي، ويوضح خصائصها. كما يستعرض البحث نصوص التجريم المتعلقة بهذه الجرائم في قانون العقوبات، ويحلل مدى كفاءتها في مواجهة التحديات التي تفرضها الجريمة المعلوماتية.

يخلص البحث إلى أن الجريمة المعلوماتية ليست جريمة مستجدة، بل جريمة يستخدم لارتكابها وسائل حديثة، وهو ما يتطلب جهوداً متضافرة من جميع الجهات المعنية لتطوير وسائل التحقيق، لمكافحتها والحد من أثارها السلبية.

الكلمات المفتاحية: الجريمة المعلوماتية - الكمبيوتر - قانون العقوبات

1- طالب دكتوراه في جامعة بيروت العربية/ كلية الحقوق والعلوم السياسية/ فرع الحقوق/ إختصاص قانون جزائي

Abstract

- 1) This research addresses the topic of cybercrime, highlighting its nature and importance in light of the technological development witnessed worldwide. The research aims to understand the nature of these crimes, analyze their elements and characteristics, and review the relevant criminalization texts in the Penal Code.
- 2) The research addresses in detail crimes affecting individuals, such as defamation and cyber harassment, and crimes affecting property, such as electronic fraud and hacking. It also addresses the technological means used to commit these crimes, such as the internet and computers.
- 3) The research provides a comprehensive analysis of the elements of cybercrime, including the material and moral elements, and explains their characteristics. It also reviews the criminalization texts related to these crimes in the Penal Code and analyzes their adequacy in addressing the challenges posed by cybercrime.
- 4) The research concludes that cybercrime is not a new crime, but rather a crime committed using modern means. This requires concerted efforts from all concerned parties to develop investigative methods to combat it and mitigate its negative effects.

Keywords: Cybercrime – Computer – Penal Code

المقدمة

يمثل الأمن والمصالح الجماعية والفردية والقيم الاجتماعية والأخلاقية، العنصر الأساسي الذي تسعى إليه الأنظمة عند تحديدها للجرائم والعقوبات المترتبة عليها. والجريمة كحقيقة قانونية، وإجماع الفقهاء، هي كل فعل أو امتناع يخالف قاعدة جنائية تحظر السلوك المكون لها، وترتب لمن يقع منه جزاءً جنائياً.¹

فالجريمة تبقى فعلاً أو إمتناعاً عن فعل وخرقاً للأمن والمصالح، أيًا كانت الوسيلة المستخدمة وأيًا كان الشخص الذي يرتكبها، فجريمة القتل مثلاً، تبقى بهذا الوصف أيًا

1- د. أبو عامر محمد زكي - دراسة في علم الاجرام والعقاب - الدار الجامعية - 1993 - ص 28

كانت الوسيلة أو الطريقة التي أزهقت الروح، سواء بسكين أو بمسدس أو حتى باليد طالما توافرت أركانها، وكذا السرقة والإختلاس والإحتيال وغيرها من الجرائم التي نص القانون عليها وربّب على ارتكابها جزاءً جنائيًا.

مع النّقدّم الإنسانيّ في شتّى المجالات وخاصّة في مجالي الاتصالات وتكنولوجيا المعلوماتيّة، ظهرت أساليب جديدة لارتكاب الجرائم، جعلت منها محطّ اهتمام الفقهاء والمشرّعين بهدف مواكبتها، تمهيداً لقمع الجرائم المرتكبة بواسطتها، والقبض على فاعليها.

عدّ بعض الفقهاء أنّ الجريمة المرتكبة بواسطة هذه التّكنولوجيا جريمة بحدّ ذاتها، أو جرائم جديدة منفصلة عن الجرائم المنصوص عنها في قوانين العقوبات، وطالب بتعديلها لتشمل هذه الجرائم، معتبراً أنّ مرتكبيها لا تطالهم يد العدالة¹. وهو ما يطرح إشكاليّة بالنّسبة للجرائم المعلوماتيّة، هل هي أفعال جرميّة جديدة منفصلة عن الجرائم الواردة في القوانين، أم هي جرائم بالمفهوم المنصوص عنه في قانون العقوبات ولكن بوسائل حديثة، هي المعلوماتيّة والحاسوب ووسائل الاتّصال الحديثة؟

إنّ وصف الجرم بالتّلازم مع الوسيلة المستخدمة هو ضرب لعموميّة قواعد وقوانين العقوبات، فالوسائل المستخدمة في الجرائم تتغيّر دائماً بتغيّر وتقدّم الإنسان، وإنشاء قوانين جديدة في كلّ مرّة وجد مرتكبوها وسيلة جديدة، هو مبالغة وسوء تقدير لأهمية القوانين المنصوص عليها، بافتراضها نتيجة تجارب طويلة في الحياة البشريّة، أنتجت قواعد تحدّد ما هو مقبول وما هو مرفوض داخل مجتمع أو بيئة أو دولة.

إنّ إنشاء قوانين جديدة بالتّلازم مع الوسيلة المستخدمة، يفيد بأنّ الجرم المنصوص عليه بوسيلة معينة، إذا ما تمّ ارتكابه بوسيلة أخرى لا يعتبر جرماً، وبالتالي تصبح الوسيلة ركناً من أركان الجريمة، وهو بالتّالي مسار إذا ما تمّ اعتماده، سوف يؤدّي إلى تعطيل قوانين العقوبات، وهو ما تجب معالجته وإعادة الأمور إلى مسارها الصّحيح من أنّ الجريمة إنّما هي جريمة أيّاً كانت الوسيلة المستخدمة للقيام بها.

1- راجع د. الكردي زين العابدين عوّاد كاظم - جرائم الإرهاب المعلوماتيّة دراسة مقارنة - منشورات الحلبي الحقوقية - الطّبعة الأولى 2018 - ص: 17 و 18 / د. مختاري إكرام- الدّليل في الجريمة الإلكترونيّة - مقدّمة - مكتبة دار السّلام للطباعة والنّشر والتّوزيع والترجمة - 2015 - ص: 1

وعليه سوف نبحث هذه الإشكالية في بابين، نتطرق في الباب الأول إلى الجرائم المعلوماتية في فصلين: نبحث في الأول في تعريف الجريمة المعلوماتية وأنواعها، وفي الفصل الثاني في خصائص الجريمة المعلوماتية وأركانها، ثم نتطرق في الباب الثاني إلى الجريمة المعلوماتية في نصوص القوانين في فصلين، الأول في رؤية الجريمة المعلوماتية فعلاً مخالفاً وفق نص القانون، والثاني في عدم ارتباط التجريم بالوسيلة.

الباب الأول: في الجرائم المعلوماتية

اهتم الفقه الحديث في تحديد وتعريف الجريمة المعلوماتية نظراً لحدثة وسائلها ولصعوبة اكتشافها في ظلّ النّقد المتسارع للتكنولوجيا، وهو ما يتطلب جهوداً وأساليب حديثة وخبرات في المجال من قبل الجهات المختصة بالتحقيق فيها، نظراً لخصائصها الخاصة لجهة الوسيلة المستخدمة وصفات فاعليها، وعليه سوف نبحث في هذا الجزء في تعريف الجريمة المعلوماتية وأنواعها في القسم الأول، ثم نتطرق إلى خصائصها وأركانها في القسم الثاني.

الفصل الأول: في تعريف الجريمة المعلوماتية وأنواعها

إنّ البحث في الجريمة المعلوماتية يتطلب البحث في تعريف هذه الجريمة نظراً لاهتمام الفقه فيها باعتبارها جرائم جديدة وحديثة، كذلك البحث في أنواع هذه الجرائم لتحديد مدى حداتها، ومدى اختلافها مع أنواع الجرائم المنصوص عليها في قوانين العقوبات.

المبحث الأول: تعريف الجريمة المعلوماتية

اختلف الفقهاء في تعريف الجريمة المعلوماتية وانقسموا إلى ثلاثة اتجاهات عامة باختلاف الوجهة التي ينظر إليها كلّ منهم، فربطها الاتجاه الأول بالوسيلة المستخدمة في ارتكابها، حيث عرّف مؤتمر الأمم المتحدة العاشر لمنع الجريمة ومعاينة المجرمين، المنعقد في فيينا عام 2000 الجريمة المعلوماتية بأنها « الجريمة التي يمكن إرتكابها بواسطة نظام الحاسوب أو شبكة حاسوبية أو داخل نظام حاسوب»¹، كما عرّفها الفقيه تايدمان Tiedman بأنها « كلّ أشكال السلوك غير المشروع (أو ضارّ بالمجتمع) الذي

1- التّميمي تميم عبد الله بن سيف- جرائم المعلوماتية في الاعتداء على الأشخاص: قذف - سب - تشهير - وفقاً للشريعة الإسلامية و النظام السعودي و القانون القطري - مكتبة القانون والاقتصاد في الرياض - الطبعة الأولى - 2016 م - ص: 14

يرتكب باستخدام الحاسوب»، كما عرّفها مكتب التقنية في الولايات المتحدة الأميركية «بأنّها الجرائم التي تلعب فيها البيانات الكمبيوترية والبرامج المعلوماتية دورًا رئيسيًا». وربطها الاتجاه الثاني بالشخص المرتكب لها، إذ عرّفها دافيد طومسون بأنّها جرائم تتطلب أن تتوافر لفاعلها معرفة بتقنية الحاسب. كما ربطها الاتجاه الثالث بموضوع الجريمة، وعرفها Ros blat بأنّها «نشاط غير مشروع موجّه لنسخ أو حذف أو تغيير أو الوصول إلى المعلومات داخل الحاسب الآلي، أو التي تحوّل عن طريقه»¹.

يرجع هذا الاختلاف إلى محاولة الفقه وضع تعريف يجعل من الجريمة المعلوماتية جريمة بحدّ ذاتها منفصلة عن الجرائم المنصوص عليها في قوانين العقوبات في أغلب دول العالم، إلّا أنّه أيّا كانت الاتجاهات في التعريف، فإنّها تدور جميعها حول أنّ الحاسوب هو الوسيلة التي يتمّ فيها ارتكاب جريمة، فالاتجاه الأول الذي يربط تعريف الجريمة المعلوماتية بالوسيلة المستخدمة إنّما يقرّ في تعريفه بأنّها جريمة بالمفهوم المنصوص عليه في قوانين العقوبات ولكن بوسيلة جديدة هي الحاسوب. أمّا الاتجاه الثاني الذي يربط التعريف بالشخص المرتكب للجرم، إنّما يعد أنّ الحاسوب هو الوسيلة المستخدمة لارتكاب الجرم المنصوص عليه في قوانين العقوبات عندما يتطلّب أن يكون المرتكب على دراية بتقنية الحاسب، أي مستخدمًا للحاسب في ارتكابه للجرم، أمّا الاتجاه الثالث فإنّه عندما يتّجه في تعريفه إلى محل الجريمة، فإنّه يقرّ بأنّ الفعل المرتكب غير مشروع وعدم مشروعيّته ترجع إلى القوانين المحظّرة للعمل، ولكن باستعمال الحاسوب أو تكنولوجيا المعلوماتية للوصول إلى محل الجرم.

بالإضافة لذلك، عندما يعتبر الفقه الجرائم المعلوماتية بأنها جرائم، فإنّه قد عدّها كذلك بالإستناد إلى تصنيف قوانين العقوبات، وبالتالي فإنّه، بصورة غير مباشرة، قد أقرّ بأنها أفعال مخالفة للقانون، وتضرّ بمصالح الأفراد والمجتمع، وترتكب بواسطة تكنولوجيا المعلوماتية، وليست أفعال جديدة تتطلّب تدخّلًا تشريعيًا للتجريم.

المبحث الثاني: أنواع الجرائم المعلوماتية

اختلف الفقهاء في تحديد وتصنيف الجرائم المعلوماتية، فبعضهم يقسمها إلى جرائم

1- ينظر : الاستاذة خلدون عيشة - الطيّبة الخاصة للجريمة الإلكترونية و صورها - جامعة زيّان عاشور - الجلفة
2012 - ص: 2 و 3 <https://asjp.cerist.dz/en/article/3841>

ترتكب على نظم الحاسوب وأخرى ترتكب بواسطته، والبعض الآخر يصنّفها ضمن فئات، بالاستناد إلى الأسلوب المتبع في الجريمة، وآخرون يستندون إلى الباعث أو الدافع لارتكاب الجريمة، وغيرهم يؤسّس تقسيمه على تعدّد محل الإعتداء، ويتعدّد الحق المعتدى عليه، فيوزّع جرائم الحاسوب وفق هذا التقسيم إلى جرائم تقع على الأموال بواسطة الحاسوب وتلك التي تقع على الحياة الخاصة¹، إلّا أنّ التقسيم الشائع المعتمد في الأبحاث والدراسات هو التقسيم إلى جرائم تمسّ الأشخاص وجرائم تمسّ الأموال.

المطلب الأول: الجرائم التي تمسّ الأشخاص

تشمل جرائم المعلوماتية جميع الأشخاص سواء الأشخاص الطبيعيين أو المعنويين من شركات ودولة.

أولاً: الجرائم غير الجنسية التي تمسّ الأشخاص الطبيعيين

وتشمل هذه الطائفة جرائم القتل بالحاسب الآلي وجرائم الإهمال المرتبط بالكمبيوتر التي تسبّب الوفاة والتّحريض على الانتحار والتّحضير المتعمّد عبر الإنترنت. وهناك جرائم التّحرّش عبر وسائل الاتصال والقدح والدّم والشتم والتّحقيق، تملك وإدارة مشروع للمقاومة على الإنترنت، أو استخدام الحاسب الآلي وشبكة الإنترنت للترويج للكحول ومواد الإدمان الأخرى كالحشيش والأفيون وسائر المخدرات المعروفة عالمياً ومحلياً.

ثانياً: الجرائم الجنسية التي تمسّ الأشخاص الطبيعيين

تشمل هذه الطائفة ضمن التقسيم مجموعة جرائم تحريض القاصرين على أنشطة جنسية غير مشروعة وإفساد القاصرين بأنشطة جنسية عبر الوسائل الإلكترونية، ومحاولة إغواء القاصرين بارتكاب أنشطة جنسية غير مشروعة، والتّحرّش الجنسي بالقاصرين، أو تلقّي ونشر المعلومات عبر الإنترنت عن القاصرين، من أجل أنشطة جنسية غير مشروعة.

الجرائم التي تمسّ الشركات و المؤسسات الخاصة

وتشمل هذه الطائفة تزوير البريد الإلكتروني وتزوير الهوية، أو تزوير بطاقات الائتمان، أو تزوير التوقيع الإلكتروني والبصمة الإلكترونية وبطاقات الدّفع الإلكتروني. تشترك هذه الجرائم بين الشركات و المؤسسات مع الجرائم غير الجنسية التي تمسّ الأشخاص.

1- الطائي جعفر حسن جاسم، جرائم تكنولوجيا المعلومات، دار البداية، الطبعة الأولى، 2007، ص 131.

ثانيا: الجرائم التي تمسّ الدولة

تشمل هذه الطائفة من الجرائم، كافة جرائم تعطيل الأعمال الحكوميّة وتنفيذ القانون، والإخفاق في الإبلاغ عن جرائم الكمبيوتر، والحصول على معلومات سرّية، والإخبار الخاطيء عن جرائم الكمبيوتر، والعبث بالأدلة القضائيّة أو التأثير فيها، وتهديد السّلامة العامة، وبث البيانات من مصادر مجهولة، كما تشمل الإرهاب الإلكترونيّ، والأنشطة الثأريّة الإلكترونيّة، أو أنشطة تطبيق القانون بالذات وأعمال التجسس.

المطلب الثّاني: الجرائم التي تمسّ الأموال

تشمل هذه الجرائم جميع الجرائم التي تمسّ الأموال من سرقات وانتلاف واحتيال.

أولا: الإختراق غير المصرّح به وانتلاف المملكيّة فيما عدا السّرقه

وتشمل أنشطة اقتحام أو الدّخول والتّواصل غير المصرّح به مع نظام الكمبيوتر أو الشّبكة، إمّا مجردا أو لجهة ارتكاب فعل آخر ضدّ البيانات والبرامج والمخرجات، وتخريب المعطيات والنّظم والممتلكات ضمن مفهوم تخريب الكمبيوتر وإيذاء الكمبيوتر، واغتصاب المملكيّة، وخلق البرمجيّات الخبيثة والضّارة و نقلها عبر النّظم والشّبكات، واستخدام اسم النّطاق أو العلامة الثّجارية أو اسم الغير دون ترخيص، وإدخال معطيات خاطئة أو مزوّرة إلى نظام كمبيوتر، والتّعديل غير المصرّح به لأجهزة ومعدّات الكمبيوتر، والانتلاف غير المصرّح به لنظم الكمبيوتر (مهام نظم الكمبيوتر الأدائيّة)، وأنشطة إنكار الخدمة أو تعطيل أو إعتراض عمل النّظام أو الخدمات.

ثانيا: جرائم الإحتيال و السّرقه

وتشمل جرائم الإحتيال التّلاعب بالمعطيات والنّظم، واستخدام الكمبيوتر للحصول على بطاقات الائتمان، أو استخدام البطاقات الماليّة الخاصّة بالغير دون ترخيص، تعديل أو انتلاف وائتمان الغير، الإختلاس عبر الكمبيوتر أو بواسطته، سرقة معلومات الكمبيوتر وقرصنة البرامج، سرقة الأموال من الحسابات المصرفيّة، وسرقة خدمات الكمبيوتر، سرقة أدوات التّعريف والهويّة عبر انتحال الصّفات أو المعلومات داخل

الكمبيوتر¹.

الفصل الثاني: خصائص الجريمة المعلوماتية وأركانها

المبحث الأول: خصائص الجرائم المعلوماتية

تتمتع الجريمة المعلوماتية بمجموعة من الخصائص نظراً لحداتها وسائلها ويمكن إجمالها بالتالي:

- سهولة ارتكابها نظراً لاستخدام الوسائل ذات الطابع التقني ولا تحتاج لمجهود جسدي.
- صعوبة اكتشاف معالم الجريمة وتتبع مرتكبيها.
- عالمية الجريمة أي عابرة للحدود بحيث يمكن للجاني أن يكون في بلد وأن يكون المجني عليه في بلد آخر.
- يتطلب ارتكابها حرفية ومعرفة بتقنيات المعلوماتية.
- سرعة ارتكاب هذه الجرائم لاعتمادها على الوسائل الحديثة.
- تتم هذه الجرائم بواسطة الإنترنت.
- لا يتم الإبلاغ عن أغلب هذه الجرائم لعدم اكتشاف الضحية لها.
- آثار الجرائم قد تكون كبيرة ومؤثرة.
- جريمة تكون مواجهتها بنفس أساليب ارتكابها.
- سهولة الوقوع في فخها.
- صعوبة إثبات الجريمة المعلوماتية.
- عولمة الجريمة يؤدي إلى تشتيت جهود التحري والتنسيق الدولي لتعقب مثل هذه الجرائم.

1- ينظر عرب يونس - إيجاز في المفهوم والنطاق والخصائص والصّور والقواعد الإجرائية للملاحقة والإثبات - ورقة عمل مقدّمة إلى مؤتمر الأمن العربي 2002 - تنظيم المركز العربي للدراسات والبحوث الجنائية - أبو ظبي 10-12 /2/ 2002 ص 10 - 13 .

- جريمة ناعمة لا تحتاج إلى مجهود عضلي، بل إلى مجهود ذهني ومعرفة تقنية.¹

إذا كان للجرائم المعلوماتية خصائص معينة فإن ذلك لا يعني أنها جرائم جديدة، إنما ترجع هذه الخصائص إلى خاصية الوسيلة المستخدمة في ارتكابها، وليس إلى الفعل الجرمي بحد ذاته، أو إلى النتائج المترتبة على هذه الجرائم، فجريمة الاحتيال مثلاً، ما زالت احتيالاً، أيًا كانت خاصية الوسيلة التي استخدمت في المناورات الاحتيالية لتسليم المال.

المبحث الثاني: أركان الجريمة المعلوماتية.

لكل جريمة أركان، وإذا كانت الجريمة المعلوماتية جريمة جديدة أو مستحدثة، فلا بد لأركانها من أن تكون كذلك، وهو ما سوف نبחנו في هذا المبحث، لنستعرض ما إذا كان من جديد في أركان هذه الجريمة، حتى نستخلص ما إذا كنا بحاجة إلى تطوير قوانين العقوبات لمواكبتها وذلك في مطلبين نبحت في الأول الركن المادي للجرائم المعلوماتية، وفي الثاني الركن المعنوي للجرائم المعلوماتية.

المطلب الأول: الركن المادي للجرائم المعلوماتية

الركن المادي للجريمة هو مظهرها الخارجي، فكل جريمة لا بد لها من مظهر خارجي تتجسد فيها الإرادة الجرمية لمرتكبها.

إن الركن المادي في أي جريمة ومنها الجرائم المعلوماتية يتألف من السلوك و النتيجة وعلاقة السببية بين السلوك والنتيجة.² السلوك الإجرامي في الجرائم المعلوماتية هو قيام الجاني بفعل أو امتناع عن فعل من شأنه أن يحدث ضرراً لمصلحة أو حقاً يحميه القانون، وأن تكون الإرادة هي الدافع إلى هذا الفعل أو الامتناع، مثل إرسال رسائل بريد إلكترونية إلى شخص ما لإيهامه بوجود مبلغ من المال مرصوداً له على سبيل المساعدة لفقراء بلده، على أن يرسل هذا الشخص مبلغاً من المال لمرسل الرسالة لفتح الحساب، فيكون فعل إرسال البريد الإلكتروني سلوكاً إجرامياً.

1- ينظر د. عبد الملك عماد مجدي- جرائم الكمبيوتر و الإنترنت - دار المطبوعات الجامعية - 2011 - المبحث الرابع سمات و خصائص الجرائم الإلكترونية - ص: 43 و 44 / عبد الله عبد الله كريم - جرائم المعلوماتية و الإنترنت (الجرائم الإلكترونية) دراسة مقارنة في النظام القانوني لمكافحة جرائم المعلوماتية و الإنترنت مع الإشارة إلى جهود مكافحتها محلياً و عربياً أو دولياً - منشورات الحلبي الحقوقية - الطبعة الأولى 2007 - ص: 31-32-33

2- ينظر د. قهوجي علي عبد القادر- قانون العقوبات القسم العام - الدار الجامعية - 1994 - الركن المادي - ص: 173 - 174

النتيجة هي العدوان الذي يصيب حقاً أو مصلحة يحميها القانون سواء تمثل في ضرر فعلي يصيب الحق أو المصلحة أو مجرد أن يتعرّض هذا المحل للخطر¹، وبالتالي فإنّه في المثال السابق فإنّ مال المرسل إليه، هو ذلك الحق الذي يحميه القانون وتمّ الاعتداء عليه.

لقيام الركن الماديّ للجريمة المعلوماتيّة أو أيّة جريمة لا بدّ من توافر علاقة السببيّة بين الفعل و النتيجة، أي أن يثبت أنّ هذا السلوك هو سبب تلك النتيجة، ففي المثال السابق يجب أن يثبت أنّ السبب في إرسال المال إلى الجاني، هو تلك الرسالة البريدية المرسلة الموهمة بوجود مشروع خيريّ من الجاني.

المطلب الثاني: الركن المعنويّ للجريمة المعلوماتيّة

لا يكفي لقيام الجريمة توفر الركن الماديّ وحده بل يجب أن يقترن بركن آخر، وهو الركن المعنويّ أو القصد الجنائيّ، وهو اتّجاه الإرادة إلى السلوك و نتيجته، مع العلم بكل العناصر التي يشترطها القانون لوجود الجريمة²، وفي المثال المطروح فإنّ مرسل الرسالة الإلكترونية يعلم بأنّ فعله هذا مخالف للقانون، واتّجهت إرادته إلى أخذ المال باستعمال الوسائل الاحتيالية.

إنّ أركان الجريمة المعلوماتيّة لا تختلف عن أركان الجرائم المنصوص عليها في قوانين العقوبات، و بالتالي فهي جرائم بمفهوم النصوص القانونية، وإذا كان الفقه المؤيد لاعتبار الجريمة المعلوماتيّة جريمة مستجدة، وبطالب بتدخل المشرّع لتجريمها، فإنّه بذلك يجعل من الوسيلة، أي المعلوماتيّة، ركناً من أركان الجريمة، وهو ما لا يستوي والمفهوم العامّ للجرائم، لأنّ في تطلّب ذلك إفلات أيّ مجرم يرتكب الجرائم بواسطة المعلوماتيّة من العقاب، طالما لم يتمّ إقرار حسابان الوسيلة ركناً لها، تطبيقاً لمبدأ لا جريمة ولا عقوبة إلا بنصّ قانوني، وعليه فإن ارتكابها قبل إقرار اعتبار المعلوماتيّة ركناً، يعتبر عملاً مباحاً.

1- ينظر ذات المرجع - النتيجة الاجرامية - ص: 178

2- أنظر د. عبد المنعم سليمان- د. عوض محمد عوض - النظريّة العامة للقانون الجزائيّ اللبناني نظرية الجريمة والمجرم - المؤسسة الجامعيّة للدراسات و النشر و التوزيع - الطبعة الأولى - 1416 هـ - 1996 م - ص: 200

الباب الثاني: الجريمة المعلوماتية في نصوص القوانين

بناءً على ما سبق شرحه من تعريف للجريمة المعلوماتية وخصائصها وأركانها، وعرض بعض أنواع الجرائم المعلوماتية، يتبين أن الجريمة المعلوماتية ليست سوى جريمة بالمعلوماتية، أي أنها جريمة بالمفهوم القانوني للجرائم، و لكن بوسيلة جديدة هي المعلوماتية ووسائل الاتصال الحديثة، فمحل الفعل بالمعلوماتية هو اعتداء على مصلحة أو حق محمي من قبل القانون، ولا تنفي هذه الحماية وسيلة جديدة استُخدمت للقيام بالفعل المخالف للقانون، ذلك أن ربط التجريم بالوسيلة هو إهدار للحقوق والمصالح التي تهدف القوانين لحمايتها.

الفصل الأول: الجريمة المعلوماتية فعل مخالف وفق نص القانون

الجريمة المعلوماتية هي، كما وصفها أصحاب الفقه القائل بها، «جريمة» أي توصيف النصوص القانونية، فلو لم يصف القانون الفعل المرتكب بالجريمة، لما عدّها هذا الفقه كذلك، ذلك أن الفعل المرتكب بالوسيلة الجديدة، يمثل اعتداء على مصلحة أو حق يحميه القانون، فمحل الجريمة المعلوماتية هو نفسه محل الجريمة بوسيلة أخرى، و قد تتطور الوسائل أو تتعدّد، لكنّ المحلّ يبقى و الجريمة تبقى بهذا التوصيف.

المبحث الأول: محل الجريمة

المطلب الأول: المحل القانوني للجريمة

يعدّ المحلّ القانوني للجريمة، بوصفه المصلحة التي تحميها القاعدة الجنائية، بمثابة الحكمة من إلقاء وتقرير العقاب على السلوك الموصوف فيه. فهذه الحكمة لا تتحقّق إلا إذا توافرت شروط معينة قد ينصّ عليها المشرّع صراحة أو يشير إليها ضمناً، وهذه الشّروط ماهي إلا الشّروط المفترضة في الجريمة. ومن هنا تبدو الصّلة بين المحلّ القانوني للجريمة والشّروط المفترضة فيها دون أن يكون للوسيلة أيّ دور. فالمحلّ يفرض وجود هذه الشّروط بالضرورة ويفترضها. فعلى سبيل المثال، إذا كان المحلّ القانوني في جريمة القتل هو حقّ الحياة أو العدوان على هذا الحقّ، فإنّ هذا الحقّ وذلك العدوان عليه، يفرضان ويفترضان وجود إنسان على قيد الحياة قبل مباشرة الفاعل لسلوكه، فبذلك يكون الشّروط المفترض في جريمة القتل، إلا أنه لا يشترط وجود وسيلة معينة للعدوان

على هذا الحق. والأمر نفسه يقال في حق الملكية بوصفه المحل القانوني في جريمة السرقة¹.

والحق في نطاق القانون الخاص عبارة عن: سلطة أو قدرة إرادية تعطى للشخص لتمكينه من القيام بأعمال معينة تحقيقاً لمصلحة يعترف له القانون بها. فالحق إذاً هو سلطة إرادية، وشخص هو بمثابة صاحب الحق تقوم فيه هذه السلطة، وموضوع الحق أو محله، وهو بمثابة الشيء أو المال الذي تردّ عليه السلطة أو القدرة. وهذه الأمور الثلاثة تمثل أركان الحق².

إن فكرة الحق لا يقتصر استعمالها على نطاق القانون الخاص، بل هي فكرة عامة تسود فروع القانون كافة، ومنها قانون العقوبات الذي يسبغ الحماية الجنائية لبعض الحقوق التي يعترف المشرع الجزائي بها لأصحابها. و لذلك كانت العلة في تجريم القتل هي حماية حق الإنسان في الحياة، وعلّة تجريم الضرب أو الجرح أو العنف أو إعطاء مادة ضارة أو ارتكاب أي فعل آخر مخالف للقانون، هي حماية حق الإنسان في سلامة جسده، وعلّة تجريم الاختطاف هي حماية حق الإنسان في حرّيته، وعلّة تجريم السرقة والاحتيال وخيانة الأمانة وغصب الأموال أو إتلافها هي حماية حق الإنسان في ملكيته، وعلّة تجريم القذف والسبب هي حماية حق الإنسان في سلامة اعتباره وسمعته، وهكذا في الحقوق الأخرى. وهذه الحقوق التي يعترف بها المشرع الجنائي ويحميها لابد لها من موضوع أو محل تنصب عليه ويتعلّق به مضمون هذا الحق، فيقع عليه فعل الجاني المتمثل بالاعتداء، بأي وسيلة كانت، ونتيجة جرمية تتحصل عنه³.

المطلب الثاني: محل الجريمة المعلوماتية

لا يخرج محل الجريمة المعلوماتية عن محل الجريمة القانوني فهو حق ومصلحة يحميها القانون حتى قبل نشوء الوسيلة المعلوماتية الجديدة، وسيظل موجوداً لو ظهرت وسائل جديدة للاعتداء عليه، ومحل الجريمة في الجرائم المعلوماتية يمكن إجمالها في ثلاثة:

- 1- د. وزير عبد العظيم مرسى- الشّروط المفترضة في الجريمة - دار الجليل للطباعة - مصر-1983-ص90 وص111.
- 2- د. محمود محمد زكي - آثار الجهل والغلط في المسؤولية الجنائية - دار الفكر العربي للطباعة والنشر-1967-ص217.
- 3- ينظر د. راشد علي أحمد- مبادئ القانون الجنائي - المدخل وأصول النظرية العامة - طبعة 2 - دار النهضة العربية - مطبعة جامعة القاهرة - القاهرة - 1974 - ص370.

المعلومات : سرقة أو تغيير أو حذف المعلومات عن طريق شبكة الإنترنت.

الأجهزة: ويتجلى الفعل بتعطيل الأجهزة وتخريبها عبر إرسال فيروسات.

الأشخاص أو الجهات: والفعل التجريمي يكون بالتهديد والابتزاز وانتهاك الخصوصيات والفعل الفاحش التحريض على الارهاب واثارة التّعرات والقتل¹.

الأموال: وتتجلى بسرقة الأموال المنقولة وغير المنقولة بواسطة الإنترنت عن طريق الحاسوب أو الهواتف الذكية أو غيرها من وسائل التكنولوجيا الحديثة.

إن محلّ الجريمة المعلوماتية لا يخرج على الإطلاق عن محلّ الجريمة بواسطة أخرى، فالمعلومات والأشخاص والأموال، سواء منها النقديّة أو العينيّة، إنّما هي المصلحة التي يسعى القانون إلى إرساء الحماية عليها بمجموعة من العقوبات عند الاعتداء عليها بما يؤمّن ممارسة صاحبها لها بطمأنينة.

المبحث الثاني: نصوص التجريم في قانون العقوبات اللبناني

إن محلّ الجريمة هو حقّ من الحقوق الخاصّة للأفراد أو الجماعة أو العامّة للدولة وللقطاع العام قرّرت القوانين حمايتها، وليس لأيّ شخص إنتهاكها بأيّ وسيلة كانت، سواء كانت بأجهزة المعلوماتية أو مباشرة بواسطة الأفراد أو بأيّ وسيلة أخرى، تحت طائلة فرض عقوبات، وقد نصّ قانون العقوبات اللبناني على حماية هذه الحقوق بمجموعة من النصوص التي وجدت قبل الوسيلة المستجدة، والتي تسري على أيّ جرم يرتكب بأيّ وسيلة كانت، ونورد تقسيما نضع فيه بعض من هذه النصوص.

المطلب الأول: حماية المعلومات الأمنيّة وفق القانون العقوبات اللبناني

تشمل المعلومات، جميع أنواعها الخاصّة منها والعامّة التي تتعلّق بمصالح الدولة، و قد نصّ قانون العقوبات اللبناني في مادته 281 على إنه « من دخل أو حاول الدّخول إلى مكان محظور، قصد الحصول على أشياء أو وثائق أو معلومات يجب أن تبقى مكتومة حرصًا على سلامة الدولة، عوقب بالحبس سنة، وإذا سعى بقصد النّجس

1- أنظر عبد الله عبد الكريم - المرجع السابق - ص: 17 و 18 و 19

فبالأشغال الشاقة المؤقتة»¹.

تحمي هذه المادة جميع الوثائق والمعلومات التي يمكن أن يدخل إليها المجرم والموجودة على أجهزة الحاسوب التي يحظر الدخول إليها إلا من قبل المخولين بالإطلاع عليها، وهذا الدخول قد يكون مباشرة على جهاز الحاسوب، أو بواسطة شبكة الإنترنت إذا كان الجهاز موصولاً بها، هذه المادة لم تحدّد الوسيلة المستخدمة في الدخول كما لم تحدّد طبيعة المكان المحظور بل حدّدت محلّ الجريمة والفعل المؤدي للنّجريم حتى تترتب العقوبة.

أما بالنسبة للمكان، فلم يحدّد المشرّع طبيعة هذا المكان، مما يجعله عامّاً يتعلّق بجميع الأمكنة من محسوسة وافتراضية أو أيّ مكان آخر يمكن أن يستجدّ بحكم تطوّر الفكر الإنسانيّ. والمكان في هذه المادة ليس هو المقصود بالنّجريم، بل طبيعة الأشياء والوثائق والمعلومات التي تتسم بالسريّة، وهذه المعلومات أو الوثائق قد تكون على أجهزة الحاسوب وتتسم بطابع بالسريّة، فمن قصد الاطلاع عليها دون إذن، ومن غير الأشخاص المخولين بالاطّلاع عليها، للحصول عليها أو بقصد التّجسس، يكون قد ارتكب جرماً معاقباً عليه.

المطلب الثاني: حماية الأشخاص والأموال وفق قانون العقوبات

إن محلّ الحقّ المشمول بالحماية في هذه الموادّ يشمل أشخاص القانون العامّ والقانون الخاصّ وأموال هذه الأشخاص.

نصّت المادة 308 من قانون العقوبات بأنّه « يعاقب بالاشغال الشاقة مؤبداً على الاعتداء الذي يستهدف إمّا إثارة الحرب الأهلية أو الاقتتال الطائفي بتسليح اللبنانيين أو بحملهم على التسلّح بعضهم ضدّ البعض الآخر وإمّا بالحضّ على التّقتيل والنّهب في محلّة أو محلات، ويقضي بالإعدام إذا تمّ الاعتداء»².

فإثارة الحرب الأهلية أو الإقتتال الطائفيّ أو حمل اللبنانيين على التسلّح ضدّ بعضهم، والحضّ المذكورين في هذه المادة يمكن أن يتمّ بكافة الوسائل، سواء بكتابات ورقية

1- خليفة تانيا- قانون العقوبات المعدّل بمقتضى القانون رقم 513/96 و القانون 75/1999 بالإضافة إلى قانون تنفيذ العقوبة 463/2002 العفو العام 84/1991 حماية الأحداث المنحرفين 422/2002 - 2010 - شركة المؤسسة الحديثة للكتاب - بيروت - النّبعة 2 في التّجسس - ص 73
2- المرجع نفسه - النّبعة 3 - في الفتنة - ص: 79

أو في مواقع التواصل الاجتماعيّ أو بإرسال رسائل بريد إلكترونية، أي بواسطة أجهزة الحاسوب و الهواتف الذكية وباستعمال شبكة الإنترنت.

لم تحدّد هذه المادة الوسيلة المستخدمة في التحريض أو الحضّ والتّألي فإنّ فعل التحريض والحضّ والذي يستهدف محلّ هذا الفعل، وهو السّلم الداخليّ موجب لتوقيع العقوبة، وهذه العقوبة تقع بغضّ النّظر عن الوسيلة المستخدمة.

كما نصّت المادّة 317 على إنّ « كلّ عمل و كلّ كتابة و كلّ خطاب يقصد منها إثارة التّعرات المذهبيّة أو العنصريّة أو الحضّ على النزاع بين الطّوائف ومختلف عناصر الأُمّة يعاقب ... »¹

الكتابات المنصوص عليها في هذه المادّة وفي كلّ مادّة من قانون العقوبات لا تقتصر على الكتابات الورقيّة، بل تشمل كلّ كتابة تؤدّي إلى إثارة التّعرات بين عناصر الأُمّة، ومن ضمنها الكتابات بوسيلة المعلوماتيّة على مواقع التواصل أو الرّسائل الإلكترونيّة، فالحقّ المعتبر عليه هو السّلم الأهليّ داخل الدّولة، والاعتداء يتمثّل في الكتابات بأيّ وسيلة كانت.

وبالنّسبة لحماية أموال القطاع العامّ فالمادّة 319 من قانون العقوبات كفيلة بهذه الحماية من فعل كتابة أو تحريض بواسطة المعلوماتيّة بنصّها التّالي « من أذاع بإحدى الوسائل المذكورة في الفقرتين الثّانية و الثّالثة من المادّة 209 وقائع أو مزاعم كاذبة لإحداث التّدنيّ في أوراق النّقد الوطنيّ أو لزعزعة النّفّة في متانة نقد الدّولة وسنداتها وجميع الأسناد ذات العلاقة بالنّفّة الماليّة العامّة يعاقب بالحبس ... »²

إنّ نصّ المادّة 209 من قانون العقوبات قد حدّدت وسائل النّشر عندما نصّت « تعدّ وسائل نشر :

الأعمال و الحركات إذا حصلت في محلّ عامّ أو مكان مباح للجمهور أو معرض للأنظار أو شاهدها بسبب خطأ الفاعل من لا دخل له بالفعل.

الكلام أو الصّراخ سواء جهر بهما أو نقلا بالوسائل الآليّة بحيث يسمعا في كلا الحالين من لا دخل له بالفعل.

1- المرجع نفسه - التّبذة 5 - في الجرائم التي تنال من الوحدة الوطنيّة أو تعكّر الصّفاء بين عناصر الأُمّة - ص: 81
2- المرجع نفسه - التّبذة 6 - في النّيل من مكانة الدّولة الماليّة - ص: 82

الكتابة والرّسوم والصّور اليدويّة والشّمسية والأفلام والشّارات والتّصاوير على اختلافها إذا عرضت في محلّ عامّ أو مكان مباح للجمهور أو معرض للأنظار أو بيعت أو عرضت للبيع أو ورّعت على شخص أو أكثر.¹

إنّ الفقرتين الثانية و الثالثة تنصّان على الوسائل الآليّة وعلى الكتابة إذا عرضت في محلّ عامّ، أيّ مكان مباح للجمهور أو معرض للأنظار، وكذلك اذا ورّعت على شخص أو أكثر، إن هذه الوسائل تنطبق إنطباقاً لا لبس فيه على وسائل التّواصل الاجتماعيّ وعلى الرّسائل الإلكترونيّة، وبالتالي على وسيلة المعلوماتيّة و هو ما يجعل المادّة 319 السّالفة الذّكر مطابقة في حال تمّت بواسطة المعلوماتيّة.

وبالنسبة لجريمة الاختلاس فإنّ المادّة 360 تنطبق إذا ما تمّت بواسطة المعلوماتيّة، أي بواسطة شبكة الإنترنت عندما يتمّ «الاختلاس من موظّف بدسّ كتابات غير صحيحة في الفواتير أو الدّفاتر أو بتحريف أو إتلاف الحسابات والأوراق وغيرها من الصّكوك وعلى صورة عامة بأيّ حيلة ترمي إلى منع اكتشاف الاختلاس قضى بعقوبة»²

أن أغلب الفواتير والدّفاتر تتمّ في عصرنا الحاليّ موجودة على جهاز الحاسوب، وبالتالي فإنّ أيّ عمليّة تغيير في الفواتير أو الدّفاتر أو تحريفها أو إتلافها تعرّض مرتكبها للعقوبة، فالوسيلة المستخدمة في الفعل المخالف غير ذات شأن في التّجريم وتوقيع العقوبة، إنّما الفعل بذاته طالما طال المحلّ، وهي الدّفاتر والحسابات و الفواتير، وبالتالي، إذا تمّت بالوسائل المعلوماتيّة أو مباشرة بواسطة الأقلام أو بغيره من الطّرق فإنّ الجرم قد وقع.

ثمّ ننتقل الى جريمة السرقة، حيث نصّت المادّة 635 من قانون العقوبات على إنّ « السرقة هي أخذ مال غير المنقول خفية أو عنوة بقصد التّملك، تنزل الطّاقات المحرزة منزلة الأشياء المنقولة في تطبيق النّصوص الجزائيّة»³

بتشريح هذه المادّة فهي تعني أخذ ما يملكه الغير، والذي يمكن نقله من مكان لآخر (المنقول)، خفية أو عنوة سواء بالتهديد أو بالقوة الجسديّة وبقصد التّملك. إنّ المادّة

1- خليفة تانيا- مرجع سابق - التّبذة 4 - في النّشر - ص: 55

2- المرجع نفسه - التّبذة 3 - في الاختلاس و استثمار الوظيفة - ص 92

3- المرجع نفسه - التّبذة 1 - في السرقة - ص: 156

لم تحدّد إذا كان النّقل حسّيّاً أم لا، و هو ما يجعل أيّ نقل للعناصر المشمولة بالمادّة المذكورة نقلاً مُجرّماً، وعليه فإنّ الحسابات المصرفيّة و أرقام البطاقات المصرفيّة وغيرها ممّا يدخل في هذا الإطار، يعتبر منقولاً مملوكاً للغير تنطبق عليه المادّة المذكورة، وتالياً إذا تمّ نقل حساب مصرفيّ أو موجودات حساب مصرفيّ أو أرقام بطاقات مصرفيّة مملوكة للغير الى حساب الفاعل من دون علمه ويقصد التّمكّن فنكون أمام جريمة السرقة، وعندما تعتبر المادّة السّالفة الذّكر أنّ الطّاقات المحرزة تنزل منزلة الأشياء المنقولة، فهذا يؤكّد أنّ هذه المادّة لم تقصد بالمال المنقول المال الذي يمكن نقله حسّيّاً. ونتطرّق إلى جريمة الاحتيال وهي الجريمة الأكثر رواجاً، التي تستخدم المعلوماتيّة لارتكابها، فقد نصّت المادّة 655 من قانون العقوبات على إنّ « كلّ من حمل الغير بالمناورات الإحتياليّة على تسليمه مالاً منقولاً أو غير منقول أو أسناداً تتضمّن تعهداً أو إبراءً أو منفعة و استولى عليها يعاقب ...

وتعدّ من المناورات الإحتياليّة:

- الأعمال التي من شأنها إيهام المجنيّ عليه بوجود مشروع وهميّ أو التي تخلق في ذهنه أملاً بربح أو تخوفاً من ضرر.
- تليفيق أكذوبة ...
- التّصرف بأموال منقولة ...
- إستعمال اسم مستعار أو صفة كاذبة للمخادعة والتأثير. ويطبّق العقاب نفسه في محاولة ارتكاب هذا الجرم.¹

عندما اشترطت المادّة السّالفة العقوبة في جريمة الاحتيال لم تحدّد الوسيلة المتّبعة لحمل الغير على تسليم المال، وعندما حدّدت المناورات الإحتياليّة حدّتها باعتبارها أعمال أو استعمال اسم مستعار، وهذه الأعمال واستعمال الأسماء، لا يشترط فيها أن تكون مباشرة أي وجهاً لوجه مع المجنيّ عليه، وبالتالي فإنّ القيام بها، أي بالمناورات الإحتياليّة، ليسلم المجنيّ عليه الأموال للجاني للاستيلاء عليها، بأيّ طريقة كانت، ومن ضمنها وسائل المعلوماتيّة، توجب توقيع العقوبة وفق نصّ المادّة.

1- خليفة تانيا- المرجع السّابق - الفصل الثّاني - في الاحتيال و سائر ضروب الغشّ - النّبذة 1 - في الاحتيال - ص: 163

إن جميع هذه المواد وغيرها من المواد تطبق على الجرائم التي ترتكب بواسطة المعلوماتية، فالمعلوماتية ليست سوى وسيلة مبتكرة لارتكاب الجرائم، وليست الجرائم المرتكبة بواسطتها جرائم مستجدة ليس لها ذكر في قوانين العقوبات، فالجريمة الواحدة قد تتعدّد الأساليب المستخدمة لارتكابها، كما وقد تتطوّر بتطوّر الحياة وتتطوّر التكنولوجيا، إلّا أنّ وصف الفعل المخالف بأنّه جرم، يبقى.

الفصل الثاني: عدم ارتباط التجريم بالوسيلة

لم يضع المشرّع في باله، عند توقيع العقوبة على الجريمة، الوسائل التي تستخدم في ارتكاب الجرم، لمعرفة بأن الوسائل المستخدمة قد تتعدّد وتتوّع، كما أنّها قد تتطوّر بتطوّر الحياة وتتطوّر المجتمعات، كما أنّ ربط التجريم بالوسيلة قد يجعل من ارتكابها بغير الوسيلة المنصوص عليها فعلاً مباحاً، بالإستناد إلى أنّ لا جريمة ولا عقوبة الا بنصّ، إلّا أنّه قد جعل في بعض الجرائم الوسيلة سبباً للتشديد و ليس للتجريم، وعليه سوف نعرض في هذا الفصل لتطور وسائل ارتكاب الجرم في المبحث الأول ثم نتطرق في المبحث الثاني إلى تعدّد وسائل ارتكاب الجرم.

المبحث الأول: تطوّر وسائل ارتكاب الجريمة

يتطوّر العقل البشريّ مع تطوّر الحاجات، وتتطوّر معها أساليب إشباع هذه الحاجات، وإذا كان للتطوّر البشريّ نواحيه الإيجابية لناحية تطوير وسائل العيش بهدف السّعي للرفاهيّة، فإنّ لهذا التطوّر نواحي سلبية تتجلى في استعمال هذه الوسائل المتطورة لارتكاب الجرائم، فيستغل أصحاب عقول الشرّ، جميع الوسائل الحديثة، لإحداث أضرار، تحقيقاً لمكاسب شخصية ضيقة، فتتطوّر أساليب ارتكابهم للجرائم بتطوّر الأساليب الجديدة في الحياة.

وفي هذا المجال نعطي مثالا على جريمة القتل وتطوّر وسائلها، فمنذ بداية حق الإنسان على أخيه الإنسان، ظهرت أوّل جريمة بين قابيل وهابيل، فقتل قابيل لهابيل لم يكن بمسدّس ولا بسكين و لا بسيف و لا حتى برمح مصنوع، بل كان إمّا بيديه أو بما توقّر له من عناصر موجودة في الطبيعة، ثم تطوّرت أساليب القتل مع الحاجة إلى الصيّد لتأمين الطّعام، فتمّ صنع الرّمح والقوس من الحجارة، وتمّ القتل والقتال فيه

وبواسطته، ثم مع اكتشاف الحديد وبداية احتياجه للحياة المعاصرة آنذاك، تمت صناعة السيوف والخناجر وتمّ القتل بهما، و مع اكتشاف البارود من قبل العقل البشري، تمّ استخدامه في صناعة الرصاص والمتفجرات، وتمّ استعمالها في القتل، إلى وقتنا الحالي مع ظهور الوسائل التقنية الحديثة، فقد تستعمل الشبكة العنكبوتية للقتل، فكانت كل وسيلة في عصرها وسيلة مستجدة لارتكاب الجريمة.

وعلى ما ذكر في المثال السابق فإن جريمة القتل ظلت جريمة قتل منذ قابيل و هابيل و حتى عصر التكنولوجيا الحديثة فإذا ما تمّ القتل بواسطة الشبكة العنكبوتية أو الإنترنت، فما زلنا أمام جريمة إزهاق الروح من قبل فاعل على مجني عليه، فما زالت أركانها متحققة من ركن ماديّ ركن معنويّ، وما زالت شروطها متحققة بغض النظر عن تطوّر وسيلة ارتكابها.

المبحث الثاني: تعدّد وسائل ارتكاب الجريمة

للجريمة الواحدة وسائل متعدّدة لارتكابها، ولذلك حرص المشرّع على عدم ربط التجريم بالوسيلة، لما يترتّب عليه من تقييد لمفهوم الجرم وللجريمة بحدّ ذاتها، باعتبارها فعل أو امتناع عن فعل ترتّب عليه ضرر يصيب الأفراد أو المجتمع أو قيم الإجتماعية.

وإذا كانت وسائل ارتكاب الجريمة قد تطوّرت مع تطوّر الحياة البشريّة من عصر إلى عصر، فإنّ هذا التطوّر أدى إلى تعداد أساليب ارتكاب الجرم، فالجرم الواحد قد يرتكب بوسائل متعدّدة، ذلك أنّ هذا التطوّر في الأساليب، ترتّب معه بقاء الأسلوب القديم مع وجود طريقة جديدة للجرم الواحد، و بالتّالي فإنّ السير بالتّصنيف الجرميّ بالاستناد إلى الوسيلة، سوف يترتّب عليه مجلّدات من القوانين التي لا تنتهي عن جرم واحد، بل وقد لا تكفي لحماية الفرد أو المجتمع، لما للعقل الإجراميّ من قدرة على ابتكار أساليب جديدة، محاولا بذلك تغطية جريمته بهدف التّهرب من العقوبة المفروضة، وهو ما سيؤدّي حتما إلى هذه النتيجة، أي إفلات المجرمين من العقاب، على قاعدة أن لا جريمة ولا عقوبة إلا بنصّ قانوني، فالعقاب سوف يرتبط بالجريمة التي بدورها مرتبطة بالوسيلة المرتكبة، وهو ما لا يستوي والعقل القانوني، ويتنافى مع إلزامية أن تكون النصوص التجريميّة عامّة و مجرّدة من التحديد.

فعلى سبيل المثال بالنسبة لجريمة القتل، فإنَّ التَّجريم مرتبط بالفعل لا بالوسيلة وهي فعل إزهاق الرُّوح، فلو كنَّا أمام ربط التَّجريم بالوسيلة كما يقترح الفقه المؤيِّد للجرائم المعلوماتية، فإنَّه إذا كانت السَّكين وسيلة لارتكاب الجريمة فيجب إنشاء قانون الجرائم السَّكينية نسبة للسَّكين المستخدم في جرائم القتل والإيذاء والتَّهديد، أو الجرائم المسدَّسية نسبة إلى وسيلة المسدَّس في ارتكاب القتل والإيذاء والتَّهديد، أو جرائم الفأس نسبة إلى الفأس في ارتكاب القتل والإيذاء والتَّهديد، الخ.. إلى وسائل لا تنتهي، فهذه هي النتيجة عندما تطلب إنشاء قوانين تعالج الجريمة المرتكبة بواسطة المعلوماتية، فسوف يترتَّب عليها، أنَّه إذا ارتكبت ذات الجريمة ولكن بوسيلة قد تستجد بعد فترة من الزَّمن عندما تصبح المعلوماتية وسيلة قديمة، فإنَّها لا يمكن أن تقع العقوبة بموجبها لعدم النَّصِّ على الوسيلة.

وعليه فإن ربط التَّجريم بالوسيلة المستجدة واعتبارها جريمة جديدة، وربط التَّسمية بالوسيلة، سيجزئ الجريمة بحسب الوسيلة المستخدمة، وسيطلب لكل وسيلة نصَّ تجريم، وبذلك نكون أمام إفلات من العقاب، إذا ما كانت الجريمة بغير الوسائل المنصوص عنها، وهو ما لا يستوي عقلاً ولا يستوي طريقة للتَّشريع عند فرض العقوبات على الجرائم.

الخلاصة

يزخر قانون العقوبات بموادَّ قانونية تعالج غالبية الجرائم التي تمسَّ الأشخاص والأموال والقيم الاجتماعية، ومن ضمنها الجرائم التي ترتكب بواسطة المعلوماتية، فالجريمة المعلوماتية أو الجرائم المعلوماتية ليست سوى جرائم ترتكب بواسطة المعلوماتية.

فالمعلوماتية بالنسبة للجرائم ليست سوى وسيلة مثلها مثل باقي الوسائل التي يستغلها المجرمون لتنفيذ جرائمهم، ولكن تتميز بأنَّها وسيلة مستجدة ولها بعض الخصائص الآتية، مثل تطلُّب المعرفة بتقنية المعلوماتية، إنَّ هذه الخاصية بدأت بالإضمحلال، على اعتبار أنَّ المعرفة المعلوماتية واستخدام الأجهزة الذكية وأجهزة الحاسوب وغيرها من الأدوات التقنية يتقنها غالبية النَّاس.

إن مطالبة الفقه بقوانين جديدة تعالج الجرائم الجديدة، لهو قول مجحف بحق قوانين العقوبات، ذلك أن ما يتم ارتكابه بواسطة المعلوماتية هي ذات الجرائم التي ترتكب بوسائط أخرى، فلا وجود لجرائم جديدة لم تعرفها الفترات السابقة، وإذا كان الفقه قد اعتبر أن الأفعال التي يطالب بتجريمها جرائم، فإنما يستند إلى النصوص القانونية التي توصف هذه الأفعال بالجرائم.

إن هذا البحث لا يهدف إلى نقد هذا الفقه أو ذاك، إنما يسلط الضوء على مسار المطالبات، فالمطلوب بهذا الشأن ليس تشريعات تتعلق بجرائم جديدة، إنما تفعيل دور أجهزة الرقابة وأجهزة التحقيق، بادخال أدوات تساعد على كشف الجرائم المرتكبة بالمعلوماتية، كما وإدخال عناصر فاعلة، لها دراية كافية بالأساليب والطرق التي يعتمدها المجرمون عند ارتكابهم للجرائم التي تتم عبر المعلوماتية، كما وتفعيل الإتفاقيات بين الدول لكشف الجرائم التي تتم بهذا الأسلوب، على اعتبار سهولة عبورها خارج حدود كل دولة.

قائمة المصادر والمراجع

الكتب

- 1- التميمي تميم عبد الله بن سيف، جرائم المعلوماتية في الاعتداء على الأشخاص: قذف - سب - تشهير - وفقا للشريعة الإسلامية والنظام السعودي والقانون القطري، مكتبة القانون والإقتصاد الرياض، الطبعة الأولى، 2016 م .
- 2 - الطائي، جعفر حسن جاسم، جرائم تكنولوجيا المعلومات، دار البداية، الطبعة الأولى، 2007.
- 3 - د. الكردي زين العابدين عواد كاظم- جرائم الإرهاب المعلوماتية دراسة مقارنة - منشورات الحلبي الحقوقية - الطبعة الأولى 2018.
- 4 - د. إكرام مختاري ، الدليل في الجريمة الإلكترونية، مكتبة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع و الترجمة - 2015.
- 5 - د. أبو عامر محمد زكي، دراسة في علم الاجرام والعقاب، الدار الجامعية، 1993 .
- 6 - خليفة تانيا، قانون العقوبات المعدل بمقتضى القانون رقم 513/96 و القانون 75/1999 بالإضافة إلى قانون تنفيذ العقوبة 463/2002 العفو العام 84/1991 حماية الأحداث المنحرفين

- 2002/422 ، 2010 ، شركة المؤسسة الحديثة للكتاب، بيروت.
- 7 - د. راشد علي أحمد- مبادئ القانون الجنائي، المدخل وأصول النظرية العامة، طبعة 2، دار النهضة العربية، مطبعة جامعة القاهرة ، القاهرة، 1974.
- 8 - عبد الله كريم عبد الله ، جرائم المعلوماتية والإنترنت (الجرائم الإلكترونية) دراسة مقارنة في النظام القانوني لمكافحة جرائم المعلوماتية والإنترنت مع الإشارة إلى جهود مكافحتها محلياً وعربياً ودولياً، منشورات الحلبي الحقوقية، الطبعة الأولى 2007.
- 9 - د. عبد الملك عماد مجدي، جرائم الكمبيوتر والإنترنت، دار المطبوعات الجامعية ، 2011.
- 10 - د. عبد المنعم سليمان ، د. عوض محمد عوض، النظرية العامة للقانون الجزائي اللبناني نظرية الجريمة والمجرم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1416 هـ، 1996 م.
- 11 - د. قهوجي علي عبد القادر، قانون العقوبات القسم العام، الدار الجامعية ، 1994.
- 12 - د. محمد زكي محمود، آثار الجهل والغلط في المسؤولية الجنائية، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، 1967.
- 13 - د. مرسي وزير عبد العظيم، الشروط المفترضة في الجريمة، دار الجليل للطباعة، مصر، 1983.

المؤتمرات

- عرب، يونس ،إيجاز في المفهوم والنطاق والخصائص والصّور والقواعد الإجرائية للملاحقة والإثبات، ورقة عمل مقدّمة إلى مؤتمر الأمن العربي 2002 - تنظيم المركز العربي للدراسات والبحوث الجنائية - ابو ظبي 10-12 / 2/ 2002.

المواقع الإلكترونية

- خلدون عيشة - الطبيعة الخاصة للجريمة الإلكترونية وصورها - جامعة زيّان عاشور - الجلفة
<https://asjp.cerist.dz/en/article/3841> 2012

الأوضاع السياسيّة وأثرها في الأوضاع الاقتصاديّة في سوريا بين عامي
1963 و1970

Political conditions and their impact on the economic
conditions in Syria between 1963 and 1970

طارق سليمان دعبول¹

Tariq Suleiman Daboul

أ.د. ابراهيم الحوت مشرفاً رئيساً أ.د. محمد علي القوزي مشرفاً مشاركاً

تاريخ القبول 2025 / 1/6

تاريخ الاستلام 2024 / 12/20

الملخص

تعدّ الأوضاع السياسيّة هي مرآة لنواحي الحياة كافة في أي دولة، هذا الأمر الذي يجعل الاقتصاد مؤطّر ضمن الاطار السياسي، وخاصة من خلال التشريعات والقوانين، وفي سوريا وخلال مطلع ظهور البعث في السّلطة ظهرت العديد من التّحوّلات والانفراجات الاقتصاديّة بتشجيع من السّلطة السياسيّة، إلّا أنّ هناك الكثير من العقبات التي ظهرت، إذ ظهرت العديد من المشكلات والعقبات في مسيرة التّطوّر الاقتصاديّ ولم تقدر السّلطة السياسيّة على تخطي هذه العقبات.

الكلمات المفتاحية: سوريا، اقتصاد، سياسيّة، حزب البعث، آذار، صناعة، زراعة.

Abstract

The political situation is a mirror of all aspects of life in any country, which makes the economy framed within the political framework, especially through legislation and laws. In Syria, during the early emergence of the Baath in power, many economic transformations and breakthroughs appeared with the encouragement of the political authority, but there were many obstacles that appeared, such that many problems and obstacles appeared in the path of economic development, and the political authority

1- طالب دكتوراه تاريخ في جامعة بيروت العربيّة

was unable to overcome these obstacles.

Keywords: Syria, economy, politics, Baath Party, March, industry, agriculture.

1. مقدمة

تعد الأوضاع السياسيّة هي النّاطم والمؤطر لنواحي الحياة كافة في أي دولة، ولذا من الأهمية بمكان عند دراسة أي جانب من جوانب الحياة المختلفة لابد من الحديث عن الجانب السياسيّ، لأنّه بشكل أو بآخر الفاعل الأول على الجانب الاقتصاديّ والاجتماعيّ والعلميّ وغيره، وفي سياق الحديث عن الجانب الاقتصاديّ في سوريا بين عامي 1963 و1970 لابد من الحديث عن الإطار السياسيّ في تلك المرحلة والتقلّبات التي مرّت بها الدّولة السوريّة، وأثر ذلك وبشكلٍ مباشر في الجانب الاقتصاديّ في الجمهوريّة العربيّة السوريّة، حيث حصلت جملة من الأحداث والتغيّرات الاقتصاديّة خاصة فيما يتعلّق بالتأميم وغيره.

وانطلاقاً من العنوان تتولّد معنا الإشكاليّة التّالية، كيف أثر الجانب السياسيّ على الحالة الاقتصاديّة في سورية بين ثورة آذار والعام 1970؟ وما هي العوامل التي ساعدت على هذا التحوّل؟

أمّا الفرضيّات فجاءت على النّحو الآتي: أدّت التّغيّرات السياسيّة في سوريا بين الاستقلال وما بعد الانفصال عن مصر تغيّرات جمّة في النّاحية السياسيّة، وكان الجانب الاقتصاديّ هو الأكثر تضرّراً في هذا السّياق. كما أنّ قوّة سطوة الدّولة في تلك المرحلة في تطبيق القوانين أسهمت في تغيّر جذريّ لناحية التّأميم وقوانين الإصلاح الزراعيّ وغيرها.

أمّا المنهج المتّبع فكان المنهج التّاريخيّ والتّحليليّ من خلال سرد الأحداث التّاريخيّة وتحليلها وتبيان خفايا هذه الأحداث.

وقد قسّمت الموضوع إلى مبحثين اثنين الأول الأوضاع السياسيّة في مرحلة الدّراسة، والثّاني الأوضاع الاقتصاديّة.

2. الأوضاع السياسيّة من ثورة آذار حتى 70

2.1 ثورة آذار

لقد شكّلت سورياً عبر تاريخها القديم والحديث والمعاصر محور أحداث المشرق العربيّ. فمن خلاله تحوّلت سورياً من مجرد موضوع لصراع الآخرين إلى فاعل أساسي. وتقع مفردات هذا التحوّل في مفردات التاريخ والجغرافيا من جهة وفي تحولات الفكر والسياسة والعقائد والاستراتيجيات قبيل هذه الحقبة ومن خلالها من جهة ثانية. وفي تطوّرات النظامين الدولي والإقليمي من جهة ثالثة. حيث توافدت أوروبا بملوكها وأمرائها إليها وعبر الوسائل الدبلوماسية سعياً إلى إقامة تعاون معها بغية ربطها سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً بسياساتها الزامية إلى فرض الهيمنة السياسيّة قبل العسكريّة إدراكاً منها أنّ العقليّة السوريّة وما تطرحه من أفكار ومشاريع تحول دون تمكن أوروبا من تعميق نفوذها في مجمع مناطق الوطن العربيّ. فالأوروبيون يعلمون أنّ كل سوريّ هو رسول قوميّ تلقائياً.

فقد عاشت سورياً ما بين 1963 و 1970 فترة سياسيّة من أصعب المراحل التاريخيّة تعقيداً لأنّ القوى قبل حركة الإصلاح أو التّصحیح كانت مفرطة في طموحاتها.

وقد كانت الأوضاع في سورياً تسير باتجاه الاضطراب الذي بدأ ظاهراً داخل سورياً بعد مؤتمر شتورة في آب 1962، وازدياد الحملة الإعلاميّة المصريّة على سورياً، وكانت من أبرز أسباب استقالة بشير العظمة رئيس الوزارة الرابعة في عهد الانفصال، وتكليف خالد العظمة بتشكيل الحكومة الجديدة، وقد صعد حزب البعث العربيّ الاشتراكيّ نضاله في مواجهة الانفصال بالتّعاون مع الضّباط الوجدويين (غانم، 2009، ص 20).

وقد نجح الضّباط البعثيون بالتّعاون مع أصحاب الاتجاهات الوجدويّة، النّاصريون على وجه الخصوص، بالسيطرة على الحكم وإنشاء المجلس الوطنيّ لقيادة الثورة والذي ضمّ عناصر بعثيّة وغير بعثيّة أملاً في توحيد الجبهة الداخليّة وقد أدّى الدور البارز في نجاح هذا الانقلاب التّنظيم العسكريّ الذي تشكّل في مصر إبّان الوحدة، والمؤلّف من الضّباط محمد عمران وصالح جديد وحافظ الأسد وغيرهم (عثمان، 2012، ص 371).

وكانت إشارة البدء لقيام ثورة الثامن من آذار 1963 قد أطلقت قبل قيام الثورة بأكثر من 15 يوماً وذلك من خلال التركيز على الذكرى الخامسة لقيام الوحدة المصرية السورية، فقد اعتقدوا أنّ المهمة الأولى للنضال في سوريا هي إنهاء الحكم الانفصالي، فتمّ إسقاط نظام الحكم القائم واستولت القوات المسلحة السورية عن السلطة عند الفجر وبينت تفاصيل حكم الانفصال وحقيقته (غانم، 2009، ص 116-110).

في هذا العهد الجديد لم يبقَ أيّ دور سياسيّ في إدارة البلاد للزعماء التقليديين. وتشكّلت قيادات قومية قطريّة تصدر قرارات عديدة. ودفعت إلى الحكم نوعاً جديداً من الشرائح الاجتماعية تملك أيديولوجية مختلفة، فوصل إلى الحكم فئة اجتماعية مقهورة من العمال والفلاحين. وصدرت أولى القرارات لحزب البعث العربي الاشتراكيّ وكانت من أجل تقويم الاقتصاد الوطنيّ وتأميم المصارف وفتح فروع جديدة لها في جميع انحاء البلاد لتأمين النشاط الاقتصاديّ للفلاحين والتجار.

وقد قامت مظاهرات عديدة مؤيدة للثورة وقراراتها، بالمقابل قامت مؤامرة على تطبيق النهج الاشتراكيّ ودعمتها بعض الدول الأجنبية ولكن سرعان ما قضت عليها عناصر الثورة (علاوة، 2022، ص 50).

وما أن دنت السلطة للقادة الجدد حتى أوفدوا وفداً إلى مصر بتاريخ 14 آذار 1963 للتباحث مع الرئيس عبد الناصر في الوحدة. وقد منعوا تداول الكتب التي ظهرت في سوريا في زمن الانفصال وتطعن في الوحدة وتسيئاً للرئيس عبد الناصر وصادروها في جميع الأراضي السورية.

وقد عقدوا مع الرئيس عبد الناصر اجتماعات عديدة على عدة مراحل وجرت المباحثات في جوّ مشحون وعاصف في بداية الأمر، وكانت صريحة شاملة تناولت مواضيع عديدة منها أخطاء عهد الوحدة التي أدت إلى الانفصال ودور حزب البعث في الانفصال. وانتهت هذه الاجتماعات بتوقيع ميثاق للوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق في 17 نيسان 1963.

وفي هذا الوقت كان زعماء البلاد الجدد يصدرون المراسيم القاسية أهمها فرض جزء العزل المدنيّ بحق الأشخاص والهيئات الذين جعلوا من أنفسهم ركائز للعهد الانفصاليّ

بأقوالهم وأفعالهم، استغلوا نفوذهم وثرواتهم وسخّروا وظائفهم في الدولة بقصد خدمة العهد الانفصاليّ أو خدمة رجاله وبحق الصحفيين والكتاب الذين أساءوا إلى إيمان الشعب العربيّ في سوريا بالقوميّة العربيّة أو بتّوا الأفكار الشّعوبيّة.

كذلك الأشخاص الذين انحرفوا عن مبادئ القوميّة العربيّة سواء من اليمينيين أو اليساريين أو الانتهازيين المرتدين. كما فرضوا جزاء العزل المدنيّ على رؤساء الجمهوريات ورؤساء الوزراء ونوابهم، والثّواب الذين عملوا على تكريس الانفصال فانحرفوا عن الاتجاه القوميّ، والاقطاعيّون والرأسماليّون والمستغلّون الذين تسلّطوا على الحكم فزيّفوا إرادة الشعب، فحرموا من عدة حقوق مثل حقّه في أن يكون ناخباً أو منتخباً في المجالس النيابيّة والإداريّة والبلديّة. وحقّه في أن يكون مدير جريدة أو مجلة أو مطبوعة دوريّة وأن يكون موظّفاً أو مستخدماً في الدولة أو صاحب مدرسة أو مدير أو معلم وغيرها.

وتراوح جزاء العزل المدنيّ بين خمس وعشر سنوات، وقد أصدرت الحكومة أيضاً عفواً عاماً عن الجنايات والجنح والمخالفات المرتكبة منذ 28 أيلول 1961 حتى 9 آذار 1963 في سبيل العمل للوحدة العربيّة ومن أجل مقاومة الحكم الانفصاليّ (عثمان، 2012، ص 377-375)

وقد جاء أوج احتكار البعثيين للسلطة في 18 تموز 1963 عندما قامت مجموعة معظمها من الضباط الناصريين السنيين تحت قيادة جاسم علوان بانقلاب فاشل، ومعظم الضباط الذين أحمدهوا هذا الانقلاب مع إراقة بعض الدماء كانوا ينتمون لأقليات وكان من بينهم ضباط علويون أدّوا دوراً متميزاً، وهذا الأمر لم يكن له علاقة بالطائفية إلا أنّه تم استغلاله على هذا النحو من قبل معارضي حزب البعث السياسيين الذين بغضوا أعضاء الاقليات الكثرين بين الحكّام الجدد، وحاولوا إطفاء الانطباع بأنّ عمليات التصفية المتكرّرة للضباط السنيين كانت تقوم أساساً على دوافع طائفية فحاولوا بذلك التشكيك في حزب البعث وإضعاف مركزه في نظر الغالبية العظمى من السّكان السنيين (الامام، 2012، ص 620)

وقد بدأ الصّراع على السلطة يظهر بين قادة اللّجنة العسكريّة البعثيّة عقب الانقلاب الفاشل ولجأ هؤلاء القادة بغية تقوية مراكزهم إلى تجميع رجال عسكريين حولهم ممن تربطهم بهم روابط طائفية أو عشائرية أو إقليمية.

وقد تم سحقها والقضاء عليها بوحشية وإعدام الذين قبض عليهم بعد محاكمة سريعة لم تستغرق أكثر من ثلاث دقائق، وأُتهم الرئيس عبد الناصر بأنه وراء هذه المحاولة، وسوّغ أمين الحافظ الوحشية التي سُحِق فيها الانقلابيون بأنهم حملوا السلاح فقابلهم بالسلاح وبعد أيام قليلة على إنهاء هذا الانقلاب استقال لؤي الأتاسي من رئاسة المجلس الوطني لقيادة الثورة وتعيّن مكانه أمين الحافظ ثم عيّن أمين الحافظ رئيساً للوزارة (فان دام، 1995، ص 63).

وشكّل وزارة جديدة، وقد تميّز عهده بمراسيم التأميم الكثيرة التي أصدرها وطالت عدداً كبيراً جداً من الشركات والمؤسسات في سوريا، وقد ولّدت سخطاً عاماً لا حدّ له كما كان عهده حافلاً بالأحداث المؤسفة التي ولّدت أحقاداً وحزازات في النفوس، وتركت شرخاً عميقاً في جسد الأمة. وفي شباط 1964 اندلعت اضطرابات في بانياس اتخذت طابع صدام مسلّح بين السنّيين والعلويين امتدت أياماً، ثم عمّت مدينة حماة اضطرابات كبيرة معادية للحكومة تم قمعها وتفاقمّت الأحداث فيها وتحولت إلى مواجهة عسكرية بين قوات السلّطة والمدينة كلها (عثمان، 2012، ص 383).

وقد أعلن جمال عبد الناصر بعد قمع محاولة العقيد جاسم علوان في دمشق، وإعدام عدد من المشتركين فيها واعتقال وملاحقة عدد كبير من الناصريين عدم التزامه بميثاق الوحدة الثلاثية وقال بأنّ الجمهورية العربية المتحدة لا تعدّ نفسها مرتبطة أو ملزمة بأي اتفاق مع الحكومة السورية لأنّ حكم البعث حكم فاشستي متسلّط ودمويّ وهو حكم المشانق وحمامات الدم.

وعدّ أنّ حزب البعث قسم سورياً إلى بعثي وسوريّ، البعثيّ له كل شيء والسوريّ لا شيء له وكان خطابه شديد اللّهجة على سورياً وهاجم به البعثيين بشكل مباشر (قسام، 2007، ص 13).

وقد حاولت سورياً عدم إزعاج الرئيس جمال عبد الناصر لتلافي فتح أبواب للمهارات والحملات الإذاعية وحاولت استمالته وتلبيين موقفه، ولكنّ سياسة دمشق لم تستمر على ما هي عليه، وقد أدت إلى تقديم الفريق الأتاسي استقالته وعين أمين الحافظ رئيساً للمجلس الوطني لقيادة الثورة ورئيساً للجمهورية العربية السورية وقام الأخير باتّهام القاهرة علانية ولأوّل مرة بتدبيرها انقلاب السابع عشر من تموز في دمشق وحيال هذه الأحداث

وقفت الدّول العربيّة ما بين متعاطفة مع القاهرة مثل لبنان وما بين شامت للحالة التي وصل إليها اتّفاق الوحدة الثلاثيّ مثل السّعودية والأردن (غانم، 2009، ص 135)

2.2. ما بعد آذار

قد بدأ الحزب بعد الثّورة صياغة رؤية شاملة ووضع استراتيجيّة متكاملة للحزب تتسجم مع منطلقاته الفكرية، كما وضع خطط تنفيذيّة له ولكن حالة الاضطراب وعدم الاستقرار التي شهدتها الحزب والسّوريّة معاً وعدم قدرة بعض القيادات على التّكيف مع الواقع الجديد والتّطوّرات القائمة سارعت بقيام ثورة جديدة وحركة جديدة في 23 شباط 1966 وجسّدت حيويّة الحزب وقدرته على تخطّي العقبات والمصاعب والحفاظ على مسيرتها المستمرة باتّجاه تحقيق أهدافه.

بعد نجاح انقلاب 8 آذار 1966 وتولّي حزب البعث العربيّ الاشتراكيّ السّلطة في سورياً كان الحزب في ذلك الوقت يضم جناحين رئيسيين الجناح القوميّ بقيادة ميشيل عفلق وصلاح البيطار والجناح القطريّ بقيادة ضباط من الجيش السّوريّ مثل صلاح الجديد وحافظ الأسد (علاوة، 2022، ص 51).

وكّل منهما يؤمن بقضية معينة، فالجناح القوميّ كان يؤمن بقيادة البعث بحركة قوميّة عربيّة تشمل جميع الأقطار العربيّة أما الجناح القطريّ فكان يميل إلى تعزيز السّلطة داخل سورياً مع تحديد أكبر على القضايا الدّاخلية على حساب الأجندة القوميّة. وقد نشأ انقسام داخل حزب البعث بعد وصوله إلى السّلطة نتيجة الاختلافات الإيديولوجيّة والسياسيّة بين الجناحين، وقد بلغت الصّراعات ذروتها عندما قرر الجناح القطريّ بقيادة صلاح الجديد وحافظ الأسد القيام بتحرك عسكريّ، للإطاحة بقيادة الحزب القوميّة والسيطرة على السّلطة بشكل كامل.

وفي فجر يوم 23 شباط 1966 نفّذت مجموعة من الضّباط الموالين لصلاح الجديد وحافظ الأسد انقلاباً عسكريّاً، وتمت السيطرة على المراكز الحيويّة في العاصمة دمشق واعتقال القادة الرّئيسيين للجناح القوميّ بمن فيهم أمين الحافظ وحصل الجناح القطريّ على دعم كبير من وحدات الجيش بما في ذلك القوّات الخاصة وسلاح الجو، ما ساعدهم على حسم المعركة بسرعة، وبعد الانقلاب تمت الإطاحة بالقيادة القديمة للحزب

وتعيين قيادة جديدة موالية لصالح الجديد.

وأعلن نور الدين الأتاسي رئيساً للدولة، وأصبح صلاح جديد الزعيم الفعلي للحزب، وكانت من التداعيات التي خلصت بعد هذا الانقلاب، هو ازدياد نفوذ الجيش في الحياة السياسية في سوريا، فأصبح هو المؤسسة الأهم في البلاد، ويحكم بشكل مباشر في مفصل الدولة كافة، وانقسم حزب البعث بشكل فعلي إلى جناحين: جناح في سوريا وآخر في العراق وكان لذلك تأثير طويل الأمد في السياسة العربية حيث استمر التنافس بين الجناحين على مدار العقود التالية (القوزي، 1999، ص 66).

ودخلت سوريا في مرحلة الحكم الجديد، فتميزت بالتركيز على الإصلاحات الداخلية وسياسات التصنيع الوطني، لكن استمر التوتر السياسي الداخلي مما أدى في نهاية المطاف إلى انقلاب آخر العام 1970 حيث سيطر حافظ الأسد على السلطة وأصبح رئيساً لسوريا في المقابل تراجعت مكانة سوريا في العالم العربي في البداية، لكنها بدأت تستعيد نفوذها مع مرور الوقت خصوصاً مع سيطرة حافظ الأسد على الحكم وتبني سياسة خارجية أكثر حذراً فكانت بذلك ثورة 23 شباط 1966 لحظة حاسمة في تاريخ سوريا وشكلت نقطة تحول في مسار البلاد السياسي والعسكري، وأسّس لحقبة من الحكم العسكري المكثف الذي استمر لعقود وكان له تأثير على سوريا والمنطقة ككل (عبد العال، 2007، ص 100)

2. 3. حرب 1967

في الخامس من حزيران 1967، بدأت إسرائيل حرباً خاطفة على مصر وسورية وأخذت هذه الحرب سورية على حين غرة، فهي لم تكن مستعدة للحرب، ولم تكن قدراتها تسمح بالوقوف في وجه إسرائيل، وقد اعتادت على مناوشات وتبادل قصف مدفعي لا غير، وفتحت القوات الأردنية النار على المواقع الإسرائيلية رغم تحذير إسرائيل للأردن من مغبة دخول الحرب لقد استطاعت إسرائيل قبل ظهيرة اليوم الأول للحرب تدمير ثلثي سلاح الجو السوري، ثم شنت في 8 حزيران غارات جوية كثيفة على أهداف داخل سورية وفي تلك الأثناء كانت تدمر القوة الجوية المصرية وتقضي على منشآت الجيش المصري في سيناء وفي 9 حزيران وافقت سورية على نداء من الأمم المتحدة لوقف إطلاق النار،

إلا أن إسرائيل كانت لا تزال في بداية تنفيذ خطتها العسكرية فموشيه دايان¹ أمر ببدء الهجوم الأرضي على سورية بعدما فرغت مهام لواءين إسرائيليين على الجبهة المصرية وتم نقلها إلى جبهة الجولان، فاحتلت إسرائيل أراضي تضم مصادر مياه حوض الأردن في الجولان، في حين رفض الرئيس الأميركي جونسون الضغط على إسرائيل لقبول وقف إطلاق النار إلى حين تبلغه معلومات أن إسرائيل قد حققت أهدافها التوسعية على الجبهات المصرية والسورية والأردنية وبعد فقدان غطائها الجوي وطائراتها، لم يكن منطقيًا لسورية أن تدفع إلى الجبهة ألوية أرضية ستعرض حتمًا لمجزرة فكان الأفضل اتخاذ مواقع دفاعية على خطوط الجبهة.

حارب الجيش السوري بشجاعة، رغم الفرق الشاسع في مستوى الأسلحة والمعدات، ولكن في غياب غطاء جوي واسلحة أرض جو، كانت أرض الجولان مكشوفة تمامًا وحتى عندما أعلنت إسرائيل موافقتها على وقف إطلاق النار، واصلت هجومها على مدينة القنيطرة، لكن الجنود السوريين استبسلوا في الدفاع عن مواقعهم بشراسة، ففقدت إسرائيل 160 دبابة مقابل 86 فقط على الجانب السوري ورغم التفوق الإسرائيلي، فإن الجنود السوريين لم يخرجوا من ساحة المعركة، بل قاتلوا في ظروف صعبة تحت سماء تسيطر عليها إسرائيل تمامًا، وقصف متواصل بقنابل النابالم الحارق وصواريخ الطائرات ومدافع الميدان ورشق المدفعية الأرضية فسقط 600 جندي سوري وهم يقاتلون من دون أن يتزحزحوا قيد أنملة.

وفجأة في الساعة 8:45 صباح العاشر من حزيران، أذاع راديو دمشق بيانًا من وزارة الدفاع أن القنيطرة قد سقطت رغم أنها كانت لا تزال بأيدي سورية، وتدخل الأسد شخصيًا لمعرفة مصدر التقرير وظروف أرض المعركة، وصدر بيان ثان الساعة 10:45 يصحح المعلومات، وأن المدينة لم تسقط ولكن ثمن النباء الإذاعي الأول كان فادحًا، ذلك أن التأخر في تصحيحه لمدة ساعتين أدى إلى انتشاره في صفوف العسكر.

وبعد هذه الحرب مرّت سورية بحالة من الانكسار والتملل نتيجة الخسارة الكبيرة عقب حرب الـ 67، وبقي الأمر على هذا الحال لحين وصول حافظ الأسد إلى السلطة عام

1- موشيه دايان: وهو عسكري صهيوني شغل العديد من المناصب العسكرية في الكيان المحتل، وفي فترة حرب الـ 67 كان في منصب وزير الدفاع. انظر موقع قناة الجزيرة

1970.

3. الأوضاع الاقتصادية آذار 63-70

بين عامي 1963 و 1970، مرّت سوريا بتغيّرات اقتصادية كبيرة نتيجة للتحوّلات السياسية والاجتماعية. في العام 1963، تولّى حزب البعث العربي الاشتراكي السلطة بعد ثورة الثامن من آذار، ما أدّى إلى تطبيق سياسات اشتراكية تضمّنت التأميم الكلي والإصلاح الزراعي.

في هذه المدّة، كانت سوريا تنتقل من الاقتصاد التقليديّ إلى الاقتصاد المخطّط. ركّزت الجهود على تطوير القطاعات الزراعية والصناعية لتحقيق الاكتفاء الذاتي وتقليل الاعتماد على الواردات.

كما شهدت هذه الحقبة هروب رؤوس الأموال الخاصة إلى الخارج، وظروف مناخية غير ملائمة، وتضاؤل حجم الاستيراد، وانخفاض مستوى الاستثمار بشكل عام. أما التدفّقات المالية الخارجية، فلم يكن متاحاً لسورياً منها في ذلك الوقت سوى عائدات ترانزيت النفط العراقي (داغر، 2000، ص9).

3.1. السياسات الاقتصادية

تولى حزب البعث السلطة في 8 آذار 1963، في حقبة كان الاقتصاد السوريّ يحاول فيها التعافي من آثار التأميم التي فرضتها الوحدة مع مصر بين عامي 1958 و 1961. أوقف البعث جميع الإجراءات التي كانت تتخذها حكومة خالد العظم التي تولّت الحكم بعد انقلاب العام 1961، وكانت تهدف إلى إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل الوحدة، أي إلغاء عمليات التأميم. أعلن البعث أنّ هويته الاقتصادية اشتراكية، ما يعني الاستمرار في عمليات التأميم والتحوّل الاقتصادي التي بدأها الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، ولم تكتمل بسبب الانفصال الذي حدث بعد أشهر قليلة من بدء الإجراءات الاقتصادية الجديدة في حينه (عبد العزيز، 2018، ص22).

1.1.3. الزّراعة

بسبب الخلفيّة الأيديولوجيّة والاجتماعيّة للسلطة العسكريّة البعثيّة الجديدة وحاجتها لاتّخاذ خطوات ملموسة لتعزيز سلطتها، كانت الخطوة الأهم التي اتّخذها البعث في السّنينيّات هي تعميق قانون الإصلاح الزراعيّ الصّادر أثناء الوحدة، رقم 161 بتاريخ 27 سبتمبر 1958. أصدرت السلطة البعثيّة الجديدة المرسوم 88 بتاريخ 23 يونيو 1963 الذي خفض سقف الملكيّة الخاصة للأراضي إلى 55-15 هكتار في الأراضي المروية و300-80 هكتار في الأراضي البعلية. نتيجة لهذا الإجراء، استولت الدّولة على أراضي كبار الملاك ووزعت جزءًا منها على الفلاحين لاستثمارها دون تمليك، واحتفظت بالباقي في يد الدّولة. حتى العام 1975، لم توزّع الدّولة سوى 33.3% من الأراضي المصادرة على الفلاحين، بينما استبعدت وباعت 23.5%، وخصّصت 18.1% للتعاونيات والوزارات والجمعيات، وظل الباقي من دون توزيع.

كان قانون العلاقات الزراعيّة رقم 134 لعام 1958، المعدل بالمرسوم رقم 218 لعام 1963 الذي نظمّ العلاقات الزراعيّة وقدم حماية لمن يفلح الأرض، قد أحدث تغييرًا كبيرًا في الرّيف، إذ وجّه ضربة لسلطة كبار الملاك. ومع ذلك، لم تؤدّ إصلاحات النّظام إلى تحوّل جذريّ في التّركيب الاجتماعيّ، إذ بقيت الملكيات المتوسطة وتعزز موقع الملاك المتوسّطين الذين أصبحوا نافذين في سلطة البعث الجديدة. (بطاطو، 2014، ص 313).

سعت السّلطة في تلك المدّة إلى إضعاف الطّبقة الإقطاعيّة ومساعدة الفلاحين السّوريين على تملك الأراضي من خلال سياسة إصلاح الأراضي الزراعيّة. هذه السياسة هدفت إلى خلق قاعدة ولاء للحزب في المناطق الرّيفيّة عبر إنشاء شبكات اقتصاديّة وسياسيّة وبيروقراطيّة تسيطر على المجتمع الرّيفيّ.

من 1966 إلى 1970، اتّخذت السّلطة سياسات راديكاليّة مثل تثبيت أسعار الغلال وشراء إنتاج الفلاحين، ما أضعف التّجّار في حلب ودمشق. كما وسّع شبكة المصرف الزراعيّ النّعائونيّ وأنشأ الاتحاد العام للفلاحين للحدّ من استقلاليّة الفلاحين والسيطرة على نشاطهم السّياسي. (Munif، 2020)، Y. (Chapter 4).

رغم ذلك، بقي الإنتاج الزراعي راکداً نوعاً بسبب الجفاف الذي ضرب سورياً من جهة، وبسبب ذهاب ثلاثة أرباع الاستثمار الزراعي في ذلك الوقت على إنشاء سدّ الفرات المخصّص للطاقة والزري، ولن تشهد سورياً مفاعيله إلا بعد عقد من الزمن.

3.1.2. الصناعة

استناداً إلى مبادئ الاشتراكية، قامت الدولة السورية في الستينات بتأميم معظم الصناعات التحويلية والاستخراجية، بالإضافة إلى الموارد الطبيعية. ومع تزايد دور القطاع العام خلال هذه المرحلة، تضاعف دور القطاع الخاص بشكل كبير، حتى لم يكن يمتلك سوى 25% من الصناعة المحلية بحلول أوائل السبعينيات، وكانت معظم هذه الصناعات عبارة عن ورش ومشاغل صغيرة.

فشهدت حقبة الستينيات التي تلت التأميمات ركوداً اقتصادياً، نتيجة لانخفاض الفوائض التي حققتها المؤسسات الصناعية العامة التي كانت تنتج أكثر من ثلثي الإنتاج الصناعي، بالإضافة للتركيز على تجهيز وتطوير قطاع إنتاج البترول الذي استفد حتى العام 1968 نصف الاستثمار الصناعي لتحقيقه (محسن، 2014).

3.2. السياسة النقدية

منذ العام 1963، ركزت السياسات النقدية في سورياً على تثبيت الأسعار ودعم أسعار الفائدة بهدف تحقيق التنمية الاقتصادية وتعزيز الاستقرار الاجتماعي. لكن هذه السياسات لم تقسح المجال لنشوء سوق مالية نشطة تكمل دور القطاع المصرفي في دعم التنمية. بالإضافة إلى ذلك، اعتمدت الحكومة سياسة مالية تستهدف تحقيق توازن في الموازنة العامة، مما قلّل بشكل كبير من الحاجة إلى وجود سوق مالية وأدواتها المتنوعة (البساط، 2001، ص7).

في 2 أيار 1963، تم تأميم جميع المصارف في سورياً بمرسوم أعاد فعالية قانون 1961. في آب، دُمجت المصارف في خمس مجموعات رئيسة.

في العام 1966، جرى تحوّل جذريّ نحو سيطرة حكومية مشدّدة، حيث صُهرت جميع المصارف التجارية في مصرف واحد هو «المصرف التجاري السوري»، بينما نُظمت بقية المصارف حسب اختصاصاتها: مثل مصرف التسليف الشعبي، والمصرف

الزّراعيّ، والمصرف الصّناعيّ. هذه الإجراءات هدفت إلى تعزيز سيطرة الحكومة على القطاعات الزّراعيّة والصّناعيّة والتّجارة الخارجيّة، ما ألغى دور القطاع الخاص والمنافسة المصرفيّة، وتحوّل المصرف المركزيّ إلى دائرة خدمات حكوميّة (منصور، 1999، ص18).

وكان للبيروقراطية تأثير كبير على الاقتصاد السّوريّ في تلك الحقبة وامتدّ تأثيره إلى يومنا هذا، فالنّمو الاقتصاديّ في سوريا خلال هذه المدّة كان متذبذبًا. وعلى الرغم من تحقيق بعض النّجاحات في مجالات محددة، مثل التّعليم والبنية التّحتيّة، إلّا أنّ الاقتصاد بشكل عام كان يعاني من نقص الكفاءة والإنتاجيّة بسبب التّعقيدات البيروقراطيّة. الموظفون الحكوميون كانوا بحاجة إلى الالتزام بالسياسات الصارمة واللوائح المعقدة، ما أدّى إلى تأخير اتّخاذ القرارات الاقتصاديّة وإبطاء تنفيذ المشاريع التّنمويّة. (الحسين، 2003، 134).

4. خاتمة

يمكن القول إنّ الحقبة بين عامي 1963 و1970 كانت مرحلة حاسمة في تاريخ سوريا الاقتصاديّ، إذ شهدت تحولات جذرية شكّلت ملامح الاقتصاد السّوريّ لسنوات قادمة. وعلى الرّغم من التّحديات والصّعوبات الكبيرة التي واجهتها البلاد، سواء على مستوى الإدارة أو في تنفيذ السياسات الجديدة، إلّا أنّ هذه المرحلة وضعت الأسس لهيكلة الاقتصاد السّوريّ وتوجيهه نحو النّمو والتّنميّة في العقود اللاحقة. كانت هذه السياسات حجر الأساس الذي استندت إليه الدّولة في سعيها إلى تحقيق الاكتفاء الذاتيّ وتحقيق التّوازن بين القطاعات المختلفة.

المصادر والمراجع

-الإمام، محمد (2012). الحياة السّياسيّة في سوريا عهد الاستقلال (ط1). دار الاعلام للنشر والتوزيع: عمان.

-البساط، هشام، تحديث وتطوير القطاع المصرفي في سوريا، ورقة بحثية لصالح صندوق النّقد العربيّ، 4 حزيران 2001.

-بطاطو، حنا، فلاحو سوريا، المركز العربيّ للأبحاث والدراسات السّياسيّة، 2014.

-بكري، سعد علي الحاج، البروقراطية ومعطيات العصر، 30 أيلول 2021، المجلة الاقتصاديّة.

-الحسين، أحمد، الاقتصاد السوريّ في القرن العشرين، منشورات وزارة الثقافة في دمشق، 2003 ، ص 134.

-داغر، ألبر، التحدّيات الاقتصادية والتّميّة التي تواجه سورياً ولبنان في ظل المتغيّرات الإقليميّة والدّوليّة، مجلة الدفاع الوطنيّ اللّبنانيّ، العدد 33 - تموز 2000.

-سيد، عبد العال(2007) الانقلابات العسكريّة في سوريا 1949-1954م. مكتبة مدبولي، القاهرة.

-عبد العزيز، فؤاد، اقتصاديون سوريّون بين 1963 و 1970 مرحلة التّحوّلات الكبرى، مجلة الاقتصاد، 21 نيسان 2018.

-عثمان، هاشم(2012). تاريخ سوريا الحديث(ط1). رياض الريس للكتاب والنشر. بيروت.
-علاوة حنان 2022 الانقلابات العسكريّة في سوريا والعراق 1970-1948 رسالة ماجستير بإشراف الدكتور مسود كربوع. جامعة محمد خيضر. الجزائر

-العلو، سقراط، اقتصاد الدّولة الوطنيّة في سوريا، ايار 2020، موقع العربيّ الجديد.
-غانم، نيلة (2009). الأوضاع السياسيّة في سوريا 1973-1958 رسالة دكتوراة بإشراف الدكتور محمود عامر جامعة دمشق.

-فان دام، نيكولاس (1995). الصراع على السّلطة في سوريا (ط1) مكتبة مدبولي. القاهرة
-قسام، يحيى(2007) الموسوعة السوريّة الحديثة، الجزء الرابع، المؤلّف.

-القوزي، محمد(1999). دراسات في تاريخ العرب المعاصر. دار النهضة العربيّة. بيروت
-محسن، عادل شكيب، تاريخ تطور الإقتصاد السوريّ، الحوار المتمدن، 2014-10-23.

-منصور، فارس(1999) القطاع المصرفي في سورياً ولبنان التّاريخ والأبعاد، أيار 1999، المقطع 18.

Sources:

-Munif, Y. (2020) The Syrian Revolution: Between the politics of life and the geopolitics of death. London: Pluto Press, Chapter 4

-Ahmad Al-Hussein, The Syrian Economy in the Twentieth Century, Publications of the Ministry of Culture in Damascus, 2003, p. 134.

-Albert Dagher, The Economic and Developmental Challenges Facing Syria



and Lebanon in Light of Regional and International Changes, Lebanese National Defense Magazine, Issue 33 – July 2000, Section 9.

–Al-Imam, Muhammad (2012). Political Life in Syria during the Independence Era (1st ed.). Dar Al-Ilam for Publishing and Distribution: Amman.

–Hanna Batatu, The Peasants of Syria, Arab Center for Research and Political Studies, 2014, pp. 86, 313.

–Saad Ali Al-Hajj Bakri, Bureaucracy and the Data of the Age, September 30, 2021, Economic Magazine, Section 2.

–Socrates Al-Alou, The Economy of the National State in Syria, May 2020, Al-Araby Al-Jadeed website, Section 5.

–Sayed, Abdel Aal (2007) Military Coups in Syria 1954–1949 AD. Madbouly Library, Cairo.

–Adel Shakib Mohsen, History of the Development of the Syrian Economy, Al-Hewar Al-Mutamadin, 10–23–2014, Section 4.

–Othman, Hashem (2012). Modern History of Syria (1st ed.). Riad Al-Rayyes Book and Publishing, Beirut

–Alawa Hanan 2022 Military Coups in Syria and Iraq 1948–1970 Master's Thesis Supervised by Dr. Masoud Karbou. University of Mohamed Khaider, Algeria

–Ghanem, Nila (2009). Political Conditions in Syria 1958–1973 Doctoral Thesis Supervised by Dr. Mahmoud Amer University of Damascus.

–Van Dam, Nicolas (1995). The Struggle for Power in Syria (1st ed.) Madbouly Library, Cairo

–Fouad Abdel Aziz, Syrian Economists between 1963 and 1970, the Major Transformations Phase, Al-Iqtisad Magazine, April 21, 2018.

–Qassam, Yahya (2007) The Modern Syrian Encyclopedia, Part Four,

Author.

-Al-Qawzi, Muhammad (1999). Studies in Contemporary Arab History. Dar Al-Nahda Al-Arabiya. Beirut

-Mansour, Fares (1999) The Banking Sector in Syria and Lebanon, History and Dimensions, May 1999, Section 18.

-Hisham Al-Bassat, Modernization and Development of the Banking Sector in Syria, Research Paper for the Arab Monetary Fund, June 4, 2001.

مظاهر النهضة العلميّة في مصر في العصر الفاطميّ بين عامي 969 – 1172م

**Manifestations of The he Scientific Renaissance in Egypt in
The Fatimids (358–567 AH / 969–1172 AD)**

فرج صالح الحمدو الهلال

Faraj Saleh Al-Hamdo Al-Helal

أ.د. داوود قندولي مشرفاً رئيساً أ.د. محمد علي القوزي مشرفاً مشاركاً

تاريخ القبول 2024 /12/23

تاريخ الاستلام 2024 /12/1

الملخص

أعطى الفاطميّون اهتماماً كبيراً للعلوم النظرية وخاصةً ما يتعلق باللّغة العربيّة وكذلك العلوم العقليّة التّطبيقيّة وبما يتعلق بالطّب والهندسة والرّياضيّات والفلسفة والفلك والكيمياء والنبات. جاءت الأهمية من قبل الخلفاء الفاطميّين الذين مهّدوا لنواة الثّورة العلميّة في مصر الفاطميّة.

Abstract

The Fatimids paid great attention to theoretical sciences, especially those related to the Arabic language, as well as applied rational sciences, such as medicine, engineering, mathematics, philosophy, astronomy, chemistry, and botany, which the Fatimid caliphs gave great importance to, and which were the nucleus of the scientific revolution in Fatimid Egypt.

الإشكاليّة

تتمحور الإشكاليّة حول معرفة انتشار العلوم العقليّة والتّطبيقيّة في الدولة الفاطميّة في مصر. وهل كان هناك سبب طائفيّ أو ديني لهذه الثّورة العلميّة؟

الفرضيات

1_ ليس هناك من سبب معين لهذه الثورة العلمية في مصر.

2_ كان هناك دور كبير لبعض الخلفاء الفاطميين في النهضة العلمية.

منهج الدراسة: المنهج التاريخي الاستقرائي التحليلي.

تقسيم البحث: تم تقسيم البحث إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة.

المقدمة

ازدهرت حركة التأليف والتدوين والكتابة في أواخر القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي وما بعده، حيث حفل العالم العربي الإسلامي بالعلماء والمؤلفين الذين يكتبون ويؤلفون وينقلون، كثرت الكتب والمصنفات وكان من أسباب ذلك ازدهار صناعة الورق في بغداد، وظهور فئة جديدة تعرف بطبقة الوراقين التي ينتمي إليها الكثير من العلماء أمثال الجاحظ (159 - 255 هـ / 776 - 868 م)، وابن النديم (ت 385 هـ / 995 م)، وياقوت الحموي (ت 626 هـ / 1228 م) وغيرهم. ولم تكن حوانيت الوراقة وأسواقها مجرد دُور للنسخ وإنما كانت أماكن تجمع العلماء والأدباء والمتقنين ومراكز حقيقية للنشاط الفكري في شتى فروع المعرفة. وتبعاً لذلك اتسعت الحياة العلمية وازداد الإقبال على الكتب واقتناها وتكوين المكتبات. وقد شرع أولو الأمر في تكوين المكتبات كمكتبة بيت الحكمة التي أنشأها هارون الرشيد (170 هـ / 786 م) وغيرها.

وكان لمصر دور عظيم في نشأة الحضارة الإنسانية وتقدّم العلم وقد ظلت ترعاه وقتاً طويلاً، ففي أواسط القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي أصبح لعلمائها حظ واضح من المساهمة في الدراسات الدينية ونشرها في العالم العربي وكتبت تاريخ الفتوح لأفريقيا والأندلس، وكتبت السيرة النبوية الشريفة ويضع أحد أبنائها وهو ذو النون (179 - 245 هـ / 798 - 859 م) أسس التصوف الإسلامي وتزداد حركتها العلمية نشاطاً في عصر الفاطميين، لم تكن الدولة الفاطمية بعيدة عن التأثير الحضاري والفكري هذا، فبعد أن أسست دولة لها في مصر (567-358 هـ / 1172-969 م) ووطدت دعائم حكمها، بدأت نشاطها العلمي، ووجدت في مصر أرضاً خصبة وبيئة حاضنة متحضرة قادرة على التطور واستقبال كل ما هو جديد. فبدأ جوهر الصقلي بتأسيس المدينة العظيمة

وهي القاهرة التي أنجبت كبار العلماء والمؤرخين لترفع لواء الفكر والحضارة، ثم أقام جوهر الجامع الأزهر ليغدو من أشهر الجامعات في العالم ومنازة لآلاف الدارسين من مختلف العالم العربي الإسلامي.

وأخذ الخلفاء الفاطميون ابتداءً من الخليفة المعز لدين الله برسم الخطوط الأولى لحركة العلم والفكر والتأليف وانطلقت أقلام المؤرخين تكتب وتصنف في مختلف أنواع العلوم والمعارف، واتجه آلاف من أرباب العلم والفكر إلى القاهرة، يساهمون في إرساء قواعد الحضارة والعلم.

المبحث الاول

1 - علوم اللغة العربية: وجه الفاطميون اهتماماً ملحوظاً وعناية خاصة بعلوم اللغة العربية فقد كان الخليفة العزيز بالله يجمع علماء اللغة والأدب للمناظرة بين يديه، وقد شجع علماء مصر على الإكثار من التأليف وإنتاج الكتب في مختلف العلوم والفنون (عارف تامر، ج5، ص62).

أ- علوم اللغة والنحو: ازدهرت في مصر دراسات عربية في علوم اللغة والنحو ورواية الأدب القديم وشرحه ونقده، وكانت هذه العلوم تسير جنباً إلى جنب مع غيرها من الدراسات التي أقبل عليها العلماء والمتعلمون في مصر، ولم تكن هذه الدراسات جديدة على مصر، فقد نشطت بوقت مبكر نتيجة العناية بضبط القرآن الكريم وقراءاته (ضيف شوقي): 1968م، ص327). ومن الواضح أن الدولة الفاطمية أولت العناية باللغة العربية حيث اهتمت بدواوين الإنشاء، إذ كانت تعتمد على تعيين المراقب عليها وموافقة على ما فيها. ويروى أن المشتغلين بالنحو في مصر والشام في هذا العصر كانوا قليلي العدد (الطنطاوي (احمد): ص213-212).

ومن أشهر العلماء الذين ظهوروا في هذا العصر:

-أبو عبدالله محمد بن جعفر التميمي المعروف بالقزاز النحوي: كان في خدمة العزيز بالله الفاطمي، ويقال إن العزيز تقدم إليه بطلب تأليف كتاب يجمع فيه سائر الحروف التي أشار إليها النحويون في قولهم (إن الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى)، وأن يقصد في تأليفه إلى ذكر الحرف الذي جاء لمعنى، وأن يجري ما ألفه

في ذلك على حروف المعجم، وهو لون جديد لم يسبق إليه أحد من النحاة، فقام القزاز بجمع مواد هذا الكتاب سماه «الجامع في اللغة» (المقريزي (احمد بن علي): 1987م، ص418)، فبلغ جلّ ما جمعه ألف ورقة، وذكر ذلك كله الأمير المختار المعروف بالمسبحي.

-علي بن أحمد المهلبّي: كان إماماً في النّحو واللّغة، ورواية الأخبار وتفسير الشّعر، وكان من جلساء المُعزّ والعزّيز المقرب إليهما (السيوطي، ج2، ص147)، وكان قبل ذلك مُقرباً من كافور الإخشيدي (335 - 358هـ / 946 - 968م)، وممن عاصر المتنبّي (303 - 354هـ / 915 - 965م) في مصر، وكانت بينه وبين المتنبّي بعض المناورات العلميّة، وله كتاب في الرد على كتاب المقصود والممدود لابن ولاد المصريّ، وقيل إنّ المهلبّي أخذ مادة هذا الكتاب عن المتنبّي ونسبها إلى نفسه، ومن أشهر تلاميذه: أبو يعقوب يوسف النجيري، وابنه بهزاد، وعبدالرحمن بن اسماعيل العروضي نزيل مصر وغيرهم (الحموي (ياقوت): 1993م، ج4، ص1645).

-أبو الحسن ظاهر بن أحمد بن بابشاذ: الذي عُدّ إمام عصره في النّحو، ومن أبرز العلماء المصريّين الذين خدموا اللّغة والنّحو حتى كوّنوا تراثاً علمياً ونحوياً جليلاً (ابن بابشاذ: 1978م، ج1، ص17).

-علي بن جعفر بن علي السعدي: المعروف بابن القطاع الصقلي، لم يكن مصرياً ولكنّه من صقلية، شبّ فيها، وتتلّمذ على يد علمائها، ثم رحل إلى مصر لمّا دخل الفرنج إلى صقلية، واتخذ مصر وطناً له، ولقيه المصريّون بالحفاوة، وبالغوا في إكرامه، وخصّه الوزير الأفضل بن بدر الجمالي بالرعاية وجعله مؤدباً لولده في علوم اللّغة العربيّة وفنون الأدب.

-أبو الحسن علي بن ابراهيم الحوفي: كان عالماً بالعربيّة وتفسير القرآن الكريم، وله تفسير جيد، أخذ عنه الكثير من العلماء وانتفعوا به وأصله من بلبيس (بلبيس: ج1، ص153 - 154).

ب-الشّعر والشّعراء: يعدّ الشّعر في العصر الفاطميّ في مصر أول شعر مصري قيّم في عهد فتح العرب لمصر، إذ كان قبل ذلك ليس له من قيمة إلا للوافدين على مصر

من الخارج، أما شعر المصريّين أنفسهم فكان محاولات أولية، حتى إذا جاء الفاطميّون جاء الشّعْر وجاد، ويرجع ذلك إلى عدّة أمور:

الأول: انشغال المسلمين بالفتوحات في مصر وغيرها، فلما استقرت الأمور وبدأ الشّعْر ينهض، تولى الحكم أتراك مثل الطولونيين والاخشيدين، وليس لهم من الذوق العربي الراقي ما يستسيغون به الشّعْر، والشّعْر العربي بطبيعة موضوعاته التي كانت من مديح ونحوه لم يكن يزهر إلا على باب قصور الخلفاء والأمراء فإن تذوقه وشجعه لما ازدهر، ولا ضعف وانحدر، فلما جاء الفاطميّون - وهم عرب لهم الذوق العربي والثقافة العربيّة، وخاصة في أول عهدهم، إذ كان فيهم أيضا الذوق البدويّ - نما الشّعْر على بابهم، ولما جاءوا مصر جاءوا بذوقهم وشعرائهم.

أما الثّاني: الدولة الفاطميّة كان أساسها الدّعوة والدّسّعاية بأوسع ما تدل عليه هذه الكلمة، فرأت أن الشّعراء هم من أصلح الدعاة لمذهبهم، فاحتضن الخلفاء الفاطميّون ووزرائهم وأمراؤهم الشّعراء يزودونهم بالمال الكثير، والعطاء الوفير، ليطلقوا أسنتهم بالقول في مدحهم ومدح مذهبهم (امين، ج1، ص214-213).

ج- الأدب والأدباء: الأدب الفاطميّ مثل بشتى صوره النّثريّة والشّعريّة صورة للحياة السياسيّة والاجتماعيّة والفكرية والفنية، فهو يعطي صورة واضحة للأحداث: في السياسة والملك والحرب والسلم والصراع على السلطة والخلافة، والعادات والتقاليد، نمط المعيشة، الطبقات الاجتماعيّة، والتيارات والمذاهب الدينيّة. ولهذا فقد تتوّعت أساليب الأدب وأشكاله. وتتوّعت بينات الأدب في بلاد الدّولة الفاطميّة من المغرب إلى المشرق، وكانت أهم بيئاته وأكثرها عطاء ونشاطاً القاهرة، والقيروان وإفريقيّة والشّام وبخاصة في عواصمها دمشق وحلب، والجزيرة والموصل، والحجاز، واليمن. وكانت حاضرة الدولة في المغرب القيروان وما يتصل بها من المدن التي انشأها الفاطميّون كالمهديّة والمنصورية مركز النشاط الأدبي والفكري في الدولة، ثم انتقل هذا المركز إلى القاهرة بعد تأسيسها وانتقال الخلافة إليها. وظلت القيروان مركزا ثقافيا مهما تتبادل مع القاهرة مختلف جوانب النشاط الفكري (سلام، ج1، ص232).

2 - العلوم الدينية

أ- علوم القرآن الكريم: من المعروف أن العلوم العربية والإسلامية إنما نشأت بسبب القرآن الكريم، وما يدور حول دراسة القرآن من ضبط حروفه، وتفسير غريبه، ومعرفة أسرار إعجازه وتفهم معانيه، فعلم النحو وعلوم اللغة لم تنشأ إلا بسبب القرآن الكريم، وهذه العلوم التي كانت تدور حول دراسة القرآن كانت موضع اهتمام المسلمين في جميع أنحاء العالم الإسلامي ومنها مصر، فقد عرفت مصر هذه العلوم منذ دخلها المسلمون، واستمرت هذه الدراسات تنمو وتزدهر حتى جاء الفاطميون فأولوا هذه الدراسات عنايتهم ورعايتهم (حسين، ص 125). ومع أن القرآن الكريم مصدر الإسلام الأول لا يشير بصورة مباشرة أو غير مباشرة للإمامة الفاطمية، فإن العقيدة الفاطمية لجأت إلى تفسير القرآن الكريم، أول بمعنى آخر إلى المعنى الباطني (التأويل فإن الفقه المؤيد في الدين الشيرازي يرى أنه يجب أن يرجع التأويل في القرآن، ويضيف إلى ذلك أن سلالة علي كرم الله وجهه، خلفاء الرسول الكريم يملكون وحدهم هذا التأويل، فقد قال الرسول الكريم: (صاحب التنزيل وعلي صاحب التأويل)، فكان القرآن الكريم إذا بالنسبة للدعوة معيناً لا ينضب فكل كلمة لها معنى واضح، ولها أيضاً معنى باطن، ودلالة مقصودة. و المعنى الباطن ظهر عند فرق أخرى، مثل فرقة اخوان الصفاء، فإن الفاطميين أعطوه مظهرًا فلسفيًا، وكيفوه وفق أغراضهم السياسية. فعند الشيعة كان تفسير المعنى الباطن للنصوص القرآنية أشبه بمعجزة الإمام، فينسب الشيعة إلى الأئمة القدرة على إظهار المعنى الصحيح، فكان الأئمة دون سائر الناس لهم سلطة تفسير النصوص القرآنية بسبب معارفهم الخاصة التي يتوارثونها في كتب أجدادهم، فالإمامة ضرورية لمعرفة مبادئ الدين الصحيحة (ماجد، ج 1، ص 179).

وروي أنه في كل الحفلات التي كان يقيمها الفاطميون كان القراء في مقدمة الحاضرين يقرأون بين يدي الإمام، وكان كل قارئ يحاول أن ينال القربى من الإمام ليفوز بأكبر قسط من العطاء، وكذلك تختتم الحفلات بقراءة ما تيسر من القرآن الكريم، فكان هناك قراء الحضرة الإمامية، وهم أشبه بالموظفين الرسميين في الدولة، ولهم رواتب شهرية إضافة للهبات والهدايا، وكان عدد العلماء الذين اهتموا بهذه الدراسات كبيرًا جدًا، كما كثرت كتبهم التي وضعوها في علوم القرآن الكريم (حسين، ص 125). ظل القرآن الكريم

منبع كثير من العلوم التي اشتغل بها المسلمون في هذا العصر فاستعان به علماء النُّحو على استنباط قواعد اللُّغة العربيّة كما اعتمد الفقهاء في أحكامهم الفقهيّة على القرآن وألّفوا كتبًا كثيرة اسموها «أحكام القرآن» واستعانت الفرق الإسلاميّة بكتاب الله عز وجل واتخذوه أساسًا للتدليل على صحة ما ذهبوا إليه.

أما علم القراءات، فهو يبحث في صور نظم كلام الله تعالى من حيث وجوه الاختلافات المتواترة، وهو يعتمد على العلوم العربيّة التي تعين على تحصيل هذه الكلمة، وفائدة ذلك صون كلام الله تعالى من التغيير والتحريف، وقد يبحث أيضًا في الاختلافات غير المتواترة فما وصل إلى حد الشهرة (عطاءالله، ص294).

نذكر من أهم علماء العصر الفاطميّ:

-**أبو الحسن علي بن ابراهيم بن يعد الحوفي:** كان عالمًا بالعربيّة وتفسير القرآن الكريم، وتصدر لدراسة اللُّغة العربيّة وإعراب القرآن وتفسيره، وله تفسير اسمه «البرهان في تفسير القرآن» في ثلاثين مجلدًا، وله في إعراب القرآن كتاب «علوم القرآن» في عشرة مجلدات، وصنّف في النُّحو كتاب «الموضح في النُّحو»، وهو أستاذ اسماعيل بن خلف الصقلي المقرئ صاحب كتاب «إعراب القراءات» توفاه الله سنة (430هـ/ 1038م) (ابن خلكان، ج3، ص300).

-**طاهر بن غلبون:** هو طاهر بن الإمام أبي الطيب عبدالمنعم بن عبدالله بن غلبون أبو الحسن الحلبي، ثم المصريّ المقرئ، أخذ القراءات عن والده، وبرع في الفن، يعدّ من كبار المقرئين في عصره بالديار المصريّة، توفى سنة (399هـ/ 1008م) (الذهبي، 1995، ج2، ص698)، أهم مؤلفاته كتاب «التذكرة في القراءات الثمان» (ابن غلبون، ج1، ص1).

-**عبدالجبار بن أحمد الطرسوسي:** كان شيخ القراء بمصر في زمانه، وله كتاب «المجتبى في القراءات»، توفى سنة (420هـ/ 1029م) (الذهبي، 1997م، ج2، ص582).

-**عبدالعزیز بن علي بن محمد بن اسحاق:** أبو عدي المصريّ، المعروف بابن الإمام، مسند القراء في زمانه قرأ على أبي بكر بن عبدالله بن مالك، وقرأ عليه عدد

من العلماء.

ب-رواية الحديث: لما عمل المسلمون في تفهم معاني القرآن الكريم وتفسيره كان في جملة ما افتقروا إليه في تفهمها أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وهو ما عبروا عنه بالأحاديث النبوية، وأقدم من سمعها الصحابة وحفظوها، فقد استعانوا بالأحاديث النبوية في تفسير ما يصعب عليهم من آيات. فلما كانت الفتوح تفرق الصحابة في الأرض، وعند كل منهم بعض الأحاديث، وقد يتفرد بعضهم بأحاديث لم يسمعها سواه، فأصبح طالب الحديث، إذا كان من أهل دمشق مثلاً لا يستوفيه إلا إذا رحل في طلبه إلى مكة والمدينة والبصرة والكوفة والري ومصر وغيرها وهكذا، وهذا ما يعبرون عنه بالرحلة لطلب العلم، على أن الارتحال في طلب العلم لم يكن حديث العهد في الإسلام، ولكنه كان شائعاً من قديم الزمان بالنظر إلى قلة أسباب النشر وقلة نسخ الكتب وصعوبة وصولها إلى النواحي في تلك العصور، ثم حرص الناس على السماع من الشيوخ مباشرة.

ج- الفقه: نشطت الحركة الدينيّة في العصر الفاطميّ في مصر والشام نشاطاً كبيراً، أراد الفاطميّون نشر المذهب الشيعي بين المصريّين والشاميّين الذين تمسكوا بمذهب أهل السنة، وحرص المصريّون على البقاء على سُنّيتهم، وقد كتب لهم القائد جوهر بأمر من المعز لدين الله كتاباً يتضمن التزام حرية العقيدة، فلا يجبرون على التشيع ولكن لما دخل الجيش الفاطميّ مصر وانتقل المعز إلى القاهرة لم يعمل بهذا العهد، وسعى الفاطميّون إلى تشييع المصريّين (أمين، ج1، ص201-200)، واتبعت الخلافة الفاطميّة لذلك عدة وسائل منها:

- اسناد المناصب العليا وخاصة القضاء إلى الشيعة.

- اتخاذ المساجد الكبيرة مراكز للدعاية الفاطميّة وهي وقتذاك مسجد عمرو بن العاص، ومسجد أحمد بن طولون، والجامع الأزهر (سرور، ص76).

- اهتمامهم بتعيين أحد كبار المتفقيين في مذهب الشيعة للقيام بنشر دعوتهم، وكان يعرف بداعي الدعاة، وكانت منزلة هذا الداعي الكبير تلي قاضي القضاة ويعاونه اثنا عشر نقيباً ونواب في سائر البلاد، واشترطوا فيه أن يكون عالمًا بمذهب آل البيت

وكثيرًا ما تقلد رجل واحد منصب قاضي القضاة والدعوة (المقريري، ج1، ص391).

— أظهر الفاطميون شعائر مخالفة لشعائر أهل السنة، كالأذان بحي على خير العمل والاحتفال باليوم العاشر من المحرم وهو اليوم الذي استشهد فيه الحسين عليه السلام بكربلاء، وعيد الغدير المعروف «بغدير خم» (المقريري، ج2، ص341)، كما أبطل في عهد العزيز سنة (372هـ/ 983م) صلاة التراويح في مساجد مصر (امين، ج1، ص202). ولكن هذه السياسة لم تكن ثابتة بل كانت متغيرة، فعلى الرغم من أن الخلافة الفاطمية حرصت على نشر مذهبها الشيعي بين أهالي البلاد التي ضمت إلى حوزتها سعيًا وراء توطيد سلطتها، فإنها في الوقت نفسه منحت لأهل السنة نوعًا من الحرية، فظل مذهب أهل السنة محتفظًا بقوته رغم تحول بعض المصريين إلى المذهب الفاطمي، ويرجع السبب في ذلك إلى أن الفاطميين حين دخلوا مصر واستقروا بها، تركوا لأهل السنة حرية الاعتقاد، وتركوا لهم الفسطاط، واتخذوا لهم حاضرة جديدة ومسجدًا خاصًا بهم، وأجازوا لأهل السنة إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم، فصارت تعاليم مذاهب الإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل تدرس في دولتهم، بل صاروا يراعون مذهب الإمام مالك ومن سألهم الحكم به أجابوا، أما مذهب الإمام أبي حنيفة، فلم يلق تأييدًا من الفاطميين لأنه مذهب العباسيين. وظهر علماء مذاهب أهل السنة يلقون دروسهم على جمهور المستمعين بجامع عمرو بن العاص (سرور، ص80-79) ومن هؤلاء:

ج. أ- فقهاء الشافعية:

— القاضي أبو الفضل محمد بن أحمد بن عيسى البغدادي: تفقه على يد الشيخ أبي حامد، وسمع من جماعة كثيرة، وسكن مصر، مات بها سنة (441هـ/ 1049م) (السيوطي، ج1، ص403).

— أبو القاسم نصر بن بشر بن علي العراقي: كان فقيهًا محققًا مناظرًا مبررًا، سمع وحدث ومات سنة (447هـ/ 1084م).

— أبو محمد عبدالله بن رفاعة بن غدير السعدي المصري: قاضي الجيزة، كان فقيهًا ماهرًا في الفرائض والمقدرات، صالحًا دينًا، تفقه على القاضي الخلعي، ولازمه.

ج. ب- فقهاء الشيعة:

- المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي: هو هبة الله بن أبي عمران موسى بن داود الشيرازي، ولد بشيراز في العشر الأخير من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، في أسرة اتخذت العقيدة الفاطمية مذهباً لها، وكان أبوه حجة جزيرة فارس أيام الحاكم بأمر الله، فنشأ ابنه في الدعوة، واحتل مكان والده بعد وفاته، وكاتب الحاكم، وأقره على أن يكون حجة فارس، واستطاع أن يجمع قلوب أتباع الدعوة هناك، واضطر إلى مغادرتها، فخرج متكرراً إلى الهواز سنة (436هـ / 1044م) رمم مسجداً في الأهواز وجعله للشيعة الاسماعيلية ورفع أذان حي على خير العمل وخطب باسم الخليفة المستنصر الفاطمي وجهر بالدعوة الفاطمية وتوجه بعدها إلى مصر، فخدم المستنصر الفاطمي، في ديوان الإنشاء، وصار إليه أمر الدعوة الفاطمية سنة (450هـ / 1058م) ولقب بداعي الدعاة، ثم نَحى وأبعد إلى الشام. وعاد إلى مصر فتوفي فيها (الزركلي، ج8، ص75). وتولى المؤيد في مصر رتبة داعي الدعاة إلا أنه لم يستقر في هذا المنصب طويلاً بل عُزل عنه وأعيد إليه وتولى الإنشاء إلى غير ذلك حتى انتهى عمره وتوفي سنة (470هـ / 1077م). ودفن بدار العلم بجوار القصر. ولم تكن مكانة المؤيد العلمية بأقل من مكانته السياسية والدينية، فقد كان من أكبر علماء مصر في الفقه الفاطمي، إلى جانب سعة علمه وثقافته في شتى العلوم، مع تضلعه في علوم اللغة والأدب (سلام، ج1، ص179). وقد اتصل المؤيد ببعض كبار علماء عصره وأدبائه، وكانت بينه وبينهم محاورات، وحدثت بينه وبين أبي العلاء المعري محاوراة اعترف فيها بفضلها حين وصفه بقوله: «سيدنا الرئيس الأرجل المؤيد في الدين ما زالت حجته باهرة، ودولته عالية..، ولو ناظر ارسطاليس لجاز أن يفحمه، أو أفلاطون لنبذ حججه خلفه».

ونقل ياقوت الحموي أن داعي الدعاة المؤيد لما سمع قول أبي العلاء:

غدوت مريض العقل والرأي فالقني لتخبر أنباء العقول الصحائح

فبعث إليه المؤيد قائلاً: «أنا ذلك المريض رأياً وعقلاً، وقد أتيتك مستشفياً فاشفني» وجرت بينهما مكاتبات كثيرة (الحموي، ج1، ص347). ومن أهم مؤلفاته: «المجالس المؤيدية»، و«ديوان المؤيد في الدين»، و«السيرة المؤيدية» (الزركلي، ج8، ص76).

كما يعدّ المؤيد أستاذ الدّعوة في اليمن والهند، فعنه أخذ القاضي ابن مالك علوم الدعوة وعاد إلى اليمن يلقي على المستجيبين ما تلقاه عن المؤيد، كما يعد أستاذ ناصر خسرو الشّاعر الفارسيّ المعروف، فقد ذكره ناصر في أشعار ووصف مجالسه (عطاالله، ص364).

المبحث الثاني

العلوم العقلية التطبيقية: شملت العلوم العقلية مختلف العلوم التطبيقية من الطب، والهندسة، والفلسفة، والفلك والفيزياء والكيمياء، ودرس المسلمون هذه العلوم وأدخلوا عليها ما توصلت إليه نتائج بحوثهم ودراساتهم، واطلعوا على مؤلفات من سبقهم من العلماء، ثم أخذوا يؤلفون الكتب بأنفسهم، ويندر أن يشتغل الواحد منهم في الفلسفة دون الطب والنجوم، أو في الطب دون الفلسفة والنجوم، أو بالعكس، قال حنين بن اسحاق (حنين، ص409) في ذلك: ((إن الطبيب يجب أن يكون فيلسوفاً)) لكنهم كانوا يلقون العالم بما غلب اشتغاله فيه (زيدان، ج3، ص194). كان جوّ الفكر في القرن الرابع الهجريّ / العاشر الميلادي وما بعده من القرون مهياً للعلوم العقلية والفلسفية لما بثّه كبار الفلاسفة المسلمين في المشرق والمغرب من أفكار فلسفية، وما نقلوه عن كبار الفلاسفة اليونان، وقد شهد هذا العصر الفارابي وابن سينا وابن رشد (سلام، ج1، ص200).

عاش الفارابي في ظل الدولة الحمدانية بحلب غير بعيد من عصر الفاطميين، من أكبر الفلاسفة المسلمين كان فيلسوفاً كاملاً تعمق في الفلسفة والتحليل كما برع في الموسيقى حتى أصبح لا يضاهيه فيها أحد، واخترع آلة القانون، وأصلح ما بقي من الترجمات، فسموه المعلم الثاني، توفي سنة (339هـ / 940م) (اليافعي، 1997، ج2، ص246)، كما عاش ابن سينا في عصر الدولة الفاطمية وتوفي سنة (428هـ / 1036م) بعد حياة حافلة في ظل السامانيين. والبويهيين في بلاد فارس، وقد ترك تراثاً ضخماً أهم ما فيه جمعه بين الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية (سلام، ج1، ص200). يذكر ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ: «ففي سنة (428هـ / 1036م) مات أبو علي ابن سينا الحكيم الفيلسوف وهو صاحب التصانيف السائرة على مذهب الفلاسفة. وكان موته بأصبهان، وكان يخدم علاء الدولة أبا جعفر بن كاكويه» (ابن الأثير، ج8، ص225). وقد اعترف ابن سينا بمنهجه في الحياة، فأكد على التزامه بحدود الدين فقد كان يتردد على الجامع

ويصلي، وربما كان في حياته بعض التساهل أو التحرر الذي غلب على كثير من الناس ممن أقبلوا على الحياة ولم يرفضوها، ورأوا أن الله زين للإنسان الدنيا ليتمتع بها ما دام لا يهمل أداء فروض دينه، وقد كان الفاطميون كذلك لا يرون بأساً من الاستمتاع بملاذ الحياة مادام الإنسان مؤمناً بالله موحدًا مؤدياً لفروض دينه وواجباته، مقبلاً على ما أحلّ له ممتنعاً عما حرم عليه (سلام، ج1، ص200). أهم مؤلفاته: «كتاب الشفاء»، وكتاب «النجاة»، و«كتاب الاشارات»، و«كتاب القانون» (اليافعي، ج3، ص39).

أما ابن رشد ولد وعاش في قرطبة سنة (520هـ/ 1126م) درس الفقه والرياضة والطب، وضع كتباً في مختلف فروع العلم ومنها: كتاب «الكليات في الطب»، و«تهافت التهافت»، وكتاب «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال». وقد قامت فلسفته على قاعدة التوفيق بين الفلسفة والدين وعدم التعارض بينهما (اليافعي، ج3، ص363).

والفلسفة والعلوم العقلية كلها متصل بعضها ببعض، فقد بنى الفاطميون دار الحكمة واهتموا بتدريس الفلسفة والعلوم العقلية والطب والرياضيات والعلوم الطبيعية والكيمياء والفلك.

1- الفلسفة: قرأ المسلمون الفلسفة في كتب أفلاطون وأرسطو، وما علقه عليها اليونان من الشروح وأضافوا إليها من الآراء، وهي تشمل المنطق والطبيعات والالهيات والأخلاق. فبدأ المسلمون أولاً بدراسة هذه الكتب، ثم أخذوا في شرحها أو تلخيصها، وتأليف الكتب الخاصة بهم (زيدان، ج3، ص194)، فالفلسفة الإسلامية متميزة عن سواها من فلسفات الأمم الأخرى، وذلك لأنها نابعة من الإسلام بغض النظر عن كونها تأثرت بفلسفة الإغريق، في الوقت الذي استعارت فيه الفلسفة الإغريقية عناصرها الأساسية من الشرق العربي ووطورت فيها. ولقد عالجت الفلسفة الإسلامية عدداً كبيراً من المواضيع اختلفت بين عصر وآخر (زكار، ص279)، فكل عصر أضاف عليها فلسفته الخاصة، فالفاطميون صنعوا لأنفسهم فلسفة خاصة بهم ومنهجاً جديداً طبقوا فيه عقيدتهم وأفكارهم وعلوم دعوتهم. ومما شجع على اشتغال الفاطميين بالفلسفة ما كان لهم من رأي في أن للدين ظاهراً وباطناً، ومعنى صريحاً ومعنى مؤولاً. قال المقرئ في ذلك: ((كان الفاطميون يتدرجون في دعوتهم، فإذا تمكن المدعو

من التّعاليم الأولى أحواله على ما تقرّر في كتب الفلاسفة من علم الطّبيعيّات وما بعد الطّبيعة والعلم الالهي وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية)) (المقريزي، ج1، ص395). تقوم فلسفة الفاطميّين على مجموعة من الأسس والمبادئ يذكرها المؤيد في الدّين داعي الدّعاة وأهمّها:

1-توحيد الله وتنزيهه ونفي الإشرّك فيه.

2- الاعتراف بالأنبياء والرّسل وانهم معصومون من كلّ خطأ وأن محمداً خاتم النّبيين.

3- القول بوصاية علي بن ابي طالب كرّم الله وجهه وولاية الأئمة من ذريته وعصمتهم جميعاً.

4- التّصديق بما جاء بالقرآن الكريم والعمل به ظاهراً وباطناً.

5- إبطال الرّأي والقياس في كل أمور الدّين ووجوب الأخذ عن الأئمة (عطاالله، ص327).

ومن الواضح أن الدولة الفاطميّة قامت على أسس الدعوة الشيعية (عنان، ص252)، وهدف من الاهتمام بالفلسفة هو نشر عقيدتها الدّينيّة، وقد تأثرت الدعوة بالفلسفة اليونانية، وأدخلت بعض عناصرها في عقيدتهم وآرائهم او عملت على نقدها والرّد عليها (حسين، ص95). وقد اهتمّ الفاطميّون بكل عالم عرف باشتغاله بفرع من فروع الفلسفة، فقد قيل إن العزيز بالله كاتب جبرائيل بن جبرائيل بن بختيشوع واستدعاه إلى مصر فاعتذر (القفطي، ص118)، وأرسل الحاكم بأمر الله إلى ابن الهيثم يستدعيه فأجاب وكتب الوزير الفلاحي (الوزير الفلاحي، ص75) إلى والي حلب بحمل أبي العلاء المعري إلى مصر ليبيّن دار علم يكون متقدّماً فيها وسمح بخراج معرة النّعمان له في حياته وبعده، لكنه رفض (عطاالله، ص330). ولعل سبب دعوتهم إلى التّفلسف أنهم كانوا يؤولون الديانات والشرائع تأويلاً يؤدي إلى تبديلها فاحتاجوا إلى اللّسان والجدل المزود بالفلسفة حتى يحسن ذلك (ضيف (شوقي)، ص960، ص355). ومن خلال الاطلاع على الحياة العقليّة في العالم الإسلاميّ في القرن الرابع الهجريّ/ العاشر الميلادي وما بعده يلاحظ أن أكثر العلماء كانوا متأثرين بهذه الآراء التي بنّوها دعاة الفاطميّين.

2- الطب: اهتم الفاطميون بالطب وأغدقوا على الأطباء الأموال والهدايا والمنح، وقلدوهم المناصب العالية وأصبحت لهم منزلة رفيعة بين رجال البلاط وقد ساعد ذلك على تقدم الطب الذي أصبح يدرس نظرياً وعملياً في الممارسات التي كانت أشبه بكليات الطب تخرج فيها جماعة من أطباء الأمراض الباطنية والجراحين، ومن مستلزمات الطبيب أن يكون ملماً بعلوم الفلسفة واللغات الأجنبية وخاصة السريانية واليونانية بجانب إلمامه بالطب (عطاءالله، ص209). ظهر في مصر في هذا العصر عدد كبير من الأطباء، وكان الطب في ذلك العصر من علوم الفلسفة وكثرت في مصر الفاطمية مناظرات الأطباء ومجادلاتهم فكان ذلك من أسباب ازدهار هذا النوع من العلم واتساع أفاقه وكثرة التأليف حوله، وقرب الفاطميون الأطباء، وأغدقوا عليهم من نعمهم وعطاياهم إضافة لما أوقفوا لهم من مرتبات شهرية (حسين، ص113-112). ومن أهم أطباء العصر الفاطمي في مصر:

أ- الطبيب منصور بن مقشر: هو أبو الفتح النصراني، كان ابن مقشر من الأطباء المتقدمين في مصر، وكانت له مكانة مهمة عند الخلفاء الفاطميين ولا سيما في أيام العزيز، ففي سنة (385هـ / 995م) مرض منصور بن مقشر، وتأخر الخليفة عن زيارته لمرض أصابه، فلما تماثل ابن مقشر للشفاء كتب إليه العزيز بخطه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«طبيبنا سلمه الله سلم الله الطيب وأتم النعمة عليه، وصلت إلينا البشارة بما وهبنا الله من عافية الطيب وبرئه والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقنا نحن من الصحة في جسمنا فتمم الله عليك النعمة وكمل لنا صحتك وعجل بها ولا اشميت بنافيك عدوا ولا حايذاً ورد كيد من يريد الكيد في نحره وابتلاه بما لا طاقة له بعد الكفاية فيك وإقالتك العثرة ورجوعك إلى أفضل ما عودل من صحة الجسم وطيبة النفس وخفض العيش بحوله وقوته والسلام عليك وصلى الله على خيرته من حلقة محمد النبي وآله وسلم تسليماً» (القفطي، ص250-249). فهذا دليل على مكانة ابن مقشر الكبيرة لدى الخليفة الفاطمي، فالخليفة عرف قدرة طبيبه وبراعته في مجال تخصصه، فقربه واتخذهُ صديقاً (حسين، ص113).

ب- محمد بن أحمد بن سعيد التميمي: وفد على مصر في عهد المعز و العزيز الطَّبيب وهو من بيت المقدس، واشتهر بخواص العقاقير وتركيب الأدوية، ولقى الأطباء بمصر وحاضرهم وناظرهم، واختلط بأطباء الخاصة القادمين من المغرب في صحبة المعز، والمقيمين بمصر من أهلها، وصنف للوزير يعقوب بن كلس كتابًا كبيرًا في عدة مجلدات سماه ((مادة البقاء، بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء))، ثم اتصل بالأطباء الذين وفدوا على مصر مع الخليفة المعزّ لدين الله ولأبي عبدالله التَّميمي عدّة مؤلفات في الطبّ منها: كتاب مخلص النفوس، كتاب مادة البقاء، كتاب الفحص والأخبار، ومقالة في ماهية الرّمد وأنواعه وأسبابه وعلاجه. توفى التميمي بمصر في حدود سنة (370هـ / 980م) (ابن أبي أصيبعة، ج2، ص89-87).

ج- موسى بن العيزار يهودي: اشتهر في صناعة الطبّ وكان في خدمة المعزّ لدين الله (ابن أبي أصيبعة، ج2، ص86)، وكان عالمًا بصناعة العلاج وتركيب الأدوية وطبائع المفردات، ألّف شراب الاصول وذكر أنه ينفع الكلى والمثانة، وركب أدوية كثيرة، فقد ركب للخليفة المعزّ شراب التمر هندي واشترط فيه شروطًا كثيرة من النفع والصحة (القفطي، ص240)، ولموسى بن العيزار عدّة كتب منها: «كتاب المغزى في الطَّيِّخ ألفه المعز»، و«مقالة في السعال»، وكتاب «الاقرباذين». كان لموسى ابن يدعى اسحق المتطبب كان جليل القدر عمل في خدمة المعز أيضًا في حياة أبيه، وتوفى اسحق سنة (363هـ / 973م) واغتم المعز لموت اسحق لموضعه منه ولكفايته وجعل موضعه أخاه اسماعيل وابنه يعقوب بن اسحاق وكان ذلك في حياة أبيهم موسى، وتوفى قبل وفاة اسحق بيوم وكان له أخ مسلم اسمه عون الله بن موسى (ابن أبي أصيبعة، ج2، ص86).

د- الحقيير النافع: يهودي في زمن الحاكم، كان طبيبًا جراحًا حسن المعالجة، كان يرتزق بصناعة مداواة الجراح وهو في غاية الخمول واتفق أن تعرضت رجل الحاكم لعقر مزمن وكان ابن مقشر طبيب الحاكم وغيره من الأطباء له يتولون علاجه فلم يؤثر ذلك في العقر، فجاء اليهودي وأعطاه دواء شفاه في ثلاثة ايام فمنحه الحاكم ألف دينار وخلع عليه ولقبه بالحقيير النافع وجعله من أطبائه (ابن أبي أصيبعة، ج2، ص90-89).

3- الرياضيات والهندسة: من اهم العلوم التي برع فيها العرب المسلمين علم الرياضيات الذي شمل فروع الحساب والجبر والهندسة والمثلثات، حيث أصبح العرب المسلمين بعد فتحهم لأمصار جديدة مضطرين إلى استعمال الحساب في التجارة والمكاييل والقياسات، ومن هنا استعملوا في أبحاثهم وسجلاتهم الأرقام المعروفة اليوم بالأرقام العربية واخترعوا الصفر (مباركة (بورورو)، 2012م، ص49)، فقد نقل العرب المسلمون العلوم الرياضية عن الامم الأخرى وخاصة اليونان وأخذوا من الهندسة الاغريقية وعملوا على تطبيقها عملياً، كما تسربت علوم الهند إلى العرب عن طريق نقل كتاب الجداول الفلكية الهندية ((السندهند)) إلى اللغة العربية في عهد الخليفة المنصور (158-136هـ / 775-753م)، وبذلك تعرف العرب على أنظمة الهند في مجال الرياضيات واطلعوا على الأرقام الهندية ومنها كونوا الأرقام العربية. ويرجع الفضل إلى المسلمين في اختراع علم الجبر، الذي ارتبط باسم العالم الشهير الخوارزمي (ت 253هـ / 850م)، الذي يعد أول من طور فن الحساب، ويعد مثلاً رائداً في الرياضيات وفي الجبر بشكل خاص فهو أول من أطلق مصطلح الجبر (الحربي ، ص41-37)، وألف في هذا العالم كتابه «الجبر والمقابلة». كما أعد للخليفة المأمون (204-198هـ / 819-813م) مختصراً لبعض الجداول الفلكية الهندية المعروفة باسم السندهند التي ترجمها العرب سابقاً (وات مونتجومري)، 1983م، ص50-49). أما في الهندسة فقد ابتكر جابر بن حيان (ت 200هـ / 815م) قانوناً يمكن بواسطته حل المثلثات ذوات الزوايا القائمة وتعمقوا في أبحاث المخروطات، ووصل العرب المسلمون بعلم الرياضيات إلى مستويات عالية من النتائج العلمية التي سهّلت لهم حلّ المسائل الرياضية (مباركة، ص50).

ومن أشهر علماء الرياضيات في مصر في العصر الفاطمي:

أ- محمد بن الحسن بن الهيثم : من البصرة ثم انتقل إلى الديار المصرية وأقام بها إلى آخر حياته، أنقن الكثير من العلوم وبرع في العلوم الرياضية، لخص كثيراً من كتب جالينوس في الطب وكان خبيراً بأصول صناعة الطب وقوانينها وأمورها الكلية إلا أنه لم يباشر أعمالها ولكن لم تكن لديه خبرة بالمداداة (ابن ابي اصيبعة، ج2، ص90)، ويلقب ببطليموس الثاني، اهتم بالتطبيق العلمي لمعارفه الرياضية فقد

فكر بقدرته على تنظيم المياه الناتجة عن فيضان نهر النيل، ولمّا دعاه الحاكم بامر الله الفاطميّ لكي يقوم بهذه المهمة أدرك ابن الهيثم عدم مقدرته على ذلك (Corbin, p.214)، بعد فشل مشروعه عاد إلى القاهرة وهو في أشدّ حالات الخجل واعتذر إلى الحاكم فعينه في منصب إداري، وفكّر ابن الهيثم في حيلة يتخلّص بها دون إن يجلب على نفسه غضب الحاكم فتظاهر بالجنون وخبال العقل، فعزله الحاكم سنة (411هـ/1020م) وبعد وفاة الحاكم استوطن غرفة بالقرب من الجامع الأزهر وعاد إلى ما كان عليه من الانقطاع للعلم والبحث فيه وخلال تلك الفترة ظهر كتابه المشهور «المنظر» (الورد، ج1، ص66). برع ابن الهيثم في تحليل الضوء إلى اجزائه الصغيرة، واستخدم البرهان الرياضي والتجربة والانعطاف والانعكاس وفي إيضاح هذا المعنى، كما برع في تفسير عملية الإحراق ويعتبر أول من فسر ظاهرة (قوس القزح) وتفسير ظاهرتي الكسوف والخسوف، ومن أهم نظرياته: كيفية الإدراك، الأضواء الذاتية الصرفية، الفجر والشفق، الألوان والأجسام الكثيفة، نظريات انعكاس الضوء، الاعتبار في ضوء القمر.

4- النبات: نبغ في العصر الفاطميّ محمد بن أحمد بن سعيد التميمي في مجال النبات حيث كان طبيباً وعالماً بالنبات والأعشاب ولد في القدس وانتقل إلى مصر فسكنها وتوفى بها حوالي (390هـ/999م)، كما كان له علاقة بالنبات وماهياته والكلام فيه، وله خبرة في تركيب المعاجين والأدوية المفردة، وللتميمي من الكتب: «رسالة إلى ابنه علي بن محمد في صناعة الترياق» وانتبه على ما يخلط فيه من أدويته ونعت أشجاره الصحيحة وأوقات جمعها وكيفية عجنه، وذكر منافع، وتجربته، وكتاب آخر في الترياق وقد استوعب فيه تكميل أدويته وتحرير منافع، وكتاب «مختصر الترياق»، وكتاب «لفاحص و الاخبار» «بن ابي اصيبعة»، ج2، ص-87 (89)، وكتاب «مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء»، و«التحرز من ضرر الأوباء»، و«مقالة في ماهية الحمد وأنواعه وأسباب علاجه»، و«المرشد إلى جواهر الأغذية»، و«منافع القرآن» (الزركلي، ج5، ص313).

5- الكيمياء: نبغ في ميدان الكيمياء في العصر الفاطميّ المظفر نصر بن محمود بن المعروف، كان ذكياً فطناً كثير الاجتهاد، له نظر في صناعة الطب، قرأ على

تلاميذه كثيرًا من العلوم الحكيمة وغيرها، وكان مغرماً بصناعة الكيمياء والنظر فيها والاجتماع بأهلها، وكتب بخط يده العديد من كتب الكيمياء، وله من الكتب: «تعاليق في الكيمياء»، و«مختارات في الطب» (ابن أبي أصيبعة، ج2، ص108).

خاتمة البحث

يلاحظ من البحث أن أغلب المؤلفات التاريخية في العصر الفاطمي تهتم بمصر وتاريخها ومعالمها وفنونها وألوان الحياة ومختلف أوجه الحضارة فيها مع قلة الاعتناء بمؤلفات التاريخ العام، فهذا يؤكد توجه المدرسة الفاطمية نحو التخصص في الكتابة التاريخية ضمن حدود معينة، في الوقت نفسه ابدعت واستوفت ما قدمته من دراسات فكان لتلك الكتب والمؤلفات الأثر الكبير في مدرسة التاريخ المصرية كونها انتهجت التخصص في طرح مواضيعها وقدمت صوراً واضحة ومواضيع تاريخية دقيقة عن تاريخ مصر في القرن الرابع والخامس الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلاديين.

ومن النتائج التي توصل إليها البحث أن كتب مؤلفات مؤرخي العصر الفاطمي كانت مادية علمية غنية للكثير من المؤرخين اللاحقين فيما يخص تاريخ مصر في تلك الفترة وذلك بما قدمته من معلومات دقيقة فيما يتعلق بالحياة السياسية والحضارية وخاصة في وصف مصر وآثارها وخططها، إضافة لما قدموه من مواضيع في شتى مجالات الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، فالتنوع لم يقتصر على فنون الكتابة التاريخية فقد شملت كتباً تخص الفلك، والفلسفة، والحكم، والقضاء، والأديان، والعبادات، والتفسير، والحديث، فكان لهذا التنوع تأثير كبير في تنشيط الحياة الثقافية والفكرية في مصر وتطويرها. فكانت مؤلفاتهم أحد أهم المصادر ومادة علمية خصبة لمؤرخي العصور التي لحقتهم. ويلاحظ أيضاً أنه على الرغم من قيام الدولة الفاطمية على أساس ديني مذهبي، شجعت على نشر العلم والثقافة، وأنشأت المساجد، ودور العبادة، بهدف نشر العقيدة الاسماعيلية، وأظهرت نوعاً من التسامح الديني، ويؤكد ذلك ظهور عدد كبير من الفقهاء والعلماء من أهل السنة وأهل الذمة، وأتيح لهم تأليف وتصنيف الكتب، وظهر عدد كبير من أطباء أهل الذمة في بلاط قصور الخلفاء. وكان هدف الفاطميين من هذه السياسة هو جعل الدولة قوية، وإظهارها بمظهر القوي، وخاصة أمام منافستها الدولة العباسية، ورغبة من الخلفاء في تقريب المصريين إليهم بشكل خاص، والمسلمين بشكل عام. إن

النشاط العلمي في مصر الفاطمية لم يكن له مثيل في بلد آخر، فقد استطاعت أن تنافس غيرها من البلدان الإسلامية لا بل أن تسبقها، وتجلس على قمة العلم والحضارة، ولعل الفضل في ذلك يعود إلى الخلفاء الفاطميين الذين كانوا أوسع أفقاً من غيرهم في مجال الفكر، فقد أسسوا مذهبهم على أسس علمية فلسفية فاستطاع أن يحققوا النجاح المقرر لهم على ضوء المعرفة والمنطق والواقع. تبين من خلال البحث دور الوزراء في حركة التأليف التي شهدتها مصر في تلك الفترة فقد قوي نفوذهم في الوقت الذي ضعف فيه نفوذ الخلفاء الفاطميين فقد ألفوا الكتب ولم يخلوا على العلماء والمؤرخين وتشجيعهم بمختلف الطرق فازدهرت حركة التأليف وتنوعت فنون الكتابة التاريخية. يوضح البحث تطور أسلوب مناهج الكتابة التاريخية، حيث يلاحظ الاعتماد على أكثر من أسلوب في الكتابة ضمن المصنف الواحد وخاصة فيما يتعلق بكتابة التاريخ العام، حيث يبدأ المؤلف بالحديث عن بدء الخليقة بالاعتماد على أساطير وخرافات بعدها ينتقل بالتدريج ويصبح أكثر دقة وتتسع مداركه وتتوضح الحقيقة أمامه، حيث يصبح الحدث أقرب إلى المؤرخ، حيث توافرت معلومات في مصادر العصور التي سبقت عصره، وصولاً إلى الحدث الذي عاصره المؤرخ.

قائمة المصادر والمراجع

- 1- تامر (عارف): المعز لدين الله الفاطمي، بيروت، دار الافاق الجديدة، 1982م.
- الموسوعة التاريخية للخلفاء الفاطميين، ج10، دمشق، دار الجيل، 1980م.
- 2- ضيف شوقي: الفن ومذاهبه في النثر العربي، القاهرة، د.د، ط3، 1960م.
- 3- سلام: (محمد زغلول)، الأدب في العصر الفاطمي، ج2، الاسكندرية، منشأة المعارف، د.ت.
- 4- المقرئ: تقي الدين أحمد بن علي المقرئ باسم «تقي الدين المقرئ» (ت 845هـ - 1442م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى، 1418.
- 5- السيوطي: (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن ت 911هـ / 1505م)، حسن المحاصرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ج2، القاهرة، د.د، 1968م.
- بغية الدعاة في طبقات اللغويين النحاة، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ج2، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط1، 1965م.
- 6- الحموي: (ياقوت)، معجم الأدباء، تح احسان عباس، ج7، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1،

1993م.

معجم البلدان، ج5، بيروت، دار صادر، 1977م.

7- ابن بابشاذ (أبو الحسن طاهر بن احمد): شرح المقدمة التَّحْوِيَّة، تح محمد أبو الفتوح شريف، ج2، القاهرة، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية، 1978م.

8- القفطي (أبو الحسن علي بن يوسف ت 624هـ / 1226م)، اخبار العلماء باخبار الحكماء، تح ابراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلميَّة، 2005م.

انباء الرواة على انباء النحاة، تح محمد أبو الفضل ابراهيم، ج4، القاهرة، دار الفكر الغربي، 1986م.

9- ابن خلكان (احمد بن محمد بن ابي بكر ت 681هـ / 1282م)، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، تح احسان عباس، ج7، بيروت، دار القادر، 1978م.

10- امين (احمد)، ظهر الاسلام، ج4، القاهرة، شركة نوابغ الفكر، ط1، 2009م.

11- حسين (محمد كامل)، في ادب مصر الفاطميَّة، القاهرة، مؤسسة هنداوي، 2012م.

12- ماجد (عبد المنعم)، ظهور الخلافة الفاطميَّة وسقوطها في مصر، القاهرة، دار الفكر العربي 1994م.

نظم الفاطميِّين ورسومهم في مصر، ج2، القاهرة، مكتبة الانجلو المصريَّة، ط3، 1985م.

13- عطاءالله: احمد خضر عطاءالله، الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي، دار الفكر العربي الطبعة الاولى.

14- الذهبي: (محمد بن احمد بن عثمان ت 748هـ / 1347م)، الاسرائيليات في التفسير والحديث، القاهرة، مكتبة وهبة، د.ت.

ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ج4، بيروت، دار المعرفة، د.ت.

تذكرة الحفاظ، ج4، بيروت، دار الكتب العلميَّة د.ت.

معرفة القراء الكبار على الطبقات والاصار، تح طيار آلي قولا، ج4، استانبول، د.د، 1995م.

العبر في خبر من غير، تح محمد السعيد زغلول، ج3، بيروت، دار الكتب العلميَّة، د.ت.

سير اعلام النبلاء، تح حسان عبد المنان، ج4، لبنان، بيت الافكار الدولية، 2004م.

طبقات القراء، تح احمد خان، ج3، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1، 1997م.

15- زيدان (جدجي)، تاريخ التمدن الايلامي، ج5، بيروت، مكتبة الحياة، د.ت.

- 16- سرور (محمد جمال)، تاريخ الدولة الفاطميّة، القاهرة، دار الفكر العربي د.ت.
- 17- حنين اب اسحق: أبو زيد اسحاق العبادي المعروف بحنين بن اسحاق، حنين مترجم وعالم لغات وطبيب عربي مسيحي منسطوري اصله من الحيرة، ولد عام 194هـ / 810م، اهم مؤلفاته، كتاب احكام الاعراب، كتاب علاج العين وغيرها، بيروت، دار المعرفة، د.ت.
- 18- اليافعي (أبو محمد عبدالله بن اسعد بن علي)، مراة الجنان وعبرة اليقظان، تح خليل المنصور، ج4، بيروت، دار الكتب العلميّة ط1، 1997م.
- 19- زكار (سهيل)، خربوطلي (شكران)، الحضارة العربيّة الإسلاميّة، دمشق، منشورات جامعة دمشق، 2006م.
- 20- عنان: محمد عبدالله الحاكم بامر الله واسرار الدعوة الفاطميّة، الفاهرة، مكتبة الخانجي، الرياض، دار الرفاعي، الطّبعة الثالثة 1404هـ / 1983م.
- 21- ابن ابي اصبيعة (احمد بن القاسم بن خليفة بن يونس)، عيون الانباء في طبقات الاطباء، تح امرؤ قيس بن الطحان، ج2، القاهرة المطبعة الوهبيّة، ط1، 1882م.
- 22- الورد (باقر امين)، معجم العلماء العرب، ج2، بيروت، مكتبة التّهضة العربيّة، ط1، 1986م.
- 23- الزركلي (خير الدّين)، الاعلام، ج8، بيروت، دار العلم للملايين، ط15، 2002م.
- 24- مباركة (بورورو)، تأثير الحضارة العربيّة الإسلاميّة على اوروبا خلال القرون الوسطى، رسالة ماجستير، تلمسان، كلية الاداب والعلوم الانسانية، 2012م.

25 –corbin Cerbin H. Histoire de la philosophie Islammique, callimard, Paris, 1962.

المؤثرات الاجتماعية بين المسلمين والصليبيين في العصور الوسطى

Political, Economic and Social Relations Between The Muslims and the Crusaders In Egypt and the Levant in the Middle Ages (487-690H – 1095-1291AD)

ياسمين وحيد هلال¹

Yasmin Wahid Hilal

أ.د علي حلاق مشرفاً رئيساً أ.د محمد علي القوزي مشرفاً مشاركاً

تاريخ القبول 2024 /12/20

تاريخ الاستلام 2024 /11/28

الملخص

بعد دخول الصليبيين إلى المشرق وتأسيسهم إمارات ومملكة فيه، وعلى مدى مئتي سنة، استفاد الصليبيون من المسلمين جلّ الفائدة، خاصة أنه لم تكن طويلة هذه الحقبة حروب ومعارك، حيث كان هناك الكثير من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، هذا الأمر أكسب الصليبيين العديد من العادات والمهارات وغيرها.

وكانت العادات الاجتماعية والثقافية التي أخذها الصليبيون عن المسلمين كثيرة، وكذلك كان هناك تأثير عملي كبير من خلال الطب والفلسفة والعلوم الأخرى، ولا ننسى أنّ الصيد الذي كان يقوم به المسلمون أخذه الصليبيون عنهم، علاوة على فنّ العمارة الذي انتقل إلى أوروبا واستفادت منه، خاصة في العمارة ذات الطابع العسكري.

الكلمات المفتاحية: المسلمين، الصليبيين، العلاقات الاجتماعية، المؤثرات، الصيد، العمارة.

Abstract

After the Crusaders entered the East and established emirates and a kingdom there for nearly two hundred years, the Crusaders benefited

1- طالبة دكتوراه في جامعة بيروت العربية -كلية العلوم الإنسانية

greatly from the Muslims, especially since there were no wars or battles, during which there were many economic, social and cultural relations. This matter gained the Crusaders a variety of customs, skills, and cultural habits. The social and cultural customs were many, which the Crusaders took from the Muslims, and there was also a great practical influence through medicine, philosophy and other sciences. It is also worth noting that the by the Crusaders were influenced by the inherent hunting skills in Muslims, which they later adopted, in addition to the art of architecture, which was subsequently transferred to Europe to be utilized, especially with regards to architecture of a military nature.

Keywords: Muslims, Crusaders, social relations, influences, hunting, architecture

مقدمة

كان المجتمع في بلاد الشام في فترة الحروب الصليبية خليطاً من الأجناس والأعراق والقوميات واللغات والأديان، وعلى الرغم من التفاوت الديني واللغوي بين هؤلاء إلا أنه كان هناك نوع من الانسجام نتيجة تأثرها ببعضها البعض، حيث نقل حلاق عن فوشيه دو شارتيه أن الصليبيين تحولوا إلى مشرقين على الرغم من أصولهم الأوروبية، حيث أصبح فلسطينياً أو مقدسياً أو طرابلسياً، وعزز هذا الأمر حالة الزواج من المشرقيات سواء السوريات أو الأرمنيات، على حد وصف شارتر، حيث أنه من خلال هذه الصورة تبين أن المجتمع الشامي كان مجتمعاً مختلطاً، ومرد ذلك إلى وجود الصليبيين لمدة طويلة.

وانطلاقاً من العنوان تتولد معنا الإشكالية التالية: ما هي الأسباب التي دعت إلى نشوء علاقات بين المسلمين والصليبيين وما هو مستوى هذه العلاقات؟

ولا بد للإشكالية من فرضية، حيث تنشأ معنا الفرضية التالية، بحكم تجاور كل من المسلمين والصليبيين الذين سكنوا المشرق وأسسوا لهم إمارات ومملكة، لا بد من وجود علاقات وخاصة في ظل الفترة الطويلة.

أما المنهج المتبع فهو المنهج التاريخي في عرض للأحداث التاريخية من مصادرها بما يخدم موضوع الدراسة، والمنهج التحليلي المقارن في العرض للمعلومات التاريخية من مصادرها المختلفة العربية منها والأجنبية، التي عرضت تاريخ الدول التي عاصرت الحروب الصليبية وبخاصة المصادر التي عاصرت أكثر من دولة، والمقارنة بينها.

أما عن تقسيم البحث فقد تم تقسيمه إلى مقدمة ومبحثين اثنين، الأول: علاقة المسلمين بالصليبيين والثاني التأثيرات الاجتماعية والمعمارية للحروب الصليبية، وخاتمة.

المبحث الأول: علاقة المسلمين بالصليبيين في العصور الوسطى

عند بدء المقارنة بين وضع العرب والأوروبيين لا بدّ من المقارنة التاريخية بين الطرفين، فمنذ عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد¹ ومعاصره الفرنسي شارلمان، يعتبر من الحكام الأقوياء في التاريخ الأوروبي إلا أنه كان على قدر من الجهل، في المقابل كانت بغداد تعج بالكتب والعلوم والمدارس، هذا الأمر يبين مدى التباين الواسع بين العرب المسلمين وأوروبا، أفضى في مرحلة لاحقة إلى التعاون والتبادل الثقافي وإن بشكل غير مباشر، يذكر أن أوروبا كانت تزخر تحت سلطة الباباوات في حين كانت المدن العربية تزخر بالمدارس المكتبات والمراكز العلمية (كرد علي، 2017، ص 179).

وقد استمرّ الوضع على هذا الحال حتى في فترات الضعف التي تلت العصر العباسي، والصراعات الدائرة بين الدولة الأيوبية والفاطمية وما تلاها من دخول الصليبيين إلى البلاد العربية وقد تمخّض عن ذلك العديد من النتائج ليس فقط على الصعيد العسكري، وإنما على الصعيد العملي والمعرفي والاقتصادي (كرد علي، 2017، ص 267)، وكانت بلاد الشام في تلك الفترة خليطاً من الأجناس والقوميات واللغات والأديان (الفرنسيين، الإنكليز، الإيطاليين والإلمان إلى جانب العرب والكرد والأرمن والتُرك)، مع انتشار الديانات الثلاثة (اليهودية والمسيحية والإسلام) هذه الجماعات بدأت تنقسم وتتأثر ببعضها البعض (حلاق، 2007، ص 309).

1- هارون الرشيد: وهو أشهر خلفاء بني العباس ولد في مدينة الرّي (خرسان) سنة 148هـ / 766م وأمه خيزران أم ولد (كانت جارية) وتولى الخلافة بين عامي 170هـ / 786م إلى عام 193هـ / 809م وهو خامس الخلفاء العباسيين وخلفه بعده ابنه الأمين والمأمون والمعتمد على التوالي. ينظر: (الذهبي، 1985، ج 9، ص 287).

رجع آلاف من العسكر الصليبيّ إلى أوروبا وهم محمّلون بأفكار مغايرة لتلك التي رسموها في مخيلتهم قبيل الحروب الصليبيّة، من أنّ المسلمين على قدر من التوحّش والهمجيّة في التعامل مع الحجاج المسيحيّين إلى بيت المقدس، فقد تعلّم الصليبيّون من المسلمين التسامح حيث أنّ المسلمين كانوا على قدر كبير من التسامح في التعامل مع الصليبيّين، وهذا ما تجلّى في ما قام به صلاح الدّين الأيوبي عندما دخل بيت المقدس فإنّه لم ينكّل بالصليبيّين مثلاً فعلوا هم بل على العكس تماماً (المطوي، 1982، ص159).

وقد تأثّر الصليبيّون بالعرب في العادات والتقاليد فيرى بعض المؤرخين التسامح الدّينيّ بين الإفرنج والمسلمين، واكتسبوا عادة مأخوذة عن العرب مثل لبس الخاتم عند الخطبة أو الزواج، كما أنهم لبسوا الملابس الشرقية واسعة الأكمام زاهية الألوان وأطلقوا لحاهم، ليس هذا فقط بل حتى نوع الموسيقى التي كانوا يستمعون إليها فاستخدموا الآلات الموسيقية العربية. وقد تشبّهت المرأة الصليبيّة بالمرأة العربيّة من حيث لباسها وزينتها، فاتخذت الصليبيّات لزيّنتهنّ المجوهرات الدمشقيّة والقاهريّة، والفراء والأقمشة المصنوعة من وبر الجمل (حلاق، 2007، ص311).

ومن الأمور المشتركة بين الإفرنج والمسلمين رحلات الصّيد التي كانوا يقومون بها في المقاطعات والإمارات المشتركة، إضافة إلى القيام ببعض المباريات الرّياضيّة وسباقات الخيل واللّعب بالرّماح فهذه الرّحلات والألعاب أدّت إلى إقامة صداقات بين الحجاج المسيحيّين والإفرنج وبين القائمين في البلاد (ابن منقذ، 2003، ص295).

اتّخذت الحياة الاجتماعيّة في العصر الفاطميّ مظاهر خاصّة تقلّبت بين ألوان من البذخ والتّرف قلّ ما نجدها في عصر آخر من عصور مصر الإسلاميّة. وقد استدل على ترفهم، القصور التي بنوها ليتخذوها مساكن لهم ولأفراد أسرهم ومن أشهرها القصر الشرقيّ الكبير، وكان به عدّة أبواب منها باب الدّهب وتعلوه منظره وباب العيد وأمامه رحبة مرتفعة يقف فيها الجنود في يومى العيدين وتُعرف برحبة العيد (سرور، 2015، ص144).

ولم يكن الصليبيّون الذين استقروا في الشّرق أقلّ شأنًا في ترتيب بيوتهم ومساكنهم، تأثراً بالفاطميّين. وقد أخذوا من المشرقيّين الكثير من الأمور، كدماثة الخلق أولاً واللين

في الطّباع والأُنس، وغيرها من الصّفات الّتي لم تكن موجودة لديهم فيما سبق، ويرى بعض أمراء الصّليبيّين أنّ القتال بين المسلمين والصّليبيّين هو انتحار أخويّ. أمّا على الصّعيد الاجتماعيّ فيرى النّقاش بأنّ الصّليبيّين اتّخذوا لبيوتهم أثاثاً يتناسب والرّوح المشرقيّة وغيرها من التفاصيل المشرّبة بثقافة المشرق وطبائعه (النقاش، 1958، ص145). أي تأثّر الصليبيّون بالمسلمين في النواحي الاجتماعيّة والشّخصيّة المتعلّقة بالجوانب العامّة للحياة الاجتماعيّة في المأكّل والملبس والمعيشة.

اتّبع الصّليبيّون الكثير من العادات في الطعام أخذاً عن العرب فمن الفطائر إلى المعجنات والتمرّ الهندي، ووصل الأمر في بعضهم إلى الامتناع عن أكل لحم الخنزير تشبّهاً بالعرب، الأمر الذي جعل الصّليبيّين على قدر كبير من الاندماج في المجتمعات التي احتلّوا أرضها، وهنا لا بد من الإشارة إلى أنّ العرب المسلمين لم يأخذوا من الصّليبيّين شيئاً يذكر من العادات بسبب كون جلّ عادات الصّليبيّين لا تتوافق مع تعاليم الإسلام، أمّا بالنّسبة لأعيادهم فقد حذا الصّليبيّون حذو المسلمين لجهة الطقوس والتّرتيبات فتشبهت أعياد الصّليبيّين لجهة جوقات الطّرب، حيث استعملوا الطّبل والمزمار والقيثارة والرّبابة وغيرها من الآلات الموسيقيّة المشرقيّة، كما استعانوا أسوة بالمسلمين بالمغنيّات اللّاتي قدّمن الحفلات (النقاش، 1958، ص148).

وكان شهر رمضان المبارك من أهمّ المواسم الدّينيّة الّتي عني الفاطميّون بإحيائها وكانت المآذن والأسمطة مظهرًا من مظاهر الاحتفال بالمواسم والاعیاد في العصر الفاطمي بمصر عُنِيَ الفاطميون بتنظيمها عناية خاصّة، كما بالغوا في اعدادها سواء كان ذلك في المساجد أو في قصر الخليفة أو في دار الوزير. (سرور، 2015، ص 147).

وكان الشّعب المصريّ يستقبل جميع هذه المواسم بمظاهر الفرح والسّرور إلّا يوم عاشوراء كان يوم حزن عام تعطّل فيه الأسواق ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر ليلقوا الأناشيد في رثاء الحسين، وفي اليوم نفسه يقام سماط يسمى سماط الحزن في ظهر بسيط وكان يقدّم عليه خبز الشّعير والعدس والجبن يحضره الخليفة ملثمًا ومرتديًا الثياب القاتمة (سرور، 2015، ص 149).

وكانت مجالس الطّرب والغناء واللّهو تقوم على شواطئ الخليج بالقاهرة في أوائل عهد

الحاكم بأمر الله، فلما تجلّى الانحلال الاجتماعيّ من جراء هذه المجالس أصدر الحاكم قوانين يمنع بموجبها سماع الموسيقى ويحرم البعض الآخر الغناء والملاهي التي تعدّ خطراً على الاخلاق العامّة، ولكن ما لبثت أن عادت إلى الظهور بعد وفاة الحاكم وقد كان الخليفة المستنصر بالله يميل إلى سماع المغنّيات، وكان اللاعب بالخيال معروفاً في مصر في العهد الفاطمي فيخرج النّاس في بعض الأعياد ويطوفون شوارع القاهرة بالخيول والتّماتيل والسّناجات كما احترف بعضهم التّقليد والمحاكاة (المقريزي، د ت، ج2، ص389).

وكانت المجالس الاجتماعيّة تعقد في قصور الخلفاء والوزراء والأعيان حيث يجتمع العلماء والأدباء للمناظرة والمناقشة وكانوا يجتمعون في المجالس الخاصّة لقضاء أوقات فراغهم في لعب الشّطرنج والنرد. (سرور، 2015، ص 152).

يذكر أنّ خارج مواسم الأعياد المتعلّقة بالمسلمين فقد تأثّر الصليبيون إلى حدّ كبير بالمسلمين لجهة كثرة الأعياد والاحتفالات والبحث عن الرفاهية، فقد كان الصليبيون يقضون أوقاتهم في الصيّد واللّعب أنواع مختلفة من الرّياضة التي تعتمد على ما توفّره البيئة أي أنّ الصليبيين تأثّروا بالمسلمين والفاطميّين على وجه الخصوص لناحية الأنشطة والرياضات التّرفيهيّة التي كانوا يقومون بها من حين لآخر، فقد نقل النّقاش عن أسامة بن منقذ قوله إنّ الصليبيّين يلعبون بالرّماح والسّباق بين الخيول وغيرها من الأنشطة والألعاب وهي أنماط من ألعاب يستخدم فيها الشّاميّون الخيول، فهي نمط يتعلّق بتأثّر الصليبيّين بالمسلمين بصورة مباشرة وكنتيجة طبيعيّة للاحتكاك الذي حصل بين الطّرفين خلال فترة طويلة من الزّمن نسبياً (النّقاش، 1958، ص149).

كان التّأثير في المجال الاقتصاديّ ذو تأثير مباشر على الجانب الاجتماعيّ، بطبيعة الحال بسبب الاحتكاك بين الفاطميّين والصليبيّين مما جعلهم في فضاء اقتصاديّ واحد، الأمر الذي جعل هناك تفاعل وعلاقات اقتصاديّة بينهما، أثّرت على الجانب الاجتماعيّ وكنتيجة طبيعيّة لوجودهم بجوار بعضهم البعض، حتّم وجود علاقات اجتماعيّة أخذت أشكالاً عدّة كما مرّ معنا.

كان المجتمع في بلاد الشّام في العهد الصليبيّ خليطاً من الاجناس والقوميّات واللّغات والأديان ومع انتشار اليهوديّة والنّصرانيّة والإسلام ولغات عدّة، وبالرّغم من التّباين

والتفاوت الاجتماعي والقومي والديني واللغوي بدأت هذه الجماعات تتسجم وتتأثر بعضها من بعض الآخر (عوض، 2000، ص132).

وقد أقبل الصليبيون على الزواج من المسيحيات من الموارنة والأرمن والسريان وبعض المسلمات الأسيرات اللاتي تنصرن، وقد أقبل المسلمون بدورهم على الزواج من الأسيرات الإفرنجيات أو الزواج من الفتيات اللاتي ولدن من زواج الصليبي بنساء شقيقات، وقد نشأ عن هذه الزيجات جيل من المولدين عرفوا باسم الأفراخ، وقد غلبت عليهم طبائع وعادات الشرق، ولم ير الصليبيون مانعاً من الاستعانة بهؤلاء المولدين من الموارنة والأرمن والسريان والمسلمين في تشكيل فرق الخيالة الخفيفة التي عرفت باسم تركوبول (عاشور، 2003، ص332).

والحقيقة فقد دخل عدد كبير من هؤلاء الفرسان المرتزقة بين قوات الداوية والاستبارية وفي خدمة بعض أمراء الصليبيين. وجرت العديد من محاولات الزواج بين كبار المسؤولين من المسلمين والإفرنج، حيث كان من الممكن أن يتم تزويج أخت ريتشارد ملك الإنكليز أو ابنة أخته من الملك العادل شقيق صلاح الدين لولا أن البابا عارض ذلك. (حلاق، 1986، ص192).

وقد أخذ الصليبيون عن المسلمين عادة لبس الخاتم عند الخطبة أو الزواج. ولبسوا الملابس الشرقية الواسعة الأكمام والزاهية الألوان، وأطلقوا لحاهم وجلسوا على السجاجيد واتخذوا السباحات للتسبيح بحمد الله. كما أنهم أكلوا الأطعمة الشرقية واستعملوا البهارات، واستخدموا في حفلاتهم الرقصات وفي أحزانهم، كما استخدموا الآلات الموسيقية العربية (حلاق، 1986، ص193).

وتشبهت المرأة الصليبية بالمرأة العربية من حيث لباسها وزينتها، فاستخدمت المجوهرات وأدوات المساحيق والزينة والمرايا الزجاجية كما استعملت النساء الخمار على غرار النساء المشرقيات لكن لم يستخدمه للعفة وإنما لحماية بشرتهن من أشعة الشمس، ولم يكن الرجال أقل حظاً من الأخذ من المشرقيين في اللباس فقد لبس الرجال العمامة أو الثوبان كما ارتدى الفرسان البرنس الكتاني لحماية دروعه من أشعة الشمس والحرارة (رانسيما، 1994، ج2، ص366).

من جهة ثانية فقد ذكر أسامة بن منقذ الكثير من العادات الغربية الصليبية فليس عندهم شيء من النخوة والغيرة. فيمكن للرجل أن ينتظر زوجته لفراغها من حديث مع رجل غريب في الشارع وإذا طوّلت عليه تركها مع المتحدث ومضى (ابن منقذ، 2003، ص224).

ويذكر أسامة بن منقذ أن الرجل الصليبي كان إذا دخل على زوجته ورآها مع رجل غريب في الفراش، لن يصل به الأمر إلا لخصامه فقط، وقد استغرب أسامة من الاختلاف الذي فيهم، فليس لديهم أي نخوة أو غيرة ولكن بهم شجاعة كبيرة، وهذه الشجاعة أكدها أيضاً ابن الأثير (ابن منقذ، 2003، ص225).

على الرغم من تأثر الصليبيين بالمسلمين إلا أنهم لم يتخلّوا عن أفكارهم ومعتقداتهم في الانحلال الأخلاقي، فقد اكتظت مدينة عكا في عهد الصليبيين ببنات الهوى اللاتي يجنين أرباحاً كثيرة، حيث وصل إلى عكا في تلك الفترة مركب يحمل ثلاثمائة امرأة إفرنجية من النساء الحسان وذلك لإسعاد الجنود الفرنج ومساعدتهم على الترفيه عن أنفسهم (الحنلي، 1999، ص506)،

حيث كان رجالاً يغتالون نساءهم والزّوجات يسمّمن رجالهن في سبيل عشاقهنّ، فلا غرابة بأن تختصّ عكا ببيع السموم والعقاقير المسمّمة، وفي هذا الصّدّد يُذكر أن الجنود الصليبيين الذين جاعوا في الحملة الثالثة كانوا يقضون لياليهم في الحانات (حلاق، 2018، ص195).

ومن الأهمية بمكان القول إنّ بلاد الشام اشتهرت بكثرة حمّاماتها العامّة لأنّ ذلك كان مرتبطاً بالعقيدة الإسلامية القائمة على الطّهارة والوضوء، فقد قال ابن جبير عن حمّامات دمشق وأسواقها إنّ فيها ما يقارب المائة حمّام ونحو 40 داراً للوضوء (ابن جبير، د ت، ص261). وقد أورد أسامة بن منقذ حوادث تدل على تأثر الإفرنج بتقاليد وعادات المسلمين ومنها أنّ بعضهم بدأ يكره أكل لحم الخنزير (ابن منقذ، 2003، ص231).

المبحث الثاني: التأثيرات الاجتماعية والمعمارية للحروب الصليبية

من الأمور المشتركة بين الإفرنج والمسلمين رحلات الصيد التي كانوا يقومون بها،

كما كانوا يقومون ببعض المباريات الرياضية وسباقات الخيل واللّعب بالرّماح، وكانت عادة تربية واقتناء طائر الباز قد اشتهر في الشّام لأنّ العرب والإفرنج كانوا يحرصون باستمرار على اصطحاب الباز في رحلات الصّيد وهذه الرّحلات أدّت إلى إقامة صداقات بين الحجاج المسيحيين والإفرنج وبين القائمين في البلاد (عطية، 2010، ص131).

وقد أورد اسامة بن منقذ بعض حوادث من العلاقات الاجتماعية والسّلمية بين الجانبين حيث قال بأنّه إذا طال القتال بين طائفتين أمام عكا أنس البعض البعض، فكانوا يتحدّثون ويتركون القتال وربّما كانوا يرقصون مع بعضهم أي يألف القوم بعضهم بعضاً (ابن منقذ، 2003، ص231).

وهذه العلاقات السّلمية والحضارية بين الإفرنج والمسلمين، انعكست ايجاباً على العلاقات الإسلاميّة-المسيحيّة في جبل لبنان وفي مختلف المناطق اللّبنانيّة الشّاميّة فقط كان النّصارى يعاملون المسلمين معاملة حسنة (حلاق، 1986، ص 198).

تحدث ابن جبير عن مشاركة مسلمي صور للنّصارى في أفراحهم واحتفالاتهم حيث عرض لحالة ذلك العرس ولباس المسلمين والصليبيين في ذلك العرس وحالة التقارب في العادات في صور (ابن جبير، د ت، ص278).

فبالرغم من العلاقات الاجتماعية التي كانت قائمة بين الإفرنج والمسلمين، إلّا أن هذه العلاقات كانت تشوبها السّلبات في بعض الأحيان لا سيما في فترة التّوتر والصّراع السّياسي والعسكريّ، إذ اضْطُهد المسلمون من قبل الإفرنج وكانوا يتعرّضون للمشقّات والأهوال والدّلّ فكانوا يتعرّضون للسّباب والشّتائم ضدّ نبيّهم. ولكن سرعان ما تتحسنّ الأمور فقد استمرّت العلاقات الجيدة في زمن حكم الأسرة الأيوبيّة حيث اتّصفت معاملة صلاح الدّين الأيوبيّ للفرنج بالمعاملة الجيدة وبالتسامح والكرم كما عامل أسرى الحرب النّصارى معاملة حسنة (حلاق، 1986، ص 202).

ومن جملة الأمور الاجتماعية التي تأثّر الصّليبيّون بها بالمسلمين، هي مسالة النّظافة، والاستحمام، فالمسلم يتوضّأ خمس مرّات في اليوم واللّيلة، فقد أخذ الصّليبيّون عنهم هذا الأمر واضبوا يعتنون بأجسامهم ونظافتها، وذلك بعد ما لقوه من قيام المسلمين بهذا

الأمر، على عكس أوروبا ما قبل الحروب الصليبية، كان هناك نوع من تخييم رأي الكنيسة في كل نواحي الحياة بما فيها النظافة (هونكة، 1993، ص54).

شهدت بلاد الشام مؤثرات وعلاقات متبادلة بين المسيحيين والمسلمين وبين الحضارتين الغربية والشرقية. وأمّا عن العلاقات الاجتماعية في العهد الصليبي فقد كانت خليطاً من الأجناس والقوميات واللغات والأديان وبدأت هذه الجماعات تتسجم وتتأثر ببعضها البعض الآخر (حلاق، 1986، ص204)

وهذا الخليط من الأجناس والسكان خلق نوعاً من عدم الانسجام التام بين طبقات المجتمع من السكان في السواحل الشامية التي حوت على الإمارات الصليبية، والجدير بالذكر أنّ هناك العديد من الصليبيين ممن وصلوا مع الحملة الأولى لم يستقروا في المشرق وإنما عادوا إلى بلادهم، وقد ضمت سكان الإمارات الصليبية من المسيحيين المشرقيين و الذين قدموا مع الحملات الصليبية وأسّسوا الإمارات والمملكة. ومن أبرز هذه الطبقات: طبقة النبلاء والفرسان التي أفرزت لنا عناصر الحكام في القدس وناطاكية والزها وطرابلس، وهذه الطبقة هي عماد الصليبيين في الشرق، طبقة المحاربين من الصليبيين هم غير النبلاء والفرسان. ثم هناك طبقة برجوازية من المدن الأوروبية وهم من التجار وغيرهم.

بالإضافة، بطبيعة الحال، إلى العنصر العربي غير المسلم من مسيحيي الشرق. وفي الحديث عن الجانب الاجتماعي فقد استقلت كل فئة من هؤلاء لوحدها في السلم الاجتماعي، فلم يحدث انصهار في المجتمع بسبب عدم التزاوج بين فئة وأخرى وخاصة فيما يتعلق بطبقة النبلاء، أما المحاربون من الصليبيين فقد تزوجوا من مسيحيات المشرق وانجبوا جيل عُرف بالأفراخ، وتعتبر هذه الطبقة هي الجيل الثاني من المحاربين الصليبيين، طبقة المسيحيين المحليين من موارنة وكاثوليك وغيرهم من المسلمين وهم السكان الأصليون للمنطقة و كذلك طبقة العبيد والأقنان (عاشور، 2003، ص330).

ومن جوانب تأثر الصليبيين بالمسلمين ما حصل عليه لويس التاسع من معارف وجوانب إدارية جعلته يعيد النظر في بناء دولته، حيث قام بإصلاحات في ما يتعلّق بالدستور الذي يحكم فرنسا واستقى تحديثاته مما رآه في مصر في أثناء الحملة الصليبية السابعة،

ولم يكن لويس التّاسع هو الوحيد الذي أخذ وتأثّر بالمسلمين فقد تأثّر كل من ملك صقلية وكذلك امبراطور إمانيا، والذي يعد أكثر ملوك أوروبا تأثراً بالحضارة الإسلاميّة ومردّها إلى الحروب الصليبيّة التي أثّرت بشكل كبير على الإدارة السياسيّة في أوروبا وحدّتها (المطوي، 1982، ص162).

أمّا عن الجانب المعماريّ فقد تحدّث الرّحالة عن بلاد الشّام اشاروا إلى وجود المنشآت المعماريّة من حصون وقلاع ومساجد وحمامات وخانات وشوارع منتظمة، وذلك قبل قيام الحروب الصليبيّة أو في أثنائها أو بعدها، فقد وصف أحدهم حمص بقوله حمص ليست بالشّام بلد أكبر منها ففيها قلعة متعالية عن البلد تُرى من خارج المدينة (حلاق، 1986، ص243).

وأشار الرّحالة ابن جبير المعاصر الحروب الصليبيّة إلى المظاهر العمرانيّة في بلاد الشّام، ومما قاله على سبيل المثال عن عمران مدينة حمص فيها قلعة منيعة، وإنّ سور هذه المدينة في غاية العتاقة ودقّة بنائه، فقد تمّ بناؤه بحجارة الصّم السّود، وأبوابها من الحديد هائلة المنظر، ثم تحدّث عن عمائر دمشق ومدارسها ومارستاناتها فهذه المارستانات مفخرة عظيمة من مفاخر الإسلام، وأمّا الرّبطات التي يسمّونها الخوانق، فكثيرة وهي برسم الصّوفيّة وهي قصور مزخرفة (ابن جبير، 1959، ص-231 256).

الحقيقة أول ما احتاجه الصليبيّون من العمائر كانت القلاع والحصون، ولعبت مدّة وجودهم الطويلة دوراً مهماً في إكسابهم خبرة معماريّة ذات طابع عسكريّ، وذلك من خلال قيامهم بترميم قلاعهم وتحسينها وتحصينها، كان ما يتعلّق منها بأسباب الدّفاع عن أنفسهم فكان لا بدّ من الاهتمام بالقلاع وأسوار المدن للحراسة واستخدامها كمراكز إداريّة عسكريّة - مدنيّة بحيث نقل هؤلاء الفنون المعماريّة العربيّة إلى الغرب الأوروبي، ولكن مع مراعاة طبيعة المناخ بما يتواءم والمنطقة، فحفّقوا من المساحات المكشوفة (حلاق، 2007، ص338).

ولمّا جاء الصليبيّون إلى بلاد الشّام وأقاموا ممالك لهم فيها كان من الطّبيعيّ تأثّرهم بالفنّ المعماريّ الإسلاميّ، فاتخذوا في بناء بيوتهم وقصور الأمراء والملوك منهم التّراث العربيّ تحيط بها الغرف والقاعات وتتوسّطها النّافورة وينطلق الماء من النّافورة عالياً،

كما تأثر الإفرنج بفنون الزخرفة المنزلية فقاموا بتصفيح الجدران والسقوف والرّخام والفسيفساء وتمويهها بالذهب والألوان المعدنية الأخرى كما كانت الزخرفة تغطي الجدران على شكل توريقات وتكوينات هندسية (حلاق، 1986، ص 244).

تأثر الصليبيون بالعمارة في المشرق من خلال أنماط بناء القلاع والحصون، واتّخذ جدران مضاعفة بدل جدار واحد للقلعة وكذلك الأبواب المنحرفة كنوع من التّحصينات الدّفاعيّة الطّبيعيّة، وكذلك الكنائس أخذت من كنائس الشّرق الأبراج المستديرة، والذي يدرس تاريخ الحروب الصليبية يرى بأن أوروبا تأثرت بالجانب المادي أكثر منه في الجانب الحضاري والعلمي، مردّ ذلك إلى سطحية النّقافة الأوروبيّة في تلك الفترة نتيجة حكم الكنيسة (المطوي، 1982، ص 165).

ومن الناحية الحربية استعمل المسلمون أدوات تعرّفوا عليها من خلال احتكاكهم بالغرب منها الأدوات الحربيّة من منجنقات وسلالم وجسور وغيرها (المطوي 1982، ص 167)

ثم اتّخذ الإفرنج بيوتهم وقصورهم من الأثاث ما يتلاءم معها ومع الرّوح الشّرقية العربيّة فافترشوا الطّنافس والسّجاد وزيّنوا منازلهم بالرّيش الفاخر والأواني النّحاسيّة، والحقيقة فإنّ أوّل ما احتاجه الصليبيون من العمائر كان ما يتعلّق منها بأسباب الدّفاع عن أنفسهم فكان لا بدّ من الاهتمام بالقلاع وأسوار المدن للحراسة واستخدامها عسكرياً ومدنيّاً، ثم قاموا بإصلاح بعض العمائر مثل الأسوار في بيت المقدس وبناء قلاع طبرية وتبنين، ولها مميّزات كثيرة يمكن الأخذ بها من خلال الأنظمة المعماريّة في المساجد والقصور والمساكن والحصون والأسوار والمدارس (حلاق، 1986، ص 245).

من أبرز جوانب التّأثير المشرقيّ على الصليبيين هو انتقال الفنون الشّرقية إلى أوروبا، وخاصّة عبر التّواصل المستمر بين الصليبيين والمناطق الإسلاميّة. فقد أثّرت الرّخارف الإسلاميّة، مثل الأرابيسك (arabesque) والتّصميمات الهندسيّة، في تطور الفنّ القوطي الأوروبي. وكانت الأقمشة الشّرقية الفاخرة، مثل الحرير والمطرّزات اليدويّة، قد جذبت انتباه التّبلاء الأوروبيين وظهرت في الملابس الأوروبيّة الفاخرة.

وتجدر الإشارة إلى أن المؤثرات المعماريّة الإسلاميّة انعكست على الحصون والقلاع

والمباني الصليبيّة ومن العناصر المعماريّة التي اقتبسها الصليبيّون من الشّرق هي عنصر زخرفيّ متّصل بالعقد المنفوخ والشّرفات البارزة وهي من المؤثّرات الإسلاميّة المعماريّة (حلاق، 1986، ص 246)، مدخل هذه المرافق المتعدّدة المتمثّلة بالمنحنيات والمنعطفات وهدفها توفير امكانيّات الدّفاع والتّحكّم في العدو المهاجم من باب الحصن عبر هذه الممرّات الضيّقة الطّويلة (عطية، د ت، ص 229).

وتعتبر المقرنصات¹ وهو أسلوب من أساليب النّظام المعماريّ الإسلاميّ المقتبس من العمارة الإسلاميّة في الأندلس، وكانت أول قبة إسلاميّة قائمة على مقرنصات معقودة هي قبة المحراب في المسجد الجامع بالقيروان. أمّا المتراس² فقد تأثّر الصليبيّون بهذا النّظام المعماريّ الإسلاميّ. البريقان³ وقد تأثّر الصليبيّون بهذا النّظام فطبّقوه على قلاعهم في بلاد الشّام، كما نقلوه معهم إلى أوروبا (عطية، د ت، ص 230).

ويلاحظ استمرار بعض الملامح العمرانيّة في زمن ابن بطوطة أي بعد انتهاء الحملات الصليبيّة وانتهاء الاحتلال الصليبيّ في بلاد الشّام، بينما دمر أو خرّب البعض الآخر علماً بأن بعض التّطورات العمرانيّة تبعاً لتطوّر الظروف العسكريّة والسّياسيّة وتبعاً للمقتضيات السّكّانيّة (حلاق، 1986، ص 250).

كذلك فكرة حفر الخنادق حول القلاع، من أبرز القلاع التي تحاط بالخنادق هي قلعة حلب، حيث كان يملأ هذا الخندق بالماء، ويوجد مكان واحد للدّخول وهو برج البريقان (حلاق، 2020، ص 235).

ويمكن القول بأنّ هناك العديد من النّتائج على المستويات كافّة أثّرت على المنطقة وأبرز هذه النّتائج:

في الجانب السّياسيّ والاجتماعيّ

1) انهيار النّظام الإقطاعيّ في أوروبا وجعل الملكيّة حرّة وسهّلت الانتقال وأضعفت قوّة الألقاب.

1- المقرنصات: وهي نمط معماريّ إسلاميّ على شكل نصف قبة مزخرفة من الدّاخل ويستخدم بكثرة في المساجد والقلاع على وجه الخصوص.

2- المتراس: وهو عبارة عن إطار من الحديد مدبب الاطراف من أسفله وهو ينطلق عمودياً في جانبي باب الحصن

3- البريقان: وهي كلمة عربيّة فارسيّة الأصل تطلق على البرج الكبير الذي يبنى على مسافة من باب الحصن (حلاق، 2014، ص 234).

(2) ظهور عدد من المستعمرات مثل مملكة بيت المقدس ومملكة قبرص والإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية.

(3) ظهور عدد من القوى والهيئات الدينية والعسكرية مثل الإستبارية والدّاوية وفرسان التّيوتون (رانسيان، 1994، ج1، ص157).

في الجانب الحضاري والاجتماعي:

(1) الاتّساع في التّفكير والعمق العقليّ والمعرفة والخبرة الجديدة.

(2) بروز مادّة جديدة للتّفكير العلميّ والخيال الشّاعريّ.

(3) بروز علم الجغرافيا والكتابة التاريخية على نسق جديد.

(4) التّأثّر بالعلوم الجديدة مثل الجبر والرياضيات واللّغات الشّرقية وإزدهار الحركة الشّعرية.

خاتمة

امتدّت التّأثيرات المشرقية لتشمل العادات والتّقاليد، حيث تبنّى الصّليبيّون بعض جوانب الحياة الشّرقية مثل تناول الطّعام، الممارسات الطّبية، والعادات الاجتماعيّة. أدّى هذا التّفاعل إلى تغيير بعض الممارسات الأوروبيّة وزيادة الانفتاح التّقافي بين الشرق والغرب.

تعدّدت العوامل التي فرضت إقامة علاقات اقتصاديّة بين المسلمين والفرنّج في بلاد الشّام، حيث كانت هذه العلاقات نتيجة حتميّة للتّفاعل بين الطّرفين وللظروف المحيطة بهما. وتنوّعت هذه العوامل بين ما هو مرتبط بالحاجات الاقتصاديّة لكلّ من المسلمين والفرنّج، وما يتعلق بطبيعة العلاقات السّياسية والاجتماعيّة التي تطوّرت بينهما، بالإضافة إلى ما يخصّ طبيعة بلاد الشّام نفسها ومدنها المختلفة (ألف اختراع واختراع، 2016، ص 126).

المصادر

- ابن جبير (1959) رحلة ابن جبير، بيروت: دار صادر.
- ابن منقذ، أسامة (2003) الاعتبار، دقّقه عبد الكريم الأشتر، ط2، بيروت: المكتب الإسلامي.

- حَلّاق، حسان (1986) العلاقات الحضاريّة بين الشرق والغرب في العصور الوسطى الأندلس، صقلية، الشام، بيروت: الدار الجامعية.
- حَلّاق، حسان (2007) تاريخ العلوم والتكنولوجيا عند العرب، بيروت: دار النهضة العربيّة.
- الحَلّاق، علي (2018) التفاعل الحضاريّ بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، بيروت: دار العلوم العربيّة.
- الذهبيّ، (1985) سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحقّقين، بيروت: دار صادر.
- رانسيما، ستيفن (1994) تاريخ الحملات الصليبيّة من كليرمونت إلى أورشليم، ترجمة نور الدين خليل، ط2، القاهرة: الهيئة العامّة المصريّة للكتاب.
- سرور، محمد جمال الدين (1995) تاريخ الدولة الفاطميّة، القاهرة: دار الفكر العربيّ.
- عاشور، سعيد (2003) تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، بيروت: دار النهضة العربيّة.
- عطية، عزيز سوريال (د.ت) الحروب الصليبيّة وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة: فيليب سيف، بيروت: دار الثقافة.
- عطية، علي سعود (2010) تاريخ الحروب الصليبيّة، القاهرة: الشركة العربيّة المتّحدة للنسويق والتوريدات.
- كرد علي، محمد (2017) خطط الشام، دمشق: المطبعة الحديثة.
- المقرزيّ، تقي الدين (د.ت) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرزيّة، بيروت: دار صادر.
- النقّاش، زكي (1958) العلاقات الاجتماعيّة والثقافيّة والاقتصاديّة بين العرب والفرنّج خلال الحروب الصليبيّة، بيروت: دار الكتاب اللّبنانيّ.
- هونكه، زيغريد (1993) شمس العرب تسطع على الغرب، بيروت.
- المطويّ، محمد العروسيّ (1982) الحروب الصليبيّة في المشرق والمغرب، بيروت: دار الغرب الإسلاميّ.

ندوة الجامعة اللبنانية بعنوان «بين الورق والرّقم حلّقت شهرزاد»

للقاصة الدكتورة درّية فرحات

نظّم قسم اللّغة العربيّة وآدابها في عمادة كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة في الجامعة اللبنانية بتاريخ 16 أيار 2024 ندوة بعنوان «بين الورق والرّقم حلّقت شهرزاد»، للقاصة الدكتورة درّية فرحات، وما قدمه الطّالبان رامي عيد ومنيرة الحجار حولها من فيديوهات رقمية، برعاية عميدة الكلية البروفسور سهى الصّمد وحضور عدد من الاساتذة والطّلاب.

دكتور جورج حداد

بالنّشيديين الوطنيّ، والجامعة اللبنانية استهلّت النّدوة، ثم ألقى منسّق ماستر اللّغة العربيّة الدكتور جورج إبراهيم حدّاد كلمة رحب فيها بالحضور، وأشاد بـ«أهمية العمل»، وقال: «أنّ بين» احكي يا شهرزاد» الورقيّة والرّقميّة إبداعٌ تخطّى الحدود الزّمانية والمكانية، حتّى أصبحت شهرزاد ملكةً تخترقُ جدران الصّمت محلّقةً بين الورق والرّقم لتعلنَ تمرّدَها وتخرقَ بصوتها كلّ القلوب النّائمة».

وشكر الدّكتورة درّية فرحات لما قدمته من شهرزاد بين الورق والرّقم، «فلولا شهرزاد الورقيّة، ما وُلدت شهرزاد الرّقميّة»، كما شكّر الطّالبتين رامي عيد ومنيرة الحجار لما قدّماه في شهرزاد الرّقميّة، وأثنى على دعم العميدة الدائم «للتّحليق في رحاب الأدب»، والإعلاميّ محمّد عمرو لنقله النّدوة مباشرة على صفحة زمان الأخبار، والطّلاب المتمرّدين على «إثبات حضور الأدب رقمياً ليحاكي التطوّر والتكنولوجيا».

عميدة كلّية الآداب د. سهى الصّمد

ثم ألفت العميدة الصّمد كلمة أثنّت فيها على نشاط الدّكتور حداد في قسم اللّغة العربيّة وأعمال الدّكتورة فرحات، وأعمال الطّلاب، و«مشجّعة هذه اللقاءات الأدبيّة التي تدعم الكتابة، والنّقد والإبداع ومتابعة كلّ جديد إذ إنّ الجامعة اللبنانية كانت ولا تزال حاضنة لهذه المواهب»، مقدّمة كلمات شكر للقائمين على هذا النّشاط. ثم عرض فيديو رقمي

تعريفٍ لمجموعة «احكي يا شهرزاد» من إعداد وأداء الطالبة منيرة جهاد الحجار .
دكتورة درية فرحات

بعد عرض الفيديو كانت مداخلة الدكتورة فرحات التي أثنت فيها على هذا الاحتفاء في مجموعتها القصصية «احكي يا شهرزاد»، وانتقلت إلى الحديث عن «الأدب الوجيز، وتحديدًا القصة الوجيزة (القصيرة جدًا) على أنها تعتمد بعض التقنيات وأهمها التكتيف، لأن طبيعة الحياة قد تتطلب منا التوجه نحو الوجيزة»، وتحدثت عن «احكي يا شهرزاد» أن شهرزاد قيمتها المرأة وهي قيمة أساسية في مجموعتها القصصية، وربما هذا الاسم أعطى الحياة للمرأة من خلال الحكي، وهكذا كانت «احكي يا شهرزاد».

وكان للمشاركين في المجموعة الرقمية، رامي نعمه عيد ومنيرة جهاد الحجار، كلمة قدّمتها الطالبة منيرة الحجار أعلنت من خلالها أن «التوجه الرقمي كان محاولة متواضعة للحفاظ على اللغة العربية في ظل سيطرة التكنولوجيا، ومنافسة اللغات الأخرى، وأن العمل الرقمي يتكامل بين إعداد، وأداء، ولغة، وتنسيق، وهو يتطلب رموزًا إيحائية كالإبداع الورقي».

تلا ذلك توزيع شهادات تكميمية من قبل العميدة ومنسق الماستر، وتوزيع المجموعة القصصية على الحضور من قبل الدكتورة فرحات.

تخلّل اللقاء قراءات نقدية، يرافقها فيديوهات رقمية للقصص المختارة من المجموعة الرقمية التي طبّقها الطالبان منيرة الحجار ورامي عيد، وكانت القراءات النقدية من قبل طلاب الماستر 2، أسعد ضامن، بتول حمادة، تمارا شلهوب، مريم سرور، ليندا حجازي

أثر التكنولوجيا على العلاقات الإنسانية من خلال قصة «تكنولوجيا» للقاصة درّية فرحات - أسعد كمال ضامن

ولدت شهرزاد الرّقميّة منذ سنة، أمّا شهرزاد المحكيّة فولدت منذ أزلّ يوازي الحكايات الشعبيّة من القصص والمواظ الأدبيّة، ولدت على حافة التّاريخ، تحت سفح جبل، وهي اليوم على قمّته. مشّت شهرزاد على خطّ الزّمن ورافقت كلّ عصر بعصره؛ من التّرجمات المختلفة إلى تداخلها مع جميع الفنون، وقفت على خشبة المسرح وأطلّت عبر شاشات السيّما والتلفزيون، وهي اليوم تسبح في فضاء العالم الافتراضيّ، عالم التّطبيقات والتّفاعلات الإنسانيّة المقتّعة، حيث تفوّقت فيه السيّئات على الحسنات، وتفوّق سوء الاستخدام على حسنه. وخاصّة في عالمنا العربيّ الذي ينهش ما يقدّمه الغرب بشراهة، ويتبعه بعيون أصابها العمى.

تبدأ القصة الوجيزة من كتاب «احكي يا شهرزاد» تحت عنوان «تكنولوجيا»، بالفعل الماضي «أحبّها...» نجد الـ «هو» الغائب الذي أحبّ في الماضي والذي علّق الـ «هي» بماضيه وسجنها خلف ثلاثة قضبان تمثّلت ورقياً بثلاث نقاط متتالية، علّقها بوعد مقدّس، علّقها بالارتباط، لكنّه علق هو في مكان آخر في عالم التكنولوجيا، وفي عالم البحث الذي لا ينتهي. نسأل هنا هل شُغلَ شهريار بمتابعة أخبار وقصص الكون عبر الشاشة الذكيّة ونلّه عن سماع قصص شهرزاد اللّيلية المباشرة؟ هل خطفته التكنولوجيا إلى عوالم من الأبحاث التي لا تنتهي؟ ما هو هذا البحث المهمّ الذي شغله طوال هذه المدة؟ لقد بحث غلغامش عن سرّ الخلود متقلّلاً بين الجبال والغابات لسنين عديدة، ولم يجد مبتغاه، وشهريارنا الحديث قابع في مكانه، متمسّر على شاشة صغيرة يدور في العوالم الافتراضيّة ويحقّق أحلامه وأمانيه. ما هي تلك الأحلام؟ وما كانت أمانيه؟ هل كانت علماً ليحقّق عملاً، أم كانت بحثاً في فراغ لم يحصل منه إلّا على ضياع الوقت ومرور الزّمن، ليخسر حلمه الورديّ، وليخسر أنيسته شهرزاد المُحدّثة.

لقد صاغت الكاتبة قصّتها مستعملةً الفعل الماضي الذي يتناقض مع العنوان الرّئيس «تكنولوجيا» فالتكنولوجيا ترمز إلى المستقبل والتّطور والتّقدم، أمّا في هذه القصة فقد

كانت التكنولوجيا سبباً في تفكك العلاقات الإنسانية وتجمدها في الماضي. لقد أظهرت الكاتبة التكنولوجيا كوحشٍ قاتلٍ ببراشن مسنونة قضى على قدسية العلاقات والأحلام الوردية، فلا رائحة ذكية تُخرجها تلك الآلات ولا عطر يفوح منه بصيص أمل؛ إنه تحذير جاء بصيغة الماضي ليعلن وفاة المستقبل.

أما في مقدمة شهرزاد الرقمية في قصة تكنولوجيا، فنجد أن تلك الآلة الإلكترونية الدائرية تبدو كدوامةٍ تخفي أهم الكلمات وتساعد على شرح العلاقات الإنسانية، إذ محت كلمة «وعددها». وقد ظهر ظلّ شهرزاد مطعوناً منذ البداية بخطوط سوداء خرجت من رأسها داخل سجن يشبه القلب الأزرق، يلقه البرد والجفاف. وظهر شهريارنا الحديث على مكتب أمام شاشة الكمبيوتر، تحيط به الخطوط التي تشبه إلى حدٍّ ما الذكريات الإلكترونية التي تكمن في طياتها ذاكرة الإنسانية، وخلفه بعض الأرقام التي تشبه «كودات» السلع، وهي تعكس النظرة الجديدة لإنسان هذا العصر الذي سيطرت عليه الآلة حتى أصبحت هي التي تتحكم به، وهو تابع لها كسلعة على رفوف الاستهلاك، يليها ثلاثة ظلال عمودية فوق كل شيء داخل الصورة كأنياب تأكل الشاشة وما يحتويها. في شهرزاد الرقمية تمر الأيام بدقات قلب متسارع لتعلن الخسارة والرحيل، تنتشر كلمة حلم وتتساقط الآلات الإلكترونية لتصنع من جديد دوامة البداية باللون الأسود الذي يشبه الثقب الأسود في فضاء واسع يبلع ما يدور حوله، ويمحو كل شيء.

قد لا يختلف التأويل الورقي عن التأويل الرقمي في توجيه القارئ نحو خطر التكنولوجيا، إلا أن رائحة الموت والتفكك والانكسار قد ظهرت جميعها بوضوح في العمل الرقمي، فالحضور والغياب في اختيار الكلمات، وثنائية ألوانها بين الحياة والموت، «الأخضر والأحمر» وتحريكها، وتحريك الصور بعيداً من المعاني المقصودة، حيث يصبح البرنامج مساعداً في إنتاج المعنى، وهنا نؤكد السيطرة الجزئية من عالم التكنولوجيا على خيارات الإنسان، إذ تبقى ضمن محدودية الخيارات التي تقدّمها البرامج والتطبيقات. وكلّ ذلك يوضح أننا أصبحنا أسرى للتكنولوجيا، وكلّ شهريار هو أنت، وكلّ شهرزاد هي أنت.

قراءة نقدية في قصة عرس شهرزاد الجديد

بتول حمادة

عرس شهرزاد الجديد قصةٌ وجيزةٌ للقاصة الدكتورة درية فرحات، تحكي قصة واحدة من الشّهزادات التي وظّفتها الكاتبة لاستخراج القيم الاجتماعية العليا عبر تسليط الضوء على الآفات وتعريفها أمام القارئ، وقد تمكّنت من إيصال رسالتها عبر الوجازة؛ لأنّ فرحات ترى حاجةً لهذا التعبير الوجيز حتّى يساير معطيات العصر الجديد.

يشير العنوان بدايةً إلى مراحل تطوّر شهرزاد من خلال لفظ «الجديد»، فهذا دليل على وجود عرس قديم لها، أي أنّها تشهد تطوّرًا، برز في أهداف الارتباط وغاياته، فبعد أن كانت العروس تُقدّم على هذه الخطوة بهدف الاستقرار دون الاكتراث إلى شكل العريس وصورة عرسها لأنّ كلّ ما ترغب به كان الحب والتفاهم مع شريك حياتها، إلّا أنّ الكاتبة توضح التّجديد الذي طرأ على مفاهيم شهرزاد القديمة، التي باتت تغريها المظاهر وتهمّها الكماليّات دون النّظر إلى نواة الأشياء والأحداث، لذلك نجد في ختام الوجيزة مفارقة تشير إلى تكسّر الصّورة التي رسمتها شهرزاد وأعدّت كل تفاصيلها حتّى ينهر بها جميع من حضر عرسها الأسطوريّ، وكأنّ من ستشاركه بقية حياتها هم الحضور لا الزّوج، هو نفسه الذي بتنا نجده يتفاخر بعروسه التي تبني بيتها خارج منزلها.

تتسم الأعمال الرّقمية ببلاغة التّكثيف، وهي تعدّ مشهدية تلاحمت فيها الهندسة البصريّة والطّباعيّة والصّوتيّة لتثير دهشة القارئ، لذلك تناسب ترجمة القصة الوجيزة إلى فيديو رقمي، إلّا أنّها لم تكن ترجمة موازية، لأنّ النّصّ في العمل الرّقميّ مفتوح يُبنى على الرّموز والإشارات التي تحتاج إلى تأويل، ومع مرافقة الموسيقى له، يتمّ شحنه بطاقة فنّية كثيفة.

نلاحظ في العمل الرّقميّ استخدام اللون الزّهري الذي يشير إلى شهرزاد الأنثى والحلم الذي تسعى إلى بلوغه: يوم العرس، كذلك تلاعب استخدام اللون الأسود في مشهدين بارزين؛ المشهد الأوّل لرقصة العروسين برز بلون أسود ممزوج بالرمادي، وهذا دليل على انعدام الثّبات والوضوح، في حين أنّ العروسين في نهاية الفيديو ظهرا بلون أسود داكن واضح، وفي ذلك ترجمة لوضوح الصّورة وتجليها من زيف المشاعر. أمّا فيما

يتعلّق بالمشهد النّهائيّ، فقد جاء ترجمة مثاليّة للمفارقة التي وردت في نهاية القصة الورقيّة، عندما سقطت كرة زجاجيّة في مياه ساكنة حوّلت سكّينتها إلى اضطراب.

كذلك نجد في العمل الرّقميّ تفاعلاً عبر الموسيقى الهادئة التي تعكس أجواء الفرح في الأعراس، كما عبر استخدام صورة الساعات التي تدلّ على أهميّة الوقت في تكشف الحقائق وجلاء أفعنة الكذب. فضلاً عن ذلك نلحظ انتقاء الأفعال غالباً من النصّ الورقي، وإدخالها في الفيديو بتقنيات تشوّق المتلقّي، وهو ما تجلّى عند إدراج الكلمة الأخيرة «العروسين» في المشهد الأخير، حيث جاءت منسجمة مع لحظة الانفصال، فبعد أن ظهرت بإطار كلمة واحدة، ما لبثت أن تحوّلت إلى نسختين تباعدان إلى جهتي الشاشة يميناً ويساراً مع سقوط الكرة الزجاجيّة في المياه.

يتمكّن متلقّي العمل الورقيّ والرّقمي من استقاء القيمة الاجتماعيّة التي ضمّنتها الكاتبة في القصة الوجيزة «عرس شهرزاد الجديد»، لمواجهة الإبادة الجماعيّة والروحيّة والفكريّة التي تجتاح ثقافتنا، وما آلت إليه أمور العروسين كانت متوقّعة منذ البداية؛ إذ أنّ الارتباط كان مفكّكاً من اللحظة الأولى للعرس الاسطوري، لأنّ الحضور وعيون النّاظرين وثنائهم كان الطّرف الآخر في هذا الارتباط.

احكي يا شهرزاد: «أحاديث عمر»

تمارا شلهوب جاد

من «شهرزاد» ألفيّة ليالي الملاح التي وسمت تاريخنا العربيّ الأدبيّ بوشوم أساطير أصيلة نطقت بها ابنة الوزير، لتشتري بتأزم عقدة كلّ منها، كلّ ليلة، يوماً ماسياً آخر تحياه على حدّ سيف عقدة شهريار من خيانة حواء؛ ألفيّة تفتّقت عنها أقاصيص ترفل بوشاح الإبهار والسّحر والمغامرات والحبّ، إلى «شهرزاد» الألفيّة الثّانية التي، سكّنت عن القصّ عمراً، غائرة في دهاليز البحث عن جماليّات السّرد، غارقة في يَمّ النّقد الأدبيّ للشّعور والنّثر، غائصة على درر التّعليم طرائق ومناهج، وكأنيّ بها تبحث عن ذاتها بين دقّات الكتب، قارئة وباحثة وناقدة، وإذا بها بعد ثلاثة عقود ونيّف، تجد ضالّتها، كما خيميائي «كوبلو»، تحت قدميها، في لبّ حياتها، بين ثنايا ذكرياتها، في كتب عمرها.

الكاتبة درية فرحات فاضت بالكلام المباح، في مجموعة قصصية سطّرت حكاياتها، ووطنياتها. قصص، اختزلت حياتها، حتّى ليتبدّى للقارئ الذي يعرفها، أثر جرح الجنوب الغائر في عمرها، إذ تجلّى أبهى ما تجلّى مع العجوزين اللذين حافظا على مقدّسات وحيدهما بأصالة غبارها، ودفء تفاصيلها، ودقائق صغائرها، تُصبرهما على ويلات اجتياح العدو في أوائل الثمانينات، فإذا بالملّحين الغاشمين يدخلون حرم ذكرياتهما، ويدنّسون أغلى ما يملكان: «شرف الغالي الغائب»، ويقضون على بواقي الأمل في الوطن بقتل العجوزين رمز الصمود والإباء والكرامة.

كذلك يتوهّج نبض الجنوب في قلب «درّتنا» في قصّة الطّفّل الجنوبيّ الذي صار، بدفاعه عن حقّه في الحياة عبر بيع الحلوى، رمزاً للبطولة بالفعل، ومجابهة العدو المسلّح بقامته الطّفوليّة الصّغيرة، وصوته الصّارخ البريء، ولثغته المحبّبة، لا بالقول كما كان يفعل الزّعماء الكبار قامّة، الصّغار كرامة، وما زالوا...

أمّا ذروة الانتماء الجنوبيّ، وقمّة النّضحية الحقيقيّة، فتنبلور في القصة القصيرة جدّاً «بناء»، التي أبدع الزميلان رامي ومنيرة في إنطاق خرس ورقها، صرخة رقميّة مدوّية، إذ هدم قصف العدو بناء البطل حجرًا، وأحلامًا، وبشرًا. وقد أشار زميلانا إلى الحجر في رسوم حجارة أشبه بالحصى يمسك بها صاحب الدّار، يتأمّلها، وتنتاهى إلى ذاكرته أحداث حياته التي اختصر هذا «البناء» مراحلها، من ولادة ابنه، فدخله المدرسة، فتخرّجه ونيله الشّهادة، إلى تسلّمه عمله المرموق... ذكريات وتفاصيل، أفصح عنها زميلانا بصور معبّرة، ابتدأت بصورة الرّجل الحاني على حجارة بيته، وقد قصمت قذائف العدو الظّاهرة على شكل طائرات، ظهر حياته، مع صور الكتب التي تشكّل هيكل البيت، وكأني بهما يفصحان عمّا سكنت عنه الكاتبة بأنّ العلم هو السّبيل الأوحد لبناء الأوطان، قبل أن يتبادر لنا الفينيقي، رمز الانبعاث الجديد، وطير الحمام رمز السّلام عقب الشّهادة، وغصن الزّيتون أحد أهمّ رموز فلسطين الحبيبة، والحياة عقب الموت، إثر تبّلغ الوالد من خلف بحار المقاومة التي جسّدها زميلانا برسم سفينة تمخر الأمواج متّجهة صوب الوالد، (إذ تبّلغ الوالد) نبأ استشهاد ابنه على طريق القدس، فشمخت هامته التي حاول أن يحنيها قصف العدو، فخرًا واعتزازًا حقيقيًّا، لا بشهادة دنيويّة عليا على طريق العلم، بل بشهادة مقاومة مقدّسة، شريفة، على طريق القدس.

والغائص على درر الكاتبة في شهرزاديّاتها الوطنيّة، لواجد فيها قبساً من أملها الدائم في نهضة وطنيّة تصبو إليها نفس الكاتبة، وتتمثّل في قصّة «أمل الأرض» التي حاول العدو تدنيسها، وتبويرها، وتعقيرها، وتغيرها، فبكتّها الزّوجة التي فقدت كلّ أمل في إحيائها من جديد، بينما تركّزت عينا الزّوج، لا تحيدان، عن نبتة يانعة خضراء، بارقة انبعاث جديد، لم تتجح سنوات اليأس والسّراب الطّويلة في إطفاء شرارته، فيترك عكاز عجزه، وينسى شيخوخة سنواته، ويثب نحو ريان الأمل الأخضر الباقي في الأرض والروح.

كذلك لا يخفى على القارئ القارئ ذكاء الكاتبة في تقمّصها شخصيّة شهرزاد، لا من باب استضعافها كإحدى حظوات الملك شهريار، إنّما احتفاء بها، أنثى مكتملة الأنوثة، مكتملة العقل، أنموذجاً للفتنة وحسن التدبير والتّملّص من براثن الذّكورة الباطشة الغاشمة. «أحكي يا شهرزاد» استحضار لشهرزاد الماضي بحنكة أنوثتها، وحكمة تفكيرها، وليونة تصرّفاتها، لتنتشج بجسد وروح شهرزاد الحاضر، بثقافتها، وانطلاقها، وحرّيّتها، وما الأقوال المأثورة التي تسم بها «درّتنا» باب كلّ فصل من فصول مجموعتها، سوى تأكيد على إصرارها على دعم المرأة العربيّة التي حاول شهريار العقد النّفسيّة، وشهريار التّخلف، وشهريار العنصريّة تحطيمها إذ تقول الكاتبة على لسان «سيمون دي بوفوار»: «إنّنا نحبس المرأة في المطبخ أو في المخدع، وبعد ذلك، نُدهش إذ نرى أبقها محدوداً؛ ونقصّ جناحيها، ثم نشكو من أنّها لا تعرف التّحليق!».

قراءة في القصّة القصيرة جدّاً: بعنوان «عمر»

مريم محمود سرور

النّص: عُمر

هل تُسأل المرأة عن عمرها؟

عمرها بعمر الورود والشّباب... عشرون

عمرها بعمر النّضج والخبرة... ثمانون

عمرها بحساب السّنين... أربعون

عمرٌ يختصر الحياة...

1 - مقدمة

قراءة في قصة عمر من مجموعة «أحكي يا شهرزاد» القصصية للدكتورة درية فرحات. كتاب صادر عن دار الأمير، بيروت 2019. والكتاب يضم 34 قصة قصيرة جداً. في هذه المجموعة القصصية تتجلى رؤية الكاتبة وموقفها من قضايا المجتمع، حول المرأة والوطن، تُعبّر عن فكر إنساني يؤشّر إلى ثقافة الكاتبة الواسعة وحسّها النقدي، والقصة الرقمية أداء وإعداد: منيرة الحجار.

وشهرزاد هي المرأة التي استطاعت أن توظف الحكاية لحماية نفسها وبني جنسها من الملك شهريار، فتبتدئ صفات هذه الشخصية بوضوح وذلك بفعل الرمزية التراثية والمعنى العميق لهذه الشخصية. أمّا شهرزاد المعاصرة فتطلب منها القاصة أن تحكي حكايات وطنها وأن ترقى بها إلى مستوى إنساني، وأن تغدو حياتها ملك يديها، فتعيشها كما تريد (زراقت، 2020، فقرة 1).

2 - العنوان

أول ما يشدنا إلى قراءة هذه القصة هو العنوان «عمر» الذي أثار فينا تساؤلات لنبحث في دلالاته، وإيحاءاته، هل هو عمر الإنسان عامّة؟ هل من عمرٍ محدّد؟ فهذا العنوان هو أحد المفاتيح الرئيسة لاكتشاف النصّ وتفسير محمولاته الفنية والدلالية (المناصرة، 2015، ص10).

ومن جهة الحجم، فقد اقتصر على كلمة واحدة، كلمة هي خلاصة القصة وزيدتها، والقلب الذي تنبض من خلاله، وهو يحمل دلالات عميقة عند التأمل فيه من حيث الإيحاءات الواسعة التي تفضي إليها هذه اللفظة «عمر» في مستوى علاقتها بالثقافة والوعي المتشكّلين داخل المتلقّي، وما يحمله عند تحليله أو ترميزه في سياق الإيحاء والرمز. فالعمر هو الزمن الذي مضى على الإنسان منذ ولادته، والذي يسير بوتيرة التقدّم مروراً بمراحل الشباب، وسنّ النضج، وصولاً إلى التقدّم بالعمر، فيطرح هذا العنوان تساؤلاً: ماذا يُمكن أن نتوقّع من هذه القصة؟

3 - البداية

البداية في هذه القصة، بالغة الأهمية، لأنها تُحدّد منذ البدء الحركة في القصة، وهي ليست وصفيّة ساكنة، بل تبدأ بالسؤال «هل تُسأل المرأة عن عمرها؟».

يُثير هذا السؤال حالةً من التفكير والتشكيك، ليأتي الرّفض، رفض الراوي لهذا الطّرح، وانعكاسه على رفض المتلقّي، وبالتالي رفض المرأة إذ تطغى هنا لغة النّقد، وتصوير حالة المجتمع وهو العنصر الأساسي في هذه القصة، وجاء هذا الطرح متوافقاً مع صور القصة الرّقميّة، إذ تبدو على المرأة علامات الانزعاج والغضب، مصحوبةً بعلامة تعجب! وكأنّ العمر محصور بإطار السنين، أو العمر هو نظرة مجتمعيّة يُحدّد بها المرأة، مولياً الشّكل أهميّة دون النّظر إلى الخبرات والعطاء، لتأتي الإجابة مُعبّرة عن فكر القاصّة أنّ العمر «عمر يختصر الحياة».

4 - الشّخصيّة

ترتبط الشّخصيّة بالحدث ارتباطاً وثيقاً، وللشّخصيّة أبعادها المتعدّدة الجسميّة والنفسيّة والفكريّة والاجتماعيّة وما إلى ذلك (أحمد، لات، ص12). إنّ محدوديّة المساحة النّصيّة للقصة القصيرة جدّاً لا تتطلّب أكثر من شخصيّة فاعلة في هذه القصة، وهذه الشّخصيّة هي ذات الراوي، الذي يتحاور مع ذاته حول: هل تُسأل المرأة عن عمرها؟ لتأتي الإجابات حمالة مضامين فكريّة واجتماعيّة، وتأخذ أبعاداً أخرى من خلال حرص الراوي على تمكيننا من زخّاتٍ من المعنى بين الفينة والأخرى، فلم تُعد هنا الهيمنة للجملة السرديّة بل إلى الحوار والوصف التّصويري للحالة الموصوفة:

«عمرها بعمر الورود والشّباب ... عشرون

عمرها بعمر النّضج والخبرة ... ثمانون

عمرها بحساب السنين ... أربعون».

5 - المتن النّصي

وهو ما يُطلق عليه «النّسيج اللّغوي»، فيشمل الحوار والسرد، فهو المتن النّصي الذي يُجسّد الحدث ويشكّل الشّخصيّات، ويتنامى معها في اتّجاه تحقيق الأثر الكلّي (أحمد،

لا.ت، ص14-13).

فالحوار هنا مع الذات، وقد جاء الفعل المضارع بصيغة المجهول «سأل»، فالسائل غير محدّد، وبما يفتح على تأويلاتٍ متعدّدة تُمثّل أغلبية المجتمع الذي ترفضه القاصّة، فلا تقبل بهذا المنطق، حتّى «شهرزاد» والمرأة المعاصرة، ترفض هذا التساؤل، فالحوار هنا حوار الدّوات داخل القاصّة، وهذا ما يعطي هذه القصّة أهميّة خاصّة، لاختيار لغة الإشارة والتّلوّيح بدلاً من المباشرة والتّصريح. وهذا ما حثّم على القاصّة أن تولي أهميّة كبرى للغة ومستوياتها وقدرتها على التّصوّر، بحيث جاءت اللغة بالغة التّكثيف والتّركيز والاقتصار، بحيث أوحى كلّ لفظةٍ إلى المعنى المطلوب

«عشرون = عمر الشّباب».

«ثمانون = عمر النّضج والخبرة»

أربعون = السنّ الذي يحمل رمزية لدى المرأة، بينما هو عمر العطاء، فكأنّ عمر المرأة كلّها عطاء.

6 - الزمان والمكان

يطغى على القصّة عنصر الزّمن، بدءاً من العنوان «عمر» إلى تحديد عمر المرأة، بدءاً من عمر الشّباب، وصولاً إلى الكهولة، مروراً بسنّ الأربعين، ليصوّر حالة اجتماعيّة بقلب نقدي؛ فيتلاشى الزّمان أمام عطاء المرأة، ويغيب المكان المحدّد، ويغيب الحدث ويتوارى السّرد، فالمكان هنا وهناك، غير محدّد بإطار جغرافي معيّن، هو زمن العطاء في كلّ الأمكنة.

7 - الخاتمة

تميّزت هذه القصّة القصيرة جدّاً بقصر الحجم والاعتماد على الإيحاء المكثّف، بالإضافة إلى سمة التّلميح والاقتضاب، مع الميل إلى الحذف والإضمار، ولغة تميل إلى الانزياح والصّورة والخيال (فرحات، 2022، فقرة 9).

فالنهاية هنا هي لحظة التّثوير التي يكتمل بها الأثر، ويتشكّل المعنى، فعمر المرأة لا يحده زمان ولا سنوات بل هو «عمر يختصر الحياة» وهذا ما يُجسّد وعي القاصّة. حيث

ظهرت أدواتها في القدرة على التجدد والابتكار، وأن ترسم واقعًا محكمًا يستطيع كلّ منا أن يرى أن هذه القصص هي مرآة نرى أنفسنا فيها.

والجدير بالذكر هو أن الأدب الرقمي أو القصة الرقمية التي أنتجتها الرّميلة منيرة الحجار، إعدادًا وتقديمًا هي ثمرة التغيرات التي طرأت على الأدب بدخول التكنولوجيا.

فقد جاء هذا العمل مُتقنًا متناسبًا مع القصة بما فيه من الموسيقى والكتابة والفن البصري، وتوافق الشّخصيّة الأساسيّة، من حيث التصوير والتّعبير عن الحالة النّفسيّة، فهو يحمل الرؤية المعدّة تجاه عملية الإنتاج الأدبي والتلقّي. فنحن أمام ظاهرة أدبيّة تبتّ الروح بين السّطور، فتُصبح القصة منتمية إلى المجتمع المعاصر: المجتمع الورقي.

المصادر والمراجع

- أحمد، حسن غريب (لا.ت). التقنيات الفنيّة والجماليّة المتطوّرة في القصة القصيرة. طبعة إلكترونيّة www.kotobarabia.com
- زراقت، عبد المجيد (15 شباط 2020). دريّة فرحات... شهرزاد الحكايا المعاصرة، جريدة الأخبار. بيروت: al-akhbar.com
- فرحات، دريّة (11 مارس 2022). ندوة أدبيّة حول إحكي يا شهرزاد، مجلّة البناء، al-binaa.com
- المناصرة، حسين (2015). القصة القصيرة جدًّا، رؤى وجماليّات، إريد: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع.

الخطاب الأدبي الرقمي (الإنتاج والتلقي بالقصة القصيرة جدا)

ليندا حجازي

نتج عن التطور الهائل في مجال الإعلام والملتيميديا واستثمار الوسائط المتعددة والتكنولوجيا الحديثة، جدل كبير حصل في الساحة النقدية والأدبية، نتيجة الانتقال من فضاء النص الورقي إلى فضاء النص الرقمي، مما مَسَّ المرجع في جوهرين مهمين من نظرية الأدب، وهما عمليتا الإبداع والتلقي.

وهذا ما استوجب الانتباه إلى خصوصية الخطاب الأدبي الرقمي وطبيعة النص الرقمي في حد ذاته، النص الذي تألف فيه الكلمة مع الصورة والصوت واللون ويرتبط بوصلات وقنوات تفاعلية.

وإن المتابع للنصوص الرقمية وبخاصة القصة القصيرة جدا أنموذجًا، كتابةً وتلقيًا أدبيًا. يطرح تساؤلات عميقة، مستوحًا عن كيفية عبور القصة الورقية التي تعتمد اللغة المقروءة إلى القصة الرقمية باعتماد تقنيات الرقمنة.

وإن القارئ الرقمي حين تصطدم حواسه بالصورة المرئية (تشكيل الصورة والألوان وحركة الجمل والفيديوهات) والموسيقى المسموعة (التشكيل السمعي)، يظل باحثًا عن ماهية إنتاج الدلالة القصصية وتعميق الرؤية الفنية بالقصة القصيرة جدا.

ومن أجل ذلك ستسعى الدراسة إلى الإجابة عن شتى الإشكاليات المتعلقة بمفهوم الأدب الرقمي وستكشف عن الأدوات الإجرائية القادرة على خلق أدب رقمي بالقصة القصيرة جدًا، ساعية في ذلك إلى استجلاء أهم المفاهيم التقنية في بنية النص الأدبي الرقمي، ومجمل الروابط التي تحكم الخاصية التفاعلية..

كلمات مفتاحية:

الزمن الرقمي، الأدب الرقمي، المؤلف الرقمي، القارئ الرقمي، الفضاء الافتراضي، التناص الاسترقامي.

تقديم

على وسيطٍ، هو شاشة كمبيوتر، ظهر الأدب الرقميّ كونه جنسًا أدبيًّا جديدًا بالسّاحة الأدبيّة، كتابةً ونشرًا.. ولعلّ ما يميّزه عن باقي الأجناس أنّه للوهلة الأولى يظهر على جدار المتصفح معتمدًا على دمج الوسائط الإلكترونيّة المتعدّدة، سواء بالوصلات النصيّة و/أو الصّوتيّة، أو/والحركيّة.

واستنبط أفضيّة تسمح للقارئ بالمشاركة أو بالتحكّم والنقد وتباين الرّؤى الفكريّة، وتمنح للقارئ مساحة للتفاعل والمعرفة واسعة.

وانطلاقًا من تداعيات عصر السيولة الذي أنتج الأدب الاستهلاكيّ الذي يمازج بين الأدب، وتكنولوجيا الاتصال الحديثة، ويصهر الثقافة الصلبة للأدب الورقيّ ويستبدلها بثقافة جماهيريّة استهلاكيّة وانطلاقًا من مقارنة السيولة لزيجمونت باومان(*)

نودّ طرح الأسئلة التالية:

- ماذا يُقصد بالأدب الرقميّ؟ ما هي أهمّ مميزاته وخصائصه؟!
- ما هي أهمّ المفاهيم التقنيّة في بنية النصّ الأدبيّ الرقميّ؟
- ما الأدوات الإجرائيّة القادرة على خلق أدب رقميّ بالقصّة القصيرة جدًّا؟

أولاً- النصّ الأدبيّ الرقميّ: المفهوم والخصائص

1 - مقاربات المفهوم الرقميّ

- الثقافة الرقميّة عمومًا، والأدب الرقميّ، على وجه الخصوص.

تعدّدت تسمياته واضطرب كثيرٌ من الباحثين في ضبط حدوده.. فمنهم مقارن وباحث في خصائصه التي تميّزه من النصّ الأدبيّ غير الرقمي. ومنهم مدافع عنه مستشرف لمستقبله الديجيتاليّ الذي يتجاوز الدّكرة في ظلّ الثورة التكنولوجيّة، ومنهم معاند بالثابت والمتحوّل بالأدب وغيرهم مفاخرٌ بعناصر العمليّة الإبداعية (المبدع الرقميّ، والنصّ الرقميّ، والقارئ الرقميّ).

وفي إطار محاولة تحرير هذا المفهوم الأدبي من مفوماته السابقة التقليدية، أقترح هذا المفهوم المرتبط بالاسترقام(*) (التناسي)/(الوسائط الإلكترونية) لا غير:

الأدب الرقمي هو ناتج معرفي تناسي سائل لعملية صوغ لإمكانيات ممنهجة توظف وسائط، عبارة عن خطط وإستراتيجيات دقيقة متفاعلة فيما بينها، وهندسة للمعنى تُنتج تعبيرات بلغة مرقمة... دون المساس بمرجعية نظرية الأدب...

وعلى هذا الأساس نزع أننا حددنا رؤيتنا للنص الرقمي من حيث:

- المبنى /« التفكير التصميمي» .. رصد المقصدية من التقنيات والروابط الرقمية.

- ومن حيث المعنى /«مقصدية دوره الإبداعي والجمالي» التي تعبر عن حالة انتقالية لمعنى الوجود، ومنطق التفكير، وإدراك المعرفة.. مراعيًا في ذلك نظرية الأدب كمرجع يلتزم بالمؤسسة الأدبية وقيم الذوق الأدبي العام.

2 - خصائص النص الرقمي

تدور ملامح وميزات النص الرقمي حول:

1 - مركز ثابت إدراك المعنى الرقمي والقبض على المعرفة.

2 - ومتحولات تبحث في أهم أنواع الوسائط التفاعلية وقصديتها المرافقة للغة في النص الرقمي.

3 - أفضية وأحيزة تتقصد توظيفها بكفاءة ودقة تبعًا للشروط الجمالية والتقنية.

4 - اللاخطية والسيولة.

إذا كان الفضاء النصي الورقي يتسم بالخطية التي يكون فيها القارئ الورقي أو المشاهد أو المستمع مشدودًا إلى متابعة النص من بدايته إلى نهايته، لكي يقبض على المعنى والدلالة، يظل يحاول إعادة تشكيل النص، وبناءه، ليكون مشاركًا...

فإن النص الرقمي الذي يدمج الوسيط (الحاسوب) مع الفضاء الذي أوجده ذاك الوسيط (الفضاء الشبكي)، يكون لا خطيًا.

وهكذا فإنه مع «النص المترابط» نلاحظ القارئ الرقمي الذي يتحسس هذه التشعبات والتفرعات، على تنوعها واختلاف طبيعتها، يؤسس خطأ للنص وتشكيلاً واسترقاقاً مختلفاً يناسبه، منطلقاً من طبيعته الذاتية، ويوجد له عبر التفرعات مسارات وتنظيمات أخرى ومفاهيم دلالية أخرى؛ لأنه ينطلق من وسيط مختلف.

ثانياً: سيولة الاسترقاق التناسي

استثناساً بجينيت في كتابه «أطراس» وبـ (النصيّة الفوقيّة) وتأكيذاً أنّ ثمة قارئ يتتبع إشارات النص كي يدرك العلاقة المؤلفة ويدلّل على ما في العمل من تناس.

واستثناساً بمنظري علم السرد الذين أفادوا من التناس في بناء نظرية (الاستبدال Metalepsis) التي تؤكد وجود نص واقعيّ بُني على نص غير واقعيّ، أو تعبر عن التقاء حكاية مضمّنة في حكاية أو قصة تستوحي قصة سابقة.

واستناداً لمونيكا فلودرنك في دراستها (تناوب الاستبدال والنمط الاستبدالي، وتأسياً بما ذهب إليه ويرنر وولف في كتابه استيراد مفاهيم علم السرد، فإنني أجترح هذا المفهوم الاسترقاق التناسي والذي يعني أنّ خارج اللغة المقروءة نجد اللغة الرقمية، وإنه كما نقر بوجود السارد الورقيّ، وبالمسرود له الورقيّ، إنّه ثمة سارد رقميّ، ومسرود له رقميّ، ما يثير حكاية أخرى ما رقمية.

وهكذا فإنّ الاسترقاق التناسيّ ينتهك المستويات المعتادة في بناء الخطاب الورقيّ ويكسر الحدود الأنطولوجية المعهودة.

فتكون بذلك مقصدية الوسائط والروابط الرقمية، والعبارات الوسائطية دالة على الحكاية الرقمية، وكذا السارد والمسرود إليه، والخطاب، والنص الرقميّين..

1 - النصّ: غريبة

غريبة

التفت حولي

أين أنا؟!

أنظر إلى الوجوه

غريبة...!

تعلو الأصوات... تدبك الأقدام... تجلجل الزغاريد

لكنني غريبة... هذا ليس مكاني

أين أنا ؟؟؟ !!!

2 - بالتأويل والقراءة

كما كتب الروائي «مايكل جويس» روايته (الظاهرة، قصة) مستعملاً النصّ المتفرّع أو المترابط، وكما قدّم «روبرت كاندل» الشعر التفاعلي.. هل يمكن حسابان قصة غريبة قصة قصيرة جداً رقميّة...؟!

إنّ المتنبّع لذلك التماهي بين ما هو تكنولوجي، وما هو أدبيّ يلحظ بادئ الأمر استغلالاً لتلك التّقنيّات التّواصلية في قصة (غريبة) للدّكتورة دريّة فرحات... وإنّ الوعيّ بكيفيّة إيصال المضمون السّرديّ الرّقميّ على إثر اتّصاله بالتّكنولوجيا، قد كان واعياً بأنّ القصة في نسختها الورقيّة لا بدّ أن تعبر؛ معتمدة على اللّغة المقروءة، تلك الجسور والمعابر، لتصل إلى ما يشبه القصة الرّقميّة مستعينة بوصلات وتّقنيّات مرقمنة.

وإنّ الفضاء الجديد صار مستحدثاً لأنّه غير نظرتنا للقصة التي كانت تعتمد على اللّغة المقروءة (تشكيل اللّغة المقروءة) فحسب، لتوجد، وتحدث حيّزاً جديداً تتصهر فيه الصّورة المرئيّة (تشكيل الصّورة، والألوان وتناغمها)، والموسيقى المسموعة (التشكيل السّمعيّ)، والحركة (الرّقص أو انتشار الكلمات بمساحة المرئيّ)، في بوتقة واحدة هدفها الأساسي وهي تعبر الوسائط، إنتاج الدّلالة القصصيّة، معمّقة بذلك تجربة القاصّة ورؤيتها وفلسفة وجودها عند الاغتراب الوجودي.

وكما أنّ القاصّة أسطرت القصة القصيرة جدّاً من خلال هذه الغربة التي جعلتها غربة وجود. نرى أنّ منيرة الحجار في قصّتها الرّقميّة قد وظّفت كلّ التّقنيّات الممكنة معتمدةً على مرجعيّتها الثقافيّة، ونجحت في إبراز هذا الاغتراب لو تجاوزنا تفاصيل الألوان المختلفة التي استخدمتها بطريقة متقنة وأيضاً تفاصيل الصّوت والموسيقى، وقمنا بتسليط الضّوء على الحركة. على هذه الرّقصة المولديّة سنراها تعبير عن ضياع الوجهة لما تحويه من غربة وكأنّها تؤدّي رقصة السّماح لتجسيد التّشظّي، ومحاولة الخلاص.

إن نصّ الدكتوراة درية فرحات انكتب بالصّورة، والصّوت، والمشهد السينمائيّ والحركة، مما يشي بأنّ المبدع والمتلقّي على السّواء يستمتعان بمشاهد ذهنيّة، وماديّة متحرّكة، تحوّلت فيها الكلمة الرّقميّة الى وصلة فاعلة بالتّخيل فعل الرّسم والتّصوير مكنتنا من قراءة النصّ الرّقميّ كوحدة متكاملة دالّة. يرتقي فيها التّلقّي إلى القراءة الواعية الفنيّة التي تعمل على الدّمج بين اللّغة المكتوبة أو المسموعة، وبين هذه الوسائط لتكوّن نصّاً تفاعليّاً رقميّاً للصّور، والألوان، والأصوات، والأشكال الهندسيّة حتّى أنّ التّوظيف التّرابطيّ لتلك الوصلات يخدم كل نصّ.

3 - خاتمة

لا يتأتّى النصّ الأدبيّ الرّقميّ، والقصة القصيرة جدا التّفاعليّة إلا إذا انفتحا على إمكانيات قرائيّة متعدّدة ومختلفة ناجمة عن تعبيرات أنتجتها روابط متّصلة بالحاسوب والانترنت، تفعل فيه تلك الوسائط التّرابطيّة فعل الاسترقام بديلاً عن الاستبدال أو التّناص كما بالنّصّ الورقيّ.

وهكذا تبعاً لتعدّد القراء الرّقميين واختلاف مرجعياتهم الجماليّة ومعارفهم بالتكنولوجيا من جهة، واختلاف الوسائط والروابط ومقصديّتها زمان القراءة من جهة أخرى أو تلقّي المعرفة من جهة ثانية.

تصير اللّغة المقروءة غير اللّغة الرّقميّة وذلك راجع إلى تنوّع مصادر العلامات اللّغوية الرّقميّة.

وهكذا لا تكفي الصّور، الحركات، الأصوات، وغيرها بالنّصّ الإبداعيّ على الشّاشة.. ليكون رقميّاً، إنّما الأمر يتعلّق بما يُتيح الحاسوب من برمجيات تدفع الى التّعددية التّقافيّة من خلال خلق قارئ رقمي له مميزات مختلفة تدفعه لملء فراغات النصّ الرّقميّ وتدعوه لدمج معارفه الأدبيّة السّابقة لإرساء ثوابت جديدة وأنساق معرفيّة متحوّلة، قابلة للتّغيّر والتّغيير بزمان لاحق.

المصادر والمراجع

(*) مجلة دراسات، المجلد 11، العدد 2، نوفمبر 2022 الأدب السائل: قراءة في مفهوم الأدب الرقمي في ظلّ مقارنة السيولة لزيجمونت باومان (كتاب زيجمونت باومان، الثقافة السائلة، صادر، سنة 2018) مجموعاته التي صدرت في سنوات متتالية موزعة في مجلدين يتضمّن الأول: الحداثة السائلة، الحياة السائلة، الحبّ السائل، والثقافة السائلة. بينما يتضمّن المجلد الثاني: الأزمنة السائلة، الخوف السائل، المراقبة السائلة، والشرّ السائل.

تمّت ترجمة مجموعة كتب السيولة السائلة للعربية على يد الدكتور حجاج أبو جبر، وقدمتها الدكتورة هبة رؤف عزت في دار الشبكة العربية للأبحاث والنشر عام 2006.

1- حسام الخطيب ورمضان محمد بسطاويسي، (جمادى الآخرة، سبتمبر 2001). آفاق الإبداع ومرجعياته في عصر المعلوماتية، د.ب: دار الفكر، ص 115-56.

2- فاطمة البريكي (2006). مدخل إلى الأدب التفاعلي. الدار البيضاء المغرب: المركز الثقافي العربي، ص 81-80.

3- سعيد يقطين (2005). من النص إلى النص المترابط: مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي، ص 75-73.

4- علي حرب (2002). العلم ومأزقه: منطق الصدام ولغة التداول. الدار البيضاء المغرب: المركز الثقافي العربي، ص 155، 156.

5- أشرف الخريبي (2008). النص الرقمي. مجلة الجودة، العدد 19، 372/374.

https://issuu.com/aljoubah/docs/jobah -

6- باومان، زيجمونت (2016). الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، تر. بثينة إبراهيم وسعد البازعي. أبو ظبي: هيئة أبو ظبي، ص 11.

Velikovsky, T. J. (2014). **Why Some Things Are Popular**. Sydney. p.56

8- نادية هناوي،

https://www.alquds.co.uk/ /

9- نادية هناوي، الاستبدال أو الميتاليسيس... والسرد غير الطبيعي،

https://aleshraqtv.iq/all-detal.aspx?jimare

10- نادية هناوي.. نفس المصدر السابق..

(**) خاصة الوضع الشعبي للبرمجة وهو ترتيب يعرف بـ (LIFO) وهو طريقة حوسبية في تتبع حركة المخزونات، حيث الذي يرد أخيراً يصدر أولاً.

11- ريتزر، جور؛ وجيفري، ستيفسكي (2021). النظريات الحديثة في علم الاجتماع، تر. الدوسري، ذيب وعمر أحمد و الرديعان، خالد. الرياض: جرير، ص 87.

Political Tension and Existentialist Angst in the Drama of Harold Pinter and ‘Isām Mahfūz

التوتر السياسي والقلق الوجودي في مسرح هارولد بنتر وعصام محفوظ

Joelle Roumani

جويل روماني

تاريخ القبول 2025 /3/12

تاريخ الاستلام 2025 /2/28

Abstract

This research presents a detailed comparative analysis between Harold Pinter’s *The Dumb Waiter* and ‘Isām Mahfūz’s *The Dictator*. It transcends linguistic, cultural and historical boundaries to explore the cross-resonance between these two plays and the sharp dramatic, political, and existential affiliations between their two playwrights.

In a significant manner, both plays distinctively reveal Pinter and Mahfūz’s conscientious political stand against manipulation and totalitarianism. They represent the defeated and crushed victims of modern democratic systems as they expose the underlying hypocrisy and dinginess of their practices.

Through theories of existentialism, especially Jean Paul Sartre’s main philosophical precepts of human freedom as a condemnation rather than a blessing and of man’s free choice as burdening, and Albert Camus’s notion of the absurdity of life and existence, this article argues that Both Sa’dūn and Gus are afflicted with angst being the quintessential representatives of existential heroes who are heavily caught in the absurdity of

existence and who tremendously suffer from the consequences of their free choices.

Different theater productions and adaptations of the two plays are also fully examined to dwell on their enduring influence on and reception by viewers at different times and places as they deliver an undying comment on man's inescapable sense of ennui and on the duplicity of modern politics.

The study analyzes the commonalities between Pinter and Mahfūz. The thematic analysis draws on the similarities between their representations of a debased human condition in an afflicted world where political, social, and moral corruption have become the norm.

Keywords: Pinter, Mahfūz, Theater, Absurdism, Political Tension, Existentialist Angst, Staging Performances, Dramatic Language, Reversed Dramatic Irony, Farce, and Tragicomedy.

ملخص

يقدم هذا البحث تحليلاً مقارناً مفصلاً بين مسرحية «النادل الأخرس» لهارولد بونتر ومسرحية «الديكتاتور» لعصام محفوظ. يتخطى هذا البحث الحدود اللغوية والثقافية والتاريخية لاستكشاف التقاطع بين هاتين المسرحيتين والارتباطات الدرامية والسياسية والوجودية الحادة بين كاتبتي المسرحيتين.

وتكشف المسرحيتان بشكل واضح عن موقف بونتر ومحفوظ السياسي الواعي ضد التلاعب والاستبداد. فهما يمثلان الضحايا المهزومين والمسحوقين للأنظمة الديمقراطية الحديثة بينما يفضحان التفاف الكامن في ممارساتها ونفاهتها.

من خلال نظريات الوجودية، خاصة مقولات جان بول سارتر الفلسفية الرئيسة عن الحرية الإنسانية كونها إدانة لا نعمة، وعن حرية الإنسان في الاختيار الحر كونها عبئاً

على الإنسان، ومفهوم ألبير كامو عن عبثية الحياة والوجود، يرى هذا المقال أنّ كلا من سعدون وجاس مصابان بالقلق كونهما الممثلين المثاليين للأبطال الوجوديين الواقعيين بشدّة في عبثية الوجود ويعانون بشدّة من عواقب خياراتهم الحرّة.

كما يتم فحص الإنتاجات المسرحيّة المختلفة للمسرحيتين وتكيفهما بشكل كامل للتطرق إلى تأثيرهما الدائم في المشاهدين وتلقيهم لهما في أزمنة وأماكن مختلفة حيث يقدمان تعليقاً لا يموت على شعور الإنسان الذي لا مفرّ منه بالملل وعلى ازدواجية السياسة الحديثة.

تحلّل الدّراسة القواسم المشتركة بين بنتر ومحفوظ. ويعتمد التحليل الموضوعي على أوجه التشابه بين تمثيلاتهما للحالة الإنسانيّة المنحطّة في عالم منكوب أصبح فيه الفساد السّياسي والاجتماعي والأخلاقي هو القاعدة.

كلمات مفتاحيّة: بنتر، ومحفوظ، والمسرح، والعبثية، والتّوتر السّياسي، والقلق الوجودي، والعروض المسرحيّة، واللّغة الدّراميّة، والسّخريّة الدّراميّة المعكوسة، والمهزلة، والكوميديا التّراجيديّة.

Introduction

The theater of the late twentieth century has marked a tremendous departure from the preceding dramatic tradition with its classical, realistic or naturalistic worlds. Its pioneers, whether in the West or the East, were after creating a different kind of theater that would have the power of presenting the complicated and unfathomable world of this historical era. Harold Pinter is considered one of the most influential architects of this new Western theater that dispensed with the concept of the well-made play as the traditional model of play construction and evolved anarchic plays where logical construction and argument have given way to irrational and illogical speech, and ultimately

to silence. Pinter's plays clearly reveal his faithful commitment to this new theatrical form and thus depict a comic world mixed with horrific or tragic images, characters caught in hopeless situations forced to do repetitive or meaningless actions, dialogue full of allusions, clichés, wordplay, and nonsense, and plots that are cyclical or absurdly expansive (Esslin 8).

The theater in the Arab World did not witness this radical change simultaneously. It was only with 'Isām Mahfūz, a Lebanese playwright and the leading pioneer of the modernist movement in the Arab Theater (Khalīdā al Sa'īd 474), that this sweeping transformation in the Arab theater was fully actualized. His plays are absurdist on the surface—with their incoherent structures, incomprehensible worlds, lack of causality, and confounding language—but they surely have their elements of originality. Mahfūz did not import the Western theatrical forms and contents and simply reproduced or translated them to Arabic; he innovated a new form of theater and an alternative language (Māhir Sharaffiddīn) that, according to Shafiq al Bika'ī, would perfectly befit the entire Arab World with all its contemporary moral, religious, social, national and most importantly political crises (591).

Pinter and Mahfūz are overtly and conscientiously critical of the tradition, the literary, political, and social. Theater, for them, is necessarily a peculiar world where concessions—as presenting satisfactory background information about their characters and their motives—should not be made, where norms—especially



the literary norms of exposition, comprehensive plot, characters' motivations, etc.—are upset and expectations unmet. It is not to be subject to any form or compromise, at any level. Their compositions, henceforth, are considered by many rebellious and outraging, their language is abortive and uncommunicative, their actions disruptive and irrational, and the worlds of their plays desperate and violent.

Within these unconventional theatrical tools, their drama flourishes as a new aesthetic form to faithfully represent the dilemmas of their age. They never promise their readers any sort of satisfactory answers; they render their audiences unhappily quizzical about any kind of meaning in this vast incomprehensible world. The immediate response of a casual spectator would be one of terror and hilarity as both playwrights had relentlessly endeavored to merge these two aspects in order to create a different kind of dramatic experience, charged with anxiety and tension—the kind that makes their viewers wriggle poignantly in their seats. Reassuring themselves that is a mere farce, the audiences will ironically get to realize that this is real, more real than reality itself. The starkly negative view about life portrayed in Pinter and Mahfūz's plays cannot be easily dismissed as untrue. Beyond the absurdist structure of their plays, there lies a sharp realization of the oppression and repression that plagues modern man in this so-called democratic historical era.

Both playwrights have been actively and overtly involved in the political context of their time. Pinter might appear apolitical in

his early plays, but he certainly is not. Pinter's political views were either domesticated or overtly exhibited the politics of sex and marriage, of racism, of disintegrating partnership, of victim and victimizer—mostly the politics of torture and oppression. To Pinter, everything can be interpreted politically, “everything is matter of politics,” (Qtd in Raby 8), and he has been able to successfully enact this ideology in all his dramaturgy where personal and local issues have the power to reveal the larger political and social contexts. With ‘Isām Mahfūz, the political concerns are more explicit. They are not disguised or transformed into domestic or local issues. Mahfūz has, for almost 40 years, launched a relentless attack on the oppressive political systems that were wreaking havoc in the Arab World. His plays reveal his dread from the cruel and repressive Arab regimes that demolish all hope of a free, just, and equal world.

Pinter and Mahfūz express the current moments faithfully, mainly dramatizing the political contexts during which these plays have been written. In Pinter's second one-act *The Dumb Waiter*, political overtones abound. Beneath the seemingly restricted plot and limited connotations, the analytic eye can detect the oppressive master/system that sadistically tortures its servants and playfully watches their destruction.

Though the two plays were written 40 and 50 years ago, they surely strike us with their contemporaneity. It is true that they represent their age faithfully, but they also transcend the confines of time and space to communicate essential truths



about life that cannot be outdated. The plays transcend the restricted locality to encompass a collective human experience of alienation, oppression, and desperation as the byproduct of man's demoralization in the politically amoral world of the 20th century. Gus and Ben are perpetrators of crime, gangsters, hired killers but their plight in the existential sense is everyman's plight. Similarly, Sa'dūn and the General seem vulnerable, insecure and menaced, though the revolution—they have presumably brewed—as the dialogue reveals, is a successful one (The Dictator 124). They are confronted by fears, the subsequent creation of their own 'game', and fated to perish because in this game the oppressed members of the 'organization' become the oppressors, the hunters become the hunted. Thus, as Gus has finally become his senior comrade's 'job', Sa'dūn has turned to be the king and is eventually doomed to be eliminated by his companion in struggle (Stokes 41).

In this article, I will attempt to reveal through my comprehensive analysis of Pinter's *The Dumb Waiter* and Mahfūz's *The Dictator* the reality and the depth of the vision of the two artists who prophetically and ominously predicted more degeneration into the existing political and social systems. I will dwell fully on the implications of *The Dumb Waiter* revealing its political underpinnings and its existential quality, and I shall underscore the political and the existentialist quality of *The Dictator*. The comprehensive analysis of the two plays will not be comprehensive unless the cross-resonance between the two plays is fully explored.

Discussion

Some modest references have already been made to the plays' political implications. Yet, these implications are not fully and satisfactorily explored.

In the following sections, I will explore in depth the political aspects of the play to reveal that in *The Dumb Waiter*, Pinter is very much a dramatist with an active political conscience. I will also present a thorough analysis of *The Dictator's* political nature, something that Mahfūz has never denied.

The Dumb Waiter by Harold Pinter

Summary of The Dumb Waiter

The Dumb Waiter is a genuine comedy of menace revealing Pinter's ability to produce a type of comedy built on the quicksand of threat and fear.

In this confined surrounding, two men of no particular age, called Ben and Gus, are waiting. Ben has a newspaper from which he occasionally reads out random passages and from behind which he watches crossly as Gus moves restlessly about the room. They exchange few incoherent conversations about trivial matters, interrupted by Gus's frequent questioning about the length of the job they are on and about what time "he" is likely to get in touch with them. Ben resents his partner's constant inquires and repeatedly tells him to shut up, and Gus seems extremely annoyed with the room's condition.



As they are waiting, someone thrusts an envelope under the door causing the two fellows to feel alarmed. When Ben snatches his revolver from under a pillow and opens the door to check who pushes the envelope, viewers become aware that these cannot be ordinary working men, and that the “job” they are hired to perform is not an ordinary everyday job. They are certain now that these are hired assassins, professional killers awaiting instructions from a large and mysterious organization for their “next job.”

A sudden clatter from the back of the room, produced by a serving hatch, stops Gus’s disquiet irritation about the nature of this job. This dumb waiter suddenly starts to descend to the basement with orders for food. Anxious not to be discovered, the two hired assassins try to fulfill these orders with whatever food Gus has in his bag. However, when their stocks run dry, they decide to send a written note. At this point, the speaking tube works and Ben, who speaks into it with great awe, is told something, and most probably is given the instruction concerning the “job.”

Their banter resumes afterwards. Gus exists to drink a cup of water and Ben gets his order through the speaking tube to shoot the next person to come in. Unexpectedly, Gus appears on stage stripped of his waistcoat, tie, jacket, holster and revolver, and Ben is seen facing him with a gun in his hand. There is a long silence, and then the play ends with Gus and Ben staring at one another.

Political Reading of The Dumb Waiter

Pinter admitted that *The Dumb Waiter* is sub-textually political. To start with, *The Dumb Waiter* is essentially concerned with low-class English man in post-war London. Gus and Ben are two derelicts hired by an organization to liquidate its enemies. Ben is apparently satisfied with his role, but Gus voices man's discontent for being an infernal tool, an executioner who has to implement, and never question, the orders. On a larger scale, they represent the beaten modern man, who has become an accomplice in a world pervaded with criminality, in his struggle against a totalitarian authority that finds amusement in mentally torturing even its loyal subjects. When the orders for food started descending in the serving hatch, Ben and Gus were in despair; Ben wanted to send something up, Gus was suspicious of this game or test. He lost his temper:

Gus. (passionately, advancing). What's he doing it for? We've been through our tests, haven't we? We got right through our tests, years ago, didn't we? We took them together, don't you remember, didn't we? We've proved ourselves before now, haven't we? We've always done our job. What's he doing all this for? What's the idea? What's he playing these games for? (118)

Gus apparently reached a heightened sense of awareness of the game the higher authority is playing with them. Wilson, the boss, sends them matches, though he knows there is no gas to put on the kettle and prepare the tea; he sends exotic food



orders via The Dumb Waiter though he is quite sure they have nothing to help them serve these orders. The rooms where they have to stay to do the job are deteriorating in quality; they are windowless, damp, and dingy; the sheets are unclean, the bathroom is dysfunctional, and the waiting process is long, boring and arduous. The junior partner is revolted from the way the organization is treating them after they have been its faithful servants for years. The senior partner finds excuses and adheres loyally to his superior masters, “Things have tightened up, mate. They’ve tightened up” (93). In response to Gus’s constant questionings and wonderings, Ben automatically replies, “Stop wondering. You’ve got a job to do. Why don’t you just do it and shut up?” (99). But Gus could not just shut up and for this he is his partner’s next job. This is very reminiscent of terrorist organizations and, ironically enough, of some of the secret intelligence units hired by governments to eliminate all dissenting voices that jeopardize their authority. What takes place in *The Dumb Waiter* is not only absurd and funny; it is also tragic and poignant in its depiction of the so-called free and democratic post-war world as it is still pervaded with terror and torture.

Gus and Ben, thus, are mere puppets utilized by a higher power. When Gus starts questioning the validity and the morality of their ‘jobs’, when he becomes fed up, Ben has to eliminate him to prove his loyalty to the organization. This higher power or organization is not the fascist or the Nazi regimes that

flourished in the 1930's, but the modern democratic European and American governments that deceptively champion freedom and independence while their secret police and intelligence units still adhere to the same revolting and inhumane fascist and Nazi practices.

The Dumb Waiter, thus, reveals the organized cruelty of the twentieth century. To Esslin, "The governments' brand of terrorism and terrorist organization are so intricately and cunningly structured that the executive organs at the bottom (Gus and Ben) have only a vague knowledge of the forces above them, of the policies that govern their orders" ("Theater of Cruelty" 30).

This political interpretation that I find very authentic to the play, presents Gus as the helpless victim of a totalitarian organization designed to produce a programmed, zombie-like ideal subject of any conformist society conditioned to follow the strictly preordained pattern (30). When dissenting voices rise against this organization, whether from within the organization (Gus) or from without the organization (Stanley of The Birthday Party), they should be properly and terminally hushed.

For Pinter, the essence of democracy is freedom and independence. When these are denied, modern man will be either a Gus or a Stanley. He will be either liquidated or adjusted and brainwashed.



Existentialist Analysis of The Dumb Waiter

Another reading of *The Dumb Waiter* that falls in line with its political stance is the existential reading. The existential reading of the play does not by any means negate its salient political overtones; it rather sustains and intensifies these implications.

Though Pinter is not an existentialist playwright, his plays, and especially *The Dumb Waiter*, can be interpreted existentially. To start with, Pinter believes that in order for characters to be alive, they have to be free, to take over at times and control the page and the stage. Along this vein, Sartre, condemns playwrights for tightening their control over their characters and for determining their action. These characters seem stale and lifeless to him. He champions dramatic freedom and daringly states to playwrights and novelists, "Do you want your characters to live? See to it that they are free" (Qtd in Raby 40). Stokes describes this case as the "existential ideal" where characters remain independent of authorial design, "The modern writer has no spokesman—he observes like any other spectator, watches, wonders and judges" (41).

Pinter in *The Dumb Waiter* adheres to this existential ideal and, consequently, invests his characters with freedom of choice that makes them condemned and burdened rather than liberated. Man, in the existential sense is born undefined, his essence is not predefined and his nature is not determined. So, there are no boundaries set for him, no essence to conform to; he just exists and moves precariously with some vertigo into a

mysterious world open to every possibility.

To start with, Pinter believes that, "A character on stage who can present no convincing argument or information as to his past experience, his present behavior or his aspirations, nor give a comprehensive analysis of his motives, is as legitimate and as worthy of attention as one who, alarmingly, can do all these things" (Qtd in Rickert 256). This Pinteresque technique of withholding information and preventing verification is highly existential. Pinter's world is a stage with nothing in the wings, a form of void borrowed from the existentialist concept of the world. It has no previous life, no outside influences, no foreseeable future and his characters have to grapple with this existentialist uncertainty.

In *The Dumb Waiter* two thugs in suits are uneasily whiling away the time in a basement room when they start receiving incomprehensible food orders. They become tense on the instant because the position in which they find themselves is, to them as to us, unintelligible and inexplicable. As they cannot give meaning to this incident, the two men find themselves in a close encounter with the absurd. This is the absurdity, meaninglessness, and arbitrariness of the existentialist ideal. The anguish or angst that overwhelms Gus is not the byproduct of his past crimes; it is this diffused sensation of spiritual and psychological unease that has its roots in his precarious existence. Ben tries to supply the orders desperately without hesitancy and by evading the thought of danger, does not permit the fear to control him. But



Gus—more reflective and conscious, seems to existentially comprehend that life is somewhat a game in which everything happens arbitrarily—cannot stop questioning and asking. It is this persistent urge for knowledge that causes the catastrophe at the end. Though a villain, Gus represents modern man driven by angst, expecting evil or danger as the result of his experience of freedom. His fate is not predetermined; he is free to choose either to follow the orders received or to opt out of the game. However, this freedom is not a kind of blessing, it is rather a condemnation as Gus is strictly limited by his existence, and this façade of free choice is but a sham because he is doomed to exist in a boring, meaningless and arbitrary world reeling in his desperation and helplessness.

Just like existentialist philosophers and writers, Pinter tries to show how meaningless and cheap existence is. According to Charles Glicksberg, if man is given freedom and infinite possibilities, “his range of freedom is limited by his vision of nothingness and the dread that this vision calls forth” (73). Death might be an escape, but the existentialists’ fear of death only adds to the bitterness of the situation. Then, how is it that man can escape from this void? Bamber Gascoigne provides two outlets from this haunting state; to him, “personal integrity and personal relationships are the only protection from the void” (53). Gus, unfortunately, cannot benefit from these means of escape.

All in all, *The Dumb Waiter* reflects the image of man entrapped in this ambivalent existence. Ben and Gus are faced by the unpredictable and the unforeseeable, by the threat of non-being, lacking the values that can substantiate their own being. Their purpose is constantly reiterated as the endless waiting for 'orders'. More repugnant than anything else to Ben is thinking about or questioning the status quo. He is revolted by Gus's endless questions and constantly orders him to shut up. In the existentialist sense, Ben lacks 'being'; he denies himself the freedom of choice and fails to experience angst. This experience is the result of freedom, and thus Ben is enslaved; he exists, but he does not fully, freely and responsibly live. He, unlike Gus, is silently chained to the process of waiting, tied to the orders and satisfied with his subservience.

In *The Dumb Waiter*, the existentialist paradigm is achieved. In it, Pinter analyzed the nature of the man-to-man connection. Though the two characters seem undeveloped and limited, they provide an insightful way of examining a wider and much deeper range of human existence where man is viewed as a puppet of no importance employed by higher forces and is then casually dispensed with. Yet, man is an accomplice in his victimization as they could have opted out of the game anytime.

Pinter's Gus is thrown in the void deprived of any satisfactory knowledge. Within the confines of the play, we see him having a permanent experience with bewilderment and confusion. As all existentialist characters, he has been tragically stripped of



knowledge, of moral values, and of human relationships and instead of imposing meaning to the world, he accepted its absurdity. He tries to appease himself that everything will be alright when “it’s over tonight” (109), ignorant of the fact that it is his life that will be over on that particular night. If he had consented to remain a dumbwaiter, like Ben, he would not have perished from existence, yet he would have lacked ‘being’ and existed only as a servant, a follower, a cipher.

What is very similar between the two proposed readings for The Dumb Waiter is the vision of man as a victim. The existentialist philosophy grants man infinite freedom but necessitates that he is conscious of his own being and of the world around him to be able to choose what is meaningful for him. The modern political system, too, champions freedom and democracy, but ironically enough controls man and manipulates his thoughts and actions to the extent that he is rendered to nothing. In both readings, Gus, the more conscious being of the two, has to face nothingness whether in the existentialist or the political sense because he voices his dissatisfaction and dares to question the status quo. This existential freedom in The Dumb Waiter is thus curtailed by the totalitarian political system that advocates conformity and subservience.

The Dictator **by ‘Isām Mahfūz**

Summary of ‘Isām Mahfūz’s The Dictator

In Mahfūz’s The Dictator, the curtain rises on the General as he is wearily calling Sa’dūn who is nowhere to be found on

the stage. As the door opens, Sa'dūn appears carrying a pair of jackboots. The General reprimands Sa'dūn for being late and orders him to shine the boots. Once done, the General remarks that Sa'dūn can use it as a mirror. Sa'dūn, seeing his face through the shine, complains that he looks so pale from hunger and tells the General that they should have bought some bread or paid the rent with the little money the General's mother has sent instead of buying the boots. The General replies that "Freedom is more important than bread" since he is leading a revolution from inside this room.

The General asks Sa'dūn about the position of his military forces. He replies that four of the major states have been seized and that with the fall of the capital, the victory will be certain. The General asks Sa'dūn if some money is left to buy him a hat. Sa'dūn answers that he has bought chocolate with the remaining lira; this infuriates the General who takes all the chocolate as a punishment for Sa'dūn who is always late when he is sent on errands and who always sleeps in the afternoon to dream of the king's young daughter.

The next section reveals the General's paranoia as he asks Sa'dūn if he has inspected the room and checked if the door is firmly locked. The General then speaks about the king who has deceived everyone, proclaiming that he has come to rescue the people. The General dismisses Sa'dūn more than once for reasons fueled by either his paranoia or arrogance, but Sa'dūn is always forgiven for the sake of the revolution.



The general now prepares for his first manifesto where he addresses the nation as “the wretched people of the new world” (124). Masrūr, a militiaman, calls to inform them that the king has escaped. The General firmly orders the removal of the king’s photos “from all the walls, public places, houses, and public and private institutions” (126), yet the photos keep resurfacing again and again.

His first decree is to unify the color and the style of men and women’s clothes. He continues to issue decrees ordering the execution of the former government members, the imprisonment of all parliament members, the dissolution of all political parties, the confiscation of all their thoughts, and the execution of their leaders. The General also orders the liquidation of the traders and the adoption of bartering, exchanging the necessary with the necessary (133). He cancels the press and orders his militia to arrest journalists, literary men, writers and all artists because they are no longer needed (134). With each phone call, the General orders the killing, the execution, or the capture or confiscation of more and more people of different professions or convictions. Even some of his militiamen are executed due to grievous errors committed against the revolution. The first act ends with all the revolution board members executed, with the General’s military forces out of control, and with the king still uncaptured.

The second act starts with the General expressing his distress that the king is still loose. The General feels burdened and has

no appetite for food; he orders Sa'dūn to think about the reason of his agony. But Sa'dūn does not want to think about because thinking causes torture (144). He then recalls moments of his life when he used to think, when he was a member in a party.

As the two men were talking, a knocking is heard at the door, but when Sa'dūn opens, he does not find anyone. An existentialist palaver then follows with the General affirming that if he himself heard the knocking, it necessarily means that someone must have knocked at the door, but if this person does not exist, then Sa'dūn does not exist. When Sa'dūn insists that he exists whether this person has knocked at the door or not, the General asks for evidence for his existence. Sa'dūn's existence is only asserted when he tells the General, "But I exist my General; I am your servant..." (147). Since the General's existence is certainly beyond any doubt, so—as a logical corollary—Sa'dūn's existence is tangible.

With more knocking at the door and ringing of the phone, the General seems to become more paranoid about the king. He becomes suspicious of Sa'dūn and interrogates him about his true identity, thinking that he is the king. Following a convoluted way of thinking and reasoning, the General now firmly believes that Sa'dūn is the king who was watching and tracking him ever since he knew that he was preparing for a coup d'état. Sa'dūn tries to convince the General that he is not the king, but the General collapses, cries and urges him to admit, so he does.

As the king now, Sa'dūn is accused of treason and the verdict is



execution by hanging. He does not approve of the sentence and prefers to be shot to death. The General explains that he has no gun, but there is a knife, and he orders Sa'dūn to go fetch it. Sa'dūn objects since he is the King now and he must be treated as a king (160), to which the General complies.

Standing on the ladder, the General delivers his speech where he promises his comrades that the old illusion will die.

Sa'dūn now acts as if he were king and orders the General to untie his hands and even to shine his shoes, and the General complies as the dying man's last wish is sacred (164). He then brings the knife to kill him, but feels scared, only to have Sa'dūn encourage him to stab him. The general stabs Sa'dūn, throws the knife, ascends the ladder, and triumphantly shouts, "I killed the king" three times (167). He then approaches Sa'dūn who tells him, "Let the world know." The General rushes to open the door, but it is locked. He tries and retries but nobody opens. He tries to use the telephone, but it does not work.

In the final scene, the General addresses himself while looking at the mirror, "You saved the world my General, but the world does not love salvation" (168). As the General strikes the mirror with his fist, the curtain falls leaving viewers (and readers) in a state of amazement.

Political Reading of The Dictator

To Mahfūz, politics and theater are inseparable. He insists that there is no work of drama that does not impart a political

stand, whether directly or indirectly (599). The political stand that The Dictator imparts is very direct in the first act. To begin with, The Dictator is mainly concerned with the fantasies of two derelicts sickened or maddened by the real world around them to the extent that they decided to play the very serious game of saving the world. This game itself is a form of indictment of the decadence and corruption that overwhelmed the Arab political systems. From their windowless den, the General, along with his loyal servant Sa'dūn, is leading a revolution to overthrow the tyrant king and make the world a better place. The first indispensable tool for this revolution and for the attainment of freedom according to the General is "the jackboots": "Bravo Sa'dūn. You brought salvation to the world. You brought the jackboots" (Al A'māl al Masrahiyyā al Kamilā 112).

It is ironic that the jackboots which have for long been used as a symbol of totalitarianism, oppression and military aggression, are regarded here as the bringer of salvation. No matter how clean and shiny the jackboots are, they still represent the cruel military authority that crushes people. It is clear, then, from the very beginning that the revolution will not lead to a better world. Mahfūz's dialogue successfully employs the rhetoric of the dictator, but it is thoroughly infiltrated with satirical humor that displays its hollowness. The General represents the new authority that deceives passionate people like Sa'dūn into believing its lies and thus enslaves and ironically sacrifices them in its heroic struggle not against tyranny and oppression, but



against humanity itself.

The new authority that Mahfūz parodies is more paranoid, bloody and repressive than its predecessor. The General suspects everything around him: the shirt buttons, his own men, and even Sa'dūn. He punishes Sa'dūn because he dares to dream, to think, to interpret things differently, "Follow my commands! Mean what I mean. Think what I think. Is this clear?" (124). When his revolution succeeds, he does not order the liquidation of the king and the prime minister only; he also ordered the execution of all ministers, the detainment of all parliament members, the dissolution of all political parties, the confiscation of thoughts, ideas, emotions, media, and all forms of arts and literature in addition to putting all people under close surveillance (130–136).

The General wants to secure his victory from any possible threat, and for this reason, he orders the elimination of all potential sources of sedition. The General—regarding people in a purely Machiavellian light—believes that the populace is "a colorless and shapeless crowd that takes the shape and the color of its leader and authority" (137), and being fickle, they are unpredictable and untrustworthy. Thus, they should be stifled and contained by an autocratic regime that they should fear, not love. It is obvious then that the General views people in the same negative light as the overthrown king, so he does not start his revolution in order to save humanity from the fascist king; he makes a coup d'état to gain and usurp power. It seems that both of them are the two

sides of the same coin. The old and the new form of authority (King/General) according to Mahfūz employ the same bloody practices: the first persecutes by its crown and scepter while the other utilizes its shiny jackboots and its marshal's staff to subdue people; and Sa'dūn, the representative of modern Arab man, is a worthless nonentity suspended between the two with very little hope of a better future.

The Dictator can be further considered a treatise on the characteristics of authority figures in the Arab world. The General—believing the game and acting as a real authority figure—reveals a megalomaniac and a neurotic personality: he is gripped by delusions of his greatness, obsessed with his own image, suspicious of everything and everyone around him, and constantly accompanied by a pervasive sense of anxiety. Isn't it the case of most Arab dictatorial rulers in our contemporary history? Don't they accede to power promising people salvation and democracy, and while in power they forget their promises and prosecute people and terrorize them? Don't they utilize people as slavish puppets and determine their destiny? Don't they use false evidence and fake charges to incriminate and destroy anyone that jeopardizes their authority? Don't they project their own interpretations and evoke the conspiracy theory all the time and use these as a pretext to liquidate their political opponents? Don't they use the lofty concepts of love, democracy, morality, freedom, equality, justice and goodness to manipulate the populace while they are amoral/immoral beings



who only care for their own narcissistic interests?

It is through this set of rhetorical questions that the picture of political decadence is framed in *The Dictator*. Mahfūz chooses a provocative and shocking style to convey this message and to awaken his audiences from their stupor. Maybe then they will start to condemn and refuse the mentality that welcomes military rule because, he believes, it is not any closer to democracy than the royal hereditary rule.

In the limited and restricted plot of *The Dictator*, Mahfūz succeeds to inculcate a political moral and to dramatize an enduring theme that the abuse of power is not a local and temporary affliction that restricts its relevance to a specific geographical area or a particular historical period. It is rather a universal theme that transcends the limitations of geography and history and reaches man wherever and whenever he exists.

Existentialist Analysis of The Dictator

As Mahfūz was highly involved in the political context of his time and shaped most of his plays to impart a particular stance in a direct or indirect way, he was also ideologically oriented to certain philosophical thoughts that permeated his works. In his trilogy, Mahfūz infests his protagonist Sa'dūn with an existential aura that adds a philosophical dimension to his plays.

It is important first to delineate the aspects of existentialism that permeate *The Dictator*. In this play, Mahfūz shares with the existentialist philosophy some basic tenets and themes. The first

of which is that Mahfūz believes that the modern dramatist should create characters that are free and unpredictable and in this way they will not be abiding by predefined essential parameters that limit characterization. Saʿdūn and the General in *The Dictator* enjoy an independent existence on the stage. They seem to pop on the stage out of nowhere, lacking any definable essence and without any satisfactory background information about them. This makes Mahfūz's stage a mysterious and ambivalent world open to myriad possibilities where his characters move freely uninhibited by the fetters of reasonable justifications, commonsense or logic. Mahfūz's dramatic techniques of withholding information and denying access into the characters' minds and pasts are formidably existential. We are never quite sure of the true identities of Saʿdūn and the General, of how they come to meet or of their real purpose.

The second point of convergence between Mahfūz and the existentialists in *The Dictator* is that he seems to purposefully throw his characters in a state of uncertainty and void where they experience doubt, pain, frustration, malaise and even death. In *The Dictator*, the General and his servant Saʿdūn await—with mounting anxiety—in a dark windowless room some crucial information about the revolution they have launched against the tyrannical king. As they wait, they while away the time discussing the importance of the jackboots in attaining freedom and talking about the progress of the General's armed forces towards the capital. Every time Saʿdūn mentions the king, the General's



doubts rise and he is aroused to anger. Then follows a series of phone calls informing the General that the revolution has succeeded, but the king is still loose. This makes him frustrated and uncertain about the success of the revolution. Sa'dūn tries to appease him, but the General remains restless and anxious, feeling that his achievement is absurd and meaningless if the king is not captured and hanged. He then starts to suspect that Sa'dūn might be the king. Sa'dūn, under persistent urgings, admitted to being the king and is then killed by the General. The General apparently could not enjoy the newly earned freedom; he was overwhelmed with a sense of dread, sensing danger and evil everywhere around him.

The third common tenet between Mahfūz and existentialism is his belief in the concept of free will/choice where the character is held responsible and accountable for his/her decisions and struggles to achieve self-definition. Mahfūz further concurs with the existentialists that the experience of freedom will necessarily breed angst. This is very applicable to Sa'dūn who has freely chosen to follow the General and to be his servant. The General dismisses him from his service many times, but he begs him to stay. Even when the game becomes very dangerous and the General decides to kill him, instead of taking his baggage and opt out of the game, Sa'dūn chooses to stay with the General, and he even accepts the new identity projected upon him. In this way, Sa'dūn is an existential character who encounters an inexplicable situation but decides to impose his own meaning

on it. He freely makes his decision and is ready to accept the negative consequences of his messianic choice. He experiences angst and dread from the threat of death and nothingness, but he is able to give his death a meaning. He considers it a form of Christ-like lofty sacrifice in order to give this absurd world a meaning (165).

What further links Mahfūz to existentialism is his vision of the meaninglessness of the world and the absurdity and helplessness of the human condition. Both Sa'dūn and the General seem aware of the absurdity of the world and hence their game comes to substantiate this awareness. Sickened by the ambivalent and absurd existence that entraps them, Sa'dūn and the General decide to give their existence a lofty meaning by playing the game of saving the world. The game turns to be more absurd and ambivalent than the world itself. When the General becomes conscious of this reality, he turns violent; he believes that by killing the king, absurdity will be outdone and meaning will be imposed. When the king is not caught, the General tries to avoid a sense of overwhelming defeat and thus creates his own king and kills him only to discover that absurdity is eternal and that there is no possibility of changing a world that does not want to be saved (168). At the end, both the General and Sa'dūn lose the game: as Sa'dūn lies motionlessly on the ground, he realizes the futility of their attempt and casts a wicked smile on the broken General who stands at the verge of insanity, unable to believe that the world has rejected his precious offering of



salvation, of freedom and justice.

The Dictator, thus, communicates some of the major themes of existentialism, namely the absurdity of the world, man's persistent sense of angst, a pervading feeling of nothingness, and the experience of alienation, as it communicates some major political themes of arbitrary authority, dictatorship, oppression, and military aggression. The two readings of the play, the existentialist and the political, surely converge to portray Mahfūz's nightmarish vision of a world devoid of meaning, of freedom and of justice.

Another implication of The Dictator which is salient in certain sections of the play is the religious implication with Mahfūz's use of the messianic theme. Sa'dūn here invoked the image of Jesus who was crucified by his enemies but has never lost (132). The General insisted that the world has changed now and if Jesus returns, he is destined to lose because people no longer respect or believe in prophets or in salvation. However, Sa'dūn believes that the world can be redeemed and for this reason, he decides to accept the identity of the king, the good and benevolent king who is ready to sacrifice himself and face death to save the world. He is captured in April, the month of resurrection and rebirth, and then stabbed to death by the General to be revived again, not with a sublime hope of revival and rectitude, but with utmost despair and disillusionment. Mahfūz certainly employs the messianic theme to express his conviction that the world as it is now is beyond salvation, that

even Jesus Himself will not be able to save a world that does not want to save itself.

In *The Dictator*, Mahfūz reveals a great sensitivity not only to the political, existential and religious debates of his time, but also to history and to the literary and cultural heritage. He makes references to historical events like the King's deception of his people by throwing biscuits to them, an act that evokes Marie Antoinette's famous words, "Let them have biscuits", and by repeatedly mentioning the king's daughter who was negligent of people's suffering and constantly "pokes her tongue to the world". This brief and indirect allusion to queen Marie Antoinette serves to create a clearer image of the king and his family who extravagantly squandered fortunes while the masses suffered from hunger and poverty. He also refers to *One and Thousand Nights* through making Sa'dūn always repeat that Masrūr's name is the same as that of King Shahriār's executioner. Mahfūz, through these simple and funny references, was able to conjure the tyrannical world of the *One and Thousand Nights* indirectly comparing the General to the whimsical king Shahriār, a comparison that enraged the General and made him reprimand and dismiss Sa'dūn more than once, "Again you mention the *One and Thousand Nights*. You are dismissed Sa'dūn. Pack your baggage and leave. I can no longer tolerate you" (122).



Conclusion

The major objective behind this study is to prove that the human condition described by these two playwrights in two different worlds and at two different times is approximately the same and that the social, political and moral corruption is omnipresent, be it in the democratic west or the autocratic east. The game-like atmosphere the two dramatists have chosen as a vehicle to convey this pessimistic vision of the modern world in *The Dumb Waiter* and *The Dictator* serves to alleviate the tragic weight of the two plays and to infest them with comedic elements that contribute to their farcical nature.

Most of the analytic studies attempted at the two plays fall short to encompass the originality and the depth of these dramatic pieces. With *The Dumb Waiter*, the critical judgment, when positive, has acknowledged the play's serious nature but failed to fully interpret its underlying political significance and its existential quality that reveal Pinter's acute political and philosophical affiliations. With *The Dictator*, the case is different. Many drama reviewers and critics have briefly attested to the play's daring treatment of a very serious political issue, that of dictatorship—which might be dangerous in the Arab world—yet a bulk of academically critical and analytic repertoire of Mahfūz's work is still unfortunately absent, though it is very much needed.

In this article, the two play's political nature—whether implicit or explicit—has been meticulously examined and proved to be an essential starting point to any analytic approach towards the

two plays. I have also revealed the existential bearing of the two plays with the overwhelming angst of their characters and their absurd worlds—whether such a philosophical position is a conscious or an unconscious attitude adopted by their authors.

It is undeniable that the ‘apolitical’ Pinter who wrote *The Dumb Waiter* in 1957 was not any different from the later Pinter of 2005 who in his Nobel Prize acceptance speech has overtly and ferociously condemned the atrocities of the American and British foreign policy that in the recent past used to prefer indirect political intervention and employed “low intensity conflict” to subdue states and peoples to their own system by pitting the people of one country against each other. It is this low intensity conflict that is superbly described in *The Dumb Waiter* with Gus and Ben’s initially tense partnership. We do not see them violently fighting, but we are quite conscious of a malignant growth infecting their relation and throughout the play we are able to see the gangrene bloom. This divide-and-rule stratagem that is being cleverly employed all over the globe is masterfully dramatized in the very local and confined events of Pinter’s second one-act play where two hitmen waited in a windowless basement for orders to perform their next job. It is in this particular sense that *The Dumb Waiter* is sub-textually political. Most staging performances and adaptations of the play dwelt on this aspect revealing the fact that *The Dumb Waiter* is not just a footnote in Pinter’s large and prolific dramatic corpus; it is a subtle preliminary statement of Pinter’s political convictions



and an early manifestation of his latent dissatisfaction with the debased conditions of man in an age of immorality.

With Mahfūz, there is a different pattern. The Dictator is overtly, explicitly and directly political. Mahfūz's political engagement has been a very salient quality throughout almost all his compositions, literary, dramatic, and journalistic. His Theater Manifesto Number 1 is written in a revolutionary manner and language that evoke the manifestos of revolution leaders because he genuinely believed in the political and social role of the theater as a vehicle to expose, criticize, and ameliorate the afflicted human condition. In The Dictator, Mahfūz daringly dealt with the malignant case of military dictatorship in the Arab World and more importantly with man's illusions of a better world achieved through military coup d'états. His General and Sa'dūn play the game of saving the world to realize at the end that the world as it is now is beyond salvation. This tragic realization does not only reflect the author's pessimistic attitude towards the political scene at that time, it also reveals his despair from any attempt towards a better future for a world that has collaborated in the process of crucifying itself and for a kind of man who accepted injustice and slavery and finally sacrificed himself for the wrong cause. For Mahfūz, the leftist thinker, dictators are the source of evil in our world, and man's submission to those tyrants serves as a fertile soil for the growth of these malignant entities that choke the fading hope of an egalitarian world where freedom and democracy reign. It is quite clear, then, that The Dictator

despite its absurdist structure and game-like atmosphere is a harshly serious play that presents reality and shocks viewers and readers with its penetrating revelation of the political, social and moral decadence that has forever been plaguing the Arab World.

When judging the success or the failure of any play, it is undeniable that the authentic evaluation of any dramatic work is constantly connected with its actual staging and its reception by theatergoers and theater reviewers. Both Pinter and Mahfūz were highly aware of this fact and would not even publish a play if the prospect of staging it was not strongly viable. They both believed that theater is the most influential form of art and literature due to the immediacy of experience viewers are given and due to its transformative power whether socially or politically. Both playwrights have written their scripts not only to achieve aesthetic pleasure, but also to inculcate—implicitly though—a distinctive moral lesson to their viewers at all times: man's subservience to a higher political entity is not an inevitable fate, it is a willful choice wrongly and unthoughtfully made by weak or idealistic men. To them, it is a moral obligation to resist, to be proactive and to even fight ferociously for the attainment of an authentically just, free and democratic life. It is this liberating and revolutionary message that Mahfūz's *The Dictator* and Pinter's *The Dumb Waiter* genuinely communicate beyond their absurdist structures.

References

Al Sa'īd, Khalīdā. *Al Harākā al Masrahiyyā fi Lūbnan* (1960 – 1975). Beirut: Lajnat al Masrāh al 'Arābī : 1998. Print.

Esslin, Martin. "Harold Pinter's Theater of Cruelty". *Pinter at Sixty*. Eds. Katherine H. Burkman & John L. Kundert-Gibbs. Indiana: Indiana UP, 1993. 27–36. Print.

Gascoigne, Bamber. *Twentieth Century Drama*. London: Hutchinson University Library, 1962. Print.

Glicksberg, Charles. *The Tragic Vision in Twentieth-Century Literature*. Carbondale: Southern Illinois University Press, 1965. Print.

Mahfūz, 'Isām. *Al A'māl Al Masrāhīyya Al Kamīla*. Beirut: Al Farābī, 2006. Print.

Pinter, Harold. *The Caretaker & The Dumb Waiter*. New York: Grove Press, 1988. Print.

Rickert, Alfred E. "Perceiving Pinter". *The English Record* 2 (1971): 30–35. Print.

Sharafeddīn, Mahir. "Min Lūghat al Kītāb ila Lūghat al Khashabā: Al Masrahī al-lathī Nasīya Masrahahū Mūdha'n". n.b. marjeyoun.net. Web. 8 Mar. 2012.

Stokes, John. "Pinter and the 1950s". *The Cambridge Companion to Harold Pinter*. Ed. Peter Raby. Cambridge: Cambridge UP, 2001. 28 – 43. Print.

"The Nobel Prize in Literature 2005 – Press Release". Nobelprize.org. 13 Oct. 2005. Web. 16 Jul 2012.

The Impact of Synchronous Online Flipped Learning Approach on Improving Learners' Performance in Persuasive Essays

تأثير أسلوب التعلّم المتزامن عبر الإنترنت على تحسين أداء المتعلّمين في المقالات
الإقناعيّة

Amina Mohammad Ali Kawtharani

آمنة محمد علي كوثراني

Educational Researcher

تاريخ القبول 2025 /4/18

تاريخ الاستلام 2025 /4/1

Abstract

In the backdrop of COVID-19, the educational body witnessed an abrupt shift to distant learning leaving the teaching learning experience in a state of turmoil. There arose an urgent need for an approach that would meet the emerging demands of distance learning while upholding the quality of in-person teaching learning experiences. To this end, the researcher investigated and explored how Synchronous Online Flipped Learning Approach (SOFLA®), an eight-cycle structured, interactive and multifaceted online approach improved learners' performance in writing persuasive essays unlike students who followed a traditional method in an online setting. The study followed the sequential mixed method approach, spanning over six weeks and involving 30 students in the experimental group and an equal 30 in the control group. Findings of the primary quantitative (QUAN) results and sequential collection and analysis of the secondary qualitative (qual) data, prompted the researcher to conclude that SOFLA® is a feasible and recommended approach that enhances the teaching learning experience in distance learning. The statistical results of

p-value of 0.000 positively affirmed research question 1 and its related hypothesis proving that implementation of SOFLA® is a feasible approach to improve learners' performance to write persuasive essays unlike others who follow a traditional method in an online context. Moreover, the descriptive and computed results of the secondary qualitative data showed 90% learners' positive perception of implementation of SOFLA® substantiated with p-value 0.000, hence positively affirming research question 2 and its related hypothesis.

الملخص

في ظلّ جائحة كوفيد-19، شهدت الهيئة التعليميّة تحوّلًا مفاجئًا نحو التعلّم عن بُعد، ما أدّى إلى اضطراب تجربة التدريس والتعلّم. برزت حاجة ملحة إلى نهج يلبي المتطلّبات الناشئة للتعلّم عن بُعد مع الحفاظ على جودة تجارب التعلّم الحضوريّ. ولتحقيق ذلك، عمد الباحث إلى استكشاف كيفية تحسين نهج التعلّم المقلوب المتزامن عبر الإنترنت وهو Synchronous Online Flipped Learning Approach (SOFLA®) وهو نهج منظم وتفاعليّ ومتعدّد الأوجه من ثماني مراحل، يسهم في تحسين أداء المتعلّمين في كتابة المقالات الإقناعيّة، على عكس الطلاب الذين اتّبَعوا الطّريقة التقليديّة. اتّبعَت الدّراسة منهج مختلط الأساليب التّسلسليّ، وامتدت على مدى ستة أسابيع، وشارك فيها 30 طالبًا في المجموعة التّجريبية و30 طالبًا في المجموعة المضبوطة. دفعت نتائج البيانات الكميّة الأوليّة (QUAN) والجمع والتّحليل التّسلسليّ للبيانات النوعيّة التّأنيويّة (qual) الباحث إلى استنتاج أن SOFLA® نهج عمليّ وموصى به يعزّز تجربة التدريس والتعلّم عن بُعد. أكّدت التّنتائج الإحصائيّة لقيمة p البالغة 0.000 بشكل إيجابيّ سؤال البحث الأوّل وفرضيّته، ما يثبت أنّ تطبيق SOFLA® نهج فعّال لتحسين أداء المتعلّمين في كتابة المقالات الإقناعيّة، على عكس المتعلّمين ممن يتبعون المنهج التّقليديّ في سياق الإنترنت. علاوةً على ذلك، أظهرت التّنتائج الوصفية والحسابيّة للبيانات النوعيّة التّأنيويّة أنّ 90% من المتعلّمين لديهم تصوّر إيجابيّ لتطبيق SOFLA®، مدعومًا بقيمة p البالغة 0.000، مما يؤكّد بشكل إيجابيّ سؤال البحث التّأني وفرضيّته.

Key Words:

Flipped Learning – التعلم المقلوب; Synchronous – متزامن;
Asynchronous – غير متزامن

Abbreviations:

Synchronous Online Flipped Learning Approach: SOFLA

Community of Inquiry: Col

Introduction

With hardly any prior notice and preparations, educational institutions shut down and teachers and students worldwide found themselves in a state of quarantine, confounded with the pressing need to adjust to a change in the teaching learning process, and still uphold quality education in remote online setting. This shift from a physical in-person classroom to a virtual distance one became not only an imperative option to adjust to, but one that entailed a plethora of challenges for teachers of all disciplines and English as a Foreign Language (EFL) who grappled to implement the approaches followed in the physical classroom in an online context in order to facilitate learning of productive skills, mainly writing. There was, hence an urgent need for an apt instructional approach that would meet the exigencies of online learning, guide teachers to facilitate instruction, maintain learner engagement, foster active interaction, and maximize learning in unfamiliar synchronous and asynchronous settings.

1.2 Statement of the problem

In the backdrop of lockdown and ensuing online teaching, teachers



of EFL were confronted with the major challenge of teaching writing skill in an online context. Research conducted in a face-to-face setting affirm that writing is a demanding, complex skill for learners who study English as a second Language, and more so for those studying it as a foreign one (Kroll, 1990; Dülger, 2011; Graham, Harris and Mason, 2005; Hayes, 2012; Herrera, 2002). The process of writing requires learners to demonstrate an array of low and high-order thinking skills that include reading, researching, rephrasing, summarizing, evaluating and synthesizing. Derewianka & Jones (2012) consider it the most challenging as it involves both the receptive and productive skills. While writing, learners apply a set of sophisticated skills and a range of linguistic resources like varying word choice, sentence and overall text structure in new meaningful context (Holliday, 2010; Rowe and Edwards, 2007).

The complexities were further accentuated by the absence of a clear-cut effective framework and instructional approach that would make use of best practices of in-person teaching approaches to respond to the demands of online instruction. Moreover, the approach needed would recognize teacher presence to design proactive lesson plans, facilitate the process of instruction and at the same time promote communication, collaboration and learning (Garrison, Anderson and Archer, 2000). With minimal online teacher professional development, teachers on the one hand, posted lessons on school Learning Management Systems to be done in asynchronous setting and/

or struggled to deliver instruction by trying to transfer approaches applied in face-to-face teaching to an online synchronous context (Tschida, Hodge and Schmidt, 2016). Learners, on the other, relied on some form of technology to access and interact with learning materials (Anderson, 2011).

The question as to whether online learning would take shape in synchronous and or asynchronous online learning settings arose and became another issue to address. Research has emphasized the benefits that asynchronous setting of online learning holds. It is geographically independent, learner-paced, timed and centered (Clark and Mayer, 2016; Van der Keylen, Lippert, Kunisch, Kühlein, and Roos, 2020); it promotes cognitive achievement, offers flexible opportunities for personalized pace of learning, increased motivation, improved quality of equitable, supportive and collaborative learning (Nwankwo, 2018). Studies have nonetheless documented several challenges in asynchronous online learning setting. Hartnett (2015) pointed to loss of self-study and limitations of digital skills among learners; Kim, Hong and Song (2019) observed the absence or minimal motivation and readiness to achieve learning objectives; Smith and Smith (2014) saw that it hindered effective application of hands-on activities which are essential to some subjects; and Baczek, Zaganczyk-Baczek, Szpringer, Jaroszynski, Wozakowska-Kapłon (2021) emphasized that absence of active engagement and interaction in asynchronous online learning context denied acquisition of social skills. Put together,



the shortcomings of asynchronous online learning alone were a source of dissatisfaction and frustration for teachers and students alike.

Synchronous online learning setting, on the other hand, requires instructors and learners to arrange meetings in real-time for instant interactive communication and feedback. Studies have shown that this form of online learning is cooperative in nature and promotes teacher-learner and learner-learner discussions (Blau, Weiser and Eshet-Alkalai, 2017). It also boosts motivation and commitment to accomplish performance tasks (Hrastinski, 2008). Even so, researchers acknowledge that synchronous online learning setting is not devoid of constraints. Tschida, Hodge and Schmidt (2016) reveal that an impromptu shift to synchronous teaching makes teachers fall victims to lengthy lectures which inadvertently abort active participation, disrupt the flow of interaction. It also results in disengaged passive listeners, watchers and readers (Smith and Smith, 2014).

The cornucopia of studies which highlight benefits and inadequacies of online learning underscore the crucial need for “a well-thought-out strategy and a more active approach” (Baczek, et al. 2021, p. 1), that would not only include dynamic elements of current instructional strategies to guide teachers, but also “maintain their presence in robust and visible ways and help students remain engaged and motivated while learning online” in both asynchronous and synchronous settings (Marshall and Kostka, 2020, p. 2). In the past two decades, researchers

experimented and proposed models to guide online learning, yet each remained pedagogically wanting. Egbert, Herman, and Lee (2015) recommend a model for online flipped teacher education which leverages technology, procedural knowledge and instructional strategies yet mostly relies on asynchronous form online learning.

Thorough research opened the doors wide to one novel online pedagogy, Synchronous Online Flipped Learning Approach (SOFLA®), introduced by Dr. Helaine Marshall in 2017 following a trial in 2016 which integrated two modes of course delivery, flipped learning and synchronous online learning to teach a five-week pedagogical grammar course (Marshall & Rodríguez Buitrago, 2017; Marshall and Kostka, 2020). SOFLA® is an eight-step instructional approach that closely replicates an active in-person classroom wherein teaching and learning take shape through “structured, interactive, multimodal activities in both asynchronous and synchronous” setting (Marshall, and Wallestad, 2021, p.140). The instructional approach integrates best practices of two separate teaching learning paths, the Community of Inquiry (Col) framework for online teaching (Garrison, Anderson, & Archer, 2000; Garrison, 2016, as cited in Marshall, and Wallestad, 2021, p. 140) and flipped learning (Bergmann & Sams, 2012). Accordingly, the study will investigate the efficacy of implementing SOFLA® to enhance learners’ ability to write persuasive essays in an online context.



1.3 Purpose of the study

The study aimed to study how implementing SOFLA® would bridge the teaching learning gaps that mostly surfaced as a result of the sudden shift to remote learning. It aimed to equip teachers with a clear pedagogical framework that would introduce and uphold active engagement learning practices that maximize learning in a remote context. In addition, implementing the eight steps of SOFLA® aimed to explore learners' positive perspective on SOFLA®. In the light of the above, the following research questions and hypotheses were postulated.

1.5 Research questions

Does implementation of SOFLA® improve learners' performance to write persuasive essays unlike others who follow a traditional method in an online context?

Do learners develop a positive perception towards SOFLA®?

Hypotheses

Implementation of SOFLA® improves learners' performance to write persuasive essays unlike others who follow a traditional method in an online context

Students develop a positive perception towards SOFLA®

Literature Review

2.1 Theoretical Frameworks Underlying SOFLA®.

Two distinct teaching learning frameworks underpin SOFLA®. The first is Col framework for online teaching which posits that

“learning occurs within the Community through the interaction of three core elements ... cognitive presence, social presence, and teaching presence. (Garrison, Anderson, & Archer, 2000, p. 87). The second framework resides in the four pillars of flipped learning: flexible environment, learning culture, intentional content and professional educator (Flipped Learning Network, 2014).

2.1.1 Community of Inquiry Framework

According to Garrison, Anderson and Archer, online learning referred to as “computer conferencing” facilitated through computer communication is “a versatile medium for the delivery of educational programs “anytime, anywhere” (2000, p, 87). With the boom of ‘computer conferencing’ and ‘distance education’ at the turn of the century, Garrison, Anderson and Archer systematically studied the literature and introduced a “conceptual framework and model of a community of inquiry” (2000, p103), which has for two decades and a half become a supportive tool for designing online teaching and learning experiences. The Col framework postulates that learning experience can best be facilitated and attained through the interrelation of three requisite elements, teaching presence, social presence, and cognitive presence each of which is sub-divided into categories and indicators (Garrison, et al., 2000).

The first, success of teaching presence, depends on three sub-categories: the expertise of the teacher to (1) set learning goals, design learning material, assessment for learning and process of



delivery, (2) facilitate the teaching learning process in effective ways to help learners construct deep meaning and critical thinking and (3) guide and focus discussion and interaction in an online context. The second, cognitive presence, which indicates the extent to which learners in an educational “community of inquiry” (p. 89), encompasses four sub-groupings that rely on the expertise of the teacher presence to (1) trigger communication and set mental process of inquiry and learning rolling; (2) engage learners to explore new concept and orient their attention to make sense of new concepts, (3) integrate and connect these to acquired knowledge to gain deeper understanding of whole, and finally (4) apply the acquired knowledge and skill and verify enduring understanding in new context. The third, social presence incorporates three interrelated categories which sustain both the teaching presence and cognitive presence. The ability of the teacher to (1) establish positive environment that puts learners at ease to behave naturally and express themselves; (2) open communication, interaction which deepens (3) group cohesion. These are translated through purposeful collaborative commitment, positive interdependence, accountability, thus, maximizing both the cognitive and teaching elements of the educational experience (Garrison et al. 2000; Garrison, 2016). In short, teaching presence shapes and sustains a sense of group commitment and collaboration, the basics of social presence which in turn prompts the cognitive facets conducive to higher-order thinking and learning.

In the light of the above, SOFLA®, a novel online pedagogical model of flipped learning, demonstrates how the three elements that frame the teaching presence support teachers not only in designing the learning experience but also accentuate their dynamic presence to create a comprehensive, accessible, collaborative and vigorous teaching learning experience (Garrison, 2016). SOFLA® actively engages learners and gives them ownership of their learning (Marshall, 2017; Marshall and Rodríguez Buitrago, 2017; Marshall and Kostka, 2020; Marshall, 2021; Marshall, and Wallestad, 2021).

2.1.2 Flipped Learning

The second framework that underpins SOFLA® is Flipped Learning, a pedagogical approach that transforms the traditional paradigm of teaching and learning through moving direct instruction of foundational knowledge to short interactive videos viewed outside the class in an individual learning space. The relocation converts the classroom from a traditional class based on direct instruction to an interactive learning venue where learners actively engage in application and analysis of concepts and skills (Flipped Learning network, 2014). Flipped learning, redirects the compass to respond to learner variance and needs via creating flexible learning environments and culture, varying and accommodating process (Tomlinson, 2001). Flipped learning fosters either group work or independent study involving learners in a variety of active learning strategies and emphasizing high-order thinking skills which culminate in ongoing



learning (Berrett, 2012) In a white paper published in 2013, Hamdan, McKnight, P., McKnight, K. and Arfstrom explain that although limited quantitative and qualitative research exist on Flipped Learning, yet a significant number has investigated “key elements of the model with respect to instructional strategies for engaging students in their learning” (p. 6). As such, flipped learning provides learners with opportunities to interact with content through reading, writing, listening, talking, and reflecting (University of Minnesota Center of Learning and Education, 2008), and revs up student engagement and critical thinking (O’Dowd and Aguilar–Roca, 2009).

Today, the literature is copious with studies that investigate the efficacy of the approach in science, technology, engineering, and mathematics (STEM), nursing and the social sciences (Voss and Kostka, 2019, p. 4); but still minimal in English Language instruction whether implemented in–person or distance learning (Marshall and Kostka 2020). Nevertheless, literature in the field of English Language teaching supports the implementation of flipped learning. Studies have evidenced that students and instructors have shown positive attitudes towards different models of flipped learning (Hung, 2017; Voss and Fang, 2016). Others have indicated that flipped learning improves comprehension, interaction and critical thinking (Marshall, 2014); contributes to positive learning outcomes (Fethi and Marshall, 2018); promotes learners’ motivation and engagement (Hung, 2015), and autonomy in learning (Han, 2015). Most relevant to the

current study, findings have also indicated that flipped learning is conducive to the development of writing skills (Alghasab, 2020; Ekmekci, 2009; Engin, 2014; Luo, O'Steen and Brown, 2020). To add, a body of pedagogically oriented literature has been developed to support instructors' efforts in implementing flipped learning (Marshall & Kostka, 2020).

Since its inception, flipped learning has witnessed a development of the framework into six models: Flipped Mastery by Bergman & Sams (2012), Explore-Flip Apply by Musallam (2013), In-Class Flip by Gonzalez (2014), Peer Instruction by Berrett (2012), Online Flip by Honeycutt (2014) and the latest, which the study investigates, Synchronous Online Flipped Learning Approach in 2017 (as cited in Marshall, 2019). All observe the four fundamental pillars of flipped learning: (1) Flexible Environment; (2) Learning Culture; (3) Intentional Content; and (4) Professional Educator (Marshall and Kostka, 2020), yet "apply them to according to the exigencies of a particular instructional context" (Marshall, 2019, p.1). SOFLA® has to date been investigated by Marshall, (2017), Marshall and Rodríguez Buitrago, (2017), Marshall and Kostka, (2020), Marshall and Wallestad, (2021) and recently Torres Zúñiga who examined the effectiveness of SOFLA® to enhance students' proficiency in English B1.1 in an EFL course in the second year of the degree of Primary Education in the Faculty of Teacher Training and Education at a Spanish university (2021). Hence, the opportunity to study the efficacy of this new E-Learning pedagogy to enhance learners' performance to



write persuasive essays was a promising challenge.

2.2 Synchronous Online Flipped Learning Approach

Developed by Helaine Marshal (2017) and refined by Marshal and Rodriguez Buitrago (2017), SOFLA® is a pedagogical approach which repositions the settings of flipped learning yet maintains teacher presence in a learner-centered online environment through proactive planning: curating content and tasks to promote higher-order thinking skills, tailoring instruction to respond to students' needs, promoting dynamic in-depth discussion, upholding application via independent then collaborative learning experiences to deepen learning (Marshal and Kostka, 2020),

2.2.1 Frameworks of Synchronous Online Flipped Learning Approach

The big question that poses itself is how SOFLA® encompasses Col and Flipped learning to make the most of online teaching learning experience. To commence, Marshall and Wallestad (2021) recommend four main questions that would highlight teacher presence and guide them through planning and facilitating instruction: First, it is requisite that teachers pre-determine the content to be addressed in each of the asynchronous settings and the synchronous ones along with the objective of each. Second, they must design and execute the introduction of the key concepts or skills in the asynchronous setting, and proactively plan how the asynchronous learning will support and maximize the teaching learning process in the subsequent synchronous steps. Third, it

is essential that teachers consider how the material and process of instruction in the synchronous class would maximize student–student interaction, instruction and collaboration which in turn respond to the needs of diverse learners. Last but not the least, teachers ought to consider how they would build accountability and peer feedback to give learners ownership of learning in both settings. An umbrella framework encompassing four strategies – Equity, Enrichment, Engagement and Empowerment (4E’s) – stipulate the implementation of SOFLA® to create fertile spaces for learning all through the eight–step learning cycle that align with and inform the other for adjustment of the teaching learning process (Marshall and Kostka, 2020).

2.2.2 The Eight–Step Learning Cycle of SOFLA® within the 4E Strategies

The eight–step cycle call for interconnectedness and alignment which inform and foster active engagement and learning in both asynchronous and synchronous settings. Step One, Pre–Work of SOFLA®, forms the basis of flipped learning (Bauer–Ramazani, Graney, Marshall and Sabieh as cited in Marshall and Wallestad, 2021). The pre–set launches the learning process through delivery of explicit structured, interactive and multifaceted instruction of course concepts via short videos or shared reading with focused embedded questions and activities posted on a learning platform. In this step, every student is able to access, view or read any number of times as need be, and then complete and post the assigned work which the teacher



refers to in order to pinpoint areas of learning or lack of it, and accordingly design and adjust instruction in the next step, The Sign-In Activity. Although teachers may easily find myriads of videos online, Voss and Kostka (2019) suggest that tailoring one's videos renders them more "individualized" and "personalized" (p. 16) since the content, narration and clarifications are purposely planned to meet predetermined learning objectives, respond to students' needs and stimulate motivation through language and variation of tone. Flipping learning whether in the actual classroom or online does not entail over reliance or use of state-of-the art technology since "pedagogy should always drive technology, never the other way around," the pioneers of recommend (Bergman and Sams, 2012, p. 21). In Step 2, The Sign-In Activity, learners meet synchronously for the first time to respond to a question or more which teachers purposely design to activate learning by triggering every learner to actively participate, share understanding of key concepts introduced in the Pre-Work, review key points and clarify misunderstanding if found. Practice and application ensue in Whole-Group Application, Step 3, becomes the Enrichment stage where the teacher facilitates a collaborative activity that entails group application and peer instruction of the concept introduced in the Pre-Work. Learners share, discuss ideas and exchange feedback to reinforce and deepen learning of key concepts using an interactive tool as Google Document, Jam board, padlet or others. Step 4, Breakouts and Step 5, Share-Out, are student-structured and centered, and foster active engagement,

interaction and peer instruction manifested in collaborative tasks and shared product, first done in breakout rooms, and later on reported and shared in the mainstream room of the online platform. Learners partake in the Share Help Ask and Comment (SHAC) protocol (Fethi, 2015). They share the collaborative product, raise questions, provide constructive feedback, and self-conduct reciprocal discussions and justifications (Fethi and Marshall, 2018) which ultimately promote positive and supportive learning environments. In this context, “meaning is constructed and shared” (Garrison, 2011, p. 10) in a social context through interaction, observation, among more-abled peers within small groups, and subsequently independent application (Vygotsky, 1978). Moreover, collaboration and active communication towards attainment of a shared goal build a sense of group commitment in an online community, give learners a sense of ownership, hold each learner accountable for the success of the shared task, goal and cognitive aspects of the learning experience (Garrison, 2009), thus replicating positive interdependence, individual accountability, face-to-face conducive interaction, social skills and group processing in physical cooperative learning. The teaching learning process in SOFLA® culminates in Steps 6, 7 and 8, Preview and Discovery, Assignment Instructions and Reflection which lend learners a sense of Empowerment to take ownership of learning. Teachers revisit and review key concepts introduced in the Pre-Work step, assess learners’ ability to apply and explain new-founded knowledge in new context in order to either confirm understanding or show the need for personalized

support before embarking on a briefing of upcoming Pre–Work, and finally learners round up with an exit that requires them to reflect on the learning experience, new skill, strategy or understanding gained from the synchronous session which is a “legitimate form” of the new information gained and the level of learning after practice (Schon, 1983, p.69). SOFLA® sets a systematic plan for learning demonstrated in the rubric template designed by Heather Rubin which guides teachers and learners to be cognizant of the indicators of each step of the learning cycle and so, rate the level implementation of each (as cited in Marshall, and Wallestad, 2021).



Figure 1.The eight-step cycle of SOFLA®

Hence, in the backdrop of lockdown and the need to adapt to change in pedagogy, SOFLA® offered an opportune model to transfer the dynamic face–to–face classes classroom to a virtual one in order to promote students’ performance in writing persuasive essay.

2.3 Related Studies

The literature evidences that teaching writing in an online context is feasible and effective. Lin and Griffith (2014) conclude that online collaborative learning environments develops learners' cognitive and writing skill, Carolan and Kyppö, (2015) indicate that process writing in a digital environment facilitates students' acquisition of writing skills while Cleary, Rice, Zemliansky, Amant, and Borgman (2019), assert that online forums are purposeful and productive in that they allow teachers to model writing practices and "observe peer-supported writing taking shape 'live'" (p 11) as learners review, reflect share, collaborate and allocate work. The above-mentioned studies fall short of expounding the pedagogy followed in online learning, accordingly, SOFLA® offered an opportune remote learning model to adapt to change in education in a post-pandemic time. The approach adheres to the pillars of flipped learning, maintains the teacher's presence in a learner-centered and structured approach which focuses "on the learner and learning" (Bergman and Sams, 2012, p 11) through active engagement and opportunities for every learner in an online context.

3.1 Research design

The study followed a mixed method design comprising qualitative and quantitative research methods for data collection to mitigate the limitations of both designs if conducted separately, and in so doing provided a more comprehensive understanding of the aforementioned research questions postulated (Creswell &



Plano Clark, 2018).

3.1.1 The type of research

The study specifically adhered to the explanatory sequential design which is a two-phase mixed method design that begins with the collection and analysis of dominant quantitative data (QUAN) in the first phase and is followed by collection of secondary qualitative data (qual) in the second. The researcher built on the results of the quantitative findings to build on and follow-up the secondary quantitative data in order to explore students' perception on SOFLA®. The design intent of the sequential explanatory mixed method design is "to explain the mechanisms or reasons behind quantitative result" (Plano Clark, and Creswell, 2015, p. 391). The study gave dominant priority to quantitative data over qualitative ones (QUAN qual), with sequential (→) timing for collection of both sets, and distinct interaction and interpretation of analysis of both (Creswell & Plano Clark, 2018). The quantitative data collected in the first phase from the pretest and posttest were analyzed using SPSS 25 to inform and structure the qualitative data collection which were garnered in the second phase from an interview with a subsample of focus group of 10 students. The connection between both sets of data was established right from the onset through the research questions that included both data sets components, then through using the dominant quantitative results to form the focus group and generate the core questions asked, and finally through the interpretation of the dataset.

3.1.2 Data Collection, Instruments and Implementation

The study investigated whether SOFLA® would improve learners' performance in writing persuasive essay (RQ1) and explored learners' perception of the SOFLA® experience (RQ2). The study was implemented in a private school in Lebanon in the academic year 2021–2022, over a span of 6 weeks from 19th April within 14 sixty-minute-synchronous sessions. The participants in the study comprised sixty 17-year-old second secondary students who study English as a Foreign Language and as medium of instruction. 30 participants in the control group learned the elements of persuasive writing in synchronous online sessions following the traditional method while the thirty participants in the experimental group learned the skill through implementing the eight-step learning step of SOFLA®. Prior to launching the study, a pre-test was administered to all participants in order to document an initial record of students' performance in writing a persuasive essay. In this phase, both groups were equal and any difference later observed in the analysis of results must be attributed to the intervention the experimental group received. The researcher assessed students' essays as per an adapted grading rubric. Two days before the intervention was launched, the researcher and the experimental group held a synchronous Google Meet session during which the teacher-researcher communicated the objective of the study and clarified the 8-step learning cycle of SOFLA®. The researcher then proceeded to record two videos about the elements and techniques that



make up persuasive writing. The videos and two embedded interactive assignments were posted on Google Classroom, and students were instructed to submit the worksheets on the same platform for the teacher to review and garner evidence of areas of strengths and shortcomings in order to tailor and adapt the content of upcoming steps. To facilitate instant communication and feedback to students' clarification questions during the pre-work, learners expressed their preference for a WhatsApp group which learners find user-friendly, easily accessible, conducive to interaction (Sari and Putri, 2019), particularly when the group includes the presence of the teacher (Baishya, 2020). The seven synchronous sessions proceeded as scheduled during which learners experienced a replica of the active in-person classroom where teaching and learning took form at times via teacher-structured as opposed to centered, and mostly through learner-structured and centered classes which included collaborative, multimodal activities and interaction conducive to higher-order learning. The exit from the intervention in step 8: Reflection, required learners to ponder, reflect and write brief notes on their experience with SOFLA®, a practice which Dewey (1938) asserts is as significant to students' growth as the experience itself since it offers learners the opportunity to think of what they had learned and about the process of learning. As students reflect, they take time to "focus on the cognitive aspects (thinking, problem solving and so on) that led to particular actions, the outcomes and lessons learned from those actions, and how these inform what they might do in

the future” (Mair, 2012, p. 14). The eight-step learning cycle accented the teaching presence which played a pivotal role for successful online leaning through setting and communicating the learning objectives, setting and following up deadlines, facilitating the teaching learning experience for the purpose of making meaning through guiding and redirecting discussion and interaction, encouraging sharing, participation and constructive feedback, posing probe and guiding questions and building collaboration, intervening to reinforce relevant discussion all of which maximize meaningful teaching and learning (Garrison, Anderson and Archer, 2000).

Done with the implementation of the intervention, researcher proceeded to collect the quantitative data for analysis. A posttest was administered requesting students in both control and experimental groups to write a persuasive essay as per the same criteria of the adapted rubric followed in the pre-test. The dominant quantitative results were analyzed and relied on to form a focus group of ten students who were invited to freely communicate their feedback and viewpoint in response to four semi-structured questions which aimed to explore their positive perspective of SOFLA®. Zohrabi (2013) suggests that semi-structured questions are “flexible and allow the interviewee to provide more information” (p.258). In real-time, the students typed and posted their feedback on Google Classroom so that the evidence remained private to the researchers.



4.1 Analysis of the Primary (QUAN) and Secondary (qual) Results

The results of the primary quantitative data sets (QUAN) were collected sequentially (→) and analyzed according to SPSS 25. The computed findings set the ground for collection and analysis of the secondary qualitative data (qual). The results of data sets are shown below. f

4.1.1 Analysis of Primary Quantitative Findings

After computing the results of the pre-test and posttest, administered to both the control and experimental groups, the researcher compared and studied the differences in mean, t-statistics, p-value and 95% confidence intervals of both groups. The purpose was to answer the first research question and hypothesis which posited that implementation of SOFLA® would improve learners' performance to write persuasive essays unlike others who follow a traditional method in an online context. Based on the explicit significant differences in results of experimental group as table 1 below indicates, the researcher concludes that the results are significant and that implementation of SOFLA® is an effectively significant feasible strategic online approach that can improve learners' performance to write persuasive essays.

Descriptive characteristic of control group N=10-								
Persuasive Essay	Mean		Difference in Means D	t-statistic	Standard error Sd	P-value	95% Confidence Intervals	
	P r e -test	Post-test					Lower	Upper
	4.20	4.10	-0.10	-0.902	0.111	0.375	-0.327	0.127
Descriptive characteristic of Experimental group N=10-								
Persuasive Essay	Mean		Difference in Means D	t-statistic	Standard error Sd	P-value	95% Confidence Intervals	
	P r e -test	Post-test					Lower	Upper
	4.07	6.90	2.833	14.735	0.192	0.000	2.440	3.227

Table 1. Differences between Results of Control and Experimental Groups

Table 1 above and figures 2 and 3 below show the statistical differences in mean and P-Value between the control group and experimental group. Starting with the control group, the mean difference between the pre-test and posttest registered -0.10 with no significant difference as seen by P value 0.375, the t-value registered -0.902, which likewise showed no statistically significant differences in average between the pre-test and the post-test, and finally the differences in mean and 95% confidence intervals recorded was 95% CI [-0.327, 0.127]. The findings in the control group showed that the traditional online teaching method did not improve the performance of learners to write persuasive essays. On the other hand, a reading and analysis of the computed differences in mean, t-test, p-value and 95% confidence interval of the experimental group gave solid ground

for the researcher to conclude that implementation of SOFLA® improved learners’ performance in writing persuasive essays unlike learners who studied the same writing form in traditional ways. The numerical results indicated 2.833 positive difference between the mean, t-test 14.735 p-value of 0.000 and 95% confidence interval [2.440, 3.227], thus, affirming hypothesis 1 that implementation of SOFLA® improved learners’ performance to write persuasive essays unlike others who follow a traditional method in an online context.

Figure 2. Mean Difference Between Pre-test and Posttest of Control and Experimental groups

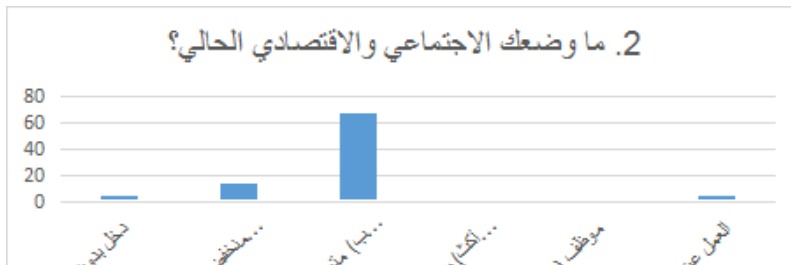


4.1.2 Difference in P-value between Control Group and Experimental Group

Furthermore, to quantify the strength of evidence that proved the hypothesis that the implementation of SOFLA® improved learners’ performance to write persuasive essays unlike learners who followed a traditional method in an online context, the researcher used a standard level P-Value $P < 0.05$ (5%

significance). P-value less than 0.05 is statistically significant. The P-Value figure below, thus reads as follows. $p \text{ value} < 0.05$ is significant

Figure 3. Difference of P-Value Between Experimental and Control Groups

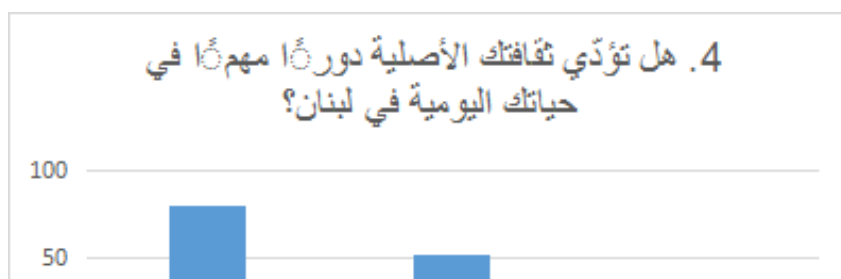


In general, P-values less than 0.05 designate an improvement or deterioration in students' performance in pre-test and posttest. First, in the control group, the results showed a decrease in writing persuasive essays as indicated in the p-value of 0.375 pointing to the negativity and drawbacks inherent in the traditional method. However, a reading of the p-value results of the experimental group showed significant enhancement in students' writing. The p-value indicated (0.000) and (+2.833) mean difference which signified a notable improvement in students' performance in writing persuasive essays. SOFLA®, therefore contributed to significantly improving and maintaining students' performance to write persuasive essay throughout the term of the intervention.

4.1.3 Difference in T-value Between Control and Experimental Groups

In general, t-value greater than 2 indicates that there is either an improvement or deterioration. First, as indicated in table 1 above and figure 4 below, the t-value of the control

Figure 4. Differences of t-Value between Experimental and Control Groups



group indicated -0.902 , which is less than 2 with a slightly negative mean difference between pre-test and post-test. Therefore, it can be concluded that there are no statistically significant differences in students' performance in persuasive writing in the control group between the pre-test and the post-test. While the mean difference of the experimental group was higher between the pre-test and the post-test. This increase was statistically significant as t-value registered 14.735 indicating a prominent improvement in the students' persuasive writing after implementing SOFLA®. **t value >2 is significant**

4.2 Analysis and Discussion of Secondary Qualitative Result (qual)

In the light of the dominant quantitative results of the pre and posttest, the researcher invited ten students and had a virtual Google Meet session during which a semi-structured interview was conducted to collect secondary qualitative data to respond to research question 2 and its related hypothesis and accordingly affirm that students developed a positive perception of SOFLA®. The following four questions were posed. (1) What specifically appealed to you in the Synchronous Online Flipped Learning Approach (SOFLA®)? (2) Did the online teaching learning approach, deepen your understanding of persuasive essay writing? (3) What would you improve or modify any step in SOFLA®? Why? (4) Would you recommend SOFLA® to other teachers in other subjects? Why?

4.2.1 Descriptive Results of Interview

To maintain the ethical considerations that govern any research study, the researcher clarified that their identities will remain anonymous and that their feedback will be used for research purposes under pseudonyms not disclosed to anyone even themselves. Students were also instructed to type their feedback to avoid influencing each other's thoughts and perspective. Then each question was read and posted on the chat box at a time. Finally, the participants posted their documents on Google Classroom. The researcher followed Creswell and Poth's (2018) Data Analysis Spiral approach, a five-step process to



analyze students' response and accordingly made conclusions about each question explored. The first two steps in the spiral process entailed organizing the responses of each core question under correlating headings followed by a meticulous reading of the categorized data in order to sort the data into categories relevant to the second research question and hypothesis which postulated that students would develop a positive perception towards SOFLA®. Third, the researcher proceeded to the coding process, which entailed using different colours to take note of recurrent and rephrased words and ideas, and accordingly track emerging ideas which clearly distinguished connections across the data and annotations, ultimately pointing to students' positive perception of SOFLA®. The alike coloured codes were at that point organized into common themes and patterns under new headings, which formed the basis to develop interpretations in concise finding statements in the subsequent and last step of the Spiral approach. The interpretive process explored the common themes and the connections made for deeper insights to answer research question 2, which postulated that students would have positive perspectives of SOFLA®. To complete the final step of the spiral, the researcher listed and described the five common patterns in a descriptive form and presented them in a table which provided a comprehensive overview of the common positive perspectives of the students. Five common them emerged from the four questions as seen in tables 2, 3 and figure 5 below.

Secondary Qualitative Data: Interview N=10		
Common Themes Identified from students' Responses	Frequency of recurrence of Common Themes	Percentage of Recurrence of Common themes
1. Efficiency of asynchronous videos to watch at ease and pace	8/10	80%
2. Essential for Teamwork, communication and interaction	9/10	90%
3. A Boost to learn from personal and peer mistakes	9/10	90%
4. Enhancement of writing Skills	9/10	90%
5. Recommendations to: • implement SOFLA® in other subjects • limit time allotted to some steps in SOFLA® • conduct further research in SOFLA®.	10/10 • 8/10 • 2/10 • 1/10	100% • 80% • 20% • 10%

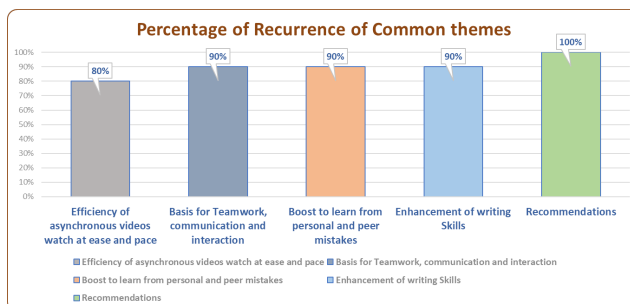


Table 2. Frequency and Percentage of Common Themes Identified

Common Themes Identified from students' responses & frequency of recurrence						
Student	Efficiency of asynchronous videos watch at ease and pace	Basis for Teamwork, communication and interaction	A Boost to learn from personal and peer mistakes	Enhancement of writing Skills	Recommendations	Percentage (1)
Hani	1	1	1	0	1	80%
Lana	1	1	1	1	1	100%
Lena	1	1	1	1	1	100%
Majid	1	1	1	1	1	100%
Nagham	1	1	1	1	1	100%
Rama	1	1	1	1	0	80%
Sama	1	1	1	1	1	100%
Zima	1	1	1	1	1	100%
Dana	0	0	0	1	1	40%
Madi	0	1	1	1	1	80%
Percentage (2)	80%	90%	90%	90%	90%	88%

Table 3. percentage of recurrence of common themes Identified from students' Responses

The first, theme 'Efficiency of asynchronous videos to watch at ease and pace' was identified from the responses of 80% of the students. Nagham wrote that the videos "allow us to take notes without missing ideas since we can always replay or rewatch ... [they] are always there". The second common theme recognized from 90% of the responses perceived SOFLA® basically necessary for team work, communication and interaction which led to a cause effect pattern with the third theme, 'a boost to learn from personal and peer mistakes.': Lena's response

sums up the two themes , “Most of the work and discussion depended on students themselves which I personally find truly advanced and beneficial to learn from mistakes which is a life skill” The fourth theme also detected from 90% of the answers showed the impact of SOFLA® to enhance students’ persuasive writing skills. According to Sama,

writing has never been this fun. I genuinely enjoyed writing persuasive essays, thanks to SOFLA, for I learned it in a different, unusual way. This way of learning creates space for creativity in writing since it engraves the basics of persuasive writing in our brains which makes writing smoother and swifter

Finally, three different recommendations formed the fifth theme. First, 80% of the responses recommended implementing SOFLA® in other subjects. Zima perceived that it would be “intriguing” to implement it in philosophy and in the sciences, while Sama recommended it to all subjects “especially the least liked and most difficult subjects” naming math and physics in particular. Moreover, Sama invited researcher to test SOFLA® “on a larger number of students and different subjects”. However, two students proposed limiting the time allotted to some steps. To conclude, tables 2 and 3 alongside figure 5 show the distribution of the students’ responses and percentage of the five common themes indicating positive perception of the approach and positively confirming research question 2 and its related hypothesis. 80% of the responses emphasized the effectiveness of SOFLA® to allow them to watch at their



ease and pace. 90% of the students accentuated that the approach enhanced their writing skills, promoted learning from personal and peer mistakes, and formed a fertile ground for teamwork, communication and interaction; and recommended the implementation of the online approach in other subjects.

4.2.2 Testing Students' perceptions of the implementation of SOFLA®

Finally, the researcher used the Binominal Test to see whether students' responses showed positive perceptions of the implementation of SOFLA®. The test was based on the consideration that the null hypothesis is that students develop a positive perception (till 90%) towards SOFLA, and the alternative hypothesis is the opposite.

Null hypothesis(H₀): The percentage of positive perceptions of implementation of SOFLA® is less than or equal to 90%.

Alternative hypothesis(H₁): The percentage of positive perception of implementation of SOFLA® is higher than 90%.

Binomial Test						
		Category	N	Observed Prop.	Test Prop.	Exact Sig. (1-tailed)
positive aspect	Group 1	<= .9	4	.4	.9	.000 ^a
	Group 2	> .9	6	.6		
	Total		10	1.0		
a. Alternative hypothesis states that the proportion of cases in the first group < .9.						

Table 4. Proportion Test (Binomial test) of students' perceptions of SOFLA®

To conduct the test, the researcher formed two groups based on the percentage of five themes recognized from the students' answers to the four semi-structured questions. As shown in table 3 above, the first group comprised the four students who did not voice their opinion in the positive common themes, thus constituting 40% of the total number of students interviewed. The remaining six students expressed positive perspectives in more than 90% of the five positive common themes, thus forming 60% of the total number of students interviewed for the sequential collection of secondary data (qual) to respond to research question 2.

The result showed that p-value is 0.000, which is less than 0.05, designating that the null hypothesis is rejected. It can therefore be considered that the percentage of positive perception of implementation of SOFLA in online learning is higher than 90%.

5. 1 Results and Discussions

In conclusion, the study followed the sequential mixed method approach to address two research questions. The first, a primary quantitative one investigated whether implementation of SOFLA®, an eight-cycle online approach that is based on two theoretical frameworks, community of Inquiry and Flipped learning, would improve learners' performance to write persuasive essays unlike others who follow a traditional method in an online context. The second research question was the secondary qualitative question which explored students' positive perception of SOFLA®. The results of both the primary quantitative and secondary qualitative results prompted the researcher to conclude that SOFLA® is a feasible and recommended approach to promote the teaching learning experience in distance learning. The statistical results showed 2.833 positive difference between the mean, t-test 14.735 p-value of 0.000 and 95% confidence interval [2.440, 3.227], thus, affirming research question 1 and its related hypothesis that implementation of SOFLA® is a feasible approach to improve learners' performance to write persuasive essays unlike others who follow a traditional method in an online context. Moreover, computed results of the secondary qualitative data showed the percentage of positive perception of implementation of SOFLA® in online learning is higher than 90% with p-value is 0.000, which is less than 0.05, likewise positively affirming research question 2 and its related hypothesis.

5.2 Limitations

Although SOFLA® framework facilitated remote learning through asynchronous learning in the pre-work phase stage, the rest of the stages stipulated real-time active engagement. It was in these stages that the technical constraints surfaced. This limitation was a general problem in Lebanon as verified by Abed Kataya who mapped out the telecom outages in Lebanon during quarantine days (<https://smex.org/mapping-the-telecom-outages-in-lebanon/>). Oscillating between low-bandwidth and unstable connections, on one hand, and power outages on the other, active participation of some students was impeded which called for more sessions to be held in order to maintain the flow of learning in all the eight steps of the intervention. The extended time span of the study was, thus a limitation as perceived by two students who recommended limiting time allotted to some steps in SOFLA®. Another limitation resided in the fact that a few students had to march through the whole eight-cycle steps of SOFLA® using old devices which restricted them from sharing their screen and independent activity for discussion.

5.2. Recommendations and Implication of study

The eight learning steps of SOFLA® framework offers school administrators, professional development trainers, teachers and learners a promising pedagogical foundation to brace the challenges of online learning. The significant dominant quantitative results of the study alongside the positive perceptions of the secondary qualitative results were in harmony with



findings and recommendations of studies that investigated and explored the efficacy of SOFLA® in different skills, and those that emphasized the benefits of asynchronous and synchronous learning context. The current study consolidated the effectiveness of implementing a structured multifaceted active framework that guided and enhanced distance learning in both synchronous and asynchronous settings (Baczek, et al. 2021; Marshall and Kostka, 2020). It also supports Tschida, Hodge and Schmidt's call for a reliable model that would spare teachers the act of posting assignments on online platforms for students to merely do (2016). Accordingly, school administrators could work in accordance with professional developments trainers to facilitate workshops as a proactive step that would equip teachers with knowledge and skill to smoothly transfer to online teaching settings if need be. Second, the commendation of 90% of the students about the benefits of Pre-Work which allowed them to complete assigned tasks at their pace and ease goes in accordance d with the conclusions of researchers (Clark and Mayer 2016 &Van der Keylen, et al., 2020). In the same vein, the video worksheets also created fertile grounds for active interaction and learning in the subsequent phases which is a core tenet in the model as stipulated by Helaine Marshall (2020). Third, the multimodal activities carried out in the ensuing seven steps within synchronous settings reflected a positive experience that warded off boredom, promoted interaction within the synchronous classroom community. Likewise, the fostered collaboration, peer instruction, and gave students ownership and responsibility for

learning, thus aligning with findings of Marshall and Wallestad, (2021); Smith and Smith, (2014). Fourth, the study accentuated the essential role of the teachers' presence in online learning in the context of proactively planning, and ensuring that each phase informed the next to keep productive communication, collaborative practices and constructive feedback prevalent in every step, which served the essence of Col (Garrison, Anderson and Archer, 2000). In short, Synchronous Online Flipped Learning approach is recommended as an effective organized framework that enhances the teaching learning experience in online settings.

References

- Alghasab, M. B. (2020). Flipping the writing classroom: Focusing on pedagogical benefits of EFL learners' perception. *English Language Teaching*, 13(4), 28–40. <https://doi.org/10.5539/elt.v13n4p28>
- Anderson, T. (2011). Teaching in an online learning context. In T. Anderson (Ed.), *The theory and practice of online learning* (2nd ed., pp. 343–366). Edmonton, AB: Athabasca University Press.
- Bączek, M., Zagańczyk-Bączek, M., Szpringer, M., Jaroszyński, A., & Woźakowska-Kapłon, B. (2021). Students' perception of on-line learning during the COVID-19 pandemic: A survey study of Polish medical students. *Medicine*, 100(7), e24821. <https://doi.org/10.1097/MD.00000000000024821>
- Baishya, D. (2020). WhatsApp groups in academic context: Exploring the academic uses of WhatsApp groups among the students. *Contemporary Educational Technology*, 11(1), 31–46. <https://doi.org/10.30935/cet.641765>
- Berrett, D. (2012). How 'flipping' the classroom can improve the traditional lecture. *The Education Digest*, 78(1), 36–41.
- Bergman, J., & Sams, A. (2012). *Flip your classroom: Reach every student in every class every day*. Alexandria, VA: ISTE & ASCD.
- Bergmann, J., & Sams, A. (2014). *Flipped learning: Gateway to student engagement*. Eugene, OR: ISTE.
- Blau, I., Weiser, O., & Eshet-Alkalai, Y. (2017). How do medium naturalness and personality traits shape academic achievement and perceived learning? An experimental study of face-to-face and synchronous e-learning. *Research in Learning Technology*, 25. <https://doi.org/10.25304/rlt.v25.1974>
- Clark, R. C., & Mayer, R. E. (2016). *E-learning and the science of*

instruction: Proven guidelines for consumers and designers of multimedia learning (4th ed.). Hoboken, NJ: John Wiley & Sons.

Cleary, Y., Rice, R., Zemliansky, P., St. Amant, K., & Borgman, J. C. (2019). Perspectives on teaching writing online in global contexts: Ideas, insights and projections. *Research in Online Literacy Education*, 2(1). Retrieved from <https://gsole.org/olor/role/vol2.iss1.a>

Creswell, J. W., & Plano Clark, V. L. (2018). *Designing and conducting mixed methods research* (3rd ed.). Thousand Oaks, CA: Sage Publications.

Derewianka, B., & Jones, P. (2012). *Language in context*. South Melbourne, VIC: Oxford University Press.

Dewey, J. (1938). *Experience and education*. New York, NY: Macmillan.

Dülger, O. (2011). Meta-cognitive strategies in developing EFL writing skills. *Contemporary Online Language Education Journal*, 1(2), 82–100.

Ekmekci, E. (2017). The flipped writing classroom in Turkish EFL context: A comparative study on a new model. *Turkish Online Journal of Distance Education*, 18(2), 151–167.

Engin, M. (2014). Extending the flipped classroom model: Developing second language writing skills through student-created digital videos. *Journal of the Scholarship of Teaching and Learning*, 14(5), 12–26. <https://doi.org/10.14434/josotlv14i5.12829>

Fethi, K. (2015, March). Flipping movies: Why and how? Paper presented at the 8th Annual Flipped Learning Network Conference, East Lansing, MI

Fethi, K., & Marshall, H. W. (2018). Flipping movies for dynamic engagement. In J. Mehring & A. Leis (Eds.), *Innovations in flipped learning in the language classroom: Theories and practice* (pp. 185–202). New York, NY: Springer Nature

Flipped Learning Network (FLN). (2014). The four pillars of F-L-I-P™. Retrieved from <https://flippedlearning.org/definition-of-flipped-learning/>



Garrison, D. R., Anderson, T., & Archer, W. (2000). Critical inquiry in a text-based environment: Computer conferencing in higher education. *The Internet and Higher Education*, 2(2-3), 87-105.

Garrison, D. R. (2011). *E-learning in the 21st century: A framework for research and practice* (2nd ed.). New York, NY: Routledge.

Graham, S., Harris, K. R., & Mason, L. (2005). Improving the writing performance, knowledge, and self-efficacy of struggling young writers: The effects of self-regulated strategy development. *Contemporary Educational Psychology*, 30(2), 207-241. <https://doi.org/10.1016/j.cedpsych.2004.08.001>

Hamdan, N., McKnight, P., McKnight, K., & Arfstrom, K. (2013). The flipped learning model: A white paper based on the literature review titled A review of flipped learning. Flipped Learning Network. https://flippedlearning.org/wp-content/uploads/2016/07/WhitePaper_FlippedLearning.pdf

Han, Y. J. (2015). Successfully flipping the ESL classroom for learner autonomy. *NYS TESOL Journal*, 2(1), 98-109

Hartnett, M. (2015). Influences that undermine learners' perceptions of autonomy, competence and relatedness in an online context. *Australasian Journal of Educational Technology*, 31(1), 86-99.

Hayes, J. R. (2012). Modeling and remodeling writing. *Written Communication*, 29(3), 369-388.

Herrera, S. L. (2002). Exploring the role of corrective feedback in second language writing (Unpublished master's thesis). Faculty of Graduate Studies.

Holliday, M. (2010). *Strategies for writing success*. Marrickville, NSW: PETA.

Hrastinski, S. (2008). Asynchronous and synchronous e-learning. *Educause Quarterly*, 31(4), 51-55.

- Hung, H. T. (2015). Flipping the classroom for English language learners to foster active learning. *Computer Assisted Language Learning*, 28(1), 81–96. <https://doi.org/10.1080/09588221.2014.967701>
- Kim, H. J., Hong, A. J., & Song, H. D. (2019). The roles of academic engagement and digital readiness in students' achievements in university e-learning environments. *International Journal of Educational Technology in Higher Education*, 16, Article 21. <https://doi.org/10.1186/s41239-019-0162-4>
- Kroll, B. (1990). *Second language writing: Research insight for the classroom*. Cambridge, UK: Cambridge University Press.
- Lin, S. M., & Griffith, P. L. (2014). Impacts of online technology use in second language writing: A review of the literature. *Education*, 134(3), 303–312.
- Luo, Z., O'Steen, B., & Brown, Z. L. (2020). Flipped learning wheel (FLW): A framework and process design for flipped L2 writing. *Smart Learning Environments*, 7(1). <https://doi.org/10.1186/s40561-020-00130-1>
- Mair, C. (2012). Using technology for enhancing reflective writing, metacognition and learning. *Journal of Further and Higher Education*, 36(2), 147–167. <https://doi.org/10.1080/0309877X.2011.590583>
- Marshall, H. W. (2014). Three reasons to flip your ESL classroom. Retrieved from <http://newsmanager.commpartners.com/tesolc/issues/2014-02-01/2.html>
- Marshall, H. (2019). 6 models of flipped learning instruction. *TESOL Connections*. Retrieved from <http://newsmanager.commpartners.com/tesolc/issues/2019-04-01/2.html>
- Marshall, H. W., & Rodriguez Buitrago, C. (2017). The synchronous online flipped learning approach. *TEIS News*. Retrieved from <http://newsmanager.commpartners.com/tesolteis/issues/2017-03-15/6.html>



Marshall, H. (2020). SOFLA—Synchronous online flipped learning approach. JALT 2020. Online Communities of Teachers & Learners [Video]. Retrieved from <https://jalt2020.eventzil.la/session/404>

Marshall, H. W., & Kostka, I. (2020). Fostering teaching presence through the synchronous online flipped learning approach. *TESL-EJ*, 24(2). Retrieved from <https://www.tesl-ej.org/wordpress/issues/volume24/ej94/ej94int/>

Marshall, H. W., & Wallestad, C. K. (2021). The synchronous online flipped learning approach (SOFLA®) in a literacy methods course for teachers. In *Proceedings of the Japan Association for Language Education and Technology 60th Annual National Conference: Universal Design in Foreign Language Education: Current Issues and Needs* (pp. 140–141).

Nwankwo, W. (2018). Promoting equitable access to university education through online learning systems. *World Journal of Engineering Research and Technology*, 4(2), 517–543.

O’Dowd, D. K., & Aguilar-Roca, N. (2009). Garage demos: Using physical models to illustrate dynamic aspects of microscopic biological processes. *CBE—Life Sciences Education*, 8(2), 118–122.

Plano Clark, V. L., & Creswell, J. W. (2015). *Understanding research: A consumer’s guide* (2nd ed.). New York, NY: Pearson.

Rowe, G., & Edwards, D. (2007). Writing after the early years. In *The best of Practically Primary* (pp. 34–39). Norwood, South Australia: ALEA.

Sari, F. M., & Putri, S. N. (2019). Academic WhatsApp group: Exploring students’ experiences in writing class. *Teknosastik*, 17(2), 56–65.

Smith, D., & Smith, K. (2014). Case for ‘passive’ learning – the ‘silent’ community of online learners. *European Journal of Open, Distance and E-Learning*, 17, 86–99. <https://doi.org/10.2478/eurodl-2014-0021>

Swan, K., & Shih, L. F. (2005). On the nature and development of social

presence in online course discussions. *Journal of Asynchronous Learning Networks*, 9(3), 115–136.

Torres Zúñiga, L. T. (2021). Looking for a suitable online formula for language acquisition: A SOFLA experience in teaching English to undergraduate student teachers. In G. Paredes–Otero & N. Sánchez–Gey Valenzuela (Eds.), *From digital philosophy to the video game society: Literature, thought, and gamification in the era of social media* (pp. 827–850). Madrid: Dykinson.

Tschida, C. M., Hodge, E. M., & Schmidt, S. W. (2016). Learning to teach online: Negotiating issues of platform, pedagogy, and professional development. In V. C. X. Wang (Ed.), *Handbook of research on learning outcomes and opportunities in the digital age* (pp. 664–684). <https://doi.org/10.4018/978-1-5225-1624-8.ch096>

University of Minnesota Center for Teaching and Learning. (2008). What is active learning? Retrieved from <http://www1.umn.edu/ohr/teachlearn/tutorials/active/what/index.html>

Van der Keylen, P., Lippert, N., Kunisch, R., Kühlein, T., & Roos, M. (2020). Asynchronous, digital teaching in times of COVID–19: A teaching example from general practice. *GMS Journal for Medical Education*, 37(5), Doc98. <https://doi.org/10.3205/zma001391>

Voss, E., & Kostka, I. (2019). *Flipping academic English language learning: Experiences from an American university*. Singapore: Springer Nature.

Vygotsky, L. S. (1978). *Mind in society: The development of higher psychological processes*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Zohrabi, M. (2013). Mixed method research: Instruments, validity, reliability, and reporting findings. *Theory and Practice in Language Studies*, 3(2), 254.